

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي علمنا أنه محمد ، وصدق الله رسالته على ربه
وخاتم رساله سيدنا محمد قريبا ..

فإننا بعدد عشرين السنين ، وحسبنا جهادنا في جهادنا
شرف فيه أن نكتب كتاب الله ما ارتقا منته لا يستقبل فيضه الله
ولعل الكون قد عرفته هذه الأيام وأدبت واجبه عرفاني
رأسك الله سبي أنه أنه تكونه هو طرس هذه مفتاح
هو طرسه يأتي بعدس ، ولكتاب الله لا تفقني عجايبه
حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وحسبنا نسلم
سبح الله ما لا يشرك له شريكا ..

وحسبنا الله ونعم الوكيل ما

محمد متولي السقاوي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. والحمد لله رب العالمين ..
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

خواطري حول القرآن الكريم لا تمنى تفسيراً للقرآن .. وإنما هي هبات صفائية .. تخاطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات .. ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر .. لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره .. لأنه عليه نزل وبه انفعل وله بلغ وبه علم وعمل .. وله ظهرت معجزاته .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم وهي افعل ولا تفعل .. تلك الأحكام التي يناب عليها الإنسان إن فعلها ، ويعاقب إن تركها .. هذه هي أسس العبادة لله سبحانه وتعالى .. التي أنزلها في القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض .. أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علم منها .. لأنها بمقياس العقل في هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلاً يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله في العبادة إلى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شيء ..

والقرآن لم يأت ليعلّمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة وأسرار الوجود مكتنزة .. حتى تتقدم الخطوات ويتسع فهم العقل البشري .. فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهماً لعظائم القرآن

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط . بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه ، ومعناها (يشوشرون عليه) . ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكتهم وتلك هي طريقتهم الا خوفا مما يضعه القرآن في كسب النفس البشرية الى الايمان . ان مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة الى منهج الله .



ولونأخذ مثلاً قصة اسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . نجد أنه علم أن
أخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلما . . فأسرع اليهما ليطش بهما
وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد . . فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته . . ضربها حتى
سال منها الدم . . وعندما رأى عمر الدم يسيل من رجه أخته فاطمة . . رق قلبه
وحدث في قلبه انفعال بالرحمة بدلاً من انفعال الایذاء . . فخرج العناد من قلبه
وملأه الصفاء . . فطلب من أخته صحيفة القرآن التي كانا يقرآن منها . . وقرا من
أول سورة طه ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . . ثم أسرع الى رسول الله
صلی الله عليه وسلم يعلن اسلامه . . ولذلك فإنه اذا خرج العناد والكفر من
القلب . . واستمع الإنسان بصفاء الى القرآن دخل الايمان الى قلبه .

لقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه القرآن قبل ذلك ولم يسلم . . ولكنه
عندما رأى الدم يسيل على رجه أخته وتبدل انفعال الایذاء في قلبه بانفعال الرحمة . .
استقبل القرآن بنفس صافية فامتلا قلبه بالايمان وأسرع الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم يعلن اسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجة مشاعر الكفر في القلوب حتى لا يدخلها
القرآن . . لأنه لكي تستقبل الايمان يجب ان تخلص قلبك من الكفر أولاً .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم لأنه كلام الله . . فإن له تأثيراً خاصاً في النفس
البشرية . . حتى ان الكفار كانوا يسرقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض . .
وكانوا يقولون إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . . وإن أعلاه لمثمر . . وإن أسفله
لمغدق . . وأنه يعلو ولا يعلى عليه . . وكان هذا أول اعجاز لأن القرآن الكريم هو
كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند
عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من اسرار الكون . . ومن
اسرار القرآن الكريم . . فلم نجد صحابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
معنى آيات الكون في القرآن . . أو عن عطاءات القرآن في اللغة . . فمثلاً لم يسأل
أحد عن معنى « ألم » . . أو « عسق » . . أو « حم » . . مع أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يستقبل كثيرين يؤمنون بكتاب الله . . وكثيرين يكفرون بما أنزل
الله . . وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله صلى الله عليه



وسلم وضد القرآن الكريم .. لم نسمع أن أحدا منهم .. وهم قوم بلغاء فصحاء
عندهم اللغة ملكة وموهبة وليست صناعة .. لم نسمع أحدا من الكفار قال ماذا
تعني « ألم » .. أو « حم » .. أو « عسق » ..

كيف يمر الكافر على فواتح السور هذه ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويحاده .. لقد كانت هذه هي فرصتهم في المجادلة ..
ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور هذه .. دليل على أنهم انغلخوا بها
وأن لم يؤمنوا بها .. ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لهدم القرآن أو التشكيك
فيه .. ولو أن هذه الحروف في فواتح السور كانت تخدم هدفهم .. لقالوا للناس
وجاهروا بذلك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الذي عليه القرآن نزل - فير وبين كل
ما يتعلق بالتكليف الايمانى .. وترك ما يتعلق بغير التكليف للأجيال القادمة .. وعبر
الزمن ويتيح الله لعباده من أسرار آياته في الأرض ما يشاء .. فيكون عطاء القرآن
متساويا مع ندرة العقول .. لماذا ؟ لأن الرسائل التي سبقت الاسلام كانت محدودة
الزمان والمكان .. أما القرآن الكريم فزمته حتى يوم القيامة .. ولذلك فلا بد أن
يقدم إعجازا لكل جيل .. ليظل القرآن معجزة في كل عصر .

والقرآن نزل يتحدى العرب في اللغة والبلاغة .. ولكن لأنه دين للناس
جميعا .. فلا بد أن يتحدى غير العرب قريبا نبخوا فيه .. ولذلك نزل متحديا لغير
العرب وقت نزوله .. فقد حدثت حرب بين الروم والفرس وقت نزول القرآن ..
وكانت الروم والفرس تمثلان في عصرنا الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد
السوفيتى .. كانا أعظم وأقوى دولتين في ذلك العصر .. وحدثت الحرب بينهما
واشهرم الروم .. وإذا بالقرآن ينزل بقوله تعالى :

﴿الْب ۝ ظَبَّتِ الرُّومُ ۝ ۱ ۝ إِذْ أَذَى الْأَرْضَ وَمُسِمِّنٌ بِعَدِظِيمٍ مَبْغُوثُونَ ۝ ۲ ۝ فِي
وَجْهِ مِينَةٍ ۝ ۳ ۝ إِذِ الْأُمْرَيْنِ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ۝ ۴ ۝ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأُتْرُوتُونَ ۝ ۵ ۝﴾



لو أن هذا القرآن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الذي يجعله يدخل في قضية كهذه ؟ لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها .. وكيف يغامر رسول الله صلى الله عليه وسلم . في كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل .. بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين .. وماذا كلن يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر الفرس مرة أخرى .. أو أن الحرب لم تحدث وتوصل الطرفان إلى صلح ؟ إنها كانت ستضيع قضية الدين كله .. ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو الفاعل وهو الفاعل جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن .. وحدثت المعركة فعلا وانتصر فيها الروم كما أخبر القرآن الكريم .

ولكن القرآن لم يتزل معجزة لفترة محدودة .. بل هو معجزة حتى قيام الساعة .. والقرآن هو كلام الله ، والكرون هو خلق الله .. ولذلك جاء القرآن يعطى إعجازا لكل جيل فيما نبهوا فيه .. إذا أخذنا العلوم الحديثة التي اكتشفت في القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية .. نجد أن القرآن الكريم قد أشرا إليها بإعجاز مذهل .. بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن .. ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات الله في الأرض .. ولا يفتر على هذا الإعجاز المذهل إلا الله سبحانه وتعالى .. اقرأ مثلا قول الحق تبارك سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَنَتْهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَیْعٍ ۝ۚ ﴾

(سورة ق)

والمدد معناه البسط .. وعندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى : « والأرض مددناها .. » لم يكن هذا يمثل مشكلة .. للعقول التي حاصرها نزول القرآن الكريم . فالناس ترى أن الأرض ممدودة .. والقرآن الكريم يقول : « والأرض مددناها .. » وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية .. وانطلق الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة .. هنا أحسست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم .. فنقول لهم أقال الله سبحانه وتعالى أى أرض تلك المبسوطة أو الممدودة ؟ .. لم يقل ولكنه قال الأرض على إطلاقها .. أى كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض امامك مبسوطة .

إذا نزلت في القطب الشمالى تراها مبسوطة .. وإذا كنت في القطب الجنوبى تراها

مبسوطة .. وعند خط الاستواء تراها مبسوطة .. وإذا سرت من نقطة على الأرض وظلمت تسير الى هذه النقطة فالأرض أمامك دائيا مبسوطة .. ولا يمكن أن يحدث هذا أبدا الا اذا كانت الأرض كروية .. فلو أن الأرض مثلثة أو مربعة أو سدسة .. أو على أى شكل هندسى آخر .. لوصلت فيها الى حافة ليس بعدها شئ .. ولكن لكى تكون الأرض مبسوطة أمامك فى أى مكان تسير فيه لابد أن تكون على هيئة كرة .

هذا الاعجاز الذى يتفق مع قدرات العقول .. وقت نزول القرآن الكريم .. فإذا تقدم العلم ووصل الى حقيقة لما كان يعتقده الناس .. نجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقا مذهلا .. ولا يقدر على ذلك الا الله سبحانه وتعالى .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن .. فانه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين الى جدل فى أسرار كون لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها .. ولكن الحق تبارك وتعالى ترك فى الكون أشياء لوثبات العقول فى العلم .. بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطا يربط بين آيات الله فى الكون وآياته فى القرآن الكريم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونهات القرآن وقت نزوله لحمد القرآن .. لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك يكون عطاء القرآن قد جدد .. ولكن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفسير أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم الى قيام الساعة .. وهكذا كان المنع هو عين العطاء .. وهذه معجزة أخرى من اعجاز القرآن الكريم .

كلمة قرآن ساعة تسمعها تفهم أنه يقرأ .. قرآن مصدر قرأ مثل غفر غفرانا .. ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسما بكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى .. ويسميه الله تبارك وتعالى كتابا .. إذن هو قرآن اذا أخذنا أنه يقرأ .. وهو كتاب اذا أخذنا أنه يكتب .. والقراءة تستلزم حافظا والكتابة لا تستلزم حافظا .. فالإنسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجا الى الحفظ ، ولذلك فبالقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة . يحفظ فى الصدور ويسجل فى السطور .. بحيث تستطيع فى أى وقت أن تقرأ من الكتاب .

وحين بدأ تدوين القرآن الكريم كتابة كان لا يكتب منه أية إلا إذا كانت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود . . أو أى وسيلة أخرى من وسائل الكتابة في عصر نزول القرآن . . وزيادة على أن الآية تكون مكتوبة . . كان لابد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها . . إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عند حافظ واحد فقط وكان القياس يقتضى ألا تكتب هذه الآية . . وهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَتَلَ حَبِشَةً وَمِنْهُمْ مَن يَقْتُلُ وَمَا يُدْلُوا نَذِيرًا ﴾ (١)

(سورة الأحزاب)

ولكن أنظر الى الخواطر الایمانية يقدفها الحق سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين ليكمل منهجه . . هذه الآية لم يوجد من يحفظها الا خزيمه بن ثابت ، وعندما ثار الجدل حول تدوينها ، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد له خزيمه فحبه) (٢) .

من زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمه بن ثابت الأنصاري رضى الله عنه الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (من المؤمنين رجال) .

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أعطى خزيمه بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين . . وهذه لها قصة . . ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابي . . فاستبغه النبی صلى الله عليه وسلم ليقتضيه لمن فرسه أى ليعطيه لمن الفرس . . فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشى . . وأبطأ الأعرابي . . فلفظ رجال (أى أخذ رجال) يعترضون الأعرابي لیسأموه في الفرس دون أن يعرفوا

أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ابتاعه .. فتأذى الأعرابي الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : ان كنت مبتاعا هذا الفرس والا بيعته .. أى هل تريد شراء الفرس أو بيعه ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أليس ابتعته منك ؟ .. فقال الأعرابي ما بيعتك (أى ما بيعته لك) .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعته منك .. فقال الأعرابي هلم شهيدا .. أى اثني يشاهد .. فقال خزيمه بن ثابت أنا أشهد أنك بايعته (أى بيعته له) .

وبعد أن انصرف الناس .. أقبل النبي صلى الله عليه وسلم على خزيمه .. فقال : بم تشهد ؟ .. (أى كيف شهدت على هذا) .. ولم تكن موجودا وقت المبايعه بيني وبين الأعرابي . فقال خزيمه : بتصديقك يا رسول الله .. (أى هل تصدقك في كل ما تأتينا به من خير الساء وتكذبك في هذه ؟ .. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمه بشهادة رجلين .. فأخذت شهادته بشهادة رجلين ونم تدوين الآية .. وكان خزيمه يدعى ذو الشهادتين .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاز شهادته بشهادتين (١)

واذا أردنا أن نعرف القرآن .. فانه لايد أن يخرج عن مقاييس البشر .. فالتناس حين يعرفون الأشياء يقولون : حده كذا .. ورسمه كذا .. الى آخره .. ولكننا كي نعرف القرآن الكريم نقول ان القرآن هو ابتداء من قوله تعالى :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾

(فاتحة الكتاب)

الى أن نصل الى قوله جل جلاله :

﴿قُلْ أَصْوَذُ رَبِّ النَّاسِ ١ يَلِكُ النَّاسِ ٢ إِلَهَ النَّاسِ ٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٥ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ٦﴾

(سورة الناس)

أى أنه من أول سورة الفاتحة . . الى آخر سورة الناس . . على أن نستعمله بالله
من الشيطان الرجيم . قبل أن نقرأ أى آية من القرآن . . كما علمنا الحق سبحانه
ونعالى في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

(سورة النحل)

لكن العلماء ارادوا التخفيف على الناس في تعريف القرآن الكريم . . فقالوا هو
كلام الله . نَزَّلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصد التحدى والاعجاز
ليبين للناس منهج الله . والقرآن يتفق مع المناهج التى سبقته ، ولكنه يضيف عليها
ويصحح ما حذف منها لأنه موحى به من الله . فالتوراه والانجيل والزبور من
الله . . ولكنها تحمل المنهج فقط . . اما القرآن الكريم . . فهو المنهج والمعجزة النالة
على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطهارة كانت منهج موسى وكانت معجزته العصا . . والانجيل منهج عيسى
ومعجزته ابراء الاكمه والابرس باذن الله . . اذن بالنسبة للرسل السابقين . . كانت
المعجزة شيئاً والمنهج شيئاً آخر ، ولكن القرآن تميز أنه المنهج والمعجزة معا . . ذلك
ان المناهج لتى ارسلها الله عن الرسل السابقين اثرها على نية تغييرها . .

ولكن القرآن الكريم . . نزل على نية الثبات الى يوم القيامة . ولذلك كان لابد
ان يؤيد المنهج بالمعجزة حتى يستطيع اى واحد من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام
ان يقول محمد رسول الله وتلك معجزته . . ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت
وانتهت لأنها معجزات حسية . من رآها آمن بها . . ومن لم يرها فهو غير
مقصود بها . لأنها حدثت لشيت المؤمنين . . الذين يتبعون الرسول . . فمعجزة
عيسى عليه السلام لا يمكن ان تعود الآن من جديد . وعصا موسى التى شقت
البحر لا يستطيع اتباع موسى ان يأتوا بها الآن ليقولوا هذه معجزته

اذن فالرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان لكل منهم منهج
ومعجزة . ولكن كليهما متفصل عن الآخر . . فالمنهج عين المعجزة حالة مفقودة في
الرسالات كلها . . ولكنها في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم امر موجود يمكن ان

يشار إليه في أى وقت من الاوقات ..

وبطرفة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى في كوايات الحياة الى اتبعت للعقل
البشرى في القرون العشرين .. نحدد أن القرآن الكريم يشير إليها لأن العمر في
الرسالة القرآنية الى ان تقوم الساعة .. وما دام الى ان تقوم الساعة .. يظل القرآن
معجزة حتى تمام الساعة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى أَمْ لَا يَكْفِيهِمْ أَنْتَهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(سورة صافات)

أى أن القرآن له عطاءات في الاعجاز .. العطاء الاول آيات في الافاق ، وهذه
هى الآيات الكونية . والعطاء الثانى آيات في أنفسهم ، وهذه هى الآيات التى
تتعلق بأسرار الجسد البشرى . وقول الحق : « حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن
القرآن هو الحق .. ولذلك يمكن ان نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات
القرآن الكريم .. أى ان الله سبحانه وتعالى وضع في القرآن الكريم من آيات
لكون وأسراره وعن اجساد البشرى وتكوينه آيات يمكن ان يعطيها المؤمنين وغير
المؤمنين .

ولقد اعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون المؤمنين .. فبرع المسلمون
الاوائل في العلوم . مثل جابر بن حيان الذى وضع اساس علم الكيمياء . وابن
سينا الذى وضع اساس علم الطب والدلك والرياضيات . وابن النعيس الذى
اكتشف الدورة الدموية ووصفها وصفا علميا دقيقا . وابن الهيثم الذى برع في
ابرياصيات وانطيميات والطب . وكان اول من شرح تركيب العين وكيف تعمل
وأبوابها الذى نخ في العمليات الجراحية وغيرها .

ثم أعطى الله سبحانه من آيات الكون غير المؤمنين بما يشهده الآن من هبة
علمية في دول العرب .. وذلك بصر قوله تبارك وتعالى .

« حتى يتبين لهم انه الحق » أى ان آيات الكون . ستجعل المكربين للمؤمن



هذه الآية الكريمة عندما نرست فهمت بأنه كلما احترقت الحلود تجددت ، وعندما توصل العلم الحديث الى ان مراكز الاعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة بحيث انه اذا احترق الجلد ضاع الاحساس بالألم ، كانت هذه معجزة جديدة لئديا كلها في عصرنا . يريد بعض الناس ان يتخذ العلم إنفا من دون الله . وهكذا كان الاعجز المتحدد الذي يحمل انقرآن معجزة خالدة . . وهذا دليل جديد على ان القرآن من عند الله وأنه كلام الله .

نأتي بعد ذلك الى معجزة اخرى في اختيار رسول الله عليه الصلاة والسلام واعداؤه للرسالة . بنا إذا تتبعنا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد ان الله تبارك وتعالى اختاره أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك أجرى عليه معجرات كلها تنطق بصديق رسالته صلى الله عليه وسلم . أوما انه لم يشتهر عليه الصلاة والسلام انه نبع في شعر أو ثمر مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي . ومن ها كان حظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاغة خطا عاديا دون نبوع

ومع ذلك فقد جاءت رسالته عليه الصلاة والسلام تتحدى قومه في السلاح وفي اللغة . ولواته صلى الله عليه وسلم كان مشهورا بالشعر أو النثر أو الخطابة لقالوا ان انقرآن عبقرية ادائية لوهب كانت موجودة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ انصر . ومواهب الناس عادة تظهر قبل سن العشرين و الثلاثين اذا كانت الموهبة متأخرة ، ولكنها لا تظهر مائة على الانسان في سن الاربعين ، ولا توجد عبقرية تتأخر أبدا حتى لاربعين . . ولكن الناس فوجئوا بان محمدا عليه الصلاة والسلام الذي ما خطب وما كتب وما قال شعرا يكن بقرآن يعجز عنه أشهر اللغاة واكثرهم موهبة في فن الكلام . . من اين اني هذا الكلام المعجز الذي تحدى به الانس والجن وهو في هذه السن ؟؟

بعض الناس يدعون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عبده الاعجاز اللعوى . . وأحباء عن الناس حتى سن الاربعين وبعد ذلك اظهره . . نقول ان هذا الكلام لا يتفق مع العقل . لاسا نبش في عالم أغوار يموت الناس فيه قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقبل سن الاربعين . فمن الذي اخبر محمدا عليه الصلاة والسلام انه لن يموت قبل سن الاربعين حتى يكتم هذه العبقرية الى هذه السن . لقد مات أبوه وهو في بطنه . . وماتت امه وهو طفل صغير . . هذه



المقلعات لا يمكن ان توحى الى محمد عليه الصلاة والسلام ان يمكن عقربته عن الناس حتى يصل الى هذه السن ، لان ابيه وامه قد عمنا وهو طفل صغير

ولذلك عندما جاء الكفار وحملوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخبر القرآن كما يروي لنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا نُنشِئُ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُمُتٌ يُفْرِقُونَ فَهُمْ يَرْفَعُونَ آيَاتِنَا أَكْبَرُ مِمَّا نُفِيتُ عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ قُلُوبُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ قُلُوبُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ قُلُوبُهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى آيَاتِنَا فَهُمْ يَحْمِلُونَ إِثْمَ عَصِيَّتِهِمْ يَوْمَ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يونس)

ولو ان هذا القرآن من عند محمد عليه الصلاة والسلام ربما بدله حتى يزمن من كفر ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم ليرد عليهم بالحجة البالغة :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ حِكْمًا وَلَا تَذَرْتُمْ وَهُدًى وَقَدْ لَئِن فَهِمْتُمْ عَمَّا مِنْ قَبْلِهِ آيَاتًا لَتَقُولُنَّ ۚ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

الله سبحانه وتعالى يعلم رسوله الكريم ان يرد عن الكفار انه عاش معهم اربعين سنة قبل الرسالة . . لم يشهر بينهم بالخطابة والشعر او البلاغة . . فلو اهم فكروا بعقولهم لعرفوا ان هذا القرآن ليس من عند رسول الله ، بل من عند الله . ثم من هذا الذي ينسب اليه الكمال فيرفضه ؟ . ويقولون هذا ليس من عندى . . مع ان الناس تدهى كمالات العبر فكلم من انسان رأى اعجاب الناس بعمل من الاعمال . . لم يعرف صاحبه نفسه الى نفسه . . بل ان الناس تتصارع على نسب

الأشياء المحيطة لنفسها . وكم دأنا نزاعا أمام القصاص بين أشخاص مختلفين كل منهم يسعى ملكيته لعمل جيد .

ثم تأتي لفئة أخرى : رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ ولم يكتب . . هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة تختلف بعضها عن بعض تماما . وهي أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الأحاديث القدسية وأسلوب الأحاديث النبوية لا توجد عبقرية في الدنيا من يوم أن خلقت إلى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر . كيف يمكن أن يفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم بين القرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية . . بحيث يعطى كلاهما طابعا وأسلوبا يميزه عن الآخر .

إن لكل شخص أسلوبه الذي يتميز به . . . وأنت إذا كنت مطلعا في علوم اللغة والأدب . فبمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان ، لأن لكل شخص ما أسلوبا يميزه . . فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم كلامه . فيقول هذا قرآن وهذا حديث قدسي وهذا حديث نبوي

إن احتلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية . . أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليس من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . لأن الشخصية الأسلوبية لأي إنسان هي شخصية مميزة . ولا يمكن أن يفعل أحد بأحداث الحياة . فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماما عن الأسلوب الآخر . أو يكتب اليوم بأسلوب وعدا بأسلوب وبعد عن أسلوب . ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول . أنه إذا قرأ أحدهم القرآن يقول هذا قرآن ، وإن تلا أحدهم حديثا قدسيا يقول هذا حديث قدسي . وإذا قال أحدهم حديثا نبويا قلنا حديث نبوي . . ولكل إنسان ما شخصية أسلوبية واحدة . . إذا حاول أن يخرج منها ما فيها تعلبه . والعروق الهائلة في الأساليب بين القرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام

واحترام الكلام ماذا يفعلون . ولم يجردوا ثغرة من منطق يغترون بها . هاد



قالوا ؟ . قالوا ساحر ۱۱ وكان الرد ببساطة ان المسحور ليس له ارادة مع الساحر .. بحيث يستطيع دفع الساحر عن نفسه ، وان الساحر يسحر من امامه رغبة عن ارادتهم .. فلماذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحرا فلماذا لم يسحركم انتم حتى تؤمنوا به .. وبأى شيء ردتم الساحر عن انفسكم ؟ .

ان ادعاءكم هذا بكنب حجتكم لان كونكم الآن جالسين تقولون ساحر .. فمعنى ذلك انه لم يسحركم .. ولو كان ساحرا حقيقيا لأجبركم بسحره على ان تتبعوه وقالوا مجنون .. نقول هم ان الجنون عمل بغير رقابة . بمعنى أنك لا تستطيع ان تتبأ بما يفعله المجنون في اللحظة القادمة فقد يجلس يتحدث معك وبعد دقيقة واحدة يضربك .. ونجده يركب وبعد ثوان قليلة يضيحك .. ورد الله تبارك وتعالى عليهم :

﴿ تَبَّ ۖ وَالْقَسَمَ ۖ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝۱ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝۲ وَإِنَّكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَحْمُودٍ ۝۳ وَإِنَّكَ لَمِنَ خُلُقِ عَظِيمٍ ۝۴ ﴾

(سورة القلم)

والشهادة من الله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم .. لا تتصادم مع ما يعرفه الكفار عن قبل الرسالة .. فهو بشهادتهم كان معروفا بالصدق والأمانة والخلق الحسن وكانوا يلقبونه بالأمين وكانوا يامنونه على أموالهم وكل شيء له قيمة . ولتعرف كيف يتناقض الكفار مع انفسهم نقول لهم كيف نأثمون اسلانا مجنون على أعلى ما نمتلكون . هل هذا يتمشى مع لعقل أينهب الانسان بأعلى ما عنده ويضعه عند رجل مجنون ؟ . طبعاً مستحيل لا يمكن ان يكون المجنون على خلق عظيم .

وقالوا شاعر وكاهن .. فوذ القرآن الكريم بقوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَقُولُ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝۱ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝۲ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَكْفُرُونَ ۝۳ ﴾

(سورة الحاقة)

وقولهم شاعر مردود عليه . . بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل شعرا في حياته . والمواهب لا تأتي فجأة بل لابد أن تصحبها التجربة والحفظ . . تمام كالذي يقرود السيارة . . عندما يبدأ لابد أن يكون معه انسان يعرف قيادة السيارة . . ويعلمه فيخطيء ويصيب . ثم بعد ذلك يقرود السيارة آليا

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت عنده ملكة الشعر ولا غيره أحد عليه . أما قولهم كاهن فالانسان ينسى بمرور الوقت ، لذلك قيل اذا كنت كذوبا فكن ذكورا

وإذا أردنا أن نعرف الحقيقة فلنأ تسأل الانسان على فترات . فإن كان كادبا فانه يتخبط في أقوال . ورسول الله صلى الله عليه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب . كان ينزل عليه الوحي بالآيات فيتلوها على أصحابه . ثم يؤذن للصلاة بعد ذلك بساعات . . فيتلو رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة . الآيات التي نزلت عليه دون أن يتغير منها حرف واحد . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى .

« فليلا ما تذكرون » . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يأتى بالقرآن من عنده لنعى ولغيره وبدن . لأن الذاكرة لا يمكن أن تستوعب بنفس الالفاظ ما قالته . ولو أنك جثت ناسان وطلب منه أن يتحدث في موضوع معين وسجلته له . ثم طلبت منه أن يعيد بعد نصف ساعة ما قاله . . لا يمكن أن يأتى بنفس الكلام أو بنفس الالفاظ أو بنفس الترتيب .

والحق سبحانه وتعالى يعطى رسله منهجه بالوحي . . ويكون عطاؤه غيبا لأن الله حجب . فآله سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَمَا كُنْ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَيْنَهُمَا مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ ﴾

(سورة الشورى)

ذلك لأن التكوين البشرى لا يمكن أن يستقبل من الله مباشرة . . ولوحي اعلام

بخفاء ، ولكن نقرب المعنى من الاذهان . . تقول أنك لو كنت لا تريد ان تقابل ضيفا ثقيلا فانك تتفق مع خادمك على اشارة معينة . . فإذا جاء وأخبرك أمام الحاضرين بأن فلانا وصل . . تعطيه اشارة فلا يدخله الى المنزل . . هذه الاشارة المتفق عليها . . لا يفهمها أحد من الحاضرين ولا يعرف معناها . .

هذا هو معنى الوحي اعلام بخفاء . . لا يفهمه أحد الا الموحى ومن يوحي اليه . . والوحي مادام اعلاما بخفاء فانه يقتضى موجها . . وموحي اليه وموحي به . .

ولقد أوحى الله للرسول وأوحى الى غير الرسل . . فأوحى للملائكة والى أم موسى والى الخواريين وللنحل وللأرض . . وهناك وحي من الشيطان لأوليائه هذا هو الوحي اللغوي . . أما الوحي الشرعي فيكون وحيا من الله لرسله . وكان وحي الله لموسى عليه السلام ان كلمه من وراء حجاب . . وكان وحي الحق جل جلاله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأن أرسل له جبريل عليه السلام . . ويحيى الملك بالوحي فيسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام صاصلة الجرس تنبئها . . ويتم اللقاء بين جبريل والرسول فتتبرك كياويات جسد الرسول . . حتى انه حينما جاءه الوحي لامت ركبته الشريفة ركة صحابي كان يجلس بجواره فاحس كأنها جبل . . واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبا الناقة . . فتام أو تبرك الناقة على الارض ولا تستطيع السير . . وكانت لفنة اخرى من الله تبارك وتعالى . . انه لا تناقض مطلقا بين القرآن وبين العلم . . فاذا جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم . . فالقرآن على حق والنظرية باطلة . . وهناك نظريات اخفاها الله سبحانه وتعالى عنا . . ولكن اخفاه لها لا يضرنا بشيء .

فالشمس ينتفع بها كل الناس ولا يعلم حقيقتها أحد . . وكذلك بعض الظواهر الكونية الاخرى . . فكل ما أخفاه الله عنا هو جهل لا يضر ولا يقلل انتفاعنا بالكون . .

والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . ولقد حمل منهج الله للبشر ليحمي حركة الانسان الاختيارية في الكون . . ومادام الانسان يلتزم في حياته بالقرآن الكريم فانه يستمتع بالجمال في الكون . . اما اذا خالفه فيكون الانسان قد سعى الى شقاءه . . ولقد ظهرت الداءات والامراض في المجتمعات عندما خالف

الانسان منهج السماء ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى .

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مَوْشِقًا وَرَحْمَةً ۝١٦﴾

(سورة الامراء)

لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة . لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم . . ولكن لا بد من الشفاء أولاً . . وعندما برز القرآن كانت الامراض والداءات تملأ المجتمعات . الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الانسان للانسان وغير ذلك من امراض المجتمع . . فجاء الاسلام أولاً ليشفى هذه الامراض اذا اتبع منهجه . ثم بعد ذلك تأتى الرحمة وتتم عودة هذه الداءات . فاذا حدثت غفلة عن منهج الله . جاءت الداءات والامراض . فاذا عدت الى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء .



﴿اعُوذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

طلب الله سبحانه وتعالى من كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يقرأ القرآن . إند فالاستعاذه هي أول التماس بين المؤمن وبين تدايه قراءته للقرآن الكريم والله سبحانه وتعالى يقول

﴿وَإِذَا قرَأَ القرآنَ فاستَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

(سورة النحل)

ووضح أن الآية الكريمة . . تعذب عنا الاستعاذه بالله من الشيطان قبل أن يقرأ القرآن . ذلك أن كل مخلوق إذا اتجه إلى خالفه واستعاذه به يكون هو الأقوى برعم صعبه وهو العالب برعم هدم قدرته . لأن الله عندما يكون معك تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة . لأنك تحدث الله سبحانه وتعالى في جانبك . ونحن حين نقرأ القرآن لابد أن نهض في جوار استعنا استعنا كلام الله . وفي هذه الحالة لا نضع ذلك بقدراتنا نحن ولا بقوتنا . ولكن بالاستعاذه بقوة وقدره الله . لماذا ؟ لأن معوقات المنهج عند الإنسان المؤمن إنما هي من عمل الشيطان

والليس يأتي دائم من الباب الذي يرى فيه المصح صعبا . فإذا وجد انسانا متشددا في ناحية يأتي له من ناحية أخرى . هل أن العبد المؤمن متشددا في الصلاة . يحافظ عليها ويؤدي في أوقاتها ، جاءه إبليس من ناحية المال . يوسوس له بـلا يخرج البركة لأب سيؤدى به إلى يفسد . ويوسوس له أن يأكل حقوق الناس مدخلا السرور إلى نفسه بالوهم بأنه سيصبح عيا أما مطمئنا على عده . وهذا كذب .

والحقيقة هي التي رواها لك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (ما نقص مال من صدقة)^(١) والصدقة هي التي تكثر المال وتضع فيه البركة فيزداد ويسمو . . . والمال هو مال الله يتقل من يد الى يد في الدنيا . . ثم يموت الانسان ويتركه . . ولكن ابليس يستغل غفلة الناس عن هذه الحقيقة ليدفعهم الى المال الحرام . . فاذا كان الانسان متشددا من ناحية المال . . جاءه من ناحية المرأة فيظن يزين له امرأة خالصة . . يوسوس له حتى يسقط في الزنا . . وإن كان قويا في هذه النواحي كلها . . زين له ابليس الخمر أو مجلس السوء أو النسيمة . . المهم أن ابليس يظل يلور حول نقاط الضعف في الانسان ليستغلها في المعصية .

ولذلك إذا الاستعانة بالله من الشيطان الرجيم ، إنما تجعل لله سبحانه وتعالى بقوى نقاط الضعف فيك . فلا يستطيع الشيطان أن يمتد اليك وأنت تقرأ القرآن ليضع في رأسك هواجس تلهيك عن هذه القراءة . . ذلك أن عطية الله في القرآن الكريم يساري بين جميع الخلق . . فعطاه لقرآن متساو ولكن كل انسان يأخذ على قدر إيمانه . . فالقرآن يقرأ والناس نسمع . ولكن من يتقبل الجميع القرآن تقبلا متاويا ؟ نقول لا . فقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَاذَا قَالَ عِيسَىٰ أَوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴾^(١١)

(سورة محمد)

أي أن القرآن لم يؤثر فيهم . . ولكنه أثر في المؤمنين الذين استمعوا اليه مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَلَوْ جِئْتَهُمْ قُرْآنًا مَّعْجِيًّا لَوَلَّوْا بُطُوحًا يُفْتَنُونَ ۖ ءَايَاتُهُ ۖ ءَايَاتُهُ ۖ وَهَرَبَ قُلُوبُهُ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ غَافِلِينَ ۚ ﴾^(١٢)

(سورة فصلت)

(١) روى احمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة ، وثمة الحديث : هو ما زاد الله عبدا بعباده إلا عزا ، وما قوامع أحد لله إلا راحة



فالقُرآن عطاؤه للجميع ولكن المهم من يستقبله . وكيف يستقبله عندما يتلى عليه . . والله سبحانه وتعالى يريدنا عندما نقرأ القرآن . . أن نبعد الشيطان عن أنفسنا قبل أن يبعثنا هو عن منج الله وعن آياته . . وبما أنت لأمري الشيطان وهو يرانا . . ولا تعرف أين هو بينما هو يعرف أين نحن . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى .

﴿ بَنِيَّ آدَمَ لَا يَفْتِنُكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَتَرَعَّ عَنْهُمَا يَلَسَمَا لِيُرِيَهُمَا سُرَّةَ تَيْمَافٍ أَنَّهُ بَرَكْتُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ ۚ نَاَجَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

فلا بد من أن نستعيد بقوة نستطيع أن تقهر الشيطان وتلممه . الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستعيد به وأن نلجأ إليه . لأنه هو القادر على أن يجمعنا . ويصفي قلوبنا ونفوسنا من همرات الشياطين . فبهسن استقبلنا للقرآن الكريم . . لأنه اذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن . . فإن آياته الكرعة تمس قلبك ونفسك وتكون لك هدى ونورا .

والشيطان قد قضى الله سبحانه وتعالى في أمره . فطرده من رحمة وجمعه رجيا مبعدا . . والشيطان يعرف أن مصيره النار . ويعتقد أن آدم هو السبب . . لأن بداية المعصية كانت رفض إبليس طاعة أمر الله في السجود لآدم . . وقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىَّ أَنَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت معصية إبليس في القصة . . لأنه رد الأمر على الأمر . . وقال لن أطيع ولن

أسجد لأدم لأن خير منه . . هو من طين وأنا من نار . مكانه لم يرض بحكم الله سبحانه وتعالى وأراد أن يعدله . وهذه معصية في القمة . جعلت الله تبارك وتعالى يظود إبليس من رحمته . ويصفه بأنه رحيم . . وذلك حتى يعرف أن مصيره النار وأن الله لن يعصمه له .

وبدا إبليس بغواية آدم عليه السلام . فآدم عاش في جنة تعطيه مقومات حياته بلا تعب وبلا عمل . . وكان في الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات وهي حلال لأدم وحواء يأكلان منها مايشاءان . ماعدا شجرة واحدة حرمها الله عليهما . وكانت هذه الشجرة هي بداية الخطيئة . . بدأ إبليس بغري آدم وحواء على المعصية . . كيف ؟ . . حاول إقناعهما بأن عدم الأكل من هذه الشجرة سيحرمهما من خير كبير . وقرأ قول القرآن الكريم :

﴿ فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سُرَّتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ ١٧ ﴾

(سورة الأعراف)

وفي إغواء آخر :

﴿ فَوَسَّوْا لَهُ الشَّيْطَانُ قَالَ تَكَادِمُ هَلْ أَذِلَّتْ عَلَى قَهَرِهِ الْخُلْدُ وَمَلِكٌ لَا يَسْلُبُ ۝ ١٨ ﴾

(سورة طه)

وهكذا تعرف أن إبليس يأق للإنسان من أكثر من زاوية . . لذلك كانت الزاوية الأولى هي أن هذه الشجرة من يأكل منها . . يكون ملكاً أو يكون خالداً . . وكان الاغواء الثاني أن هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود ملكاً لا ينتهى .

إذن فإبليس يصور للإنسان . . أن ما منعه الله عنه هو الخير . . وأنه لو عصى سيحصل على المال والثروة . . لقد أكل آدم وحواء من الشجرة فلم يخلدا ولم يأت لهما ملك لا ينتهى بل ظهرت عوراتهما وعرف أن إبليس كان كاذباً . وأن الله



سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه انما كان يريد لنا الخير .

ولكن الشيطان يأبى ويرين للانسان طريق الباطل . . ولو أن آدم كان قد حكم عقله بعرف كذب وسوسة ابليس . . فأبصر كما يدعى كان يدل آدم على شجرة الخلد . . ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخلد فعلا . . لما طلب ابليس من الله تبارك وتعالى أن يبقى على حياته الى يوم القيامة . بل لأكل من الشجرة ونال الخلد .

ولكن ابليس دخل من ناحية الغفلة في النفس الشرية ليقع آدم في المعصية . . وهو يدخل الى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضا . ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسقة بين آدم وابليس . . وأن ابليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقه الى يوم القيامة ليستقم من آدم وأولاده بإغوائهم عن المعصية . لو تنبها الى ذلك لأخذوا حذرا . . وهما تنكشف وسوسة الشيطان فانه يهرب .

ابليس دخل الى ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله . . وأن الله عزيز لا يحتاج لحنقه . ولا يضره سبحانه وتعالى من كفر . ولا يزيد شيئا في ملكه من آمن . . استعمل عزة الله في استغفاله عن خلقه . فقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٢ ﴾

(سورة ص)

ولكن الحق تبارك وتعالى . أخبرنا أنه طرد ابليس من رحمته وسبه رجينا . حتى نعرف جميعا أنه لن يدخل في رحمة الله أبدا .

ابليس دخل الى عصابة بني آدم بعزة الله سبحانه وتعالى عن خلقه . . فلما أن الله اراد خلقه جميعا مهدين . . ما استطاع ابليس أن يتقدم ناحية واحد منهم . . وانقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنْ لَّمْ أَسْرِ لَّيْلَ طَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ يَأْتِيهِ فَطَلَّتْ أَصْفَهُمْ لَمْ يَخْضِعْ ٥١ ﴾

(سورة الشعراء)

أذن الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى للإنسان حق الاختيار ولو شاء لمعله مقهوراً على الطاعة كباقي الخلق . . من بقعة الاختيار هذه . وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ قَسَّ شَاءَ قَلْبُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنََّّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا نُفَاثُوا بِمَاءٍ كَاثِمٍ يَسْوِي الْوُجُوهَ يَنْسُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَعًا ۝١٩﴾

(سورة الكهف)

إذن فالله سبحانه وتعالى . نبي لنا طريق الهدى وطريق المعصية . . ثم برك لنا أن نختار طاعة الله ورحمته . أو معصية الله وعذابه . . ولم يعطنا الحق تبارك وتعالى هذا الاختيار إلا في فترة محدودة هي حياتنا في الدنيا . . فعندما يحتضر الإنسان نحمد بشرته . ونصح لا اختيار له . كما أن الله جل جلاله لم يعطنا الاختيار في كل أحداث الدنيا . بن أعصاه لنا في المنهج فقط في الطاعة أو المعصية

ولكن ننسى الشيطان في حياتنا شرح لنا القرآن الكريم كيف سيغوي إبليس بن آدم . وأقرأ القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾

(سورة الأعراف)

أي أن إبليس لا يجتهد في اغواء من باع نفسه للمعصية . وانطلق بحال كل ما أمر به الله . . فالتفت الأمانة بالسوء لها شيطان . وهي ليست محتاجة إلى اغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء . . ولذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الخيارات ويبيت الذعارة . ويبدل جهداً في اغواء من يجلسون فيها . لأن كل من ذهب إلى هذه الأماكن . . هو من شياطين الإنس . ولكن إبليس يذهب إلى مهبط الطاعة وأماكن العبادة . هؤلاء يبذل معهم كل جهده وكل حيله ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لا بد أن تنبه إلى أن إبليس لم يقل لأقعدن لهم على الطريق المعرج



فالطريق المموج بطبيعته يشع انشيطان .. فإبليس يريد أهل الطاعة .. يزين لهم
المعصية ويقرهم بدلال الحرام .
القرآن الكريم يقول :

﴿ ثُمَّ لَا يَنْبَغُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ ١٧ ﴾

(سورة الأعراف)

هذه هي جهات الخواية التي يأتي منها إبليس .. من بين أيديهم أي من أمامهم
وهذه هي الجهة الأولى . ومن خلفهم أي من ورائهم وهذه هي الجهة الثانية ..
وعن أيمنهم أي من اليمين وهذه هي الجهة الثالثة .. وعن شمائلهم أي من الشمال
وهذه هي الجهة الرابعة .. وكلنا نعلم أن الجهات ست وليست أربعة .. هي هما
الجهتان اللتان لا يأتي منها الشيطان ؟ .. هما فوق ولحت .. هرب إبليس من هاتين
الجهتين بالذات .. ولم يقل سأتى لهم من فوقهم أو من تحتهم ، لأنه يعلم أن الجهة
المليا تمثل انفوقية الالهة .. وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية سبها يسجد
الانسان لله .. ولذلك ابتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماما .

ومن العجيب أنك اذا نظرت الى أبواب الاتحاد في كل عصر .. تجدنا تأتي من
الجهات التي يأتي منها الشيطان .. يقولون تقدمي جهة الامام .. ورجعي جهة
الخلف ويميني جهة اليمين ويساري جهة اليسار . نقول لهم نحن لسنا في أي جهة
من هذه الجهات . لا تقدميون نذهب الى التحلل وانفجور . ولا رجعيون نقول هذا
ما وجدنا عليه آباءنا . ولا يساريين ننكر الدين ونناصر الكفر . ولا يمينيين نؤمن
بالرأسمالية واستغلال الانسان .. ولكننا أمة عمودية فوقية . كل أمورنا من الله .
وما دامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى . فنحن لا نخضع لمساوينا . ولكننا نخضع
لله العمل القدير .. وما دامت نخضع لأهل منك فلا دلة أبدا بل عزة ورفعة .
مصدقنا لقوله تبارك وتعالى .

﴿ يَقُولُونَ لَيْسَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَلِئِكَةِ لِنَفْخِرَ فِي الْأَعْزَمِ بِهَا الْأَذَلَّ وَلَهُ الْمِيزَةُ وَرَسُولُهُ
وَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَكِنْ الْمُسْلِفِينَ لَا يَتَّبِعُونَ ١٨ ﴾

(سورة النافلون)

وقد أصرَّ الشيطان على عراية الانسان . . حتى لا يكون هو العاصي الوحيد .



فيأدب عصي وطرد من رحمة الله لماذا يكون هو العاصي الوحيد ؟ .. لماذا لا يكون الكل عاصيا ؟ .. وإذا كانت معصية الشيطان بسبب عدم السجود لآدم . فلهذا لا يأخذ أولاد آدم معه إلى الدار ؟ انتقاما منهم ومن أبيهم . بعض الناس يقول .. إبليس عصي وآدم عصي . والله سبحانه وتعالى طرد إبليس من رحمت وعمر لآدم .. نقول إن هناك فرقا بين معصية ومعصية . معصية إبليس كانت معصية في القصة .. ترد الأمر على الأمر . نقول لا . لن أسجد ولن أطيع لأنني من بار وهو من طين .. فكانه رد الأمر على الأمر .. أما آدم فقال : يارب أترك الحق وقولك الحق ومهلك الحق ولكني ضعيف لم أستطع أن أحمل نفسي على العتاة .. فسامع ضعفي يارب ، ولذلك شرع له الله سبحانه وتعالى التوبة وعلمه كلمات ليتوب عليه .

إذن فهناك فرق بين معصيتين . معصية نقول لن أطيع لأنني خير منه .. ومعصية يمتدح فيها العبد باخلاقه والضعف ويتجه إلى الله طالب التوبة والعفوان . ويرغم أن الله سبحانه وتعالى قد أبلغنا في القرآن الكريم أن الشيطان عدوك .. في قوله تعالى :

﴿ إِنْ الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

(سورة فاطر)

فإن الإنسان لا يجتاط .. ولذلك في كل مرة نقرأ فيها القرآن .. يريد الله سبحانه وتعالى .. أن يستعيد به من الشيطان الرجيم .. حتى إذا كان الشيطان قد مسا أو غلبنا في حدث من أحداث الحياة . فإن الله سبحانه وتعالى يبعده عنا ونحن نقرأ القرآن حتى تصفو قلوبنا ونكون قد أبعدنا الشيطان . وما حاول أن يوسوسه لنا ليعيدنا عن المنهج

عندما نستعبد بالله من الشيطان الرحيم . فهناك مستعاذ به وهو الله تبارك وتعالى من الشيطان .. والشيطان من خلق الله وأنت من خلق الله . فمن الممكن أن يعبد خلق لله مخلوق لله ، ويكون القوى بقوته . أما إذا التحم أحدهما بحالقه فالتقى لا يقدر عليه . وأنت إذا تركت نفسك للشيطان . انفرد بك . ولذلك تستعبد بالله الذي خضعت وخلق الشيطان .. فهناك عليه . ولذلك حين تجد قوما مؤمنين وقوما كافرين إن ظل المؤمنون موصولين بربهم لا يبرزهم الكفار

أبدا . فإذا بعثوا عن منبج الله . يهزمهم الكفار . . . لأنه في هذه الحالة يكون القتال بين اثنين ابتعدتا عن الله . . . ادن فتعلما يصرد خلقه بخلق . فالقوى هو الذي يخلق . أما إذا احتس خلقه بحالفهم . فلا يقدر عليهم أحد . البشر بقدر عل البشر إذا بعثت الفتان عن الله . فإن كانت الفتان معصمتين بالله . . . فلن يتفانلا .

والحق تبارك وتعالى . يريدك حين تقرأ القرآن أن تصفى جهاز استقبالك تصفية تفسح حسن استقبالك للقرآن . . . بأن تبعد عنك شرع الشيطان . حيث نستقبل القرآن بصفاء . . . وتأخذ منه كل عطاء . فإذا استعدت بالله من الشيطان الرجيم . تكون في جانب الله فلا يأتيك الشيطان أبدا . . . ولذلك سيأتى الشيطان يوم القيامة ليقول لمن أغواهم كما يروى لنا لقرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ أَكُنْ بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِئِي إِيَّايَ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا لَاطِمِينَ قَوْمٍ عَذَابُ الْآلِيمِ ٢٦ ﴾

(سورة إبراهيم)

ادن فالشيطان ليس له سلطان على الانسان أن يقهره على فعل لا يريد . . . أي ليس له سلطان القهر . وليس له سلطان على أن يقنع الانسان بالمعصية . . . وهذا اسمه سلطان الحجة . فاسلطان نوحا . قهر لمن لا يريد الفعل . وقناع يهلك تقبل الفعل وأنت راض . . . الشيطان ليس له سلطان القهر على عمل لا يريد . وليس له سلطان الحجة . . . ليقتنع بأن يفعل ما لا يريد أن يفعله . . . ولكن المسألة ان رسومة الشيطان . . . وجدت هوى في نفوسا فتبصاه .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمنع عنا هذه الرسومة . . . ونحن نقرأ القرآن . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الشيطان . وهو الذى أعطاه القدرة على أن يوسوس للانسان . لماذا ؟ . لأنه لو أن الطاعة وجدت بدون مقاوم .

والله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار لأنه يريد من خلقه من بطيعة وهو قادر على معصيته . . ويؤمن به وهو قادر على عدم الإيمان . . لأن هذه تثبت صفة المحبوبة لله . الخلق المقهور لله يأكل له فهرا . لا يقدر على المعصية . . وهذا يثبت القهر والجبروت لله . ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد خلقا يأثبه عن حب . وقد يكون هذا الحب من أجل عطاء الله في الآخرة ونعمه ورحمته فلا يرضى الله تعالى عباده بها . . وقد يكون عن حب لذات الله . لذلك يقول بعض أهل التصوف في معنى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ إِلَهِي وَإِلَهُكُمْ أَنَّهُ وَاحِدٌ ۚ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ يُخَافُ الْعَذَابَ ۚ ﴾

يقولون إن الجنة أحد .. لأن الحزن سبحانه وتعالى قال ومن كان يريد لقاء ربه .. أي الأنس ببقاء الله .. فإن كنت تعمل للذات وليس للمعطاءات فإنك تكون في أنس الله يوم القيامة .. والذي عمل للجنة سيأخذها .. والذي عمل لما هو فوق الجنة يأخذه .

لو لم يخلق الله تعالى جنة ولملا ، أما كان اهلا لأن يعبد ؟! ولقد قالت رابعة العنوية : « اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك طمعا في جنتك فأحرمني منها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك خوفا من نارك فأوصلني فيها ، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد »

والحق سبحانه وتعالى : يريدك عندما تنقرأ القرآن .. أن تصفي نفسك له سبحانه وتعالى وهو جل جلاله يعلم مكائد الشيطان ومدخله الى النفس البشرية . وأنه سيؤسس لك ما يقصد عليك فطرتك الالهية .. فبأن القرآن حل فطرة

فسدت . فلا يحدث استقبال لميوصاته على النفس البشرية . ولكن اذا استعذت بالله ، فقد استعذت بحائق . فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك . ولذلك إن أردت من جهاز استعمالك أن يكون صالحا لتصادات الارسل ، سامعا لكلام الله . . لأن الله هو الذي يتكلم . فالقرآن ليس كلام القاريء له . وبكلام الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه . . وكان أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم . . ان معراج الحياة عند الاسان الخوف والغم والصبر وروال النعمة . قال عجيبت لمن حاف ولم يفرغ الى قول الله سبحانه وتعالى : حسبنا الله ونعم الوكيل . فقد سمعت الله بعدها يقول «واقبلوا بعمه من الله وفصل لم يمسهم سوء» وعجبت لمن ابتلى بالصبر ولم يفرغ الى قول الله سبحانه وتعالى «إن مسى الصبر وانت ارحم الراحمين» فقد سمعت الله بعدها يقول . «واسحبنا له فكشها مانه من صبر» . وعجبت لمن بنى بالغم كيف لم يفرغ الى قول الله تعالى «لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستحسنا له ونجينا من الغم وكذلك تنجى المؤمنين» . وعجبت لمن أضير . ولم يفرغ لقول الله سبحانه وتعالى : «وأفوض أمري الى الله إن الله بصير بالعباد» . فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول «وفواه الله ميثات مامكروا»

رأيت مادمت في معية خالعت لا يجرؤ الشيطان أن يذهب إليك أبدا .
 وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في عارثور ومع أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم المحرة . والكفار عند مدخل العار بسلامهم . ماذا قال أبو بكر رضي الله عنه ؟ قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأى . وهذا واقع لا يكذب ، لا بصفاء ایمان . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه : ما ظلت ناظر الله فالتفتا وهو متشير اليه الآية لكريمة بقوله تعالى :

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

(سورة التوبة)

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومع أبو بكر رضي الله عنه كلاما في معية الله . ولكن هل كونه في معية الله . رد على قول أبي بكر . لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأى . يقول نعم . . لأنها في معية الله . والله لا تدرك الابصار . فلا تدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بكر لأبصار كذلك ماداما في معية الله .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

انقرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيه نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى -
ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ البداية نفسها التي أَرادها الله تبارك وتعالى - وهي أن
تكون البداية بسم الله . وأول الكلمات التي خلق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه
وسلم كانت «اقرأ باسم ربك الذي خلق» . وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم
ليبارس مهمته في الكون . . هي بسم الله . ونص الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ نفس
البداية .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام في غار حراء حينما جاءه جبريل وكان أول
لقاء بين الملاك الذي يحمل الوحي بالقرآن . . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم
قول الحق تبارك وتعالى : «اقرأ» .

واقراء تتطلب ان يكون الانسان . إما حائظا لشيء يحفظه ، أو أمامه شيء
مكتوب ليقرأه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حائظا لشيء
يقروء . وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه . وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمي لا يقرأ
ولا يكتب .

وعندما قال جبريل : «اقرأ» . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا
بقارئ . . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطوقا مع قلبه . وتردد القول
ثلاث مرات . . جبريل عليه السلام يوحى من الله سبحانه وتعالى يقول بالرسول :
«اقرأ» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أنا بقارئ . . ولقد أخذ محصوم
الاسلام هذه النقطة . وقالوا كيف يقول الله لرسوله اقرأ ويرد الرسول ما أنا
بقارئ .

نفون إن الله تبارك وتعالى . كان يتحدث بقدراته التي تقول للشيء كن فيكون ،

بيما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث بشريته التي تقول أنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة ، ولكن قدرة الله هي التي منأخذ هذا النسي الذي لا يقرأ ولا يكتب لحمله معلما . للنشوية كلها الى يوم القيامة . . لأن كل لبشر يعلمهم بشر . ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم سيعلمه الله سبحانه وتعالى ليكون معلما لأكثر علماء الشر . يأجلون عنه العلم والمعرفة . لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الله سبحانه وتعالى . الذى خلق من عدم . سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدين وحضارات الدين على أن يأتوا بمثله . وسيكون ماتعروزة وأنت النبى الأمى عجزا . . ليس هؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نروله . ولكن للديا كلها وليس فى الوقت الذى يرو فيه فقط ، ولكن حتى قيم الساعة ، ولذلك قال جل جلاله :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الذى ستقروه يا محمد . سيظل معلما للإنسانية كلها الى نهاية الدنيا على الأرض . ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى قال : «اقرأ وربك الأكرم» مستخدما صيغة المبالغة . فهناك كريم وأكرم . فانت حين تتعلم من شر هذا دليل على كرم الله جل جلاله . لأنه يبر لك العلم عن يد بشر مثلك . . أما اذا كان الله هو الذى سيعلمك . يكون «أكرم» . . لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلمك هو سبحانه وتعالى . .

ولحق يريد أن يلفتنا الى أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن لأنه يعلم لقراءة ، ويكنه يقرؤه باسم الله ، ولماذا بسم الله . فلا يهم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلم من بشر أو لم يتعلم . لأن الذى علمه هو الله . . وصممه

فوق مستوى البشرية كلها .

عل أنت تبدأ ، بصا تلاوة لقراء اسم الله . لأن الله تبارك وتعالى هو الذى أمره
لنا . ويرى لنا أن يعرفه ونتموه . فالأمر لله علما وقدره ومعرفة . واقرأ قول الحق
سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَسْكَرًا وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ بَاءً فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ مَحْسُورًا مِّن قَبْلِهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦ ﴾

(سورة يونس)

لذلك أنت تقرأ القرآن باسم الله لأنه جل جلاله هو الذى يسه لك كلاما
وتنزيلا وقراءة . ولكن هل نحن مطالبون أن يبدأ فقط تلاوة القرآن باسم
الله ؟ . إنا مطالبون أن تبدأ كل عمل باسم الله . لئلا لا بد أن يحترم معناه لله
في كونه . محين تروع الارض مثلا . لابد أن تبدأ باسم الله . لأن لم نحسن
الارض التي نحرقها . ولا خلقنا بذرة التي نذرنا . ولا أمرنا الماء من السماء ليمس
الروع .

إن الملاح الذى يمسك الناس ويرمى الذرة قد يكون أحسن الناس بمصر
الارض ويحتويها الذرة وما يفعله الماء في التربة ليسمى الروع . إن كل ما يفعله
الإنسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله في المادة المحبوبة من الله . بالطاقة التي
أوجدتها الله في أيجادنا ليشم الروع .

والإنسان لا قدرة له على إزعم الأرض لتعطيه اشار . ولا قدرة له على حرق
أخيه بشمو وتصيح شجرة . ولا سلطان له على يرال الماء من السماء . فكأنه حين
يبدأ العمل باسم الله ، يذوه باسم الله الذى سحر له الأرض . وسحر له الحب ،
وسحر له الماء ، وكذا لا قدرة له عليها . ولا تدخل في طاقته ولا في استطاعته .
فكأنه يعلم أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سحرها له .

والله تبارك وتعالى سحر لنا الكون جميعا وأعطاه الدليل على ذلك . فلا نعتقد أن
لنا قدرة أودائية في هذا الكون . ولا نعتقد أن الأسباب والقوانين في كونها
دائية بل هي تعمل بقدرة خالقها . الذى إن شاء أجراه وإن شاء أوقفها

الحمل الضخم وأنجيل اهائل المستانس قد يقودهما طفل صغير فيطيعانه . ولكن الحية صعبة الحجم لا يقوى أى انسان على أن يستانسها . ولو كنا نفعل ذلك بقدراتنا . . لكان امتانس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمها . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلها مثالا لعلم أنه بقدراته هو قد أحضع لنا ما شاء ، ولم يحضع لنا ما شاء . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا غَمَّتْ أُيُوتٌ مُّتَعِمًا فَهُمْ لَا مَمْلُكُونَ ﴿١١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وهكذا نعرف أن مخسوع هذه الأسماع لنا هو تسخير الله لها وليس بقدرتنا

يأتى الله سبحانه وتعالى الى أرض ينزل عليها المطر بغزارة . والعلماء يقولون إن هذا يحدث بعوانين الكون . فخلقنا الله تبارك وتعالى لى خطأ هذا الكلام . بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لعدم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون . . فإذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ان شاءت جعلتها تعمل وان شاءت جعلتها لا تعمل . . إذن فكل شيء فى الكون باسم الله . هو الذى سخر وأعطى . وهو الذى يمنح ويمنع حتى فى الأمور التى للاسان فيها نوع من الاختيار . . وأقرأ نون الحق تبارك وتعالى .

﴿ إِنَّ إِلَهَ مَلَكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿١١﴾ أَوْ يَرْوِّحُهُمْ ذُكْرًا مَّا وَهَنَّا وَبَجَعِلُ مَن يَشَاءُ حَقِيقًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والاصل فى الدربة أنها تأتى من اجتماع الذكر والانثى . هذا هو لقانون ولكن القوانين لا تعمل الا بأمر الله . . لذلك يتروح الرجل والمرأة ولا تأتى الدربة لأنه ليس القانون هو الذى يخلق . ولكنها إرادة خالق القانون . ان شاء جعله

يعمل .. وإن شاء يبطئ عمله .. والله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين ولكنه هو الذى يحكمها .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل .. فهو قادر على أن يحرق القوانين .. خذ مثلاً قصة زكريا عليه السلام .. كان يكمل مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه .. ودخل عليها ليجد عندها مالم يحضره لها .
وسأها وهي القديسة العبدية الملائمة لمحرابها .

﴿ قَالَ يَحْسَبُ أَنَّ لَكَ هَذَا ﴾ ﴿١٧﴾

(سورة آل عمران)

الحق سبحانه وتعالى يعطيا هذه الصورة مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات . ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون .. هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات من يحصل عليها ..
الأم نرى الأب ينفق ما لا يتناسب مع مرتبه .. وترى الابنة ترتدى ما هو أكبر كثيراً من مرتبتها أو مصروفها .. ولو سألت الأم الأب أو الابنة من أين لك هذا ؟ لما فسد المجتمع .. ولكن الفساد يأتي من أننا ننمض أصهنا عن المال الحرام .
بماذا رمت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ﴿١٧﴾

(سورة آل عمران)

اذن فصلافة قدرة الله لا يحكمها قانون .. لقد لعت مريم زكريا عليها السلام أن طلاق القدرة .. فلما زكريا ربه فى قضية لا تمنع فيها الا طلاق القدرة .. فهو رجل عجوز وامراته عجوز وعاقرة ويريد ولدا .. هذه قضية ضد قوانين الكون .. لأن الانجاب لا يتم الا وقت الشباب ، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان .. فما بالك اذا كانت الروجة أساسا عاقرا .. لم تنجب وهي شابة وزوجها شاب .

فكيف نجب وهي عجور وزوجها عجور . . هذه مسألة ضد القويين التي تحكم البشر . ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالعجور ويصله . ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان . . ورزق زكريا بابنه يحيى .

اذن كل شيء فى هذا الكون باسم الله . . يتم باسم الله ويأتى من الله الكون تحكمه الأسباب نعم ولكن إرادة الله فوق كل الأسباب .

أنب حين تبدأ كل شيء باسم الله . . كأنك تجعل الله فى جانبك يمينك ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن يبدأ كل شيء باسم الله . . لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى . والعمل عادة يحتاج أن صفات متعددة فأت حين تبدأ عملاً تحتاج إلى قدرة الله وإلى قوته وإلى عونه وإلى رحمته . . فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يجبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات . . كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها . . كأقول باسم الله القوي وباسم الله الرافق وباسم الله المحب وباسم الله القادر وباسم الله النافع . . إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نستعين بها . ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول باسم الله باسم الله باسم الله باسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لابد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم باسم الله وإنما يريدون الجراء العادي وحده . . إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله . . وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفى ياله الله . . كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب الجميع له عطاء ربية لكل حلقه الدين استدعاهم للحياة ولكن الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية للإنسان بل الحياة الحقيقية هي الآخرة . . الذى فى ياله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية . . يقدر عطاء الله فى الدنيا . . والذى فى ياله الله يأخذ بقدر عطاء الله فى الدنيا والآخرة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

لأن المؤمن يحمد الله على نعمه في الدنيا .. ثم يحمد الله عندما ينتجبه من النار والعذاب ويدخله الجنة في الآخرة .. فله الحمد في الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم أقطع »^(١)

ومعنى أقطع أى مقطوع للذنوب أو الذل .. أى عمل ناقص فيه شيء صانع .. لأنك حين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك القروز والطمان بأفك أنت الذى سخرت ما فى الكون ليعفدك ويفعل لك .. وحين لا تبدأ العمل باسم الله .. فليس لك عليه جراه فى الآخرة ستكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا .. ويثرت أو قطعت عطاءه فى الآخرة .. فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة .. فأقبل على كل عمل باسم الله .. قبل أن تأكل قل باسم الله لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به .. عندما تدخل الامتحان قل بسم الله فيعينك على النجاح .. عندما تدخل الى بيتك قل بسم الله لأنه هو الذى يبرئك هذا البيت .. عندما تتزوج قل باسم الله لأنه هو الذى خلق هذه الروجة وأباحها لك .. فى كل عمل تفعله ابداه بسم الله .. لأنها تمنعك من أى عمل يغضب الله سبحانه وتعالى .. فأنت لا تستطيع أن تبدأ عملاً يغضب الله باسم الله .. إذا أردت أن تشرق أو أن تشرب الحمر .. أو أن تفعل عملاً يغضب الله .. وتذكرت بسم الله .. فإنك ستمتنع عنه .. ستستحي أن تبدأ عملاً باسم الله يغضب الله .. وهكذا ستكون أعمالك كلها فيما أباحه الله .

الله تبارك وتعالى حين تبدأ قراءة كلامه باسم الله .. فتحن نقراً هذا الكلام لأنه من الله .. والله هو الإله المعبود فى كونه .. ومعنى معبود أنه بطاع فيما يأمر به .. ولا يقدم على ما نهى عنه .. فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله فى العبادة .. وبطاعته فى الفعل ولا تفعل .. وهذا هو المقصود أن تبدأ قراءة القرآن باسم الله الذى آمنت به رب وإله .. والذى عاهدته على أن تطيعه فيما أمر وفيما نهى .. والذى بموجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقراء كتابه لتعمل بما فيه .. والذى خلق وأوجد ويحيى ويميت وله الأمر فى الدنيا والآخرة .. والذى ستقف أمامه يوم القيامة

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير ، وهزه لعبد الفادر الرهولوى فى أول كتاب (الأربعين) عن ابن جرير
بإسناد حسن رواه ابن كثير فى تفسيره بلطف وهو أجيب

ليحاسبك أحسن أم أمات . فالبداية من الله والنهاية الى الله سبحانه وتعالى

بعض الناس يتساءل كيف أبداً بسم الله . . . وقد عصيت وقد خالفت . . . تقول
ايلك أن تستحي أن تقرأ القرآن . . . وأن تبدأ بسم الله اذا كنت قد عصيت .
ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحثيثة التي ندأ بها قراءة القرآن فجعلنا سبداً بهم
الله الرحمن الرحيم . . . والله سبحانه وتعالى لا يتغلغل لعاصي بل يفتح له باب
الثوبة ويحبه عليها . . . ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الى الله . . . فيغفر له ذنبه ، لأن
الله رحيم رحيم . . . فلا تقل أبى استحي أن أبداً باسم الله لأبى عصيته . . . والله
سبحانه وتعالى يطيب من كل عاصي أن يعود الى حظيرة الايمان وهو رحيم رحيم .
فإذا قلت كيف أقول باسم الله وقد وقعت في معصية أمس . . . تقول لك قل باسم الله
لرحمن الرحيم . . . فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه . . . وهو سبحانه وتعالى الذي
يغفر الذنوب جميعاً

والرحمة والرحمن والرحيم . . . مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجسد في بطن
أمه . . . هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق . . . بلا حول ولا قوة . . . ويحد فيه كل
ما يحتاج إليه نموه ميماً . . . رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل . . . انظر
الى حوا الأم على أنها رحمتها عليه . . . وتجاورها عن سيناته وفرحته بعودته اليها . . .
ولذلك قال خلق سبحانه وتعالى في حديث قديمي

« أن الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن
قطعها قطعته » (١)

الله سبحانه وتعالى يريد أن نتذكر دائماً أنه يجمعنا ويرزقنا . . . ويفتح لك أبواب
الثوبة بما بعد آخر . . . ويعصى فلا يأخذنا بدنونا ولا يحرصنا من نعمه . . . ولا يهلك
بما فعلنا . . . ولذلك فمحن سدا تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم . . .
لتذكر دائماً أبواب الرحمة المفتوحة لنا . . . ترفع أيدينا الى السماء . . . ونقول يارب
رحمتك . . . تجاور عن دنونا وسيناتنا . . . ويدلث يظل قارئ القرآن متصلاً بأبواب
رحمة الله . . . كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود اليه . . . فهاهم الله رحماً ورحيماً
لا تغلق أبواب الرحمة أبداً . . .

حي أننا نلاحظ أن الرحمن والرحيم من صيغ المبالغة .. يقال راحم ورحمن ورحيم .. إذا قيل راحم فيه صفة الرحمة .. وإذا قيل رحمن تكون المبالغة في الصفة .. وإذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة .. والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .. ولماكم أن تفهموا أن الله تائيه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة . بل هي صفات الكمال المطلق ولكن الذي ينبغي هو منعك هذه الصفات .. قراً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة .. نعمت الظلم من الله سبحانه وتعالى ، ثم تأتي الآية الكريمة بقول الله جل جلاله :

﴿ وَمَا بِكَ يَظْلِمُ لِّلْعَبِيدِ ۖ ﴾

(سورة فصلت)

نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة . « ظلام » .. أي شديد الظلم .. وقول الحق سبحانه وتعالى : « ليس بظلام » .. لا تنفي الظلم ولكنها تنفي المبالغة في الظلم ، تنفي أن يظلم ولو مثقال ذرة .. نقول انك لم تفهم المعنى .. ان الله لا يظلم أحدا .. الآية الأولى نفت الظلم من الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبيد .. والآية الثانية لم تقل للعبيد ولكنها قالت للعبيد .. والعبيد هم كل خلق الله .. فلو اصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الاعداد الهائلة .. فإن الظلم يكون كثيراً جداً ، ولو أنه قليل في كميته لأن عدد من سيصاب به هائل .. ولذلك فإن الآية الأولى نفت الظلم من الله سبحانه وتعالى ، والآية الثانية نفت الظلم أيضاً من الله تبارك وتعالى .. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة .



ثاني بعد ذلك الى رحمن ورحيم . . رحمن في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته . . فرحمة الله في الدنيا تشمل المؤمنين والعاصي والكافر . . يعطيهم الله مقومات حياتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير . . اذن عدد الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا هم كل خلقه . بصرف النظر عن ايمانهم أو عدم ايمانهم

ولكن في الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط . فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله . اذن الذين تشملهم رحمة الله في الآخرة . . أقل عدداً من الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا . فمن أين تأتي المبالغة ؟ . . تأتي المبالغة في العطاء وفي الخلود في المعطاء . . فنعم الله في الآخرة اكبر كثيراً منها في الدنيا . . المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها . . فكان المبالغة في الدنيا بعمومية العطاء ، والمبالغة في الآخرة بخصوصية العطاء للمؤمن وكثرة النعم والخلود فيها

ولقد حثف عدد العلماء حول اسم الله الرحمن الرحيم . . وهي موجودة في ١١٣ سورة من القرآن الكريم هل هي من آيات السور نفسها بمعنى أن كل سورة تبدأ « بسم الله الرحمن الرحيم » بحسب لبداية كل آية الأولى من السورة ، أم انها حثبت فقط في قائمة الكتاب ، ثم بعد ذلك نعتبر فواصل بين السور . .

وقال العلماء أن « بسم الله الرحمن الرحيم » آية من آيات القرآن الكريم . ولكنها ليست آية من كل سورة ماعدا فاتحة الكتاب فهي آية من الفاتحة . وهناك سورة واحدة في القرآن الكريم لا تبدأ بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وهي سورة التوبة وتكررت اسم الله الرحمن الرحيم في الآية ٣٠ من سورة البقرة في قوله تعالى -

﴿ تَبٰرَكَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا ۚ إِنَّهُ مَنّٰهُ بِرَحْمَتِهِ الرَّحِيْمِ ۝ ﴾



في القرآن الكريم ، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفا عن معناه في المرة السابقة ، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك فهو يضع اللفظ في مكانه الصحيح ، وفي معناه الصحيح . .

قونا - «بسم الله الرحمن الرحيم» هو استعانة بقدرة الله حين تبدأ فعل الأشياء . إذا فلفظ الجلالة «الله» في بسم الله ، معناه الاستعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى وصفاته . لتكون عونا لنا على ما فعل . ولكن إذا قلنا : الحمد لله . فهي شكر لله على ما فعل لنا . ذلك أما لا نستطيع أن نعظم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الله تعالى . لآنا نحمده على كل صفاته ورحمت با حتى لا نقول باسم الفهر وباسم الوهب وباسم الكريم ، وباسم الرحمن . . نقول الحمد لله على كمال صفاته ، يشمل الحمد كمال الصفات كلها .

وهناك فرق بين «بسم الله» الذي نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه لأن الله هو الذي سحر كل ما في هذا الكون ، وجعله يحدث ، وبين «الحمد لله» فإن لفظ الجلالة إنما جاءها لحمد الله على ما فعل لنا فكان «بسم الله في السملة» طلب العون من الله بكن كمال صفاته . . وكان الحمد لله في الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

و«الرحمن الرحيم» في السملة لها معنى غير «الرحمن الرحيم» في الفاتحة ، ففي السملة هي تذكرونا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لا نستحي ولا نهاب الله نستعين باسم الله أن كنا قد فعلنا معصية . فإله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائما في كل أعمالنا . فإذا سقط واحد من في معصية ، قال كيف نستعين باسم الله ، وقد عصيته ؟ يقول له ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة . فبمعرك وتعين به فيجيبك .

وأت حين نسلط في معصية نستعيد برحمة الله من عذله ، لأن عذله الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا حسباها



وأقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفَعِينَ بِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ بَلْزِيلَتْنَا مَلَكٌ هَذَا الْكِتَابُ

لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاصِرًا وَلَا يَعْصِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝١١﴾

(سورة الكهف)

ولولا رحمة الله التي سبقت عدله . ما بقي للناس نعمة وما عاش أحد على ظهر الأرض .. فالحق جل جلاله يقول :

﴿ وَلَوْ يَدْرَأُهُ اللَّهُ الْنَّاسَ يَطْلُبُهُمْ مَا تُرِكَ عَلَيْهِمْ ذَنْبٌ وَلَكِنْ يُوَفِّرُهُم إِلَىٰ أَهْلِ مَسْجِدٍ إِذَا

جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَفِحُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝١٢﴾

(سورة النحل)

فالإنسان خلق ضعيفا ، وخلق هلوفا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .
ولا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتخذه الله برحمته ، قانوا : حتى أنت يا رسول
الله قال : حتى أنا

فذنوب الإنسان في الدنيا كثيرة .. إذا حكم فقد يظلم . وإذا ظن فقد يسيء ..
وإذا تحدث فقد يكذب . وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق . وإذا تكلم فقد
يغتتاب .

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة . ولا يمكن لأحد منا أن يمس الكمال لنفسه
حتى الدين يدلون أقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون الى الكمال ، فالكمال لله
وحد . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين
التوابون» (١) .

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أنس رضي الله عنه .

ويصف الله سبحانه وتعالى الإنسان في القرآن الكريم

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ فِي شَيْءٍ مَّا سَأَلْتَهُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلِيلٌ كَفَّارٌ ۝﴾

(سورة ابراهيم)

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنع المعصية عن أن ندخل إلى كل عمل باسم الله .. فعلمنا أن نقول : وبسم الله الرحمن الرحيم لكي يعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل باسم الله .. لأنه رَحِيمٌ رَحِيمٌ ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن الرحمن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذي أوجدك من عدم وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . أنت تحمدُه من هذه النعم التي أخذتها برحمته الله سبحانه وتعالى في ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من الصورة بقدر ما فيها من رحمة .

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذي استدعاهم جميعاً إلى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته . وليس بما يستحقون .. فالشخص تشرق على المؤمن والكافر .. ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ،

والعطر يربط على من يعبدون الله . ومن يعبدون أوثاناً من دون الله . والنفوس يتنفس من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها .

وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا لخلقته جميعاً ، وهذه رحمة . فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه . وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة .

إدفع في الفاتحة تأني «الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله في ربوبيته خلقه ، فهو يميل العاصي ويفتح أبواب التوبة لكل من يلجأ إليه

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه . وهذه رحمة تستوجب الشكر . بمعنى «الرحمن

الرحيم، في البسمة يختلف عنها في الفتحة . فإذا انتقلنا بعد ذلك الى قوله تعالى :

والحمد لله رب العالمين، والله محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله محمود قبل ان يخلق من يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما : الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشر على جميل فعنه تظن ساعات وساعات . . تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحنف وتضيف وتأخذ رأي الناس . حتى تفصل الى نصيحة أو خطاب مليء بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى جعل قدرته وعظمته نعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا ان نشكره في كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . .

ولعلمنا نفهم ان المبالغة في الشكر للبشر مكروهة لأنها تصيب الانسان بالغرور والتعاق وتزيد انماص في معاصيه . فلنقلل من الشكر والثناء للبشر . . لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : الحمد لله . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه عندما صيغة الحمد . فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين . . لكان من الصعب على البشر أن يحدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الالهي . . فبها أوتي الناس من بلاعة وقدره على التعبير . فهم عاجزون عن أن يصلوا الى صيغه الحمد التي تليق بجلال المسم . فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشري عن حمد كمال الألوهية لله ، فقال : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وكلمتا الحمد لله ، ساوى الله بها بين البشر جميعا ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدرتهم على التعبير . فهذا أمر لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يحد الكلمات التي يحمد بها الله . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع أن يأتي بصيغة الحمد بما أود من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر في الحمد . . طبقا لقدرة في مآزل الدنيا

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوى بين عباده جميعا في صيغة الحمد له . فبعلت في أول كلماته في القرآن الكريم . . أن نقول « الحمد لله » ليعطى

انفرصة المساوية لكل عبده بحيث ينوى المتعظم وغير المتعلم في عطاء الحمد ومن أولى اللاقة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علم كيف نحمده وليظل لعبد دائما حامدا . ويطن الله دائما محمودا . والله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا مرجيات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والأرض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضح في الأرض أقواتها إلى يوم القيامة . وهذه نعمة يسحق الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنساني ، معنما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستفله . بل إن الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أما لبشر جميعا سقته الجنة التي عاش فيها لا يتعب ولا يشقى . فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجود وجدها ومعدا قبل الحق . وحيما نزل آدم وحواه إلى الأرض كانت النعمة قد مسقتهما فوجد ما يأكله وما يشربه ، وما يقيم حياته . ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنساني وحلفت بعده لهلك الإنسان وهو ينظر مجيء النعمة .

بل إن العطاء الإلهي للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق في رحم أمه فيجد رجا مستعدا لاستقباله وغذاء يكتبه طوي مدة الحمل . فإذا خرج إلى الدنيا يضع الله في صدر أمه لبنا يرل وقت أن يحو ويمتد وقت أن يشع . وينتهي تماما عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويعد أبا وأما يوفرن له مقومات حياته حتى يستطيع

أن يقول بسمه . . وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكيف وقبل أن يستطيع أن يعلق : « الحمد لله »

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المُعْظَم عليه دائما . . فالإنسان حين يقول « الحمد لله » فلأن مرجيات الحمد - وهي النعمة - موجودة في الكون قبل الوجود للإنسان .

والله سبحانه وتعالى خلق لنا في هذا الكون أشياء تعطي الإنسان عبر قدرة منه ودون خضوع له ، والإنسان عاجز عن أن يعلم لبسمه هذه اسم التي يقدمها الحق ببارك وتعالى له بلا جهد . فالشمس تعطي الضوء والحياة للأرض بلا مقابل وبلا

فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء دون ان يكون لك جهد فيه أو قدرة على إمرائه . والهواء موجود حولك في كل مكان تنفس منه دون جهد منك ولا قدرة . والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبنر فيها لحب وتسقيه . فالزراع يبت بقدرة الله . . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لثراح ، وأن تسمى لحياتك . . لا أنت أنت بضوء النهار . . ولا أنت الذي صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة في الليل والعمل في النهار بقدرة الله دون ان تفعل شيئا .

كل هذه الاشياء لم يخلقها الانسان ، ولكنه خلق ليحدها في الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد . . ألا تستحق أن يقول الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الانسان ؟ إنها تقتضي وجوب الحمد .

وآيات الله سبحانه وتعالى في كونه تستوجب الحمد . . فالحياة التي وهبها الله لنا ، والآيات التي أودعها في كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً فالكون بشمس وقمر ونجوم وأرض وكل ما فيه مع بفرق قدرة الانسان . . ولا يستطيع أحد أن يدعي لنفسه . فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعي أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون أو أعطى الأرض خلافتها الجوى . . أو خلق نفسه أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى . هي التي أوجدت وهي التي خلقت . . وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا في سكوتها ننساها ، بل هي متحركة لتلفتنا الى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق في الصباح فتذكرنا بعجل الخلق ، وتغيب في المساء لتذكرنا بمظلمة الخالق . . وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كل يوم هنا نلصق ونفبق . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بالوهمية من أنزله . والزروع يخرج من الأرض يسفى بماء واحد ومع ذلك فإن كل نوع له لون وبه شكل وله مذاق وله رائحة . . وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتي الحصاد فيختص الثمر والزروع . . ويأتي موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شيء في هذا الكون متحرك ليذكرنا إذا نسبنا . ويعلمنا أن هناك خالقاً عظيماً .

ونستطيع أن نمضي في ذلك بلا نهاية فنعم الله لا تعد ولا تحصى . وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى وبعبارة الدليل الايماني على ان لهذا الكون خالقاً مبدعاً . . . وانه لا أحد يستطيع ان يدعى انه خلق الكون او خلق ما فيه . . . فالحق قضية محسومة لله . . . والحمد لله لأنه وضع في نفوسنا الايمان المعطري ثم ابده بإيمان عقلي بآياته في كونه .

بل إن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد ، ومع ذلك فإن الانسان يمدح الوجود وينسى الموجود !! است حين ترى جوهرة جميلة مثلاً أو زهرة غاية في الإبداع . أو أي خلق من خلق الله يشبع في نفسك انجمال تمتدح هذا المخلوق فتقول ما أحمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق ولكن المخلوق الذي امتدحته ، ثم يعط صفة الجمال لنفسه . فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها في عظمة خلقها . وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا يحل أن يمدح المخلوق وينسى الخالق . بل قل الحمد لله الذي أوجد في لكون ما يذكرنا بمظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضي منا الحمد . لأن الله أنزل منهجه ليريد طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله الذي أنزله على رسه قد عرفنا ان الله تبارك وتعالى هو الذي خلق لنا هذا الكون وحلقنا . . . فدقة الخلق وعظمته تدل على أن هناك خالقاً عظيماً . . . ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا من هو ، ولا ماذا يريد منا . ولذلك أرسل الله رسه ، ليضولوا بنا إن الذي خلق هذا الكون وحلقنا هو الله تبارك وتعالى وهذا يستوجب الحمد

ومنهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا وكيف نعمله . وهذا يستوجب الحمد ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا مايلوب حياتنا تشريعاً حقاً . . . قاله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد ما . . . ولا يفصل أحداً على أحد إلا بالصوى ، فكنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله .

إذن مشريعة الحق وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من الله ، أما تشريعات



الناس فلها هوى تميز بعضها عن بعض . وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين ،
لذلك نجد في كل مهج بشري ظمنا بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والترفع .
بينما الشعب كله في شقاء لأن هؤلاء الذين شرعوا اتبعوا هواهم ووضعوا
مصلحتهم فوق كل مصلحة . .

وكذلك في الدول الرأسمالية أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن
الله سبحانه وتعالى حين نزل بنا المنهج قضى بالعدل بين الناس . . وأعطى كل
ذي حق حقه . وعلمنا كيف نستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن
الهوى البشري حاضعة لعدل الله ، وهذا يوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ ما ولكته يعطينا . فالبشر
في كل عصر يحاولون استقلال البشر لأنهم يطعمون لما في أيديهم من ثروات
وأموال ، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى ما في أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ
مننا ، علمه خزائن كل شيء مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِرٌ مِمَّا يُسْأَلُونَ ۚ لَا يَنْفَعُ مَقُولُ ۚ﴾ (٢١)

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء الخلقه ، والخلق يأخذون دائما من نعم الله ،
فكان العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك وهذا يستوجب الحمد . .

والله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان ، وأن يدهره وأن
يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا العدل في الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من
صاحب نعمود ، فلا بد أن يحدد لك موعد أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيئ
بك فيقف لينهى اللقاء . ولكن الله سبحانه وتعالى يهبه معترج دائما . فأنت بين
يديه عندما تريد وترفع يديك إلى السماء وتدهو وقتا تحب وتسال الله ما تشاء فيعطيك
ما تريد إن كان خيرا لك . ويجمع عنك ما تريد إن كان شر لك

والله سبحانه وتعالى يطلب منك ان تدعوه وان تسأله فيقول .

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(سورة الفلق)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيَقْرَأُوا لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى يعرف ما في نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون ان تسأل
واقرا الحديث القدسي
يقول رب العزة

(من خلقه ذكرى عن سألي أعطيت أفضل ما أعطى السائلين)^(١)

والله سبحانه وتعالى عطوفه لا ينفد رزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان
لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن
يحققه لك .
واقرا قول الشاعر :

حب نفسي عرا بأبي عبد
بعضي بي بسلام وعبد رب
هو في قديمه الأهرز ولكن
أنا القى متى وأين أحب

اذن عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد .. ومنه العطاء يستوجب الحمد .

وجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد .. فانه يستحق الحمد لذاته ، ولولا عدل الله لبغى الناس في الارض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم نجعله عبرة .. فيخاف الناس الظلم .. وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه واستبداده سيفي الله في الاخرة ليولي حسابيه . وهذا يوجب الحمد .. أن يعرف المظلوم أنه سينال جزاءه فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ان هناك يوما سيرى فيه ظلمه وهو يعلب في النار .. فلا تصيبه الحسرة ، ويخف احساسه بمرارة الظلم حين يعرف ان الله قائم هل كونه لن يفلت من عيله أحد .

وعندما نقول « الحمد لله » فمن نمر من الانفعالات متعددة .. هي في مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر واعرفان .. وكثير من الانفعالات التي تحملها النفس عندما تقول « الحمد لله » كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعظمته .. هذه الانفعالات تأل من النفس وتستقر في القلب . ثم تفيض من الجوارح على الكون كله ..

فالحمد ليس العاطا تردد باللسان ولكنها تمر أولا على العقل ليحي معنى النعم .. ثم بعد ذلك تستقر في القلب فينعش بها . وتنتقل الى الجوارح فأقوم واصل الله شاكرا وتهتز جسدي كله وتميض الدمعة من عيني .. وينتقل هذا الانفعال كله الى من حولي .

وتعبر ذلك قليلا .. هب اني في أزمة أو كرب أو شيء سيؤدي الى فضيحة .. وجماعي من بفرج كرب فيعطيني مالا أو يفتح لي طريقا .. أول شيء اني سأعقل هذا الجميل فأقول ان يستحق الشكر .. ثم ينزل هذا المعنى الى قلبي فيهتز القلب الى

صانع هذا الجميل .. ثم تنفعل جوارحي لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه عن جميل صنعه . ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الالتجاء اليه . فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس .. فيمرون بنفص ماحدث لي فتتسع دائرة الشكر والحمد ..

والحمد لله تعظيما المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٧)

(سورة ابراهيم)

وهكذا نعرف ان الشكر على النعمة يعطينا مزيدا من النعمة . . فشكر عليها فتعظيما المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة . . اما لو استعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقضى الحمد ، عندما نتم وبأخذ الله سبحانه وتعالى ارواحنا ، ثم يردنا اليها عندما يستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالحمد سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَكِبُونَ فَصَحَّ عَنْهَا الْقَوْلُ وَرُسُلُ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤٦)

(سورة الزمر)

وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وان الله سبحانه وتعالى رد علينا ارواحنا ، وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من السرير فالحمد سبحانه وتعالى هو الذي يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا ان نقوم . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا تناولنا اطيارا فالحمد هيا لنا طعاما من فضله ، فهو الذي خلقه ، وهو الذي انبته ، وهو الذي وردنا به ، وهذا يستوجب الحمد . .

فإذا برزنا الى الطريق يمسر الله لنا ما يقينا الى مقر اعمالنا وسحره لنا ، سواء كنا غلثك سيارة او نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، وإذا تحدثنا مع الناس فالحمد سبحانه وتعالى هو الذي اعطى الستة القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق . . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا الى اعمالنا ، فالحمد يمسر لنا عملا نرتزق منه لتأكل حلالا . وهذا يستوجب الحمد

وإذا عدنا الى بيوتنا فالحمد سخر لنا زوجاتنا وورقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد .

اذن نكل حركة حياة في الدنيا من الانسان تستوجب الحمد . ولهذا ، لانه ان يكون الانسان حاملا دثا . . من ان الانسان يجب ان يحمده الله على اى مكروه أصابه ؛ لانه قد يكون لشيء الذى يعتبره شرا هو عينه الخير . قاله تعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْسَبُوا سُرَّتْ أَنْ يُرَءَوْا أَلَيْسَ كَرِهُوا أَنْ تَعْلَمُوا مِنْ رَبِّهِمْ بِمَا تَعْمَلُونَ فِي السِّرِّ ﴾
إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِعَدِيَّةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴿٦٣﴾

(سورة النساء)

اذن فأت محمد الله لأن نصاءه خير . سواء أحببت الفصاء أو كرهته فإنه خير لك . لا لك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

وهكذا من موجهات الحمد ان تقول الحمد لله عن كل ما يحدث لك في ديك . فأنت بذلك ترد الأمر الى الله الذى خلقك . فهو أعلم بما هو خير لك .

فإنه الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين . لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين ؟ نقول إن « الحمد لله » تعنى حمد الأنوية . فكلمة الله تعنى المعبود بحق . فالمعبود تكليف والتكليف يأتي من الله لعبده . . فكان الحمد لولا لله ثم يقتضى بعد ذلك أن يكون الحمد الربوبية الله على الجاد من عدم وابدان من عدم . . لأن المتصل بالعدم قد يكون محمودا عند كل الناس . لكن التكليف يكون شافا على بعض الناس . . ولو علم الناس قيمة التكليف في الحياة . . لحمدوا الله أن كلمهم بأفضل ولا تعمل . لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم . فتمضى حركة الحياة متساندة مسجمة . اذن فالعبادة الاولى هي أن المعبود ابلاغنا من عبادته ، والنعمة الدية أنه رب العالمين .

في الحياة الدب هناك المطيع والمعاصي ، والمؤمن وغير المؤمن . والذين يدخلون في معاد الألوية هم المؤمنون . أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع . ونحن نحمد الله على عطاء ربوبيته ، لأنه الذى خلق ، ولأنه رب العالمين . . الكون كله لا يخرج عن حكمه . . فليطمئن الناس في الدنيا ان

النعم منعمة لهم بماء ريويتيه .. فلا الشمس تستطيع أن تعيب وتقرل لى
أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تعظم بعضها بعض فى الكون ، ولا لأرض
تستطيع أن تمنع إنبات الزرع .. ولا الغلاف الجوى يستطيع أن يبعد عن لأرض
فيمتنق الناس جميعا ..

اذن فالحلله سبحانه وتعالى يريد ان يطعمش عباده انه رب لكل مافى الكون فلا
تستطيع اى قوى تخدع الانسان ان تمتنع عن خدمته . لان الله سبحانه وتعالى
مسيطر على كونه وعلى كل ماخلق . انه رب العالمين وهذه توجب الحمد . ان
يسبىء الله سبحانه وتعالى للانسان مايجده ، بل جعله سيدا فى كونه . ولذلك فإن
الانسان المؤمن لا يخاف العدم . وكيف يخافه والله رب العالمين . اذا لم يكن عنده
طعام فهو واثق ان الله مبرزقه لانه رب العالمين . واذا صادفته ازمة فقلبه مطمئن

الى ان الله سينزع الازمة وينزل الكرب لأنه رب العالمين . واذا اصابته بعملة ذكر
الله فشكروا عليها لأنه رب العالمين الذي اسلم عليكم .

فالخلق سبحانه وتعالى يحمد على انه رب العالمين .. لا شيء في كونه يخرج عن
مراده المسمى . اما عطاء الالهية فجزاؤه في الآخرة .. فالديار اختيار للايمان ،
والآخرة دار الجزاء . ومن الناس من لا يعبد الله هؤلاء متساوون في عطاء
الربوبية مع المؤمنين في الدنيا .. ولكن في الآخرة يكون عطاء الالهية للمؤمنين
وحددهم .. فتعم الله لأصحاب الجنة ، وعطاءات الله لمن آمن .. واتوا قوله تبارك
وتعالى .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَالَصَةٌ يَوْمَ النِّعَمِ ۚ كَذَلِكَ نَعْمَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾

(سورة الأعراف)

على ان الحمد لله بس في انفسنا فقط .. بل هو في الدنيا والاخرة .. الله محمود
دائما .. في الدنيا بمعامه ربيوت لكل حلقه . وعطاء انوحيته لمن آمن بوقى الاخرة
بمعطاته للمؤمنين من عباده .. واقرأ قوله جل جلاله .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (١٥)

(سورة الزمر)

وقوله تعالى :

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سَبْحُكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ قَرِيبٌ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥)

(سورة يونس)

فاذا انتقلنا الى قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» فمن موجبات الحمد أن الله سبحانه ونعملي رحمن رحيم .. يعطي نعمه في الدنيا لكل عباده عطاء ربهويي ، وعطاء الربويي للمؤمن والكافر . وعطاء الربويي لا ينقطع الا عندما يموت الانسان ..

والله لا يجيب نعمه عن عباده في الدنيا .. ونعم الله لا تمند ولا تحصى . ومع كل التقدم في الآلات الحاسة والعقول الالكترونية وغير ذلك فإننا لم نجد أحدا يتقدم ويقول انا ساحصي نعم الله .. لأن موجبات الاحصاء ان تكون قادرا عليه .. فانت لا تقبل هل عد شيء الا اذا كان في قدرتك ان تحصيه .. ولكن مادام ذلك يخرج قدرتك وطاقتك فانك لا تقبل عليه .. ولذلك لن يقبل احد حق يوم القيامة عن احصاء نعم الله تبارك وتعالى لان احدا لا يمكن ان يحصياها .

ولا بد ان نلتفت الى ان الكون كله يضيق بالانسان ، وان العالم المقهور الذي نخدمنا بحكم القهر والتسخير يضيق حين يرى العاصين .. لان المقهور مستقيم على منهج الله قهرا .. فحين يرى كل مقهور الانسان الذي هو في خدمته عاصيا يضيق .

واقرا الحديث انقدس لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده .. يقول الله عز وجل : ما من يوم تطلع شمسه الا وتنادي السياه تقول يا رب ائذن لي أن أسقط كسفا على ابن آدم ، فقد طعم غيورك ومنع شكرك وتقول البخار يا رب ائذن لي أن أفرق ابن آدم فقد طعم غيورك ومنع شكرك . وتقول الجبال يا رب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم فقد طعم غيورك ومنع شكرك . فيقول الله تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتهم

لرحمتهم هم عادي فإن تابو إلى فأما حييهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم : رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده .

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم . . وكيف صممت لنا بقاء كل ما نجدنا في هذا الكون مع معصية الإنسان . . انها كلها تجدنا بعطاء الربوبية وتبقى في خدمتنا بتسخير الله لها لانه رحيم رحيم . .

بعض الناس قد يتساءل هل تتكلم الارض والسماء وغيرها من المخلوقات في عالم الجناد والحيوان ؟ نقول نعم ان لها لغة لا نعرفها نحن وانما يعرفها خالقها . دليل انه سد الخلق الاول الملقا الحق تبارك وتعالى ان هناك لغة لكل هذه المخلوقات وانفرا قوله جل جلاله :

﴿ ثُمَّ اسْرَوْا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا سوًّا أَوْ كَرِهًا قَالْنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فالأرض والسماء فهمت كلتاهما عن الله . وقالت به سبحانه وتعالى : آتينا طائعين ، ألم يعلم الله سليمان منطق الطير ولغة النمل ؟ ألم تسبح لجمال مع داود ؟ إذن كل خلق الله له إجراءات مناسبة . . بل له عواطف . . فعندما تكلم الله سبحانه وتعالى عن قوم فرعون . . قال :

﴿ كَرَّ تَرَكُوا مِ مِّنْ نُفْسٍ وَعِيُونَ ١٦ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَبِيرٍ ١٧ وَنَعَمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ١٨ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ١٩ كَذَلِكَ عَلَّمْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا كَانُوا مُفْهَرِينَ ٢٠ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالسماوات والأرض لها انفعال . انفعال يصل الى مرحلة البكاء . بها لم يبكيا على فرعون وقومه . . ولكنها تكيان حزنا عندما يفارقها الإنسان المؤمن المصلح لطبق لمهج الله . . ولقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه : (اذا مات المؤمن



يكنى عليه موضعان موضع في الارض وموضع في السماء . اما الموضع في الارض فهو مكان مصلاه الذي اسعده وهو يصل فيه . واما الموضع في السماء فهو مصعد عمله الطيب .



﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

إذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد . فإن «مالك يوم الدين» تستحق الحمد الكبير . لأنه لو لم يوجد يوم للحساب ، لجأ الذي ملأ الدنيا شروراً . نون أن يجارى عن ما فعل . ولكن الذي لزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة أرضاء لله قد شفى في الحياة الدنيا . . ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو «مالك يوم الدين» . . أعطى الاتزان للوجود كله . هذه الملكية ليوم الدين هي التي حث الضعيف والمظلوم وأبقت الحق في كون الله . إن الذي منع الدنيا أن تتحول إلى غارة يمتك فيها القوى بالضعيف والطالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسب خلقه .

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره ؛ لأنه يحشى الله ويعطى كل ذي حق حقه ويعفو ويسامح . . إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والمعدل

أما الإنسان العاصي فيشقى به المجتمع لأنه لا أحد يسلم من شره ولا أحد إلا يصيبه ظلمه . ولذلك فإن «مالك يوم الدين» هي الميزان . . تعرف أنت أن الذي يفسد في الأرض تنظروا لآخره . لن يفلت منها كانت قوته ونفوذه ، فتطمش احتملتنا كاملاً إلى أن عدل الله ميزان كل ظالم .

على أن «مالك يوم الدين» لها قراءتان «مالك يوم الدين» . وملك يوم الدين . والقراءتان صحيحتان . والله تبارك وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه «مالك يوم الدين» . وملك الشيء هو المتصرف فيه وحده . ليس هناك دخل لأي فرد آخر . أما أملك عاصي . . وأملك متاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتصرف في هذا كله أحكم فيه بما أراه . .

فمالك يوم الدين . . معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب . وأن كل شيء سيأتى من الله مباشرة . دون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً .



فمن الدنيا يعطى الله للملك ظاهراً لبعض الناس.. ولكن في يوم القيامة ليس هناك ظاهراً.. فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى.. ولذلك يقول الله في وصف يوم الدين:

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ ①

(سورة الاطمان)

فكان الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في الدنيا لتعطي به الحياة.. ولكن في الآخرة لا توجد أسباب الملك في ظاهر الدنيا من الله سبحانه لمن يشاء.. وأقرأ قوله تعالى

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ نُورُ الْمُلْكِ مَنْ نَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ وَنُفِخَ مِنْ نَشَاءِ وَتُدَلُّ مَنْ نَشَاءُ بِرَبِّكَ الْحَكِيمِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ②

(سورة آل عمران)

ولعن قوله تعالى: «وتنزع» تلفتاً إلى أن أحداً في الدنيا لا يريد أن يترك الملك.. ولكن للملك يجب أن ينتزع منه انتزاعاً بالرحم من إرادته.. والله هو الذى ينتزع الملك من يشاء..

وهنا نسأل هل الملك في الدنيا والآخرة ليس لله؟.. نقول الأمر في كل وقت لله.. ولكن الله تبارك وتعالى استخف بعض خلقه أو مكنهم من الملك في الأرض.. ولذلك نجد في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءَ إِزْمَاتُهُمْ فِي رِجَّةٍ أَنْ هَانَتْ لَهُ الْمُلْكُ إِذْ قَالَ إِزْمَاتُهُمْ إِلَى اللَّهِ يَخَوُّهُ وَيُعِيبُ قَالَ أَمَا أَنُحْيِي وَأُيَسِّرُ قَالَ إِزْمَاتُهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي وَالشَّمْسُ مِنَ الْمَشْرِقِ فَلَبِثَ بَنَاءُ الْمَعْرِبِ قَبِيَّتَ الَّذِي كَمَرَتْ لَهُ لَا يَبْقَى الْقَوْمَ الْفَالِغِينَ ﴾ ③

(سورة البقرة)

والذى حلاج ابراهيم فى ربه كافر منكر للالهية . ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته بل الله جل جلاله هو الذى اتاه الملك . . . ادن الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض حقيقته ومكنهم من ملك فى الارض طاهريا . . . ومعنى ذلك انه ملك ظاهر للناس فقط . . . أن بشرا أصبح ملكا . . . ولكن الملك ليس نابعا من ذات من يملك . . . ولكنه نابع من أمر الله . . . ولو كان نابعا من ذاتية من يملك لبقى له ولم ينزع منه . . . والمثلط الطاهر يمتنع فيه العباد ، فيعاسهم الله يوم القيامة . . . كيف تصرفوا ؟ وماذا فعلوا ؟ . . . ويمتنع فيه اناس هل سكتوا على الحكم الظالم ؟ . . . وهل امتنعوا المعصية ؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم ؟ . . . والله سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد . . . ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم . . . حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول : يا رب لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعت طريق الحق وطبقت منهجك .

وهنا باقى سؤال . اذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء فلماذا الامتحان ؟ . . . نقول اننا اذا أردنا ان نضرب مثلا يقرب ذلك الى الأدهان . . . ولله المثل الاعلى . . . نجد ان الجامعات فى كل انحاء الدنيا تقيم لامتحانات لطلابها . . . فهل اساتذة الجامعة الذين علموا هؤلاء الطلاب يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون ان يحصلوا منه على العلم ؟ . . . طبعا لا . . . ولكن ذلك يحدث حتى اذا راسب الطالب فى الامتحان . . . وجاء يعادل واجهوه بإجابته فيسكت . . . ولو لم يعهد الامتحان لادعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف .

اذا قال الحق تبارك وتعالى : «مالك يوم الدين» . . . أى الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء . . . واذا قيل : «ملك يوم الدين» . . . فتصرفه أعلى من مالك لأن المالك لا يتصرف إلا فى ملكه . . . ولكن الملك يتصرف فى ملكه وملك غيره . . . فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره .

الذين قالوا : «مالك يوم الدين» انبتوا لله سبحانه وتعالى انه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما يشاء دون تدخل من احد ولو ظاهرا . . . والذين يقرأون منك . . . يقولون ان الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى امر حقيقته حتى الدين ملكهم فى الدنيا ظاهرا . . . ونحن نقول عندما يأتى يوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله

الله تبارك وتعالى يريد ان يطعن عباده . نعم اذا كانوا قد ابتلوا بمالك او ملك
يطعن عليهم فيوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله جل جلاله . . . حينما تقول مالك
او ملك يوم الدين . . . هناك يوم هناك الدين . . . اليوم عندنا من شروق الشمس الى
شروق الشمس . . . هذا ما نسبه فلنكيا يوما . . . واليوم في معناه ظرف زمان تقع فيه
الاحداث . . . والمفسرون يقولون : «مالك يوم الدين» اي مالك امور الدين لأن
ظرف الزمان لا يملك . . . نقول ان هذا بمقاييس ملكية البشر ، فمن لا يملك
الزمن . الماضي لا نستطيع ان نعيده ، والمستقبل لا نستطيع ان نأتي به . . . ولكن الله
تبارك وتعالى هو خالق الزمان . والله جل جلاله لا يحده زمان ولا مكان . كذلك
قوله تعالى : «مالك يوم الدين» لا يحده زمان ولا مكان . . . واقرا قوله سبحانه :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْلُونَ ٢٧﴾

(سورة الحج)

وقوله تعالى .

﴿نَعْرِجُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ بِقَدَارِهِ مِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٢٨﴾

(سورة العنكبوت)

وإذا تأمل هاتين الايتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى . . . ذلك ان الله
جل جلاله هو خالق الزمن . . . ولذلك طأه يستطيع ان يخلق يوما مقداره ساعة . .
ويوما كليا مقداره أربع وعشرون ساعة . . . ويوما مقداره ألف سنة . . . ويوما
مقداره خمسون ألف سنة ويوما مقداره مليون سنة . . . فذلك خاضع لمشيئة الله .

ويوم الدين موجود في علم الله سبحانه وتعالى . بأحداثه كلها بجنته وبأرضه . . . وكل
الخلق الذين سيحاسون فيه . . . وعندما يريد ان يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه
جل جلاله الى علم خلقه . . . سواء كانوا من الملائكة او من البشر أو الجن يقول :
كن . . . قاله وحده هو خالق هذا اليوم . . . وهو وحده الذي يحدد كل أيامه . . . واليوم
نحن نحدده ظاهرا بأنه أربع وعشرون ساعة . ونحدده بأنه الليل والنهار . . . ولكن
الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائما على الارض . . . فعندما تتحرك الارض ، كل

حركة هي نهاية نهار في منطقة وبداية نهار في منطقة اخرى . وبداية ليل في منطقة ونهاية ليل في منطقة اخرى . . . ولذلك في كل لحظة ينتهي يوم ويبدأ يوم . . وهكذا فإن الكرة الارضية لو اخذتها نظرة شاملة لا ينتهي عليها نهار أبدا . . ولا ينتهي عنها ليل أبدا . . إذن فاليوم سبى بالنسبة لكل بقعة في الارض . ولكنه في الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الارضية .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يطعم من عباده . . أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا . . فإن هناك يوما لا ظلم فيه . وهذا اليوم لا مرفه لله وحده بدون أسب . . فكل انسان لو لم يدركه العدل والفضائل في الدنيا فإن الآخرة تنتظره . والذي أتبع منهج الله وفيد حركته في اخية بحره الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما سيأخذ فيه أجره وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة . . نعم لا يعزوك ولا تفوته

ولقد دخل أحد الاشخاص على رجل من الصالحين . . وقال له أريد أن أعرف . أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال له الرجل الصالح ان الله أرحم بعباده ، فلم يجعل موازينهم في أيدي أمثالهم . فميران كل انسان في يد نفسه . . لماذا ؟ . لأنك تستطيع أن تعش الناس ولكنك لا تعش نفسك ميزانك في يديك . . تستطيع ان تعرف أنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة

قال لرجل كيف ذلك ؟ فرد العبد الصالح : اذا دخل عليك من يعطيك مالا . . ودخل عليك من يأخذ منك صدقة . . فبأيها تفرح ؟ . . فسكت الرجل . . فقال العبد الصالح اذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا فأنت من أهل الدنيا . . واذا كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة فأنت من أهل الآخرة . . فإن الانسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه . . والذي يعطيك مالا يعطيك الدنيا . . والذي يأخذ منك صدقة يعطيك الآخرة . . فإن كنت من أهل الآخرة . . فافرح بمن يأخذ منك صدقة . . أكثر من فرحك بمن يعطيك مالا .

ولذلك كان بعض الصالحين اذا دخل عليه من يريد صدقة يقول مرحبا بمن جاء يحمل حساني الى الآخرة بعد أجر . . ويستقبله بالفرحة والترحاب

قول الحق سبحانه وتعالى : « مالك يوم الدين » .. هي قضية ضخمة من قضايا العقائد .. لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية الى الله جل جلاله .. وبما أننا جميعا سنلقى الله ، فلا بد أن نعمل هذا اليوم .. ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئا في حياته الا وى بالله الله .. وأنه سبحانه يوم القيامة . ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في ياله الله .. وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَلِيًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَا يُجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ قُرْآنٌ كَرِيمٌ ۚ وَأَلْقَاهُ سَرْجٌ خِلَابٍ ۝۵ ﴾

(سورة النور)

وهكذا من يفعل شيئا وليس في ياله الله .. فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن في ياله موجود وأنه جل جلاله هو الذى سبحانه .

ونوله تعالى : « مالك يوم الدين » هي أساس الدين .. لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء .. فإدام يعتقد أنه ليس هناك آخره وليس هناك حساب . فمم يخاف ؟ .. ومن أجل من يفيد حركته في الحياة ..

إن الدين كله بكل شعائره وكل منجه قائم على أن هناك حسابا في الآخرة .. وأن هناك يوما يقف فيه جميعا أمام الله سبحانه وتعالى .. ليحاسب المخطئ ويثيب الطائع .. هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الايمانية .. فنو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه .. فلماذا نصل ؟ .. ولماذا نصرم ؟ .. ولماذا نتصدق ؟ ..



ان كل حركة من حركات منهج لسماء قائمة على اساس ذلك اليوم الذى لن يفلت منه أحد . . . والذى يجب علينا جميعا ان نستعد له . ان الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم باليوم للمؤمنين يوم الفوز العظيم . . . والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره وبجاهد في سبيل الله لاستشهد . ونفوز بموالنا نعيم المصداق والمساكين . . . كل هذا أساسه أن هناك يوما سيقف فيه بين يدي الله . والله تبارك وتعالى سيأه يوم الدين . لأنه اليوم الذى سيحاسب فيه كل انسان على دينه عمل به أم صيغه . فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود في الجنة . ومن أنكر الدين وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود في النار .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما للحساب . لأن بعض الناس الذين ظلموا ويعوا في الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا . هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من العقاب هل يفلتون من عدل الله ؟ أبدا لن يفلتوا بل إنهم تنظفوا من عقاب محدود الى عقاب خالد . . . وافتتوا من العقاب بعذرة الشر في الدنيا . . . الى عقاب بعذرة الله تبارك وتعالى في الآخرة . ولذلك لا بد من وجود يوم يعيد الميزان . فيعاقب فيه كل من أفسد في الأرض وأفلت من العقاب . بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل انسانا يفلت من عقاب الدنيا . فلا تعتقد أن هذا خير له بل انه شر له . . . لأنه أفلت من عقاب محدود الى عقاب أبدي .

والحمد الكبير لله بأنه « مالك يوم الدين » وهو وحده الذى سيقضى بين خلقه . فانه سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعا معاملة متساوية . وأساس التقوى هو يوم الدين .

وقل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » . لا بد أن نتحدث عن قضية مهمة فهناك نوعان من الرؤية . الرؤية العينية أى بالعين . . . والرؤية الايمانية أى بالقلب . وكلاهما مختلف عن الآخر . رؤية العين هي أن يكون الشيء أمامك تراه بعينك ، وهذه ليس فيها قضية إيمان . فلا نقول أنتى أومن أنتى أراك أمامى لأنك تراه فعلا . مادمت تراه فهذا يقين . ولكن الرؤية الايمانية هي أن تؤمن كمالك ترى ما هو غيب أمامك . وتكون هذه الرؤية أكثر يقينا من رؤية العين لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة . وهذه قضية مهمة جدا .

وقد روى عمرو بن الخطاب قال :

بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طبع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سود الشعر . لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسد ركبيه لي ركبيه ووضع كفيه على صديقه قال . يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة . وتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان وتحج لبيت الله استطعت إليه ميلا قال : صدقت . فمعجنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

وتؤمن بالقدر خيره وشره

قال : صدقت قال . فأخبرني عن الإحسان ، قال

أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك

قال : فأخبرني عن الساعة

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل

قال : فأخبرني عن أماراتها

قال : أن تلد أمة ربتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في الشيا .

قال : ثم انطلق فلبث مليا ثم قال لي النبي صلى الله عليه وسلم .

يا عمر أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (١)

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . هو بيان للرؤية لايمانية في لمس المؤمن . فالإنسان حينما يؤمن ، لابد أن يأخذ كل قضاياها برؤية إيمانية . حتى إذا قرأ آية من الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم يعمون . وإذا قرأ آية من أهل النار فكلهم يشهرون . وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون

ذات يوم شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته وكان اسمه
الحارث .. فقال له :
كيف أصبحت يا حارث ؟
فقال . أصبحت مؤب حيا

قال الرسول . فامطر ما تقول فإن لكل قول حقيقة . فما حقيقة إيمانك ؟
قال الحارث : عزفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليل . وأظلمت نهارى . وكانى
أنظر إلى عرش ربي بارزا . وكان أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكان أنظر إلى
أهل النار يتضاخون فيها . (يتصايحون فيها) .
قال السى « يا حارث عرفت فالزم » (١)

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم
يقول .

﴿لَمْ تَكُنْ فَعَلَ رَبِّكَ بِأُنْحَاطٍ الْأَمَلِ﴾

(سورة الفيل)

ياخذ بعض المستشرقين هذه الآية في محاولة للعلم في القرآن الكريم .. فقول
تعالى « ألم تر » . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولد في عام الفيل .. انه لم ير
لانه كان طفلا عمره أيام أو شهور . لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم لقلنا
علم من غيره . فالعلم تحصل عليه انت او يعطيه لك من علمه .. اى يعلمك

(١) روى الطبراني في الكبير ، وأبو يعقوب في الخطبة ، ورواه بسحوه البيهقي وأبو هلال العسكري في
الأمثال ، وابن النجيم في التاريخ . وتحدث شواهد ترفى به إلى درجة الحسن ، وقد روى البيهقي في
الرمذ عن الحارث بن مالك قال : أتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ رده فلبى فوجه تحت
رأسه سلمت عليه فقال لى : كيف أنت يا حارث ؟ فقلت : رجل من المؤمنين ، فقال : انظر ماذا تقول ؟
قال : قلت هم رجل من المؤمنين .

فاستوى صلى الله عليه وسلم جالسا ثم قال : لكل شيء حقيقة . فما حقيقة ذلك ؟ قال : قلت :
عزمت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلى . وأخضت نهارى . وكان أنظر إلى عرش ربي كأنى أريت أهل الجنة
يتزاورون فيها . وكان اسمع عواء أهل النار فيها . فقال : عرفت فالزم . عيدا بور الله عليه بالأيمان



غيرك من البشر .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال : « ألم تر » ..

نقول ان هذه قضية من قضايا الايمان .. فما يقوله الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للانسان المؤمن . فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى ليام الساعة .. وقول الله - « ألم تر » .. معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله يقرأ هذه الآية . فما دام الله تبارك وتعالى قال : « ألم تر » فأتت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه . هذه هي الرؤية الايمانية ، وهي أصلق من رؤية العين .. لأن العين قد تخدع صاحبها وبكى القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا ..

عل أن هناك ما يسمونه ضمير الغائب . اذا قلت زيد حضر فهو موجود أممك .. ولكن إذا قلت قابلت زيدا .. فكان زيدا غائب عنك ساعة قلت هذه الجملة .. قبلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث ..

ادن فهناك حاصر وغائب ومتكلم .. الغائب هو من ليس موجوداً أولاً وقت الحديث .. والحاضر هو الموجود وقت الحديث .. والمتكلم هو الذي يتحدث . ونضايما المتباعدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الايمان بما هو عيب عنا يعطينا الرؤية الايمانية التي هي كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فلله سبحانه وتعالى حين يقول « الحمد لله رب العالمين » ، « الله » غيب و«رب العالمين» غيب . «والرحمن الرحيم» .. «غيب» . و«مالك يوم الدين» غيب .. وكان السياق اللغوي يقتضي أن يقال إياه تعبد ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب الى الحاصر . وقال : «إياك نعبد» فانتقل العيب الى حضور المخاطب .. فلم يقل إياه نعبد .. ولكنه قال : «إياك نعبد» . فأصبحت رؤية يقين ايماني .

فأتت في حضرة الله سبحانه وتعالى الذي غمرتك بالعم ، وهذه تراها ونحيط بك لأنه «رب العالمين» .. وجعلك تطمئن الى فضاله لأنه «الرحمن الرحيم» أي أن ربوبيته جل جلاله ليست ربوبية جيروت بل هي ربوبية «الرحمن الرحيم» فإذا لم

نحمده ونؤمن به بعض نعمه التي نحسها ونعيش فيها . فاحذر من غفلة مبهجة لأنه «مالك يوم الدين»

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات التي فيها فضائل الألوهية ، ومع الربوبية . . والرحمة التي تمحو الذنوب والرهبة من لقاته يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب الى محضر الشهود . . استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته . . ونعمه التي لا تحصى وقهره يوم القيامة .

عندما تقرأ قوله تعالى : «إياك نعبد» فاعلم اننا نقصد الخصوصية . . بمعنى أي إذا قلب لسان أي ساقبلك ، قد أقبله وحده ، وقد أقبله مع جميع من الناس . ولكن إذا قلت إياك ساقبل . . بمعنى ذلك ان المفاسة ستكون خاصة .

الحق سبحانه وتعالى حين قال . «إياك نعبد» قصر العبادة على ذاته الكريمة . . لأنه لو قال نعبئك وحدك فهي لا تؤدي المعنى نفسه ؛ لأنك قد تقول نعبئك وحدك ومعك كذا وكذا . ولكن إذا قلت «إياك نعبد» وقدمت إياك . . تكون قد حسنت الأمر بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمهجه الفعل ولا تفعل . وبذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله . لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيث وتضعه على الأرض عند موضع القدم . فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله . . ونتم هذا أمام الناس جميعا في الصلاة . لإعلان خضوعك لله أمام البشر جميعا .

ويستوى في العبودية الغني والفقير والكبير والصغير . حتى يطرد كل منا الكبر والاستعلاء من قلبه أمام الله جميعا فيسوى الحق حل جلاله بين عباده في الخضوع له وفي إعلان هذا الخضوع .

وهو الحق سبحانه وتعالى . «إياك نعبد» تنمي العبودية لمير الله . أي لا نعبد غير الله ولا يعطف عليها أبدا . . إذن «إياك نعبد» أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه . . وعليها أن نلتفت الى قوله تبارك وتعالى :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُحْنَنَّ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصُفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وهكذا فإننا عندما نقول «الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد وهي نعم الله ظاهرة وباطنة .. وحين نقول «وب العليم» نستحضر نعم الربوبية في خلقه وإحضار كونه .. وحين نستحضر «الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمعزة ومقابلة الاسماء بالاحسان وفتح باب التوبة .. وحين نستحضر : «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجلزيك على أعمالك .. فإذا استحضرتنا هذا كله نقول : «ياك نعبد» أي أننا نعبد الله وحده .. إذن عرفنا المطلوب منا وهو العبادة .

وهنا نتوقف قليلا لتحدث عما يطلعون عليه في اللغة «العلة والمعلول» إذا أراد ابنك ان ينجح في الامتحان فإنه لابد أن يذاكر .. وعلة المذاكرة هي النجاح . فكان النجاح ولد في ذهني أولا بكل ما يحققه من من ميزات ومستقبل مطمئن وغير ذلك مما أريده وأسعى اليه .

إذن فالدافع قبل الواقع . أي أنك استحضرت النجاح في ذهنك . ثم بعد ذلك ذاكرت لتجس النجح حقيقة واقعة . وأنت إذا أردت مثلا أن تسافر الى مكان ما فالسيارة سبب يحقق لك ما تريد وتقطع الطريق سبب آخر . ولكن الدافع الذي جعلني أنزل من بيتي وأركب السيارة وأقطع الطريق هو أنني أريد أن أسافر الى الاسكندرية مثلا .. الدافع هنا وهو الوصول الى الاسكندرية .. هو الذي وجد في ذهني أولا ثم بعد ذلك فعلت كل ما فعلته لتحقيقه .

والله سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده .. مصداق لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

(سورة الداريل)

إذن فعلة الخلق هي العبادة . ولقد تم الخلق لتحقيق العبادة وتصبح واقعا . ولكن «العلة والمعلول» لا تنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى .. نقول ليس هناك علة تعود على الله جل جلاله بالعادة . لأن الله تبارك وتعالى أغنى عن العالين .. ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة ؟ فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا في ملكه .. وإنما عبادتنا تعود علينا

نحن بالخير في الدنيا والآخرة ..

إن أفعال الله لا تعمل ، والمأمور بالعبادة هو الذي يستفيع بها .

ولكن هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح أو أنها مبهج يشم الحياة كلها .. في بيتك وفي عملك وفي السعي في الارض ؟ ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن .. والله تبارك وتعالى له صفة القهر .. من هنا فإنه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته .. مصداقا لقوله جل جلاله -

﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا نُنَزِّلُ طَائِفَةً مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَكَانَتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خُمُْورًا ﴿٢﴾

(سورة الشعراء)

فلو أراد الله أن يخلصنا لمنهجه فهراً لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته .. وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه . فالجسد مقهور لله في أشياء كثيرة . القلب ينضض ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا . والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئاً .. والدورة الدموية في أجسادنا لا إرادة لنا فيها .. وأشياء كثيرة في الجسد البشري كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى .. وليس لإرادتنا دخل في عملها .. وما يقع على في الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه . لا أستطيع أن أسمع من تحدث .. فلا أستطيع أن أسمع سيارة أن تصدمني . ولا طائرة أن تحترق بي . ولا كل ما يقع على من أقدار الله في الدنيا ..

اذن فمملكة الاختيار في حياتنا محدودة . لا أستطيع أن أتحكم في يوم مولدى ولا فيمن هو أبى ومن هو أمى .. ولا في شئ من أنا طويل أو قصير ؟ جميل أو قبيح أو غير ذلك . اذن فمملكة الاختيار في الحياة هي مبهج أو لا أعمل . الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر .. ولكنه يريد من الانس والجن عبادة المحبوبة . ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأثيه أو لا نأثيه . في أن نطيعه أو نَعْصيه . في أن نؤمن به أو لا نؤمن

إذا كنت تحب الله فأنت تأتيه من اختيار . تنازل عما ينضبه حبا فيه ، وتفعل ما يعطيه حبا فيه وليس قهرا . . . فإذا تخلّيت عن اختيارك إلى مرادات الله في منهجه . . . تكون قد حققت عبادة المحيوبة لله تبارك وتعالى . وتكون قد أصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله . فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيها يقهرون عليه . ولكن العباد الذين ينزلون عن منطقة الاختيار لمراد الله في التكليف . . . ولذلك فإن الحق جل جلاله . . . يفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد . . . يقول تعالى .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۚ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۚ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ ﴾

(سورة الفرقان)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا . . . ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد . . . وهذا لقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : ان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿ وَبِمَنِّ مَّحْسَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ فَبَقُولُوا أَنَّمْ أُصَلِّتُمْ عِبَادِي هَكَذَا أَمْ هُمْ صُلُوًّا

السَّيْلِ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

الحديث هنا عن العصاة والضالين . ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد
يقول إن هذا في الآخرة . . وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد
المعبود تبارك وتعالى . . لأن الاختبار البشري ينتهي ساعة الاحتصار . ونصبح
جميعاً عباداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا في شيء

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره في الحياة الدنيا في العبودية فلم
يقهره في شيء ولا يلزم غير المؤمن به بأي تكليف . . بل إن المؤمن هو الذي يلزم نفسه
بالتكليف ويصبح الله فدخل في عقد إيمان مع الله تبارك وتعالى . . ولذلك سجد أن
لله جل جلاله لا يحاطب الناس جميعاً في التكليف . . وإنما يحاطب الذين آمنوا
فقط فيقول .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

(سورة البقرة)

أي أن الله جل جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذي يدخل في عقد إيمان مع الله .

وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما يضعه في معيار العبادية يكون
القيمة فهو صلى الله عليه وسلم الذي حقق العبادية المرادة لله من خلق الله كما
يجبها الله . .

ادن فالذي يقول عايه اخلق كله محمد عليه الصلاة والسلام نقول ان هذا
صحيح ، لأنه صلى الله عليه وسلم حقق العبادية المثلى المطلوبة من الله تبارك
وتعالى . وانتي من علة الخلق . . وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى
الله عليه وسلم عند خالقه .

وابنه نارك وتعالى قرن العادة له وحده بالاستعانة به سبحانه . يقال جل
جلاله : «ياك نعبد وياك نستعين» أى لا نعبد سواك ولا نستعين إلا بك .
والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ذل الدنيا فأنت حين تستعين بعير الله
فإنك تستعين بشئ منها يبلغ معركه وقوته فكلها في حدود بشريته . .

ولأنا نعش في عالم أعيار . من القوى يمكن أن يصبح صعبا وصاحب
انمود يمكن أن يصبح في لحظة واحدة طريدا شريدا لا يعود له . . ولو لم يحدث
هذا . فقد يموت تلك الذي تستعين به فلا تجد احدا يعيك

ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرق المؤمن من ذل الدنيا . . فيطلب منه أن يستعين
بالحق الذي لا يموت . وبالقوى التي لا يضعف ، وبالدهر الذي لا يخرج عن أمره
أحد . . وإذا استعنت بالله سبحانه وتعالى . كان الله جل جلاله بجانبك . وهو
وحدك الذي يستطيع أن يحول صعبك الى قوة وذلك الى عر . والمؤمن دائما يواجه
قوى أكبر منه . ذلك أن الذين يحاربون معج الله يكونون عن الأقوياء ذوي انمود
الذين يحزن أن يستعدوا غيرهم . المؤمن سيدخل معهم في صراع . ولذلك
فإن الحق يحض هداية المؤمنين بأن معهم في الصراع بين الحق والباطل . وقوله
تعالى . «وياك نستعين» مثل «ياك نعبد» . أى نستعين بك وحدك وهي دستور
الحركة في الحياة . . لأن استعانة معناها طلب المعونة . أى أن الانسان استغنى أسبابه
ولكنها حدثه . . حيث لا بد أن يذكر أن له ربا لا يعبد سواه . لئلا يتحل عنه بل
يستعين به . . وحين تتخلل الأسباب فهناك رب . لأسباب وهو موجود دائما
لا يعمل عن شيء ولا نفوته همسة في لكون . ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما الى
السماء . . والله سبحانه وتعالى يكون معه .



﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^٦ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمُفْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^٧

بعد أن آمنت بالله سبحانه وتعالى إلهاً ورباً . . واستحضرت عطاه الألوهية ونعم الربوبية وفوضات رحمته الله على خلقه . وأعلنت أنه لا إله إلا الله . وقولك : «إياك نعبد» أى أن العبادة لله تبارك وتعالى لا تشرك به شيئاً ولا نعبد إلا إياه . . وأعلنت أنك ستستعين بالله وحده بقولك : «إياك نستعين» . فأنك قد أصبحت من عباد الله . ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذى يشمل كل مؤمن . . وما دمت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك . مصداقاً لقوله سبحانه

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^{٩٥}

(سورة البقرة)

والمؤمن لا يطلب الدنيا أبداً . لماذا ؟ . . لأن الحياة الحقيقية للإنسان في الآخرة . فيها الحياة الأبدية والنعيم الذى لا يفارقه ولا تفارقه . فالمؤمن لا يطلب مثلاً أن يورثه الله مالا كثيراً ولا أن يمتلك عمارة مثلاً . . لأنه يعلم أن كل هذا وقته وزائل . . ولكنه يطلب ما ينجيه من الشر ويوصله إلى الجنة . . ومن رحمته الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب . وهذا يستوجب الحمد لله . وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : «أهدنا الصراط المستقيم» . والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هي للناس جميعاً . . وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط النسيجين لنهج الله . والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أى دهم على طريق الخير وببهم لهم . . فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه . . ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد .

هذه الهداية العامة هي أسس البلاغ من الله . فقد بين لنا الله تبارك وتعالى في منهجه بالفعل ولا تفعل ما يرضيه وما يقضيه .. وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لنهتدى . والطريق الذي لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه .. ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟ .. تقول لا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَمَّا كُودٌ فَهُدًى ثُمَّ قَاتَتْ حَبْرًا أَخَذَتْ عَلَى الْهُدَىٰ قَاسِقَتُهُمْ سَاعَةً أَلْعَابُ الْكَافِرِينَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة فصلت)

اذا هنك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذي أعطاه الله له .. فلوا أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مهدين .. ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج حل مشيته . ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورضية بدلا من أن يفهرنا على الطاعة .. ما الذي يحدث للفئتين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعي في كونه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يمينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحبهم في الإيمان والتفوى ويحبهم في طاعته .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ هُدًى وَآتَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة عمه)

أي أن كل من يتخذ طريق الهداية يمينه الله عليه .. ويزيله تقوى وحيا في الدين .. أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه .. فإن الله تبارك وتعالى يتولى عنهم ويتركهم في ضلالهم واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْئَاتِهِ فَبُوءَ لَهُ نَافِثٌ ﴿١٨﴾﴾

(سورة الزمر)

والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاث
كما بينهم لنا في القرآن الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآٰخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ ذَٰلِكَ أَتَىٰكَ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أُرِيحُوا أَن يُزۡدَأۡبِنَ بَعۡدَ آيٰتِنِهِمۡ وَيَأْتُوا اللَّهَ
وَأَسْتَغۡفِرُوۡا ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوۡمَ الْفٰسِقِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرٰهٖمَ فِي رِيۡبِهِ أَنۢ أَتٰكُ اللَّهَ أَلَمْ تَرَ إِذۡ قَالَ إِبْرٰهٖمُ رَبِّیَ الَّذِي
مُجۡبِیۡءٌ ۖ وَنُفِیۡتُ قَالَ أَنَا أُخۡرِیۡءٌ وَأُمِیۡتُ قَالَ إِبْرٰهٖمُ فَإِنَّ اللَّهَ یَأۡتِیۡ بِالشَّمۡسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَلۡتِ
بِأَمِّنَ الْمَغْرِبِ فَنُفِیۡتَ الَّذِیۡ كَفَرُ ۖ وَاللَّهُ لَا یَهْدِی الْقَوۡمَ الطَّٰلِیۡغِیۡنَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

اذن فالمطروودون من هداية الله في المعونة على الايمان هم الكافرون والماسفون
والظالمون . . الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهدنا الصراط المستقيم » ما هو
الصراط . . ؟ . انه الطريق الموصلة الى العاية . ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم .
لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا في منهجه الطريق للمستقيم . . وهو أفصر الطرق الى
تحقيق الغاية . فافصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم . ولذلك إذا كنت
تقصد مكانا فأفصر طريق نسلكه . هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم
تماما . .

ولا تحسب ان العدد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير . بل باعوجاج صغير
جدا ولكنه ينتهي الى همد كبير .

ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد . . ختتما يبدأ القطار في اتحاد طريق غير الذي كان يسلكه فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات . . أي أن أول التحويلة ضيق جدا وكلها مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا . بحيث عند النهاية نجد أن الطريق الذي مشيت فيه . . يعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات . . إذن فأي انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا . . ولذلك فإن الدعاء : «اهدن الصراط المستقيم» أي الطريق الذي ليس فيه اعوجاج ولو بضعة ملليمترات . . الطريق الذي ليس فيه مخالفة تبعثنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الإنسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه إلى أفصر الطرق للوصول إلى الغاية . . وما هي الغاية ؟ إنها الجنة والنعيم في الآخرة . . ولذلك يقول يارب اهدنا وأهدنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا إلى الجنة دون أن يكون فيه أي اعوجاج يبعدنا عنها .
ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قنسى . إيه إذا قال العبد . واهدنا الصراط المستقيم يقول جل جلاله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل .
يقول الحق تبارك وتعالى . صراط الذين أنعمت عليهم ما معني والذين أنعمت عليهم ؟ . . اقرأ الآية الكريمة :

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ٥١﴾

(سورة النمل)

وأنت حين تقرأ الآية الكريمة فانت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . أي أنك تطلب من الله جل جلاله أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذي يسلكه هؤلاء تكون معهم في الآخرة . . فكأنك تطلب الدرجة العالية في الجنة . . لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال في جنة النعيم . . وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذي لا اعوجاج فيه . والذي يوصلك في أسرع وقت إلى الدرجة العالية في الآخرة

وعندما نعرف ان الله سبحانه وتعالى قال : (هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) . .
نعرف أن الاستجابة تعطيك حياة لعالية في الآخرة وتمتلك بيمين الله . ليس
بقدرات البشر كما يحدث في الدنيا . . ولكن بقدره الله تبارك وتعالى . . وإذا كانت
نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى . فكيف بنعم الآخرة ؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى
عنها :

﴿ لَكُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ رَبٍّ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ٢٥ ﴾

(سورة ق)

أي أنه ليس كل ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروحه على خاطرك . ولكن
مهما طلبت من النعم ومهما تمسك بالله جل جلاله هنالك مزيد . ولذلك فإنه يعطيك
كل ما تشاء ويريد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم . . وهذا تشبه فقط بيقرب
الله تبارك وتعالى صورة النعم الى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أدنى
سمعت ولا خطر على قلب بشر

وبما أن المعاني لا بد أن توجد أولاً في الحقل ثم يأتي اللفظ المعبر عنها . . فكل شيء
لا يعرفه لا يوجد في لغتنا ألفاظ تعبر عنه . فنحن م نعرف اسم التيفزيون مثلاً
إلا بعد أن اخترع وصار له مفهوم محدد . تماماً كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم
اختراعها . . فالشيء يوجد أولاً ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه . ولذلك فإن
مجامع اللغات في العالم تجتمع بين فترة وأخرى لتصنع أسماء لأشياء جديدة اخترعت
وعرفت مهمتها

ومادام ذلك هو القاعدة اللغوية ، فإنه لا توجد اللفظ في لغة أبشر تعبر عن النعم
الذي سيعيشه أهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أدن ولا خطر على القلب . .
ولذلك فإن كل ما قرؤوه في القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط . ولكنه لا يعطينا
حقيقة ما هو موجود . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة في

القرآن الكريم يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ نَعِيمٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعِينٌ مِنْ رَبِّهِمْ كُنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا مُقَطَّعًا أَيْمَاءً هُمْ ﴾ (٥)

(سورة محمد)

أى أن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك الى الأذهان . . لأنه لا توجد اللفظ في لغات البشر يمكن أن تعطي حقيقة ما في الجنة .

وقوله تعالى «غير المنصوب عليهم» . أى غير الذين غضبت عليهم يارب من الذين عصوا ومنعت عنهم هداية الاغاثة . . الذين عرفوا المخرج فحالوا وادتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى غير المنصوب عليهم، أى يارب لا تسر لنا الطريق الذى نستحق به غضبك . كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا في مخرج الله ليأخذوا سطة زمنية في الحياة الدنيا ولهاكلوا اموال الناس بالباطل . .

وقد وردت كلمة «المنصوب عليهم» في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَأَخْلَصَ لِرَبِّهِ وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانٍ وَأَصْلٌ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٥)

(سورة المائدة)

ومنه الآيات نزلت في بنى اسرائيل .

وقول الله تعالى : «ولا الضالين» هناك الضال والضال . الضال هو الذي ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله . ومضى في الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله . ويقال ضل الطريق أى مضى فيه وهو لا يعرف السبيل إلى ما يريد أن يصل إليه . . أى أنه غاى في اندسيا فأصبح وليا للشيطان واستعد عن طريق الله المستقيم . هذا هو الضال . ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار في الحياة على غير هدى . بل يحاول أن يأخذ غيره إلى الضلالة . يغرى الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعده عن طريق الله . وكل واحد من الماصين يأتي يوم القيامة يحمل دنوبه . . الا المضل فإنه يحمل دنوبه ودنوب من أضلهم مصداقا لقوله سبحانه :

﴿لِيَحْسَبُوا أَوْزَارَهُمْ كَعِمَلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمَنْ أُوذِيَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلَا سَاءَ مَا يَكُونُ لِمَن يُضِلُّونَ﴾

(سورة الحل)

أى أنك وأنت تقرأ الفاتحة تستعبد بالله أن تكون من الذين ضلوا . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين . يقول لكى تكون مضلا لابد أن تكون ضالا أولا . . فالاستعداد من الضلال هنا تشمل الاثنين . لألك مادمت قد استعدت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا

بقى أن نتكلم عن حتم فتحة الكتاب . يقول آمين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءه الفاتحة آمين ، فهى من كلام جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست كلمة من القرآن .

وكلمة آمين معناها استجب يارب فيما دهونك به من قولنا : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم» أى أن الدعاء هنا له شىء مطلوب تحقيقه . وآمين دعاء لتحقيق المطلوب . وكلمة آمين احتف لعلماء فيها . أهى عربية أم غير عربية .

وهنا يتوز سؤال . كيف تدخل كلمة غير عربية في قرآن حكم الله بأن عربى ؟ يقول أن ورود كلمة ليست من أصل عربى في القرآن الكريم لاينص

أن القرآن كله عربي . بمعنى أنه إذا خوطب به العرب فهموه . . . وهناك القاط وحلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن . ولكنها دارت من الألسن بحيث أصبحت عربية وألغتها الأذان العربية . .

فليس المراد بالعربي هو أصل اللغة العربية وحدها . . . وإنما المراد أن القرآن نزل باللغة التي ها شيوخ على ألسنة العرب . ومادام اللفظ قد شاع على اللسان قولاً وفي الأذان سمعاً . فإن الأجيال التي تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التي هي من أصل عربي . فاللفظ الحديد أصبح عربي بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت لكلمة شائعة شيرع الكلمة العربية

واللغة ألفاظ بصطلح عن معانيها . بحيث إذا أطلق اللفظ فهم المعنى واللغة التي تتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف . الاسم كمنة والفعل كلمة والحرف كلمة . . والكلمة لها معنى في ذاتها ولكن هل هذا المعنى مستقل في المعنى أو غير مستقل . . إذا قلت محمد مثلاً فهمت اشخص الذي سمي بهذا الاسم فصار له معنى مستقل . . وإذا قلت كتب فهمت أنه قد جمع الحروف لتقرأ على هيئة كتابة . . ولكن إذا قلت ماذا وهي حرف فليس هناك معنى مستقل . . وإذا قلت « في » دللت على الظرفية ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل . بل لابد أن تقول ماء في الكوب أو ملان على الفرس . غير المستقل في المعنى سميه حرفاً لا يظهر معناه إلا بصم شيء له . والفعل يحتاج إلى زمن ، ولكن الاسم لا يحتاج إلى زمن .

إذن الاسم هو مادل على معنى مستقل بالمفهوم وليس الزمن جزءاً منه . والفعل مادل على فعل مستقل بالمفهوم والزمن جزء منه . . والحرف دل على معنى غير مستقل . . ما هي علامة الفعل هي أنك تستطيع أن تستد إليه تاء الفاعل . أي تقول كتبت والفاعل هو المتكلم . ولكن الاسم لا يضاف إليه تاء الفاعل فلا تقول حمدت . إذا رأيت شيئاً يدل عن المعنى أي يحتاج إلى زمن . ولكنه لا يقبل تاء الفاعل فإنه يكون اسم على فعل .

أمير من هذا النوع ليست فعلاً فهي اسم مدلوله مدلول الفعل . معناه استجب . فأت حين تسمع كلمة « آء » أنها اسم لفعل بمعنى اتوجه . . وساعة

نقول «أف» اسم معنى اتضجر .. وأمين اسم فعل بمعنى استجب .. ولكذك
تقولها مرة وأنت القارىء ، وتقولها مرة وأنت السامع . فساعة تقرأ العائجة تقول
آمين .. أى أنا دعوت يارب فاستجب دعائى .. لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من
الهداية فالك لا تكفى بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة . واذ كنت تصلى
في جماعة فأنت تسمع الامام وهو يقرأ العائجة .. ثم تقول آمين . لأن المأموم أحد
الداعين الذى دعا هو الامام ، وعندما قلت آمين فأنت شريك في الدعاء ..
ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على اموال قوم فرعون ويهلكهم
قال الله لموسى :

﴿ قَالَ مَدَّ أُحِبَّتْ دَعْوَتُكَ فَأَسْتَجِبَ وَلَا تَعْبَأَنَّ سَبِيلَ الْقَدَرِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٢)

(سورة يونس)

أى أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجة الى موسى وهارون . ولكن موسى
عليه السلام هو الذى دعا .. وهارون آمن على دعوة موسى فأصبح مشاركا في
الدعاء .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢

سورة البقرة



نأى بعد فاتحة الكتاب إلى سورة البقرة . . . وهي التي تلي الفاتحة في ترتيب المصحف الشريف . . . وإذا نظرنا إلى اسم السورة وجدنا أنه لا يهد أن يشير انتباهنا . . . لأن القرآن الكريم نزل في بيئة عربية . ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيوانا معروفا أو من الانعام التي ينزلها العرب في ذلك الوقت .

نقول إن اسم السورة قد أخذ من قضية أساسية في الدين وهي الإيمان بالبعث . . . والإيمان بالبعث هو أساس الدين . . . فمن لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب يفعل ما يشاء في الدنيا دون أي وازع . لأنه مادام ليس هناك بعث تصبح الدنيا غاية . . . ويصبح الدين بلا مفهوم . . . لأن أساس العبادة هو أن الحياة الحقيقية في الآخرة . . . وأن الدنيا هي دار اختبار ودار أغيل . . . أما الآخرة فهي دار معيم مقيم . ففي الدنيا إما أن تفارق النعمة وإما تفارقت . . . تفارقها بالموت . . . أو تفارقت بأن نزول عتق . أما الحياة التي لا تفارقت فيها النعمة ولا تفارقها فهي الآخرة . . . لذلك فإن كل عمل المؤمن في الدنيا مقصود به الجزاء في الآخرة .

وصح الله في الأرض يثوبك إلى الجنة إن طيقت . وإلى النار والعياذ بالله إن خالته . . . إذن فقضية الإيمان كلها مبنية على الإيمان بالبعث . وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بني إسرائيل . . . ورأوا البعث وهم ملأوا في الدنيا ، حين بعث الله سبعمائة وتسعى قتيلاً لينطق باسم قاتله . . . ثم مات بعد ذلك .

والقصة أن رجلاً من بني إسرائيل . . . كان ثرياً يملك المال الكثير ولم يكن له ولد يرثه . فتأمر عليه ابن أخيه فقتله ليلا ثم أخذ الجنة وألقاها في مكان قريب من إحدى القرى المجاورة لبيتهم أهل هذه القرية بقتله . . . وصحبا أهل القرية ليجنوا جنة القتل على باب قريتهم . واتهموا فيه وقالوا لم نقتله . وقال أقرب القتل بل أنتم الذين قتلتموه . واحتدم الخلاف وذهبوا إلى موسى عليه السلام . وقالوا إن الخلاف قد احتدم . . . فاسأل لنا ربك أن يكشف لنا عن القاتل . وجاءت القصة

في سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِذْ أَقْبَهُ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تَدْخَبُوا بِقَرَّةٍ قَالُوا اتَّخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَابِطِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ظِلٌّ فِيهَا وَلَا يَمَسُّهَا خَرَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَاْعْمَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عِلْبًا وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ لَتَهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَمَّاةٌ لِأُتِيَتْ فِيهَا قَالُوا الْقَنْعَ حَتَّى يَلْحِقَ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأَتْ فِيهَا رَأَاهُ فَخَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَذُنَا أَمْرٍ بُوِّهَ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّمُ اللَّهُ عَلَى الْكَاذِبِينَ وَرَبُّكَدَّابِتُهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمر بني إسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخطوا بعضاً منها ليضربوا به الفيل . لعادت الحياة إليه ونطق باسم قاتله . ولكم بدلا من أن يستقبلوا أوامر الله سبحانه وتعالى بالتعبد . . . استقبلوها أولا بعدم التعبد . . . و « قَالُوا اتَّخِذْنَا هُزُؤًا » وظلوا يشتدون على أنفسهم بطلب أوصاف البقرة حتى جاء الألباح من الحق تبرك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل ما يخصها .

وكان لهذا حكمه عند الله سبحانه وتعالى لخدمة قصة إيمانية أخرى . . . وقد كان هناك رجل صالح من بني إسرائيل . . . يتحرى الدقة في كعبه ولا يرضى إلا بالخلال وكان رجلا ينفذ وجه الله في كل ما يفعل . وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صميرة وكان ابنه طفلا . واحتار الرجل من يوصى على هذه البقرة التي هي كل ثروته التي تركها لابنه وزوجته . . . وانحج إلى الله سبحانه وتعالى وقال اللهم اني استودعك هذه البقرة فاحفظها لابي حتى يكر . لأنه لم يجد أميا على

أبنته إلا يد الله سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجته إنني لم أجِدَ هذا آمن من يد ربي
استودعته البقرة الصغيرة . . وسألت زوجته أين البقرة ؟ قال أطلقتها في المراعى . .
ثم أسلم الروح . .

وكبر الابن فحكى له أمه ما حدث . فقال الابن وأين وجد البقرة لأستردها ؟
قالت الأم لقد استودع أبوك البقرة عند خالق الكون . فقل لي أتركك على الله
وابحث عنها . . فقال الابن اللهم رب إبراهيم ومحمود رد علي ما استودعك أبي .
ثم انطلق إلى لحقل فوجد البقرة . . وكانت هذه هي البقرة التي ذكرت أوصافها لبني
إسرائيل . فذهبوا ليشتروها فقال الابن لن أبيعها إلا بماء جليلها ذهباً فذهبوا
له

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفظاً على أولاده برعايتهم ويسر لهم
أمورهم . وقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة في سورة الكهف . . عندما جاء العبد
الصلح ربي الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صليحاً . . وأقرأ قول الحق
سبحانه :

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا تَمْسُرُونَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(سورة الكهف)

وهكذا كانت لحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذي استودع كل ما كان يملك
عند الله . . بركة الله له فيه ووجد لبنته عندما يبلغ من الشباب ثروة كبيرة .

وعندما فبحروا البقرة . ضربوا ببعضها الفتيل كما أمرهم الله سبحانه وتعالى فإذا
به يبعث وينطق اسم قاتله ثم يموت مرة أخرى . . وهكذا سميت السورة باسم
سورة البقرة إثباتاً لقضية أساسية في الدين وهي قضية الإيمان بالبعث .

وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلاً من سورة مكية . . فنقول إنه يجب أن نعلم
قولا ما هو مكي وما هو مدني . فمكة والمدينة مكانان مقدسان . . الأول شهد بداية

السيرة وبداية نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم . . . والثاني كان مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعندما نقول مكى ومضى في القرآن الكريم ، لا بد أن نلاحظ عدة أشياء . أولاً الحدث الذي نزلت من أجله الآية . وثانياً مكان الحدث وثالثاً الرمان الذي نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه . وفاعل ومن يقع عليه الفعل . . . وسبب للحدث وقدرته على الفعل .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم . الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . . والذي نزل عليه القرآن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمكان هو إما مكة وإما المدينة . . . فنزل القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ، والقرآن هو هداية البشر إلى منهج الله . والله سبحانه وتعالى وضع في القرآن لكريم دستوراً سهواً لكل رسالات الله للبشر . . . فنزل القرآن الكريم اكتملت الرسالات السماوية . وجاء الدين الخاتم الذي يظل دستوراً للدين حتى يوم القيامة . وجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الإنسان وجاء بتعصبي لرسول والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح ما زيف منها وعذّل ما خرف منها لتأتي صديقة مما أبلغ به الرسل عن الله . وبأن ناسخة لكل ما عشت به أبهى البشر في الرسالات السابقة على نزول القرآن . . . وأن مصححة لكل كلام شرئ أصيب إلى منهج الله ومسب إليه زوراً وبهتاناً . . . وأن بما كنتم أهل الديانات القديمة وأخبار اليهود وذهبان الصاري عن الناس . . .

إنه يفضح كل تحريف أو كتم أو اختفاء أو تحريف أو اضافة بشرية لدين الله في الرسالات السابقة . ويريد عليه من منهج الله ليصحح القرآن الكريم المنهج الكامل المتكامل لعبادة الله في الأرض . ويتضمن منهج لسياسة منذ عهد آدم إلى قيام الساعة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهي هي مكة أو مدينة

فالذين أخذوا بعصر الرمان مقياساً قالوا إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية . . . حتى ولو نزلت في مكة . والذين أخذوا مقياساً لمكان قالوا إن كل سورة نزلت في مكة فهي مكة ، وكل سورة نزلت في المدينة فهي مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سور في مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لأخلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره . بل إن كل فريق أخذ للوضع من زاوية معينة . . بعضهم نظر إلى زاوية المكان ، وبعضهم نظر إلى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء في سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر إلى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التي نزلت بالمدينة . . ففيها الطابع المدني والطابع الحكيم . . الطابع الحكيم في سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة . . ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه الوثنيين حدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين راجداً من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسبأ لأنهم نسوا ما قاله رسلهم فحرفوه . . وكان لابد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعاً ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون الهة لا تنفع ولا تضر . . بل آلهة مصنوعة من أدنى أجناس الأرض وهي الحجارة . . بينما الله سبحانه وتعالى مير الإنسان وجعله خليفة في هذا الكون .

وكان لابد للقرآن أن يخبرهم أن هناك بعثاً بعد الموت . . وأن هناك جنة وناراً وأن الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة . . وكان لابد أن يحذرهم من حذاب الله . ومن يوم سيلقونه فيه ولا يستطيع أحد منهم هرباً من ذلك اليوم العظيم . . وكان لابد أن يلتفتهم إلى آيات الله في الكون الدالة على أنه الموجد والمخالق . . وأن يواجه ما يكمن به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستعظام ، وحقيقتها محاولة الطعن في الإسلام .

وكانوا يعتقدون أنه ربما يأتي محمد عليه الصلاة والسلام بشيء من عنده فيخطيء . . فجاء القرآن ليساوي بين البشرية كلها . . فلا فضل لعلى ناله ولا قلة لعقير في الأجر . . بل الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط .

كان هذا هو أساس الدعوة في مكة . . إيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتثبيت للمؤمنين في الفترة التي كانوا فيها قلة وكثروا فيها فجمعاء وكانوا لدلة

وتثبيت الإيمان كان يقتضي تذكيرهم دائماً بأن الله معهم . . وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . وإن ماتوا من دين الإسلام دخلوا الجنة . ومن يقبى منهم عن كفره تجلب في النار . وأن كل مشقة في سبيل الله لها أجر في الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى مجتمع المدينة . . فهناك صورة أخرى ووجه فيها الاسلام بالكمار وعدة الاوثان ومزورى التوراه من اليهود وعدو جديد هم المنافقون . . وقد كانت هناك عداوة جاهلة في مكة ، أما في المدينة فقد ووجه لاسلام بعداوة حالة . . وهم المنافقون فلم يكن هناك نفاق في مكة ، فالصعب واضطهاد لا يتناق . . فمتدا الذى كان يدعى في مكة أنه مؤمن وهو كافر . ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن في المدينة عندما قوى الاسلام وكانت له دولة ظهر في المجتمع الخاف واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْآعْرَابِ مُسْلِمُونَ وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ مَرَدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لَا تَنْصِتُهُمْ لَّهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة عداوة من بون جديد ليحوص صراعا مع المنافقين واليهود . . وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هناك المجتمع الاسلامى . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكي يهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هناك حوزات ، وكان هناك أحكام يافعل ولا تفعل .

كل هذا لم يكن موجودا في مكة ، فقد اقتضى برول القرآن الكريم في مكة أن تكون آياته في معظمها من العقيدة وهي الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين في الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات في المدينة من الأحكام والمجتمع الاسلامى والمعاملات وكيفية انقذ المنافقين . وإن كانت الآيات في المدينة لم تحمل لعقيدة بن أكلتها . وعندما جاء جبريل عليه السلام ليترتب للمصحف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن . . كان الاسلام قد انتشر واحتفه كثيرون . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم . وما يجب أن يفعلوه وألا يفعلوه .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الدين أمرا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . والعقيدة مرجوة وبقي أن نعمل ونطبق المبح في إقعل ولا تفعل

ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الاسلام . . وبحكمة القرآن
ويعلم الله سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وانتملت على قصة
خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . وقصة ابراهيم ن بحثه عن الايمان وقصة بناء
الكعبة الشريفة . . وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للاسلام . .
واقرا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٨٩)

(سورة المائدة)

جاءت سورة البقرة ببعض التكليف الايمانية . . فتحدثت عن الصوم والحج
والخمر والزنا واكل اموال النكس والزواج والطلاق والرضاع . كما تحدثت صور
التعامل بالمال في المجتمع الاسلامي . . وما كان الاسلام ليتعرض لهذه الاحكام في
مكة . . لأنه لم يكن هناك المجتمع الاسلامي الذي يتطلبها .



الآية ١

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى . «ألم» . وهذه الحروف حروف مقطعة . . ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات . . فالتناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه . فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف . فإذا أردت أن تنطق بأسمائها . تقول كاف ونا وياء . ولا يمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أم ذلك الذي لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لا ينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلتفتا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئا عن أسماء الحروف . فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إهتزازا من الله سبحانه وتعالى . . بأن هذا القرآن موحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئا عابدا أن ينطق بأسماء الحروف . ولكن تعالى إلى أي أمي لم يتعلم . . انه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف . . يقول الكتاب وكوب وخير ذلك . . فإذا طلبت منه أن ينطق بأسماء الحروف فانه لا يستطيع أن يقول لك . ان كلمة كتاب مكونة من الكاف والطاء والألف والباء . . وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد في فواتح السور التي تبدأ بأسماء الحروف . تنطق الحروف بأسمائها ونجد الكلمة نفسها في آية أخرى تنطق بمسمياتها . فآلم في أول سورة البقرة نطقها بأسماء الحروف الـ لـ ام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف في شرح السورة في قوله تعالى :

﴿الَّذِي تَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ ۖ﴾

وفي سورة الفيل في قوله تعالى :

﴿لَرَكِيفَ فَعَنَّ رَبُّكَ بِاصْخَابِ الْفِيلِ ۝﴾

(سورة الفيل)

ما الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يطق «ألم» في سورة البقرة بأسماء الحروف . . وينطقها في سور الشرح والميل بمسميات الحروف . لا بد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كي تقلها جبريل عليه السلام إليه هكذا . اذن فالقرآن أصله السبع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه لتعرف أن هذه تقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم . . مع أن الكتابة واحدة في الاثنين . . ولذلك لا بد أن تستمع إلى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تقرأه . والذي يتعب الناس أنهم لم يجلسوا إلى فقيه ولا استمعوا إلى قارئ . . ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأبي كتاب . يقول لا . . القرآن له تميز خاص . . انه ليس كأبي كتاب تقرأه . . لأنه مرة يأتي باسم الحرف ومرة يأتي بمسميات الحرف . وأنت لا يمكن أن تعرف هذا إلا إذا استمعت لقارئ يقرأ القرآن

والقرآن مبني على الوصل دائماً وليس على الوقف ، فإذا قرأت في آخر سورة يونس مثلاً : «وهو خير الحاكمين» لانجيد النون عليها سكون بل تجد عليها فتحة ، مرصونة بقول الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم ولر كانت غير مرصولة لوجدت عليها سكون

اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل . ما عدا فواتح السور المكونة من حروف فهي مبنية على الوقف . . فلا تقرأ في أول سورة البقرة . «ألم» والميم عليها صمته بل تقرأ ألما عليها سكون ولأما عليها سكون وميماً عليها سكون . اذن كل حرف متحرك يوقف . مع أن الوقف لا يوجد في ختام السور ولا في القرآن الكريم كله .

وهناك سور في القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى

﴿مَنْ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝﴾

(سورة ص)

﴿ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ وَمَا يُنْزِلُ بِهِ ﴾

(سورة الفلم)

ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة . يبدأ «الم» في سورة البقرة آية مستقلة . و : «حم» . و : «صق» آية مستقلة مع أنها كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بأية من خمسة حروف مثل «كهيعص» في سورة مريم . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل «المص» في سورة «الأعراف» . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف وهي ليست آية مستقلة مثل «الم» في سورة «الرعد» متصلة بما بعدها . بينما نجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل «يس» في سورة يس . و«حم» في سورة غافر وتصلت . . و : «طس» في سورة النمل وكلها ليست موصولة بالآية التي بعدها . . وهذا يدلنا على أن الحروف في فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

«الم» مكونة من ثلاثة حروف تجدها في ست سور مستقلة . . فهي آية في البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والسجدة والفان . و«الر» ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة . بل جزء من الآية في أربع سور هي : يونس ويوسف وهود وإبراهيم . . و : «المص» من أربعة حروف وهي آية مستقلة في سورة «الأعراف» و«الر» أربعة حروف ، ولكنها ليست آية مستقلة في سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانوناً بحدس ، ولكنها خصوصية في كل حزب من الحروف

وإذا سألت ما هو معنى هذه الحروف ؟ . . نقول أن السؤال في أصله خطأ . . لأن الحرف لا يسأل عن معناه في اللغة إلا إن كان حرف معنى . . والحروف نوعان : حرف متبني وحرف معنى . حرف المتبني لا معنى له إلا للدلالة على الصوت فقط . . أما حروف المعاني فهي مثل في . ومن . . وعلى . (في) تدل على الطرفة . . (بين) تدل على الابتداء (إلى) تدل على الانتهاء . . (على) تدل على الاستعلاء . . هذه كلها حروف معنى

وإذا كانت الحروف في أوائل السور في القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الرصم لأنها مبنية على السكون لا بد أن يكون لذلك حكمة . . أولاً لتعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ حرفاً من كتاب الله فبه حسنة والحسنة

بِشْرِ أَمَّا ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف^(١)

ولذلك ذكرت في القرآن كهروف استغلايه لعرف ونحن نتبع تلاوة القرآن الكريم أنت تأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قولنا بسم الله الرحمن الرحيم . يكون لنا مائة حسنة وبالسبع حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاث حسبات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة عشر أمثالها . وجبنا نقراً دأله ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسرارها في هذه الحروف التي لا تفهمها ثواباً وأجرًا لا يعرفه

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر . .

والقرآن الكريم ليس أعجازاً في البلاغة فقط . ولكنه يحوي أعجازاً في كل ما يمكن للعقل الشري أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر في كلام الله يجد أعجازاً في القرآن الكريم . فالذي درس البلاغة رأى الأعجاز اللغوي ، والذي تعلم الطب وجد إعجازاً حياً في القرآن الكريم . وعالم النبات رأى أعجازاً في آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك

وإذا أردت أن تعرف معنى هذه الحروف فلا تأخذها على قدر شربتنا . . ولكن تأخذها على قدر مراد الله فيها . وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا فاصرة . فكل منا يملك مفتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه . . هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يسور مرتين . وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا . ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذي يفتح كل الأبواب . .

وسبح لا يصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف فحياة الشر تقتضي ما في بعض الأحيان أن تضع كلمات لا معنى لها باسمه لغيرها . وإن كانت تحمل أشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماماً ككلمة السر التي تستخدمها الخيوش لا معنى لها إذا سمعتها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت . فخذ كلمات الله التي نعلمها بمعانيها . . وحذ الحروف التي لا تفهمها بمراد الله فيها . فإله سبحانه وتعالى شيء أن يبقى معناها في الغيب عنده .

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى ننتبه ونحسن نتلوه أو نكتبه . لذلك نحمد مثلاً بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة لمحمد مكتوبة بالألف في قوله تعالى .

﴿ أَتَسْمِعُ أَنْتَ يَا رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ ﴾

(سورة الملق)

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف ومرة بغير الألف . . ولو أن المسألة وثابة في كتابة القرآن لحامت كلها على نظام واحد . ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة وألفاظه معجزة .

وبعض يقول للذين يتساءلون عن الحكمة في بداية بعض السور بحروف . . يقول إن لذلك حكمة عند الله فهمتها أو لم تفهمها . . والقرآن يزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر . . ومع ذلك لم نسمع أحداً يظن في الأحرف التي بدأت بها السور . وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية . ولو أنهم لم يفهموها لظنوا فيها .

وأنا انصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد . . ألا يشغل نفسه بالتفكير في المعنى . أما الذي يقرأ القرآن ليستبط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فإذا قرأت القرآن لتتعبد فافهمه بمر الله فيه . ولو جلست تبحث عن المعنى . تكون قد حذت معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت . وتكون قد أخذت المعنى ناقصاً نقص فكر البشر . . ولكن اقرأ القرآن بمر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ في القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمل وكل من لم يدرس اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك نحمد أمياً لم يقرأ كلمة واحدة ومع ذلك يحفظ القرآن كله . فإذا قلب كيف ؟ يقول لك بمر الله فيه .

والكلام وسيلة انهم وفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذي يده البداية ، ولسامع يفاجأ بالكلام لأنه لا يعلم مقدماً ماذا سيقول المتكلم . وقد يكون ذهن السامع مشغولاً بشيء آخر . فلا يستوعب أو الكلمات . ولذلك قد تنبه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبيه للكلام الذي سيأتي بعدها .

وإذا كنا لانفهم هذه الحروف . فوسائل المهم والاعجاز في القرآن الكريم
لا تنتهي ، لأن القرآن كلام الله . والكلام صفة من صفات المتكلم . ولذلك
لا يستطيع فهم بشرى أن يصل إلى منتهى معاني القرآن الكريم ، إنما يتقرب منها
لأن كلام الله صفة من صفاته . وصفة هيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى لقرآن الكريم . فإنك تكون قد حدثت
معنى كلام الله بعلمك . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازاً لك حتى تعرف
إنك لا تستطيع أن تحدد معاني القرآن بعلمك . .

أن عدم فهم الإنسان لأشياء لا يمتنع انتفاعه بها . فالريفي مثلاً ينتفع بالكهرباء
والتليفزيون وما يداع بالقمر الصناعي وهو لا يعرف عن أى منها شيئاً . فليهذا لا يكون
الله تارك وتعالى قد أعطانا هذه الحروف مأخذ فائدتها وستفيد من أسرارها ويتنزل
الله بها علينا بما أودع فيها من فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم
يفهمها

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد لإنسان أن
يحوم بفكره ونحو طره حول معنى هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئاً جديداً . لقد
حاصر العلماء في البحث كثيراً . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفاته . ولا يدعى
أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف . بل كل منهم يقول والله
أعلم بمراده . ولذلك نجد علماء يقولون (أل) و(حم) و(ل) وهي حروف من فواتح
الصور تكون اسم الرحمن . . يقول إن هذا لا يمكن أن يمثل فيها عاماً لحروف بداية
بعض سور القرآن . ولكن ما الذي يتبعكم أو يرهقكم في محاولة إيجاد معاني هذه
الحروف ؟ . .

لو أن الله سبحانه وتعالى الذي أنزل القرآن يريد أن يفهمها معانيها . . لأوردها
بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى . فمثلاً أحد العلماء يقول إن معنى (أل) هو أنا الله
اسمع وأرى . . نقول هذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل
مباشر لفهمه جميعاً . . لا بد أن يكون هناك سر في هذه الحروف . وهذا السر هو
من أسرار الله التي يريدنا أن نتصع بقراءتها دون أن نفهمها .

ولا بد أن نعرف أنه كما أن لبصر حدوداً وللأذن حدوداً وللمس والشم والتذوق
حدوداً ، فكذلك عقل الإنسان له حدود يتسع لها في المعرفة . . وحدود قوى قدرات

العقل لا يصل إليها .

والإنسان حينها يقرأ القرآن والحروف الموجودة في أوائل السور يقول إن هذا امر خارج عن قدرة عقل . . وليس ذلك حجراً أو منقلاً لباب اجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعترف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التي هي بلا حدود .

ولي الإيمان هناك ما يمكن فهمه وما لا يمكن فهمه . فتحرهم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لا ينتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا نمتنع عنه بإيمان أنه ما دام الله قد حرمه فقد أصبح حراماً .
ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما عرفتم من حكمه فاعملوا به ، وما لم تدركوا فآمنوا به^(١) .
والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿مَوَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ٥﴾

(سورة آل عمران)

اذن فعلم فهمنا للمتشابه لا يمنع أن نستفيد من سر وضعه الله في كتابه . ونمن نستفيد من أسرار الله في كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

في الآية الثانية من سورة البقرة وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه الكتاب وكلمة (قرآن) معناها أنه يُقرأ ، وكلمة (كتب) معناها أنه لا يحفظ فقط في الصدور ، ولكن يُدون في السطور ، ويبقى محفوظاً الى يوم القيامة ، والقول بأنه الكتاب ، تمييز له عن كل كتب الدنيا ، وتمييز له عن كل كتب السماوية التي نزلت قبل ذلك ، فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل احكام اسماء ، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة ، وهذا تأكيد لارتفاع شأن القرآن وقدره وسماويته ودليل على وحدانية الخالق ، فبعد فجر التاريخ ، نزلت على الأهم السابعة كتب تحمل منهج السماء ، ولكن كل كتاب وكل رسالة برلت موقوتة ، في زمانها ومكانها ، تزدى مهمتها لفترة محددة وتجاه قوم محددين .

فرسالة نوح عليه سلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها في الحياة ، حتى يأتي الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك بُشر في الكتب السماوية التي برست قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتى ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج اسماء أن يتبعوه . . وفي ذلك يفود الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَرْسَلَ آلِإِبْرَاهِيمَ الْآتِيَّ الَّذِي يَجْتَنِبُهُمْ مَّكْرُبًا عَنْهُمْ فِي الثَّوَرَةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾

(س الآية ١٥٧ سورة الاحزاب)

والقرآن هو الكتاب ، لأنه لن يصل اليه أى تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة تنص الله البشر عليها ، فسوا بعضها ، وعلم يسوه حرفوه ، وأصاهاوا اليه

من كلام البشر ، مانسبوه الى الله سبحانه وتعالى قلبا وبهتاناً ، ولكن انقرآن الكريم محفوظ من الخلق الاعلى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَمُحِيطُونَ ﴾ ﴿٥﴾

(صورة الحجر)

ومعنى ذلك ألا يرتلب انسان فى هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منبج الله محفوظ منه لحظة نزوله الى قيام الساعة بقلرة الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله : « ولا يهتف به هدى للمتقين » .

والإعجاز الموجود في القرآن الكريم هو في الأسلوب وفي حقائق القرآن وفي الآيات وفيما روي لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيما صحح من التوراة والإنجيل ، وفيما أن به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولا زالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لا ريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلما تأملنا في القرآن وفي أساويه ، وجدنا أنه يحق لا ريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتي بآية ، فما بانك بقرآن .

فهذا الكتاب ارتفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله في كل عصر معجزات . إن كلمة الكتاب التي وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تميزها له عن كل الكتب السابقة ، تلفتت الى معاني كثيرة ، نحدد لنا بعض أساسيات المنهج التي جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى وقرأ في سورة الكهف :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِزْجًا ۝ قِيَامًا يَنْتَرِ
بِأَسْأَلٍ مِنْ دُونِهِ يَنْتَرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ۝

(سورة الكهف)

ويلفت الله سبحانه وتعالى عباده ، إلى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعاً ، لأن فيه منهيح السوء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق إليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود إليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لحلقه . لأنه لو لم ينذرهم لفعّلوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدوا في عذاب اليم ولكن الكتاب الذي جاء ليعلنهم إلى ما يغضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أوتنا جميعاً ، الطريق إلى انتجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المنهج الذي يفردهم إلى الجنة ، وما استحق أحد منهم رضا الله وبهيمه في الآخرة .

وفي سورة الكهف ، نجد تأكيداً آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأَنْتُمْ أَوْسَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كَذِبِ رَبِّكَ لَا يُبَدِّلُ كَلِمَتِهِ ۖ وَلَنْ تُجِدَ مِنْ قُوَّةِهِ مُلْتَمَعًا ﴾ (٢٧)

(سورة الكهف)

وبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنضع العباد ، وأن الله ليس محتاجاً لخلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولا يمكن لخلق من خلق الله أن يخرج في كون الله عن مرادات الله ، وأقرأ قوله سبحانه ونعبد :

﴿ نَسَمَ ① إِلَكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ لَا تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِنْ نَأْتِيَنَّاهُمْ مِنْ السَّمَاءِ بِآيَةٍ فَتُلَوَّتْ عَنْهُمْ لَهَا وَخَصِصِينَ ④ ﴾

(سورة الشعراء)

وياق الله سبحانه وتعالى بالقسم الذي يفتننا الى أن كل كلمة في القرآن هي من

عند الله ، كما ابلغها جبريل عليه السلام . لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله
سبحانه :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَرْجِعِ النُّجُومِ ٥٥ وَأَنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْدُكَ عَظِيمٌ ٥٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٥٧
فِي كِتَابٍ مُّكْتُمٍ ٥٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٥٩ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦٠ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم بلغتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذي هو منهج اللسان على
الأرض ، فبعد أن بين لنا جل جلاله ، بما لا يدع مجالاً للشك أن الكتاب منزل من
عنده ، وأنه بصحح الكتب السابقة كالتوراة ، والإنجيل ، والقرآن الكريم الذي أتت به
البشر ، ضحروها وبدلوها ، وهذا التحريف أبطل مهمة المنهج الإلهي بالنسبة لهذه
الكتب ، فجاء الكتاب الذي لم يصل اليه تحريف ولا تبديل ، ليبقى منهجاً لله ، الى
ان تقوم الساعة . أول ما جاء به هذا الكتاب هو إيمان القصة ، بأنه لا إله إلا الله
الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اِنَّهٗ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ١ ۝ الَّذِي يَرْزُقُكَ الْكَتٰبُ بِالْحَقِّ ٢
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاَزَلَّ التَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيلَ ٣ ۝ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف ان لكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد أحد ، لا شريك له ، وان
القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وانجيل ، وغيرها من
الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذي جاءت به الكتب السابقة ، وبين الباطل الذي
أضاهه أولئك الذين اتبعوا عليها .

ثم يحدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا في أن هذا الكتاب مطلوب أن نبلغه للناس جميعاً ، وقرأ قوله سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ ۝ كَتَبَ أَزَلٌ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي سِتْرِكَ حَرْجٌ مِّنْهُ لِيُذَرِّيَهُ
وَذِكْرَىٰ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ، يتنصص خطاباً لأمته جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، وحتى مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء في القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلاً ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به لو تركوه ، إذن فإبلاغ الكتاب من الجهات الأساسية التي حددتها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن .

والكتاب فيه رد عن حجاج الكفار وأماطيلهم . وقرأ قول الله تبارك وتعالى .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا
إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَلْبٌ فِيهِ
رَيْبٌ ۚ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾

(سورة يونس)

وفي هذه الآيات الكريمة . يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . المحيطة الأولى هي أن الكفار يتحدون من شرية الرسول حجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله . وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشرأ ، فما هو لعجب في أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بشرأ . واللفتة الثانية هي أن هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التي خلقها الله لنا لكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التي يعرفها الناس جميعاً ، معجراً أن ألا يستطيع

الانس والجن ، مجتمعين أن يأتوا يسورة واحدة منه ثم يلعنوا الحق سبحانه وتعالى
لعنة اخرى الى أن هذا الكتاب يحكم الآيات ، ثم بينه الله لعباده ، وأمرأ قوله جل
جلاله في سورة هود :

﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمُ بَيِّنَاتٍ لِّمَنْ قَبِلَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ غَيْرٍ ۝ لَا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِتَّةٌ بَازِرَةٌ وَبَشِيرٌ ۝﴾

(سورة هود)

هذه هي بعض الآيات في القرآن الكريم ، التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلعننا
فيها الى معنى الكتاب ، فأياته من عند الله الحكيم الخبير ، وكل آية فيها اعجاز
مفحصى به الانس والجن ، وهذا الكتاب لا بد أن يبلغ لسان جميعا ، والكتاب
ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله ، ليكون الحساب عدلا في لآخرة ، فس أنذر وأطاع كان
له الجنة ، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله

ثم يلفتنا الله الى ان هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه
السلام ، يقول جل جلاله :

﴿الزُّبُرُ بَيِّنَاتٌ لِّمَنِ اتَّخَذَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّا زَكَّيْنَاهُ فَزَكَاةً نَّعْمَةً لِّعَمَلِكُمْ تَعْقِلُونَ
۝ تَحْمِلُ نَقْصَ ظَلَمِكُمْ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ
مِنْ قَبْلِهِ لَنِ كَافِرًا ۝﴾

(سورة يوسف)

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة
للأنبياء السابقين ، والأحداث التي وقعت في الماضي ، ولم يأت القرآن بهذه القصص
للتسلية أو للمتعة ، وإنما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة إيمانية ، ذلك أن القصص
القرآن يتكرر في كل زمان ومكان . فزهود هو كل حاكم ظلم في الأرض ، ونصب
نفسه إلها ، وفارون هو كل من أنعم الله عليه فسب انعمة الى نفسه ، وتكبر وعصى

أى أن مهمة هذا الكتاب هي أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك إلى نور الإيمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرب أن هناك حساباً وأخرة ولكنه ينكرهما ، ولا يرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة في كل شيء ، في العمر والرزق والمتعة ، ولو تطلع إلى نور الإيمان ، لرأى الأخرة وما فيها من نعيم أبدي ولعميل من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لا يرى . والطريق لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يحجج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الحقيقة واليقين . ويبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون إلى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التي تأكل وتشرب ، بل أن الأنعام أفضل منهم ، لأن لأنعام تقوم بمهمتها في الحياة ، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى

﴿الرَّيَّةُ الْكِبَىٰ وَفَرَاغُ مَيْمَنٍ﴾ ① رُبَّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ كَانُوا
مُسْلِمِينَ ② فَذَرُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا بِرِثْلِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ ﴿

(سورة الحبيب)

هكذا يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمس ، ولكن لابد أن
يعمل بها ، وأن الدين كلهوا في تمنعهم بالحياة الدنيا لا يرتفعون فوق مرتبة الأنعام ،
وأهم يتعلقون بأهل كاذب في أن المعيم في الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك
وسوف يعلمون .

وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التي ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بمعضية القيمة في العقيدة وهي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى انوار .

[illegible]

ولابد أن يعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة . وإنما هي ثلاث كلمات . . «د» اسم إشارة . . «واللام» تدل على الابتعاد وورقة شأن القرآن الكريم ، «ك» لمحاسبة الناس جميعاً بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة إلى يوم القيمة .

ونحن عندما نقرأ سورة الققرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين . الطريقة الأولى أن نقول «ألم ذلك الكتاب لأريب فيه» ثم نصمت قليلاً ونصيف . «هدى للمعتفين» والطريقة الثانية أن نقول : «ألم ذلك لكتاب لأريب» ثم نصمت قليلاً ونصيف . «به هدى للمعتفين» وكلتا الطريقتين توصلح لنا معنى لأريب أى لاشك . أوفى لاشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم مرسل من الخالق الأعلى . وحق يفهم المطلق الذى تأخذ به قضاياء الدين ، والى سيكون دستورنا فى الحياة ، ولابد أن نعرف ما هو الهدى ومن هم المتهوون ؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تتطلبه . فالإشارات إلى تلك المسافر عن الطريق هو هدى له لأنها تبين له الطريق الذى يوصله إلى المكان الذى يقصده . والهدى يتطلب هادياً ومهدياً وعاية تريد أن تحميه . فإذا لم يكن هناك عايه أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لا تريد أن تصل إلى شيء . . وبالتالي لا تريد من أحد أن يذكرك عن طريق .

إذن لابد أن توجد العدة أولاً ثم نبحث عن يوصلنا إليها .

وهنا تتساءل من الذى يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول إليه ؟ إذا احلنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابد أن تكون واثق من حكمته . وهدى يحدد لك الطريق لابد أن يكون له من العلم ما يستطيع به أن يذكرك عن أقصر الطرق لتصل إلى ما تريد .

فإذا نظرنا إلى أساسى فى الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات . فالذى يريد أن يبنى بيت مثلاً يأخذ مهندس يضع له الرسم . ولكن الرسم قد يكون قاصراً على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يعير ويبدل فيه . ثم يأخذ مهندس على مستوى أعلى فيصنع تصوراً جديداً للمسألة كلها . وهكذا يكون الهدف متغيراً وليس ثابتاً

وعند التعميد قد لا توجد المواد المطلوبة فتغير وبدل لثائق بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتي قوة أعلى فتوقف التعميد أو تمنعه . إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف

حياتهم وقدراتهم . وبعديات التي يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر ومكباته
أدى فكلما محتاجون إلى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طرق حياتنا . وأن يكون
قادرًا على كل شيء ، وممكنًا لكل شيء ، والكون خاصصًا لإرادته حتى نعرف يقينًا أن
ما نريده مستحقق ، وأن الطريق الذي منسلكه سيوصلنا إلى ما نريده . وبها الله
سبحانه ونعالي إلى هذه القصيدة فيقول :

﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَرَجًا فَهُوَ الْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

إن الله يريد أن يلفت خفته إلى أهم إذا أرادوا أن يصلوا إلى هدف ثابت الذي
لا يتغير مبادئه عن الله . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذي لا توجد فيه أي
عقبات أو متعيرات . فبأحدوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى . إنك إذا أردت
بها . فحدد من لقي ، وإذا أردت ثابتًا فحدد من الثابت . ولذلك كانت
قوانين الشر في تحديد أهدانهم في الحياة وطريقة الوصول إليها قاصرة . عمت
أشياء وعامت عنها أشياء . ومن هنا فهي تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان

ذلك أن من وصح القوانين من البشر هدف يريد أن يحققه ، ولكن الله جل
جلاله لا يرى له . فإذا أردت أن تحقق سعادة في حياتك ، وأن تعيش أما
عطش . فحدد الهدف عن الله ، وحد الطريق عن الله . فإن ذلك يحدث من قلوب
متعيرات الحياة التي تتغير وتتبدل . والله قد حدد خدمه ولكل ما في كونه أقصر طريق
لبلوغ الكون سعده . والذين لا يأخذون هذا الطريق يبعثون أنفسهم ويتبعون
حتمهم ولا يحققون شيئًا

أدعنا هدف يحققه الله لك ، والطريق بينه الله لك . وما عليك إلا أن تجمع
مرادك في الحياة خاصة لما يريد الله

ويقول الله سبحانه وتعالى « هدى لمتقين » . . بمعنى المتقين ؟ متقين هم
من . ولانقاء من الوقية . والرقية هي الاحتراس والبعد عن الشر . لذلك

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْبِطُوا نَارًا وَتَوَحَّاهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها . . ومن عجب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم - والقرآن كله كلام الله - «اتقوا الله» ويقول : «اتقوا النار» كيف نأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟!

الله تعالى يقول : «اتقوا النار» أى لاتعملوا مايفضب الله حتى لاتعذبهم في النار فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى وفعلت الخير

وقوله تعالى . «اتقوا الله» كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما كيف يمكن أن يتم هذا ؟ وكيف نتقى من نحب ؟

نقول ان الله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال . . صفات الجلال تجمدها في القهار والجبار والمدن والمنتقم والضر . كن هذا من متعلقات صفات الجلال . بل إن انار من متعلقات صفات الجلال

أما صفات الخفاء فهي العفار والرحيم وكل الصفات التى تتلوه رحمت الله وعصاءاته على خلقه . فإذ كنت تقى نفسك من النار - وهى من متعلقات صفات الجلال - لابد أن تقى نفسك من صفات الجلال كلها . لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا وإيلاما من النار . . فكأن الحق سبحانه وتعالى حين يقول «اتقوا النار» . و: «اتقوا الله» يعنى أن تتقى غضب الله الذى يؤدى بنا الى أن نتقى كل صفات جلاله . ونجعل بيت وبيها وقاية . فمن اتقى صفات جلال الله أحد صفات حماله . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

(إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجل الجبار بالمغفرة^(١))

وكان المنطق يقتضي أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجل الرحمن بالمغفرة) ولكن ما دامت هناك ذنوب ، فالمقام لصفة الجبار الذي يعذب خلقه بذنوبهم . فكان صفة العفّار تشمع عند صفة الجبار . . وصفة الجبار مقامها للعاصي ، فتأتى صفة التفتار لتشمع عندها ، فيعفو الله للعاصي ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجل الجبار بجبروته بالمغفرة ساعة تأتي كلمة جبار . يشعر الإنسان بالقرع والخوف والرعب لكن عندما تسمع (تجل الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل إلى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . والار ليست أمرة ولا ناهية بذاتها ولكنها مأثورة . إذن فاستعد منها بالأمر أو بصفتك الجبار في الأمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى «هدى للمتقين» ولقد قلنا إن الهدى هدى الله . . لأنه هو الذي حدد العاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل إليها فكون الله هو الذي حدد المطلوب ودلنا على الطريق إليه فهذه نعمة النعمة . لأنه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق إليها . فرحما بذلك عما يستعرض له من شيء في أن نحطىء ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فشقى وبدخل في تجارب ، ونشقى في طرق ثم نكتشف أنت قد صلدنا الطريق فتوجه إلى طريق آخر فيكون أصل وأشقى .

وهكذا نتحيط دون أن نصل إلى شيء . . وأراد سبحانه أن يهينا هذا كله فانزل القرآن الكريم . . كتاباً فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكي نتقى عذاب الله وعضبه

والله سبحانه وتعالى قال : «هدى للمتقين» أي أن هذه القرآن هدى للجميع . فالهدى يريد أن يتقى عذاب الله وعضبه فيجد فيه الطريق الذي يحدد له هذه العية . . فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميع . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة

(١) كثر الحديث ، وفي حديث آخر : (إذا كان آخر ليلة من شهر الله فجميعاً فقال رجل من القوم : أمى ليلة القدر ؟ فقال - لا - ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم قالوا ليهربوا) رواه البيهقي

اذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدلهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق الى طاعته وجهته . واقرأ قوله تبارك وتعالى

﴿وَأَمَّا نَحْنُ فَأَهْدِيهِمْ فَلَسْتَ خَبِيرًا أَلَمْ نَعْنِ عَلَى الْهُدَى﴾

(من الآية ١٧ سورة نعلت)

اذن الحق سبحانه وتعالى دلهم على طريق الهدية . ولكنهم أصبحوا طريق انقراية والمعصية واتبعوه . . هذه هداية الدلالة . . أما هداية المعونة ففى قوله سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَآتَيْنَاهُمْ تَفْوُثَهُمْ ۝١٧﴾

(سورة محمد)

وهذه هى دلالة المعونة . وهى لا تمنح إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها . والله سبحانه وتعالى لا يعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى : يقول لىبه ورسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهكذا يلى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب . ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يأتى هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله

نقول : عندما تسمع هذه الآيات اعلم أن الجهة منفكة . يعنى ما نفى غير ما أثبت . . . ففى غزوة بدر مثلا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حمة من الحصى قذفها فى وجه جيش قريش . يأتى القرآن الكريم الى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه .

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

نفى للمحدث وإثباته فى الآية نفسها . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أن الله تبارك وتعالى قال . « وما رميت » ؟؟ نقول إنه فى هذه الآية الجهة منفكة . الذى رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى أوصل الحصى الى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هى قدرة الله سبحانه وتعالى . فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حمة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هى التى جعلت هذا الحصى يصيب كل جندي فى الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وانيك لتهدى الى صراط مستقيم » .

فهى هداية دلالة أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتليقه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبيده لهم . وقوله تبارك وتعالى : « إنيك لا تهدي من أحببت ولكن لله يهدي من يشاء » . . أى إنيك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يهدي القلوب ويزيدها هدى وريانا . ولذلك أصدقها الله تبارك وتعالى قضية إمامية عامة فى قوله : « قل إن الهدي هدى الله » فالقرآن الكريم يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعدابه وقية .



﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْمِلُونَ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب - وهو القرآن الكريم - هدى للمتقين ، أي أن فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية . أراد أن يعرفنا صغائر هؤلاء المتقين ومن هم . وأول صفة هي قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » .

ما هو الغيب الذي جعله الله أول مرتبة في الهدى . وفي اوفاية من الدروس غضب الله ؟ ..

الغيب هو كل ما عاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسنة التي براها ونلمسها لا يختلف فيها أحد . ولذلك يقال ليس مع العين أين . . لأن ما تراه لا تريد عليه دليلا . ولكن الغيب لا تدركه الحواس . إنما يدرك بخبرها

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس . . ولكن هناك أشياء تدرك بعير هذه الحواس

لفرض أن أماننا حقيقتين . الشكل نفسه والحجم نفسه هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيها أثقل من الأخرى ؟ هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أي الحقيقتين أثقل ؟ . لا . . لا بد أن نحمل واحدة منهما ثم نحمل الأخرى لتعرف أيها أثقل . .

بأي شيء أدركت هذا الثقل ؟ بحاسة لعصل . لأن عضلاتك أجهدت عندما حملت إحدى الحقيقتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية . تعرفت بالثقة أيها أثقل ، لا تقل باللمس ، لأنك لو لمست أحدهما ثم لمست الأخرى لا تعرف أيها

أنقل . إذن هناك حساسة العصل التي تقيس بها ثقل الأشياء

ولفرض أنك دخلت محلا لبيع القماش ، وأمامك بوعان من قماش واحد ولكن أحدهما أرق من الآخر . كمجرد أن تصع القماشين بين أديمك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا . . بأي حساسة أدركت هذا ؟ ليس بحاسة للمس ولكن بحاسة اللمس وحكمها لا يعطى .

وعندما تشعر بالجوع . . بأي حساسة أدركت أنك جوعان ؟ . ليس بالحواس الظاهرة . . وكذلك عندما نظما . ما هي الحاسة التي أدركت بها أنك محتاج الى الماء . وعندما تكون مائا . أي حساسة تلك التي توقفت من النوم لا أحد يعرف

إذن هناك ملكات في النفس وهي الحواس الظاهرة وهناك ادراكات في النفس وهي حواس لا يحسها إلا حالقتها . لذلك عندما يأتي العناء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم ماذا تعرفون عن هذه النفس ؟ . أنكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ولكن هناك أشياء داخل النفس لا يعرفونها . . هناك ادراكات لا يعلم عنها إلا ساك شها ، وهي ادراكات كثيرة ومعددة . لذلك يعطى من يقول إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب . لأن هناك ملكات وادراكات معددة تعمل بغير علم ما

لو أعطى لطالب ثمرين هندسي فحله وأتى بالحواب هل يقول أنه غليم عيبا ؟ . لأن حل المبرين كان عيبا عنه ثم وصل اليه . لا لأن هناك مقدمات ونواتج أوصنته الى هذا الحل . والعيب بلا مقدمات ولا نواتج يؤدي اليه ، وهي عندما تعلق الأرضاء الجوية أن هذا يوم مطير شديد الرياح . . أتكون قد عيبت عيبا ؟ لا لأن أحدث المقدمات ووصلت بها الى نتائج وهذا ليس عيبا .

واذا جاء أحد من الدخائين وقال لك ن ما سرق منك عند فلان . أليكون قد علم الغيب ؟ لا لأنه يشترط في المييب ألا يكون معنوما مثلك وما سرق منك معنوما مثلك . فالسارق والذي يبعث له السرقات يعرف من الذي سرق ، وما لدى حدث . والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصيات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى السرقات . وإد حالك دخول من الذين يسحرون الحن

والمعروف أن الجن متورعنا يمتاز بحفة الحركة وسرعتها . والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان :

﴿ إِنَّكَ يَكُودُ مَكِيدٌ مُّخِيلٌ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فقد يكرن هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئاً أو انتقل من مكان إلى آخر . . فيعرف شيئاً لا نعرفه أنت . . . لا يكون غيباً لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التي خلقها الله له . والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون . . أيضاً إنهم أطلعوا على العيب ؟ . لا . . لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو ليس غيباً .

ولكن ما هو العيب ؟ . .

هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل اليه عيم خلق من خلق الله حتى الملائكة . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وعرضهم على الملائكة قال حل حلاله :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ بآءِ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ أَنْبِئْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

والجن أيضاً لا يعلم العيب . . ولدلت عندما مات سليمان عليه السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى قد سَخَّرَ له الحس م نعلم الحس بموته إلا عندما أكلت حابة الأرض

عصاه .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قَبَا نَضَيْتَا عَلَيْهِ السَّوْتِ مَا دَلَّمْ عَنْ مَرْمَةِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْ سَعْمِ قَبَا
تَرْتَبِّئَتِ الْجَنُّ لَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنْغَبَ مَا لَيْسُوا فِي الْعَذَابِ آمِينَ ١٥ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فالعيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى . واقرأ قول الحق جل
جلاله .

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَنْ غَيْبِهِ شَيْئًا ١٥ إِلَّا مِنْ أَرْسَالٍ مِنْ رَسُولٍ فَلَا تُرْسَلُ
مِنْ بَيْنِ يَمِينٍ وَبَيْنَ خَلْفَةٍ وَرَصَدًا ١٦ ﴾

(سورة الجاثي)

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم بما
يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولأن اتبعوهم .

وقدمة الغيب هي الايمان بالله سبحانه وتعالى .. والايمان بملائكته وكتبه ورسله
والايمان باليوم الآخر .. كل هذه أمور غيبية ، وحسبنا يخبرنا الله تبارك وتعالى عن
ملائكته ونحن لا نراهم . نقول ملأنا الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم .
وردا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر . فهدام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن
باليوم الآخر .. لأن الذي أخبرنا به هو الله جل جلاله .. آمنت به أنه اله ..
واستسلمت في هذا الايمان الدليل العقل الذي جعلني أؤمن بأن هذا الكون إنما
وخالفنا .. وما يأتيني من الله حثية الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القاتل .

ولا بد أن نعرف أن وجود الشيء يختلف تماما عن إدراك هذا الشيء .. فامت لك
روح في جسدك تمك الحياة .. أرايتها ؟ .. أسمعها ؟ .. أذوقها ؟ ..
أشمها ؟ .. ألمتها ؟ .. الجواب طبعاً لا .. فبأي وسيلة من وسائل الإدراك
تذكر أن لك روحاً في جسدك ؟ بأنرها في إحياء الجسد ..

إذن فقد عرفت الروح مآثرها ، والروح مخلوق لله . . فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا في جسدك وداتك وهو لروح بآثارها . . ان تدرك الله سبحانه وتعالى بحراسك

ونحن اذا آمننا بالقصة العجيبة وهو الله جل جلاله . . فلماذا أن يؤمن بكل ما يخبرنا عنه وان لم نره . . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة معقلنا أن يقرب لنا قصة العيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشيء ، ولدراك هذا الوجود شيان منفصلان تماما .

فالجراثيم مثلا موجودة في الكون تؤدي مهمتها منذ بداية الخلق . . وكان الناس يشهدون آثار الأمراض في أجسادهم من ارتفاع في الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب . . فلما ارتقى العلم وأذن الله خلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . . جعل الله العقول قادرة على أن تكشف المحهر . . الذى يعطيا الصورة مكبرة . . لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . . فلما اكتشف العلم المحهر . . استطعنا أن نرى هذا الجراثيم . . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير مايكشفه الله لنا من علم كلما تقدم الزمن

إن عدم قدرتنا على رؤية أى شيء لا يبنى أنه غير موجود . . ولكن آلة الإدراك وهى البصر عاجزة عن أن تراه ، لأنه غايه في الصغر . . فإذا جثت بالمحهر كبر لك هذا الميكروب ليدخل في نطاق وسيلة رؤيتك وهى العين . . ورؤينا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها . . بل هى موجودة تؤدي مهمتها . . سواء رأيناها أو لم نرها .

قلو حدثنا أحد من الميكرومات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . . هل كما يصدق ؟ . . والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك في زمانه لبعض حقائق الكون ليرتقى الاسماء ويدرك بعد ذلك . . وكان المفروض أنه يرداد إيماننا . . عندما يدرك وليعرف الحق بالدليل المادى أن ما هو عيب عنهم موجود وان كما لا نراه

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته في الكون ما يجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا . . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والانسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعى أنه خلقهم . . ولا أحد يحكى أن يدهى أنه خلق نفسه أو غيره .

ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة ، لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة . . ولو وجد هذا الكون مصادفة لتصادمت الشمس والقمر والجموم والأرض ولاختل الليل والنهار . .

ولكن كل ما في الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هي التي خلقت وبطنت وأيدعت . فإذا جاء ما ورسول يبلعنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون فلا بد أن نصدق .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « ويقيمون الصلاة » . والصلاة هي إقامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهي لا تسقط عن الإنسان أبد . . فالإنسان يصل وهو واقف ، فإن لم يستطع يصل وهو جالس . فإن لم يستطع ، فجلس وهو راقد . . ولا تسقط الصلاة عن الإنسان من ساعة التكليف إلى ساعة الرفقة كل يوم خمس مرات . .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وما ورعناهم ينفقون » . ونحن نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال . . نقول له لا . . الرزق هو ما يتبع به . فالعزة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق . . وكل ما فيه حركة للحياة رزق . . فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال وتنفق بها على العاجز المريض . وإن كان عندك حلم فإنك تنفقه بأن تقى الأحمق من تصرفات قد تؤدي المجتمع وتزدهق . . وإن كان عندك علم انفعه لتعلم الجاهل . . وهكذا ترى : « وما ورعناهم ينفقون » نستوعب جميع حركة الحياة .



﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

وَيَاذْكُرُوا هُمْ مَرُوفُونَ ﴾

الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين . فبعد أن ألقينا أن من صفات المؤمنين الإيمان بالغيب واقامة الصلاة والانفاق بما رزقهم الله . يأتي بعد ذلك الى صفات أخرى .

فهؤلاء المؤمنون هم . (الذين يؤمنون بما أنزل اليك) أي بالقرآن الكريم الذي أنزله الله سبحانه وتعالى . . . و بما أنزل من قبلك ، وهذه لم تأت في وصف المؤمنين إلا في القرآن الكريم . ذلك أن الاسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس الصنف الأول هم الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبعوث عن الله . وكان هناك صنف آخر من الناس هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسول عن الله وكذب عن الله

والاسلام واجه الصنفين . لأن أهل الكتاب ربما طمأ أنهم على صلة بالله . يؤمنون به ويتلقون منه كتبا ويشعرون رسلا وهذا في نظرهم كاف . نقول لا . فالاسلام جاء ليؤمن به الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله .

والله سبحانه وتعالى في كتبه التي أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه وأوصافه . وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به . .

ولقد أعطى الله حل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إسم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزممه وأوصافه معرفة بقبية . وكان يهود المدينة يقولون للكفار . . أطل زمن رسول سئوس به وقتلكم قتل عاد ودم . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربه وأبكر نبوته . . فأوصاف رسول الله عليه الصلاة

والسلام موحدة في التوراة والإنجيل . ولذلك كان أهل الكتب يذرون الكفار بأنهم سيؤمنون بالرسول الحديد ويسردون به العرب . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ مَّا عَرَفُوا نَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١٥)

(سورة البقرة)

أي أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا يتظرونها . كانوا يؤمنون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم ولكنهم رفضوا الإيمان وانكروا الرسالة عندما جاء زمها . .

ثم يقول سبحانه وتعالى « وبالآخرة هم يوقنون » ونلاحظ هنا أن كلمة (وبالآخرة) قد جاءت . . لأنك إذا تصفحت التوراة التي هي كتاب لليهود ، أو قرأت التلمود لا تجد شيئا عن اليوم الآخر . فقد أخذوا الأمر المادي فقط من كتبهم والله تبارك وتعالى أكد الإيمان باليوم الآخر حتى عرف الذين يقبضون أما بالله وكلمته ورسالته ولا يلتفتون إلى اليوم الآخر أنهم ليسوا بمؤمنين . فلم يجرى هذا الوصف في القرآن الكريم ربما قاتلوا إلى الإسلام موافق لما عندنا . ولكن الله حل جلاله يريد تصوير الإيمان تصويرا كامليا بأن الإيمان بالله قمة ابتداء ولإيمان باليوم الآخر قمة انتهاء فمن لم يؤمن بالآخرة وأنه سيلقى الله وسيحاسبه . وأن هناك جنة يسم فيها المؤمن ، ونارا يعذب فيها الكافر يكون إيمانه ناقصا . ويكون قد اقترب من الكافر الذي جعل الدنيا عاينه وهدفه

فالؤمن يتبع منهج الله في الدنيا ليستحق نعيم الله في الآخرة . فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر سعفا من المؤمن في الحياة لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهي ولم يفقد نفسه منهج ، بل أطلق لشهوته العنان . بينما المؤمن قيد حركته في الحياة طمعا لمنهج الله وتعب في سبيل ذلك . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شيء . فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها . والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لفصية الإيمان . ولذلك كان الإيمان بالله قمة الإيمان بداية والإيمان بالآخرة قمة الإيمان نهاية

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قوله تعالى : (أولئك) اشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التي بينها الله سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين . فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات ووصلوا الى الهدى أى الى الطريق الموصل للإيمان . ووصلوا إلى لفلاح ، وهو الهدف من الإيمان .

وقوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تشمل الجميع ..

ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى « أولئك » مرتين ؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض ؟ حتى نعرف أنه ليس في الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد .. وسببته الهدى ، وغايته انقاذ ..

ولو نظر الى التكييفات التي هي الهدى الموصلة الى افاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدى عن الهدى .. لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك في الحياة

ويستلذك ، وإنما جاء ليرفعك

إن السطحيين يعتقدون أن الهدى يقيّد حركة الانسان في الحياة ويجمعه من تحقيق شهواته العاجلة . ولكن الهدى في الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن انسداد المجتمع الذي سيكون هو أول من يعاني منه . لذلك قال تبارك وتعالى : « على هدى » ..

و (على) تعيد الاستملاء . فإذا قلت أنت على المواد فإنك تعلمه .. كان المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل . ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى بأجله من خير الى خير .. وذلك بعكس الصلالة التي تأخذ الانسان الى أسفل

ولذلك حين تقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿وَأَنَّا آتُونَاكَ لَهُم مِّنْ غَدِيٍّ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(من الآية ٢١ سورة مد)

ترى ما يعيد الارتفاع والعلو في الهداية ، وما يفيد الانخفاض والنزول في الصلاة ؛ وإنما كان لعلو في الهدى .. لأن المنهج قيّد حركه حياتك اعزازاً لك لصلوك وسمو مقامك في أنك لا تأخذ من بشر تشريعاً .. ولا تأخذ من ذاتك حركة .. وإنما يرتفع بك لتتلقى عن الله سبحانه وتعالى .. وهذا علو كبير .. ولكن عند الضلال قال : « في ضلال » .. و (في) تدل على الظرفية المحيطة .. وهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى في آية أخرى بقوله حين جلالة .

﴿لِيَمَن كُتِبَ سَيِّئَةٌ وَاحْتَلَتْ بِهَا خَطِيئَتُهُ فَمَا لَهَا إِلَى اللَّهِ فَرْجٌ ۖ وَلِلَّذِينَ اسْتَحَبُّوا اللَّهَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُحِبُّوا ۚ﴾ (٨١)

(مسودة البقرة)

أحاطت به الخطيئة . . أي لا يستطيع أن يفلت منها لأنه مظلوف في الضلال . .
ومادامت الخطيئة محيطة به فلا يجد منفذا لأنها لحكمة . . ومادامت تحكمه فلا يمكن
أن يصل إلى هدى مطلقا . . فالتحق سبحانه وتعالى حينها قال : وأولئك على هدى
من ربهم وأولئك هم المفلحون . . اختار لفظا عليه دلالة ذهنية تقرب المعنى إلى
السامع . .

ما هو الملاح ؟ . المعنى العام هو الموز وأصلح هو العائر ومعنى الآية الكرعة أولئك هم الفاترون وقال : « هم المفلحون » . . لأن الفلاح مأخوذ من شق الأرض للبذر ومنه شق الفلاح الذي صفه شق الأرض ورعى البذور فيها .

والحق سبحانه تعالى جاء بهذا اللفظ بالسبب للاخرة لأنه يريد أن يأن لنا مع الشيء بدلله . . وهناك فرق بين أمر غيبى حتما لا نعرفه . . وأمر غيبى يستدل عليه بشهود . .

والدين يقيد حريك في الحياة في أن تعمل ولا تفعل . . ومنهج الله جاء ليقول لك
إفعل كذا ولا تفعل كذا . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن
وإنقال عليه . . لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها . .

ان الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . معناه عند السطحيين أنه صيق
عليك ما تريد أن تفعل . . وحين يقول لك افعل . معناه يكون قد صيق عليك
في شيء لا تريد أن تفعله . فمثلا حين يطلب منك الركاء . . فالركاة في ظاهرها
نقص المال ، وإن كانت في حقيقتها بركة وغناء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول (ما بقصت صدقة من مال . وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع
أحد لله إلا رفعه) (١) .

والحق سبحانه وتعالى إذا قد حركتك في الحياة لا يظن أن هذا نصيبك
عليك . بل ان هذا لعائدتك . لأنه لم يأمرك وحده ، ولكن الأمر للناس جميعا
حين يقول جل جلاله لا تسرق . . فقد قالها للناس جميعا ولذلك تكون أنت
الرايح . لأنه قيدك وأنت هرد من أن تسرق من غيرك . . ولكنه قيد ملايين الناس
من أن يسرقوا منك . . إذن فالله لم يصيق عليك ، ولكنه حي مالك من الناس كل
الناس فبيدك وأنت هرد أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من
مالك فمن العائز ؟ . أنت طعا .

وقوله تعالى « أولئك هم المفلحون » (المفلحون) من مادة فلع . فإذا كانت
الأرض صماء فحيي بشقها وبسدرها تعطى محصولا عظيما ، العملية أحدها أبا عن
جد . فالأرض حين تشق وتسر تعطى محصولا وافرا . وإذا كانت هذه العملية
أخذت أبا عن جد . إذن السؤال من الذي علم آدم البذر والزرع ؟ يقول علمه
الله سبحانه وتعالى كم علمه الأسماء وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته في
الأرض .

والحق حل حلاله لم يكن يترك آدم في حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يصح
استمرار حياته وحياة أولاده . يعلمه على الأقل بدايات . ثم بعد ذلك تتطور هذه
البدايات بما يكشفه الله من علمه لحقها . وبعد ذلك جاءت القرون المتقدمة

فماستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر .. ولكن الحقيقة الثابتة التي لم تتغير منذ بداية الكون ولم تتغير حتى نهايته .. هي أن مهمة الإنسان أن يحث ويضع لبذرة في الأرض ويسقيها .. أما نمو الزرع نفسه فلا تدخل للإنسان فيه .. وكذلك الثمر الذي ينتجه لا عمل للإنسان فيه .. ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى إلى هذه الحقيقة حتى لا نفترب بحركتنا في الحياة ونقول إنما نحن الذين نزرع .. واقرأ قول الحق جل جلاله في سورة الواقعة

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٥﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٦﴾ لَوْ لَنَا الْبَلَدُ كُلُّهُ ﴿١٧﴾ سَكَنًا مَّطْلُومًا تَفْكُهُونَ ﴿١٨﴾ إِنْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ بَلْ لَحْنٌ عَجُوزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة في الأرض مقصورة عن الحرث والسقي والبذر ، وحينما تلقى الحبة في الأرض يخلق الله في داخلها الغذاء الذي يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض . وإذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد لبثت لها ساق وجذور من أين جاء هذا النمر ؟ من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر في كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تغذي من الأرض .. وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة .. وحين تصعها في الأرض فإنها تبدأ أولاً بأن تغذي نفسها . بحيث يبيت لها ساق وجذور وورقان تنفس منها .. كل هذا لا تدخل لك فيه ولا عمل لك به .. وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض والهواء .. لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومى هنا جاءت كلمة (المفلحون) .. ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهودة ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب .. فيشبه التكليف وجزاءه في الآخرة بالبذرة والملاحة . أولاً لأنك حين ترمى بذرة في الأرض تعطيك بدورها كثرة ..

وقرأ قول الله سبحانه وتعالى .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْنِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَاوِلَ فِي كُلِّ
مُجْلَدٍ مِائَةِ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة)

وإذا كانت الأرض وهي المخلوقة من الله تهك أضعاف أضعاف ما أعطيتها .
مكثف بالخالق ؟ . . . وكم يضاعف لك من الثواب في الطاعة ؟ . هذا هو السبب في
أن الحق تبارك وتعالى يقول « وأرسلتكم هم القلحرد » حتى يلتقا بمادة
الفلاحة . وهي شيء موجود براه وشهده كل يوم .
وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك كذلك الأرض أخذت منك
حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة . . وهكذا نستطيع
أن نصل بشيء مشهود يُنصّل لما شئنا غيبا .



﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

ويعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم .. وجزاتهم في الآخرة ومن يتطهرهم من خير كبير .. اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون .. وبين لنا ان الايمان جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير في الدنيا والآخرة .. فلا بد ان يكون هناك شر يحارب الايمان .. وبولا وجود هذا الشر .. اكان هناك ضرورة للايمان .. ان الانسان المؤمن يقي نفسه ويحتمه وعالمه من شرور يأتي بها الكفر ..

والكافرون قسبان .. نسم كفر بالله بولا ثم استمع الى كلام الله .. واستقبله بفطرته السليمة باستجاب وآمن .. وصنف آخر مستفيد من الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك .. وهذا الصنف يعرف ان الايمان اذا جاء فانه يسلبه جاءا دينويا ومكاسب يحققها طلبا وعدواتا ..

ادب الذين يقفون امام الايمان هم يستفيدون من الكفر .. ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا ..

هؤلاء قد تفتح قلوبهم فيؤمنون والكفر معناه لستر .. ومعنى كَفَرَّ (أى) سَتَر .. وكفر بالله أى ستر وجود الله جل جلاله .. والذي يستر لا بد ان يستر موجودا ، لأن الستر طارئ على الوجود .. والاصل في الكون هو الايمان بالله .. وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله .. فكان الاصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس مستروا وجود الله سبحانه وتعالى .. ليقوا على سلطانهم او سيطرتهم او استغلالهم او استعلائهم على غيرهم من البشر .

ولفظ الكفر في ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر ..

كيف ؟ ..

لأن الخلق الاول وهو آدم الذى خلقه الله بيديه . ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة . . . وعلمه الاسماء كلها . . .

سجد الملائكة وتعليم الاسماء أمر مشهود بالنسبة لآدم . ولكفر ساعتها لم يكن موجودا . . . وكان المفروض ان آدم بعد ان نزل الى الارض وسقى فيها . . . يلقن اساءه المسيح عبده الله لأنه نزل ومعه المسيح في (افعل ولا تفعل) وكان على ابتاء آدم ان يلقوا اباءهم المسيح وهكذا . . .

ولكن بمرور الزمن جاءت العقلة في أن الايمان يقيّد حركة النفس في الكون . . . فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلا قيود يتخذ طريق الكفر . . . والعقل حين يسمع كلمة كفر . . . يحب عليه ان يتب الى ان معها ستر لموجود واحد الوجود . . . فكيف يكفر الانسان ويشارك في ستر ما هو موجود . . . لذلك تجد ان الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّزُكُمْ ثُمَّ يُعْجِبُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾
مُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَاءَ الْأَرْضِ حَيْثَا تَحْيَا ثُمَّ أَسْرَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَعًى تَحْنُوتُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يأتي هذا السؤال . . . ولا يستطيع الكافر له جوابا !! لأن الله هو الذى خلقه وأوحده . . . ولا يستطيع احد منا ان يدعى انه خلق نفسه او خلق غيره . . . فالوجود بانذات دليل على قصبة الايمان . . . ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتسترون وجود من خلقكم ؟ . . .

والخلق قصبة محسومة لله سبحانه وتعالى لا يستطيع احد ان يدعيها . . . فلا يمكن ان يدعى احد انه خلق نفسه . . . قصبة انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه وتعالى الذى اوجدك . . . انه عين الاستدلال على الله . . . واذا نظر الانسان حوله

فوجد كل ماقى لكون مسخراً لخدمته والاشياء تستجيب له . فظن بمرور الزمن ان له سيطرة على هذا الكون . . ولذلك عاث في دمه قوة الاسباب . . يأخذ الاسباب وهو داعلها فيجدها قد اعطته واستجابت له . ولم ينتهت الى خالق الاسباب الذي خلق لها قوسها فجعلها تستجيب للانسان . . وقد اشار الحق تبارك وتعالى الى ذلك في قوله جل جلاله

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّافٍ ۚ إِنَّ رَبَّهُ أَسْتَفْتَحِ ۚ ﴾

(سورة النحل)

ذلك ان الانسان يحرق الارض فتعطيه الثمر . فيعتقد انه هو الذي انضجع الارض ووضع لها قوانينها لتعصبه ما يريد . يصعد عن زر الكهرباء فيسير المكان فيعتقد انه هو الذي توجد هذه الكهرباء ! يركب الطائرة . ونسير به في الجو فيعتقد انه هو الذي جعلها تطير . ويسى الخصائص التي وضعها الله سبحانه وتعالى في الغلاف الجوي ليستطيع ان يحمل هذه الطائرة . يفتح التليفزيون ويرى امامه احداث العام فيعتقد ان ذلك قد حدث بقدرته هو . ويسى ان الله تبارك وتعالى وضع في الغلاف الجوي خصائص جعلت ينقل الصوت والصورة من اقصى الدنيا الى اخرها في ثوان محدودة . وهكذا كل ما حول يظن الانسان انه اخصه بذاته . يسى كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان . وهو الذي خلق ووضع القوانين . يقول له انت لو لمهت معنى ذبابة الاشياء ماحدثت بك نفسك بذلك الشيء لداق هو ما كان يدرك لايتغير ولا يتحلف ابدا . انما الامر الذي ليس بذاتك هو الذي يتغير . .

واذا نظرت الى ذاتيك تلك التي اعزتك واطمعتك . . ستفهم ان كلمة دائية هي الا يكون محتاجا الى غيرك بل كل شيء من نفسك . وانت في حياتك كلها ليس لك دائية ! لان كل شيء حولك متغير بدون ارادتك . وبست طفل محتاج الى أبيك في بدء حياتك . فاد كبرت وأصبح لك قوة واستجابت الاحداث لك فربك لا تستطيع ان تجمع فترة الشباب والفترة هذه سقى . فالزمن يميك ولكن لفترة محدودة . فدا وصلت الى مرحلة الشيخوخة فستحتاج الى من يأخذ بيدك ويعينك . . ربما حي ادق حاجاتك وهي طعام والشراب



إذن فانت تبدأ بالطعونة محتاجا إلى غيرك .. وتنتهي بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك ..
وحتى عندما تكون في شبابتك قد يصيبك مرض يقعدك عن حركته .. فإذا كانت لك
دات حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقل لن امرض .. انك لا تستطيع ..

الله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهي الغرور من الانسان به
ويحرف انه قووى قادر بما الخضع الله له من قوايين الكون .. نعلم اننا جميعا
محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غنى بذاته عن كل خلقه .
يغير ولا يتغير . يميت وهو دائم الوجود . يجمع من بعد قوة ضمعا وهو القووى
دائما . ما عند الناس يتعد وما عنده نبارك وتعالى لا يتبدأ أبداً . هو الله في السموات
والارض .

اذن فليست لك داتية حتى تدعى انك احضعت الكون بقدراتك . لانه ليس
لك قدرة ان تبقى على حال واحد وتعمله لا يبدل ولا يتغير فكيف تكفر بالله
تبارك وتعالى وتستر وجوده .. كل ملق الكون وما في نفسك شاهد ودليل على وجود
الحق سبحانه وتعالى

قلنا ان الكافرين صنفان . صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله
وعرف الحق فأنس .. والصنف الآخر مستعبد من الكفر .. ولذلك فهو منشيت به
مهما جاءه من الايمان والادلة الايمانية فيه يعاند ويكفر .. لانه يريد ان يحتفظ
بسلطانه الديوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان .. ولا يقبل ان يتجرّد منها ولو
بالحق .. هذا الصنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى : « إن الذين كفروا سواء
عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »

انهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم .. ولم يكفروا لأنهم
في حاجة الى ان يلفتهم رسول او نبي الى منهج الله .. هؤلاء اتخذوا لكفر صاعة
ومنهج حياة .. فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولانهم متميزون عن
غيرهم بالباطل .. ولانهم لو جاء الايمان الذى يساوى بين الناس جميعا ويرهض
الظلم ، لأصبحوا اشخاص عاديين غير مميزين في اى شيء



هذا الكافر الذي اتخذ الكفر طريقا لحياة الدنيا وزخورها سواء أدرته أم لم تتدره فإنه من يؤمن . أنه يريد الدنيا التي يعيش فيها . بل ان هؤلاء هم الذين يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن . . لأنهم يعرفون ان الايمان سيصلهم عموما كثيرة . ولذلك فإن عدم ايمانهم ليس عن ان مشيخ الايمان لم يبلغهم . او ان أحدا لم يلفتهم الى آيات الله في الارض . ولكن لأن حياتهم قائمة ومبينة على الكفر



﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ
غِشَاةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

وكما اعطانا الحق سبحانه وتعالى اوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين وقد
يتساءل بعض الناس اذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين ؟ فلماذا يطلب رسول
الله صلى الله عليه وسلم الايمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم ١٩ ومعنى الختم على
القلب هو حكم بالآل يخرج من القلب ما فيه من الكفر . . ولا يدخل اليه الايمان .

نقول ان الله سبحانه وتعالى عفى عن لعالمين . فان استغنى بعض حقه عن
الايمان واحتاروا الكفر . . فان الله يساعده على الاستعناء ولا يعبه على العودة الى
الايمان . ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى يقول في حديث قديمي :

« ان عبد ظى عبيدى وانا معه حين يذكرى فان ذكرى في نفسه ، ذكرته في
نفسى ، وان ذكرى في ملاء ذكرته في ملاء حير منه ، وان اقرب الى شبرا تقربت اليه
براعى ، وان اقرب الى ذراعى اقترت اليه باع وان اتان يمشى تيته هرولة ، (١)

وقد وصح الحديث الفيلسوفى ان الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الايمان ، وان
الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الايمان . . فانه لا يحسن ان يأتى العبد الى الايمان
او لا يأتى . ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بان من كفروا قد احتاروا لكفر
بإرادتهم- واحتارهم بكفر كان اولاً قيل ان يختم الله على قلوبهم والخالق جل
جلاله اعنى الشركاء عن الشرك . ومن اشرك به فانه في عفى عنه .
ان الذين كفروا . . اى ستروا الايمان بالله برسوله . هؤلاء يختم الله بكفرهم
على آلات الادراك كلها القلب والسمع والبصر . والقلب أداة ادراك غير
ظاهرة . وقد قدم الله القلب على السمع والبصر في تلك الآية لانه يريد ان يعلم

مساعد لأدراك وفي القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَكَ مِنْ نَظَرٍ أَمَّهَكَ لَا تُصَوِّرُ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكَ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَنَكَ نَسْرُوت ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا يعلم الله ان هذا العلم في الانسان هي السمع والابصار والافئدة ولكن في الآية الكريمة التي نحن بصددها قدم الله القلوب على السمع والابصار ان الله يعلم انهم اختاروا الكفر . وكان هذا الاختيار قبل ان يحتم الله على قلوبهم . . . والختم على القلوب . معناه انه لا يدخلها ادراك جديد ولا يخرج منها ادراك قديم . . . مهما رأب العين أو سمعت الأذن فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب مخنومة بحاتم الله بعد ان اختار أصحاب الكفر وأصرروا عليه . وفي ذلك يصمهم الحق حين جلالة :

﴿ صَمَّ بَكَ عَنْهُمْ لِأَقْرَبُ هَتْفٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن لماذا قدوا كل ادوات لأدراك هذه ؟ . لأن لعناوة التفت حول القلوب الكافرة ، فجعلت العيون حجرة عن تأمل آيات الله . . والسمع غير قادر على التلقى من رسول الله صل الله عليه وسلم . .

اد من هؤلاء الذين اختاروا الكفر وأصرروا عليه وكفروا بانه برغم رسالاته ورسله وقرآنه ماذا يفعل الله بهم ؟ انه يتحنن عليهم، ولأنه سبحانه وتعالى عني عن العلمين فإنه يسرهم الطريق الذي مشوا فيه ويعينهم عليه وأقرأ قوله تبارك وتعالى

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الرعد)

ويظنون جل جلاله :

﴿ هَلْ أُمِيتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١١١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفْكٍ مُّؤْمِسٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر . . دون أن يكون جل جلاله تدخّل في اختيارهم . . فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام ودعا نوح إلى مبعج الله تسعةائة وخمسين عاماً . وقبل أن يأتي الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلاً . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبي السمية لينجو المؤمنون من الطوفان . وأقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأَوْسَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَحْزَنْ يٰمُوسَىٰ ﴿١١٣﴾ وَأَصْحَ الْعُلُكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَحْطَبُنِي فِي الَّذِينَ طَغَوْا إِنَّهُمْ مَصْرُورُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة هود)

وهكذا يرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . أنه يعلم من سيهر على الكفر وأنه سيعوت كافراً . . وإذا كانت هذه هي الحقيقة لماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم بالشيخ وبالقرآن ؟ . . ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . فلا يأتي هؤلاء الناس يوم الشهد العظيم ويجادلون بالباطل أنه لو يعلمهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمنوا . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم ؟ . لأن القلب هو مكان العقائد . . ولذلك فإن القضية تناقض في العقل فإذا انتهت صاقتها واقترع بها الإنسان تماماً فإنها تستقر في القلب ولا تعود إلى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وإيماناً . . والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّلُوبِ ﴾

(س الآية ٤٦ سورة الحج)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾

لنفس في الحياة الدنيا عن ثلاثة بحوال إم مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .
والله سبحانه وتعالى في بداية القرآن الكريم في سورة البقرة . . اراد ان يعطينا وصف
الشر جميعا بالنسبة للمنتهج وانهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون ، عرفنا الله
سبحانه وتعالى صفاتهم في ثلاث آيات ، في قوله تعالى
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَنَّا مُتَّقِينَ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْبِحُونَ﴾

والفئة الثانية هم الكفار ، وعرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في آيتين في قوله
تعالى .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَعَمَى سَمْعَهُمْ وَعَمَّى بَصَارَهُمْ فَسَاءَ عَذَابُ عَذَابِ الْعَظِيمِينَ﴾

وجاء للمنافقين معرف صفاتهم في ثلاث عشرة آية متتابعة ، لماذا . . ؟ لخطورتهم
على الدين ، فالذي يهدم الدين هو المنافق ، اما الكافر فمحس نقيض ونحدره ، لأنه
يعلم كفره .

إن المنافق ، يتظاهر امامك بالإيمان ، ولكنه يطن الشر والكفر ، وقد نحسبه
مؤمنا ، فنظلمه على اسرارك ، فينخذها سلاحا ليطعن لدين . وقد خلق الله في
الانسان ملكات متعددة ، ولكي يعيش الانسان في سلام مع نفسه ، لابد ان تكون
ملكاته مسجعة وغير متناقضة

فالؤمن ملكاته متسجعة ، لأنه اعتقد بقلبه في الايمان ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا
تناقض بين ملكاته ابداً .

والكافر قد يقال انه يعيش في سلام مع نفسه ، فقد رخص الايمان وانكره بقلبه
ولسانه ينطق بملك ، ولكن الذي فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، انه فقد السلام
مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يظهر غير
ما يظن ، ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى ان يكشفه الناس ، فيعيش في خوف
عميق ، وهو يعتقد ان ذلك شيء مؤقت سينتهي

ولكن هذا التناقض ينفي معه الى آخر يوم له في الدنيا ، ثم ينتقل معه الى
الآخرة ، فيفرض عليه ، ليقوده الى النار ، وقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿٢﴾ وَقَالُوا لِمَ جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن كل ملكاتهم انقضت عليهم في الآخرة ، فالسلام الذي كانوا يطمحونه لم
يحققوه لا في حياتهم ولا في آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ،
ورجلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فهذا يعني له ؟
بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ،
وبينه وبين آخرته تناقض . وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس في
قلبه ، بهذا وصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين ؟ قال تعالى -

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة البقرة)

هذه اول صفات المنافقين في القرآن الكريم ، يملكون الايمان وفي قلوبهم الكفر ،
ولذلك فإن ايمانهم كله نفاذ ، اذا ذهبوا للصلاة لا يكتب لهم ، لانهم يتظاهرون
بها ، ولا يؤدونها عن ايمان ، واذا ادوا الركعة ، فونها تكون عليهم حسرة ، لانهم
يتمقونها وهم لم يكارهوها ، لانها في روعهم بقص من ما لهم . لا يأخذون عليها ثوابا

في الآخرة ، ولذا قتل واحد منهم في غزوة ، انتابهم الحزن ، والأسى ، لأنهم اهدروا حياتهم ولم يعلموها في سبيل الله .

وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يصل أو يؤدي الزكاة أو يستشهد في سبيل الله فهو يرجو الجنة ، ولما الماتقون فإنهم يفعلون كل هذا ، وهم لا يرجون شيئاً . . فكانهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة ، فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يعمل في سبيل الله ، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله



﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهى صفة تدليس على غفلتهم وحقن تفكيرهم ، فإنهم يحسبون انهم يشاققون الله سبحانه وتعالى ، وهى يستطيع بشر ان يخدع رب العالمين ؟

ان الله عليم بكل شئ ، عليم بما سخرى وما نعلن ، عليم بالسر وما هو اخفى من السر ، وهى يوجد ما هو اخفى من السر ؟ نقول نعم ، السر هو ما اسررت به لغيرك ، فكأنه يعلمه لثنان ، انت ومن اسررت اليه . ولكن ما هو اخفى من السر ، ما تبقى فى نفسك ولا تخبر به احدا ، انه يظل فى قلبك لا تسر به لانسان ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا تَحْزَنْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

(سورة طه)

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع ان يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون انهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون ايضا انهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون امامهم غير ما يبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون فى خوف مستمر ، وهم دائما فى قلق او خوف من ان يكشفهم المؤمنون ، او يستمعوا اليهم فى مجالسهم الخاصة ، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الايمان ، ولذلك اذا تحدثوا لابد ان يتأكدوا اولاً من ان احدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانياً من ان احدا من

المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتخلطون ، والخوف بملأ قلوبهم ايضا ، وهم مع المؤمنين . فكل واحد منهم يخشى ان تفلت منه كلمة ، تفصح بواقعه وكمره . وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين . والحقيقة انهم لا يخدعون الا انفسهم . والله سبحانه وتعالى ، يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق . فإن لم يعلموه ، فإن الله يخبرهم به ، واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَوَسَّاءُ لَّآرَبَيْتَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ وَتَعْرِفَهُمْ فِي حَرْقِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ۝ ﴾

(سورة محمد)

ألم يأت المتأفقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهدوا انه رسول الله ففصحهم الله بام رسوله وارسل قومه تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَمَقِّنُونَ قَالُوا نَشْهَدُ بِأَنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَمَقِّنِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ ﴾

(سورة المنافقون)

جاء المتأفقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بصدق رسالته ، والله سبحانه وتعالى يعلم ان هذه الشهادة حق وصدق ، لانه جل جلاله . يعلم ان رسوله صلى الله عليه وسلم ، صادق انرسالته ، ولكنه في الوقت نفسه شهد بان المتأفقون كاذبون . كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المتأفقون ثم يكونون كاذبين ؟

نفوس . لان المتأفقين قالوا بالسمتهم ما ليس في قلوبهم ، فهم شهدوا بالسمتهم فقط ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ولكن قلوبهم منكرة لذلك . مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المتأفقون رغم انه حقيقة الا اهم يكذبون ، ويقولون بالسمتهم ما ليس في قلوبهم ، لان اصدق هو ان يوافق الكلام حقيقة ما في القلوب ،

وهؤلاء كذبوا ، لأنهم في شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع في قلوبهم ، بل قلوبهم تُكذِّب ما يقولون .

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم بفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين ونسبهم رسولهم صلى الله عليه وسلم بما يفسدونه في قلوبهم ، إذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم أنه خداع بشر لبشر ، إلا أنه أحياناً تفتت الستهم ، فتعرف حقيقتهم ، وإذا لم يفتت الستهم ، جاء ليبين من الله سبحانه وتعالى ليوضحهم ، وتكون حصيلته هذا كله ، أنهم لا يخدعون أحداً ، والله يعلم سرهم وحقهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفتت الستة المنافقين فيكشفون أنفسهم

اذن فسلوك المنافق ، لا يجدر به إلا نفسه ، وهو الخاسر في الدنيا والآخرة ، عندما يؤدي عملاً إيمانياً ، والله يعلم أنه باطل ، وعندما يحاول أن يخدع المؤمنين ، يكشف ، والنتيجة أنهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نعماً ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين .



﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

قاله سبحانه وتعالى، شبه ما في قلوب المنافقين بأن مرض، والمرص (ولا يورث السقم، فكان قلوبهم لا تملك الصحة الايمانية التي تحي القلب فتجعله قويا شديدا، ولكنها قلوب مريضة، فإذا كانت مريضة؟ لقد أتعبها التناقض وأتعبها التناقض مع كل ماحوفا، وأحسنت أنها تعيش حياة ملوثة الكذب، فاضطراب القلب، جعله مريضا، ولا يمكن أن يشفى إلا بإذن الله، وعلاجه هو الايمان الحقيقي الصادق، ذلك الذي يعطيه اشفاء، والله سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهِدًا لِّمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْفَاسِقِينَ إِلَّا فَسَادًا ﴾ (٨٧)

(سورة الاسراء)

اذن فالايان والقرآن هما شفاء القلوب، كلاهما يعيد عن قلوب هؤلاء اسافقين، فكان المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن، والله سبحانه وتعالى - بمساعدتهم وكرمهم - يريد لهم مرضا. وهذه هي الصفة الثالثة للمنافقين. اهم اصحاب قلوب مريضة سقيمة، لا يدخلها نور الايمان، ولذلك فهي قلوب ضعيفة، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق. وهي قلوب خائنة من كل ماحوفا، مرتعبة في كل خطواتها، مضطربة بين ما في القلب وما على اللسان، والمريض لا يقوى على شيء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق، ولا تقوى على الصديق، ولا ترى ماحوفا، تلك الرؤية التي تناسب وتتفق مع فطرة الايمان، التي وضعها الله تعالى في القلوب، ولذلك اذا دخل المنافقون في معركة في صفوف جيش المسلمين. . . فأول ما يبحثون عنه هو الهرب من المعركة، يبحثون عن غنى يفتقرون به، أو مكان لا يراهم فيه

احد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله :

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدَنًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

(سورة التوبة)

لماذا ؟ لأنهم اصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرغوها يجعلها يهرب من كل شيء ، وتحتفى . ولبت الامر يقتصر عند هذا احد ، ولكن ينتظرهم في الآخرة عذاب ألیم ، غير العذاب الذي عابوه من قلوبهم المريضة في الدنيا ، فيها كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم في الآخرة عذاب ألیم اشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿١٢٥﴾﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)



﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا

نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١﴾

الفساد في الارض هو ان نعمل في الصالح فنعسده ، ونقل ما يطلب منك في الدنيا ، ان تدع الصالح لصالحه ، ولا تتدخل فيه لتعسده ، فإن شئت ان ترتقي بمايا ، تأت للصالح ، وترد من صلاحه ، فإن جئت للصالح وافسدته فقد افسدت مبادئ ، لأن الله سبحانه وتعالى ، اصلى لك مقومات حياتك في الكون ، فلم تتركها على الصلاح الذي خلقت به ، وكان تركها في حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت اليها ، وهي صالحة بخلق الله لها فافسدتها ، فأنت لم تستعمل النعمة الممنوحة بك من الله ، بأن تتركها تؤدي مهمتها في الحياة ، ولم ترد في مهمتها صلاحا ، ولكنك جئت الى هذه المهمة فافسدتها . فلو ان هناك نورا يشرب منه الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع نت بأسباب الله في كون الله ان تأتي وتصلحها ، بأن تظن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهار الرمال داخلها ، او ان تأتي بحبل واناء حتى تعين الناس على الوصول الى مياهها ، ولكنت اذا جئت وردمتها تكون قد افسدت الصالح في الحياة

وهكذا انتافقون . انزل الله تعالى منها للحياة الطيبة للانسان على الارض ، وهؤلاء المنافقون بذلوا كل ما في جدهم لافساد هذا المسج ، بأن قاموا صلبه وادعوا انهم مؤمنون به ليظفروا الاسلام من داخله

ولقد تنبه اعداء الاسلام ، الى ان هذا الدين القوي الحق ، لا يمكن ان يتأثر بطغات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها . فما قامت معركة بين حق وباطل الا انتصر الحق ، ولقد حاول هذء الاسلام ان يواجهه سنوات طويلة ، ولكنهم عجزوا ، ثم نبهوا الى ان هذا الدين لا يمكن ان يهرم الا من داخله ، وان استخدام المنافقين في الافساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا الى اسلمين اسما ليتحلوا مهم الحربة التي يوجهونها ضد الاسلام ، وظهرت مذاهب

واحتلافت ، وما اسمره العليانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قلم به المنافقون في الاسلام وعلموه بخلاف اسلامي ، ليعسدو في الارض ويحاربوا مبع الله
وبدألت المؤمنون بطرهم لي أنهم يعسدون في الارض ، وطلبو منهم ان يمتنعوا
عن الافساد ، ادعوا لهم لا يعسدون ولكمهم يصلحون ، راي صلاح في عدم اتباع
مبع الله والخروج عليه بأي حجة من الخبيث ؟



﴿الْأَنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٥٦

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يندعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يندعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين . كذلك فإنهم يفسدون في الأرض ويدعون أنهم مصلحون، ولكنهم في حقيقة مفسدون، لماذا؟ لأن في قلوبهم كفراً وعداء لمنهج الله، فلو قاموا بأي عمل يكون ظاهره الاصلاح، لحقيقته هي الإفساد، تماماً كما ينطقون بأنهم بما ليس في قلوبهم

والكون لا يصلح الا بمنهج الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق، وهو الذي أوجد، وهو أدرى بصنعه وبما يفسده وبما يصلحها، لأنه هو الصانع، ولا يوجد من يعلم سر ما يصلح صنعه أكثر من صانعها

ونحن في المنهج الديني إذا أردنا إصلاح شيء اتجهنا لصانعه : هو الذي يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقي لهذا الشيء ، فإذا لم يكن صانعه موجودا في البلدة نفسها اتجهنا إلى من دريهم الصانع عن الاصلاح ، أو إلى ما يسمونه «الكتالوج»

الذي يبين لنا طريق الاصلاح، ويدون هذا لا يصلح، بل عسء، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة في حياتنا الدنيوية، ثم نأتي إلى الأسماء والكون، بعيداً من أن نتجه إلى صانعه ونخالقه لتأخذ عنه منهج الاصلاح، وهو أدرى بصنعه، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا الخناجع التي تعسء، وظاهرها الاصلاح لكنها تريد الأمور سوءاً

والغريب أننا سمي هذا فلاحاً، وبسببه تقدما. ولكن لماذا لاتنجه الى الصانع أو الخالق، الذي أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وبما يعسدهم .

وملأهم الحق سبحانه وتعالى، فد حكم عل المنافقن، بأنهم هم المفسدون فذلك
حكم يقينى ، وكل من يحاول أن يعبر من منبج الله، أو يعطل تطبيقه بحجة
الاصلاح، فهو مفسد وإن كان لا يشمر بدلتها، لأنه لمر اراد اصلاحا لانهم الى ما
يصلح الكون، وهو المنبج السماوى لذى أثرله خالق هذا الكون وصانعه، وهذا
المنبج موجود ومُنْبَجٌ ولا يحصى عل احد



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ
السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾

والسفهاء في فصل المناقضين هم الفقراء، ولكن ما معنى السفه في اللغة السفه
معناه الطيش والحمق والخفة في تناول الأمور، فهل يطلق صفة السفه على المؤمنين،
لذين آمنوا بالله، أو أنها تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله؟ إذا كنتم تعتقدون
أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الایمان كدسا، لتكونوا سفهاء؟ لاشك ان
هناك نقصاً موجوداً في كل تصرفات المناقضين

والرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان، والمسلمون يدعونهم للإيمان،
ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أي فقراء لا يمكنون شيئاً، لأن سادة قريش
لم يؤمنوا وهم يدعون أن الذين آمنوا، نصرفوا تصرفاً أحق، طائشاً، ولكن الحملة
هي الرجز الذي يملأ قلوبهم لاجعلهم يتباهون، إلى حقيقة مهمة، وهي أنهم
يتظاهرون بالإيمان، ويدعون الایمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء، إذا كان هؤلاء
سفهاء كما تدعون فهل يتظاهرون بالإيمان لتصبحوا سفهاء مثلهم؟!؟

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سفاقة عقول المناقضين، أن هذه العقول لم تنس
إلى أنها حينها وصفت المسلمين بالسفهاء، قد أدانت نفسها، لأن المناقضين يدعون أنهم
مؤمنون، إذن فكل تصرفات المناقضين فيها تناقض. تناقض مع العقل والمنطق، هذا
التناقض يأتي من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض. فاللسان يكذب
القلب، والعمل يكذب العقيدة. ويتظاهر بالإيمان يجعلهم مشقة الایمان ولا يعطهم
شيئ من ثوابه. ولو كان هم عقول، لنسبوا إلى هذا كدسا، ولكنهم لا يشعرون وهم
يمضون في هذا الطريق، طريق النفاق، إنهم يجسدون اسفاقة نبيها، بكل ما عمله
من حق واستحفاف، وعدم الشبه إلى الحقيقة، والرعونة التي يتصرفون بها، وافتقار
سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء، كان وصفاً دقيقاً، لخصائصهم وطريقة حياتهم.

وهكذا يرينا الحق سبحانه، أن كل منافق له أكثر من حياة يحرص عليها، والحياة لكي تستقيم يجب أن تكون حياة واحدة مسجومة بعضها مع بعض، ولكن انظر الى هؤلاء. مع المؤمنين يقوبون آمنا، ويتحدون حياة الايمان طاهرا، اي انهم يمثلون حياة الابدن، كما يقوم الممثل على المسرح بتمثيل دور شخصية عبر شخصيته تماما. حياتهم كلها افتعال وتناقض، وإذا بعدوا عن الدين أمسوا، يقول الحق تبارك وتعالى: وإذا خلوا الى شياطينهم.

وانظر الى دقة الأداء القرآني، الشيطان هو الدس الخفي، الحق ظاهر وواضح، اما منهج الشيطان وتأميره فيحدث في الخفاء لأنه باطل والنفس لا تمحل من حق أبدا، ولكنها تخشى وتحاف وتحاول أن تخفي الباطل.

ولنصرب بذلك مثلا بسيطا، رجل يجلس مع زوجته في سريره، وطرق الباب طارق، ماذا يحدث؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان، ويفتح الباب يرى من الطارق، فإن وجده صديقا أو قريبا أكرمه ورحب به وأصر على أن يدخل ليضيفه وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذي سيقدم للضيف، نأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الانسان مع زوجة غيره في شفته وطرق الباب طارق، يحدث ارتباك عتيب، ويحدث الرجل عن مكان يخفي فيه المرأة التي معه، أو يبحث عن باب خفي ليخرجها منه، أو يحاول أن يغطي الأنوار ويمنع الأصوات لعل الطارق يمس أنه لا يوجد أحد في المكان فيصرف، وقبل أن يخرج تلك المرأة المحرمة عليه، فإنه يفتح الباب يحرص، وينظر يمينا ويسارا ليأكد هل يراه أحد، وعندما لا يجد احدا يسرع بدفع المرأة الى الخارج، لأنها إثم يريد أن يتخلص منه، وإذا نزل ليوصلها يمشي بعيدا عنها، ويظل يرقب الطريق، ليؤكد من أن احدا لم يره، وعندما يركبان لسيارة يغطيان بأقصى سرعة.

هذا هو الفرق بين منهج الايمان، ومنهج الشيطان، الحادثة واحدة، ولكن الذي اختلف هو الحلال والحرام. انظر كيف يتصرف الناس في الحلال . في التمر . . في الامان، وكيف يتصرفون في الحرام ومنهج الشيطان في الظلام وفي الخفية ويحرصون على الا يراهم أحد، ومن هنا تأتي دقة التعبير القرآني . «واذا خلوا إلى شياطينهم»

إن منهج الشيطان يحتاج إلى خطوة، أن مكان لا يراك فيه أحد، ولا يسمعك فيه أحد، لأن لعل في منهج الشيطان يكون فضيحة، ولذلك نحمد غير المستقيم بحاول جاهدا أن يستر حركته في عدم الاستقامة، ومحاولة أن يستر هي شهادة منه بأن ما يفعله جريمة وقبح، ولا يصح أن يعدمه أحد عه، وما دام لا يصح أن يراه أحد في مكان ما، فاعلم أنه يحس أن ما يفعله في هذا المكان هو من عمل لشيطان الذي لا يقره الله، ولا يرضى عنه

ولابد أن تعلم أن القيم، هي القيم، حتى عند انحراف، وقوله تعالى . «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا معنا أنهم عندما يتظاهرون بالايمان يأخذون جانب العلن، بل ربى قتلوه، وكان المعروض أن يكون المقابل عندما يتخلون إلى شياطينهم أن يقولوا: لم نؤمن.

وهناك في اللغة جملة اسمية وحلة فعلية، الجملة الفعلية، تدل على التجدد، والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فلما قفون مع المؤمنين يقولون آمنا، أيهم غير ثابت، متبدل، وعندما يلقون الكافرين، لو كانوا لم نؤمن، لأخذت صفة الثبات، ولكنهم في الفترة بين لقائهم بالمؤمنين، ويقالهم بالكافرين، الكفر متجدد، لذلك قالوا: «إنا معكم إنما نحن مستهزئون» .



﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ ١٥ ﴾

ان هؤلاء المنافقين قوم لا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، وهو لقادر القوى حين يستهزئ بهم يكون الاستهزاء أليسا ، وإذا كان المفاق ، قد أظهر لسانه ما ليس في قلبه ، فإن الله سبحانه وتعالى يعامله بمثل فعله ، فإذا كان له ظاهر وباطن ، يعمله في ظاهر الدنيا ، معاملة المسلمين ، وفي الآخرة يوم تبلى السرائر يعمله في الدرك الأسفل من النار ، لا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشد .

«الله يستهزئ بهم» والاستهزاء هو السخرية ، فهم يأتون يوم القيامة محاولين أن يتمسكوا بالظاهر ، فيظهر الله سبحانه وتعالى لهم باطنهم . والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَيَلْلِكُوا مُهْزَئَةً ۝ ١٦ ﴾

(سورة المزة)

والهمزة هو الذي يسخر من الناس ولو بالاشارة . .

يرى انسانا مصابا بعاهة في قلبه ، يمشي وهو يهرج فيحاول ان يقلده بطريقة تثير السخرية ، اما بالاشارة وام بالكلام ، وهناك همز وهمزة . همز الاستهزاء والسخرية من الناس ، علامة عدم الايمان ، لاننا كلنا مخلوقون من إله واحد ، وهذه الصفة التي سخرت فيها من انسان اهرج مثلا ، لا عمل له فيها ، ولا حول له ولا قوة . . والانسان لم يصنع نفسه ، و الحقيقة أنك تسخر من صنع الله ، والذي يسخر من خلق الله اسان غبي لانه يسخر من خلق الله في عيب ، ولم يقدر ما تفضل الله به عليه ، كما انه يسخر من عيب ولم يعط ان ان الحق سبحانه وتعالى قد اعطى ذلك

الانسان حصالا وميزات ربما لم يعطها له، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ حَتَّىٰ اَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾

(من الآية ١١ سورة الاحزاب)

ان مجموع كل انسان، يساوى مجموع كل انسان آخر، وذلك هو عدل الله، فإذا كنت احسن من انسان في شيء فابحث عن انقص فيك فإن استهزأت بمؤمن في شيء، فالاستهزاء غير مفصول عن صفة الله، اذن فمن المنطق عندنا قالوا: «اما نحن مستهزئون» أن يرد الله عليهم «اللك يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون» اى يزيدهم في هذا الطغيان، لان المده هو ان تزيد الشيء، ولكن مرة تزيد في الشيء من ذاته، ومرة تزيد عليه من غيره، قد تأتى بخيط وتفرقه إلى آخره، وقد تبطله بخيط آخر، فتكون مددته من غيره، فالحال يزيدهم في طغيانهم.

وقوله تعالى «يعمهون» العمه يختلف عن لعمى، والخلاف في الحرف الاخير، العمى عمى البصر، والعمه عمى البصيرة، ويعمهون أى يتحطون، لان العمه يشأ عنه انتحط سواء التحط الحسى، من عمى البصر، او التحبط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة والله تعالى يقول: «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» فكأنما لعمى المادى، قد لا يكون، ولكن يكون هناك عمى البصيرة، وانظر قوله تعالى

﴿قَالَ رَبِّ اِرْحَمْنِي وَقَدْ كُنْتُ يَٰسُورًا ﴿١١٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ اُنْتِكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيْتُهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٠﴾﴾

(سورة طه)

فكان عمى البصيرة فى الدنيا، يعنى بصر الانسان، عن رؤية آيات الله فى كونه، يعميه عن الايمان والمنهج

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

يعطيا الحق سبحانه وتعالى صفة أخرى من صفات المنافقين، فبعضهم بأنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى. وما دام هناك شراء، فهناك صفقة، والصفقة، تتطلب مشترى وبياعا، وقد كانت السعة في الماضي تشتري بسلعة أخرى، أما الآن فإن كل شيء يشتري بالمال، ماذا اشتروا؟

ان هؤلاء المنافقين اشتروا الضلالة، واشتروها بأي ثمن ؟! . . اشتروها بالهدى ! الباء في اللفظة تدل على التروك، عندما تشتري شيئا تترك ثمنه، إذن كان هؤلاء قد تركوا الهدى واشتروا الضلالة، ولكن هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟ . ان الحال يقتضي ان يكون معهم هدى، كان يشتري انسان ثم يجد أن الهدى لا يحقق له النفع الدنيوي الذي يطلبه فيتركه ليشتري به الضلال ليحقق به ما يريد، والهدى الذي كان معهم، قد يكون هدى المظرة، فكان هؤلاء كان يحكمهم ان يختاروا الهدى فاختاروا الضلالة

والله سبحانه وتعالى يهدي كل الناس، هدى دلالة، فمن اخار الهدى يردده .
واقرا قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا لِمُكْرَدٍ قَهْدِيْنَهُمْ فَمَا سَتَجُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾

(من الآية ١٧ سورة قصص)

وقول الحق وما ربحت تجارتهم، اشجاعة بيع وشراء، الشاري مستهلك، والبائع قد يكون منتجا، او وسيطا بين المنتج والمستهلك . ما حظ البائع من البيع والشراء؟ ان يكسب فاذا ما كسب قيل ربحت تجارته . وادام يكسب ولم يحسر، أو اذا حسر ولم يكسب، فهي الخالين لا يحقق ربحا، ونقول ما ربحت تجارتهم

فوله تعالى (فما ربحتم تجارتهم وما كانوا مهتدين، يذل من انهم خسروا كل شيء
لاهم لم يربحوا، فكأنهم لم يخسروا شيئاً له فائدة، وخسروا الهدى، اى خسروا الربح
ورأس المال. ما ربحتم تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا، ولكن هم قد خسروا
الهدى ثمتا للضلال فلم يربحوا وضاع مهم الهدى، اى رأس مالهم..

ونفسه المنافق اذا ردت ان تحلدها، فهو اسان بلا كرامة، بلا رجولة لا يستطيع
المواجهة، بلا قوة، يحاول ان يكرر فى الخفاء، ولذلك تكون صورته حقيرة امام
نفسه، حتى لو استطاع ان يخفى عيوبه عن الناس، فيكفى انه كاذب امام نفسه
لتكون صورته حقيرة امام نفسه، وفي ذلك يقول الشاعر:

اذا ما لم ات الدنيا خشية

من الناس كان الناس اكرم من نفسي

كفى المرء عارا ان يرى عيب نفسه

وال كان فى كُفٍ عن الجن والانس

فالهم رأيك فى نفسك.. والتمزق الذى عند المنافق انه يريد ان يخفى عيوبه عن
الناس.



﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى ان يقرب صفات التمزق في المدققين الى فهمنا، ولذلك فهو يصرب لنا الامثال، والامثال جمع مثل وهو الشبيه الذي يقرب لنا المعنى ويمطينا الحكمة، والامثال باب من الابواب العريقة في الادب العربي.

فالمثل ان تأتى بالشيء الذي حدث وقبل فيه قوله موجزة ومعبرة، رأى البعض ان ياعطوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة.

ولنصرب مثلاً لذلك، ملك من الملوك، اراد ان يحطب فناة من فتحات العرب، فأرسل خاتمة اسمها عصام لترى هذه العروس ونسأل عنها ونخبره، فلما عادت قال لها ماوردك يا عصام ؟ اى ماذا جئت من اخباره قالت: له ابني المحض من الزيد. المحض هو ان تأتى بالبن الحليب ونخصه في القرية حتى يتحصل الريد من اللبن، فصار الاثنان - السؤال والجواب - يصريان مثلاً. تأتى لمن يبحثك تنتظر منه اخباراً فتقول له: ماوردك يا عصام.

ولا يكون اسمه «عصام».. ولم ترسله لاستطلاع اخباره، بينما تريد ان تسمع ما عنده من اخباره.

وحينما تريد مثلاً - ان تصور تنافر القلوب .. وكيف أنها اذا تنافرت لا تلصق أبداً .. ويريد الشاعر ان يقرب هذا المعنى فيقول:

ان القلوب اذا تنافر ودها

مثل الزجاجه كسرها لا يشعب (أى لا يجمع)

وساعة تكسر الرجاجة لا تستطيع اصلاحها . . ولكن يسهل هذا المعنى عليك وتفهيمه في يسر وسهولة . . فإنك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قوتين لأن هذه مسألة غيبية . . فتأمل بشيء مشاهد وتضرب به المثل . . وبذلك يكون المعنى قد قرب . . لأنك شبهته بشيء محسوس . . تستطيع أن تفهمه وتشاهده . .

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم في أكثر من موضع . . ليقرب من أذهاننا معنى العيبات التي لا نعرفها ولا نشاهدها . . ولذلك صرنا لنا الأمثال في قصة الإيمان . . وحدانية الله سبحانه وتعالى . . وضربنا المثل بنوره حل جلاله . . الذي لا يشهده وهو غيب عما . . وضربنا الأمثال بالنسبة للكفار والمناقضين . . لنعرف مساد عقيدتهم ونفسه لها . . وضربنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة والطغيان في الحق . . وغير ذلك من الأمثال . . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝١٣٩﴾

(سورة الاحراء)

وقد صرنا الله جل جلاله لنا الأمثال في الذب وفي الآخرة . . وفي دقة الخلق . . وقصة الإيمان . . ومع ذلك فإن الناس مصرفون عن حكمة هذه الأمثال . . كما هو شأنها مع أن الحق تبارك وتعالى . . صرنا لنا لتقرب لنا المعنى . . تشبيها بمبادئ براها في حيات الدنيا . . وكان المفروض أن تزيد هذه الأمثال الناس إيماناً . . لأنها تقرب لهم معان غائبة عنهم . . ولكنهم بدلاً من ذلك اردادوا كفر !!

ولابد قبل أن نتعرض لتلاية الكريمة : « مثلهم كمثل الذي استوفد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يصرون » . . أن نتحدث عن بعض الأمثال التي ضربت في القرآن الكريم . . لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن فضائل عيسى بحسب دليوية .

صرنا الله سارك وبغالي لنا مثلاً بالقيمة الإيمانية . . وهي به لا إله إلا الله . . وكيف أن هذه رحمة من الله سبحانه وتعالى . . يجب أن نسجد به شكراً عليها . . لأن فيها وقية لنا من شقاء . . ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعاده الرحمة .

ولكن بعض الناس يريد أن يشقى نفسه فيشرك بالله جل جلاله .. وبدلاً من أن يأخذ طريق الإيمان المسير .. يأخذ طريق الكفر والعناق والشرك بالله الذي يملك كل شيء في الدنيا والآخرة .. يقول الحق جل جلاله :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا مَلِكًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَسْبُ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة النحل)

بهذه الصورة المحسة التي مراها .. ولا يختلف فيها اثنين .. يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب إلى ذهناننا صورة العائد لله وحده ، وصورة الشرك بالله .. ويعطينا المثل في عهد مملوك لشركاء .. رجل مملوك لعشرة مثلاً .. وليس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين .. بل هم متشاكسون أي أنهم مختلفون .. ورجل آخر مملوك لسيده واحد .. أي يكون مسرعاً يعيش في رحمة ؟ .. طبعاً المملوك لسيده واحد في رحمة ورحمة .. لأنه يتبع أمراً واحداً وحب واحداً .. ويطيع ربه واحداً .. ويطلب رضا سيده واحد .. أما ذلك الذي يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين .. فسيكون لكل واحد منهم أمر وهمي .. ولكل واحد منهم طلب .. فما بالك إذا كانوا مختلفين ؟ أحد الشركاء يقول له تعال .. والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر مناقض .. ويختار أيها يرضى وأيها يمتص ؟ .. وهكذا تكون حياتنا شقاء وتناقصاً ..

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة .. في قضية هي قمة اليقين .. وهي الإيمان بالوحد الواحد .. يريدنا أن نلمس هذه الصورة .. بمثل نراه ونشعره .. وأن نرى فرض الله برحمته حل عباده .. ومعنى الحق سبحانه لينفتنا إلى أن نفكر قليلاً في مثل يضربه لنا في القرآن الكريم .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
يُوجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
(سورة النحل)

فالحق تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة .. يطلب منا أن نفكر في مثل مادي محسوس .. أيها خير ؟ .. أدلك الصنم الذي يعبد الكفار وهو لا يأت لهم بخير أبدا .. لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه فكيف يأت بخير لغيره .. بل هو عبء على من يتخذونه إلها .. فإنهم يجب أن يضعوه وأن يحملوه من مكان إلى آخر إذا أرادوا تغيير المعبود أو الرجل .. وإذا سقط فنهشت أجزاء منه .. فإنه يجب أن يصلحوها .

ادن فزيادة على أنه لا يأت لهم بخير .. فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة ويحتاج منهم إلى عناية ورعاية ..

أعبادة مثل هذا الصنم خير ؟ أم عبادة الله سبحانه الذي صه كل الخير وكل النعم والذي يأمر بالعدل .. فلا يفصل أحدا من عباده على أحد .. والذي يعطي لعباده الصراط المستقيم الذي لا اهوجاج فيه . والموصل إلى الجنة في الآخرة . ان الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل عباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى

وهكذا يعطى هذا المثلان توضيحا لفضية التوحيد والالوه .. ثم يأت الله سبحانه وتعالى بمثل آخر .. يضرب لنا مثلا لنوره . هذا النور الإلهي الذي يضيء الدنيا والآخرة .. فيضيء القلوب المظلمة .. إنه يريد أن يضرب لنا مثلا لهذا النور بشيء مادي محسوس .. فيقول جل جلاله .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ تَجْسُدُ لَهُ فِيهَا مُنْبَاحُ الْوُجَاهِ لِيُزْجَاهُ ۚ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُونُورٌ عَلَى نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ۗ مَنْ يَسَاءُ ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ۝١٥﴾

كأن الله سبحانه وتعالى .. يريدنا أن نعرف بتشبيه عرس .. أن مثل نوره
كمشكاة .. والمشكاة هي (الطاقة) .. وهي فجرة في الحائط بالبيت الريفى ..
ونحن نضع المصباح في هذه الطاقة .. إذن المصباح ليس في الفجرة كلها .. ولكن
نوره مركز في هذه الطاقة ويكون قويا في هذا الخيز الضيق .. ولكن المصباح في
زجاجة .. لمخفه من الهواء من كل جانب .. فيكون الضوء أقوى .. صفاء
لا دخان فيه .. كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه .. والزجاجة غير عادية
ولكنها « كوكب درى » .. أى هي مضيئة بذاتها وكأنها كوكب .. ووقودها من
شجرة مباركة يملؤها النور لا شربة ولا عربة .. أى يملؤها النور من الوسط ويخرج
صفاء .. والزيت مضيء بذاته دون أن تحس النار .. فهو نور على نور .. أياكون
جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلما ؟ .. أم تكون كلها مضيئة بالنور
القوى ؟

وهنا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب
إلى الأذهان .. تكأن نور الله يضيء كل دكن وكل بقعة .. ولا يترك مكانا مظلما ..
فهو نور على نور ..

ولقد أراد أحد الشعراء^(١) أن يمدح الخليفة^(٢) وكانت العادة أن يشبه الخليفة ..
بالأشخاص البارزين ذوى الصفات الحسنة .. فقال :
إنهم عمرو في مساحة حاتم .
في حلم أصف في ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات ..
فعمرو كان مشهورا بالأقدام ولشجاعة .. وحاتم كان مشهورا بالسياسة .. وأصف
يضرب به المثل في الحلم .. وإياس شعله في الذكاء .. وهنا قام أحد الحاضرين^(٣)
وقال : الأمير أكبر في كل شيء من شبهة بهم .. فقال أبوغمام عن الفور :
لا تنكروا صرى له من دونه
مثلا ضرودا في الندى والياس

(١) هو يعقوب بن اسحاق الكندي .

(٢) هو أبو تمام

(٣) هو أحمد بن المتصم

قَالَهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلُ لِنُجُودِهِ

مَثَلًا مِنَ الْمُنْكَاةِ وَالسَّنْبَرِاسِ^(١)

فأعجب أحمد بن المعتصم والخاصرون من ذكائه وأمر بأن تصاعف حائزته .
والله سبحانه وتعالى . يضرب لنا المثل بما سيظهره المؤمنون في الجنة . . فيقول
جل جلاله

﴿ مَثَلُ الْإِنْسَانِ الْأَتِيِّ وَقَدْ أَمْنَقُونَ فِيهِ أَنْهَرِي مَاءً خَيْرٌ غَيْرَ غَيْرٍ وَأَنْهَرِي لَبَنٍ لَرِيضَةٍ
طَعْنُهُ وَأَنْهَرِي مَن تَهَرَّى لَدَى الشَّرِيبِ وَأَنْهَرِي مَن عَمِلَ مَصْنُوعًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

هذه ليست الجنة . ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة
بأشياء موجودة في حياتنا . . لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب أكثر من هذا .
والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ومن هنا فإنه
لا توجد أسماء في الحياة تعبر عما في الجنة . . واقرا قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِّمَّا أُتِيَتْهُم مِّن قُرْآنِ رَبِّكَ بَرَآءَةً إِلَّا كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ١٧ ﴾

(سورة السجدة)

وإذا كانت النفس لا تعلم . . فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد في الجنة . . والمثل
معي شاع استعماله بين الناس سمي مثلا . قامت اذا رأيت شخصا ممترا بقوته .
ونريد ان نعهمه أنك أقمى منه نقول له . إن كنت رجلا فقد لاقيت إعصارا
ولا توجد ربح ولا إعصار فيها يحدث بيكما . وإنما المراد المعنى دون التقييد بمذلول
الألفاظ

فأخى سبحانه وتعالى . يريد أن يعطيها صورة . عما في داخل قلوب
المنافقين . . من اضطراب وذبذبة وتردد في استقبال منهج الله . . وفي الوقت نفسه

(١) من ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي

ما يجري في القلوب غيب عا . . وأراد الله أن يقرب هذا المعنى إليها . . فقال .
« مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » . . أي حاول أن يوقد نارا . . والذي يحاول أن
يوقد نارا . . لا بد أن له هدفا . . والهدف قد يكون الدنس وقد يكون الصالح . .
وقد يكون الصواب وقد يكون غير ذلك . . المهم أن يكون هناك هدف لا يقاد النار .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلما اخذنا ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في
ظلمات لا يبصرون » ذلك أنهم في الخيرة التي تملا قلوبهم كانوا قد سمعوا من
اليهود أن زمن نبي جديد قد أتى . فقررُوا أن يؤمنوا به . ولكن إيمانهم لم يكن عن
رغبة في الإيمان . . ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوي . لأن اليهود
كانوا يتوعدونهم ويقولون أن زمن نبي سيؤمن به ونقتلكم به قتل عاد واهم . فأراد
هؤلاء المنافقون أن يتفروا هذا القتل الذي يترجمهم به اليهود . فتصوروا أنهم إذا
أخذوا أنهم آمنوا بهذا النبي نفاقا أن يحصلوا على الأمن . .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . أنهم أوقدوا هذه النار . .
لتعطيهم نورا يريهم طريق الإيمان . وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور
الإيمان انصرفوا عنه . وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم . . فلم يبق في قلوبهم
شيء من نور الإيمان . . فهم الذين طلبوا نور الإيمان أولا . . فلما استجاب الله لهم
انصرفوا عنه . . فكان العساد في قلوبهم . وكانهم هم الذين بدأوا بالعساد . .
وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الإيمان من قلوبهم .

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآني . . في قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » ولم يقل
ذهب الله بضربتهم . . مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء . فما هو الفرق
بين الضوء والنور ؟ إذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

نجد أن الضوء أقوى من النور . . والضوء لا يأتي إلا من إشعاع ذاتي . .
فالشمس ذاتية الإضاءة . . ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور . . وقبل أن

تشرق اشمس تجدد في الكون نورا . ولكن الضوء يأتي بعد شروق الشمس . . . فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضربهم . . . لكان المعنى انه سبحانه ذهب بما يعكس النور . . . ولكنه أبقى لهم النور . . . ولكن قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » . . . معناها أنه لم يبق لهم ضوء ولا نورا . . . فكان قلوبهم مملؤها بالظلام . . . ولذلك قال الله بعدها : « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » . . . لعلم انه لا يوجد في قلوبهم أي نور ولا ضوء إيماني . . . كل هذا حدث بطلبهم هم ونصرافهم عن نور الله

وبلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى . . . لم يقل وتركهم في ظلام . . . بل قال . « في ظلمات » . . . أي انها ظلمات متراكمة . . . ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا . . .

من أين جاءت هذه الظلمات ؟ جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة وعندما جاءهم نور الإيمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم .

مثلا إذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبدالله بن أبي ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة وأنها يستعدون لتوبيخ عبدالله بن أبي ملكا عليها . وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبدالله بن أبي في استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام . . . فوصل الرسول عليه الصلاة والسلام صبح على عبدالله بن أبي أنتك . . . ولقد كان من الممكن أن يزمن . . . وأن ينتسب النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو آس حينئذ رب أعطى في الآخرة ملكا دائما . يفوق الملك الذي كان سيحصل عليه في الدنيا . ولكن لأن في قلبه الدنيا وليس الدين . ولأنه يريد راحة في الدنيا . ولا يريد جنة في الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة . . . وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة . . . وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة . . . وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة . . . اذن هي ظلمات متعددة . . .

وهكذا في قلب كل منافق ظلمات متعددة . . . ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم . وظلمة نفى هزيمة الإيمان . وظلمة نفى أن يصيبهم سوء وشر وظلمة التحرق والألم من الجهد الذي يبذله للتظاهر بالإيمان وفي قلوبهم الكبر . كل

منه ظلمات .. ولكن لا تحاول ان تأخذها بمقاييس عقلك .. والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى .. لأنك اذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِكَ وَبَيْنَ أَلْيَدَيْكَ الْخُرُوجُ وَالْإِنْتِزَاعُ جَهَنَّمَ مَثُورًا ۝١٥﴾

(سورة الاسراء)

كيف يكون الحجاب مستورا ؟ .. مع أن الحجاب هو الساتر الذى يستر شيئا من شيء .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم .. انه يرغم أن الحجاب يستر شيئا عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه .. وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول . وهو فى معنى اسم الفاعل ساتر .. نقول لا .. وقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۝١٦﴾

(سورة مريم)

مائيا اسم مفعول واسم الفاعل آن .. ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل .. نقول نك لم تفهم .. هل وعد الله يلح فى طلب العبد .. أم أن العبد يلح فى طلبه بعهده فكانه ذاهب إليه .. والموعود هو المستفيد وليس الوعد ..

اذن من دقة القرآن الكريم . انه يريد أن يبينها إلى ان الموعود هو الذى يسعى للقاء الوعد .. وليس الوعد هو الذى يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل . فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .. فى النور عنهم .. والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس .. ولكنه قانون البصر ..

وانظر الى دقة التعبير القرآنى .. اذا امتنع النور امتنع البصر .. أى ان العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بانعكاس النور على الأشياء ثم انعكاسه على العين ..

واقراً قوله تعالى .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْرًا ۚ آيَةً الْيَوْمِ وَجَعَلْنَا آيَةَ الْفَلَاحِ مُبْصِرَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة الاسراء)

فكان الذي يجعل العين تنصر هو الضوء أو النور . . فإذا صاع النور صاع
الابصار . . ولذلك فأنب لا تبصر الأشياء في الظلام . . وهذه معجزة قرآنية
اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .



﴿ صُمُّوا بِكُمْ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يُرْجِعُونَ ﴾ ١٨

فالحق سبحانه وتعالى .. بعد أن أخبرنا أنه بظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم .. ذهب ينور الإيمان من قلوبهم فهم لا يبصرون آيات الله .. أراد أن يلفتنا إلى أنه ليس البصر وحده هو الذي ذهب .. ولكن كل حواسهم تعطلت .. فالسمع تعطل فهم صم .. والنطق تعطل فهم بكم .. واصبر تعطل فهم عمى .. وهذه هي آلات الإدراك في الإنسان .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَلَّهُ لَتَرْجِعَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَمْهَكُوا لَأَقْلِبُ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ تَعْلَمُونَ لَكُمُ الشُّكُورُ ﴾ ٧٨

(سورة البقرة)

إذن كونهم في ظلمات لا يبصرون معناها أنها قد تعطلت وسائل الإدراك الأخرى ، فإذ أنهم صممت فهي لا تسمع منهج الحق ، وألستهم تعطلت عن نقل ما في قلوبهم وأنصارهم لا ترى آيات الله في الكون إذن قالات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم ..

وقوله تعالى : « فهم لا يرجعون » أي لن تعود إليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله في كونه .. الإدراك غير موجود عندهم .. ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا إلى مسج الإيمان أبدا .. لقد فسدت في قلوبهم العقيدة .. فلم يفرقوا بين صر عاجل وما هو نفع أجل .. نور الهداية كان سيجعلهم يبصرون الطريق إلى الله .. حتى يسيروا على بينة ولا يفتخروا .. ولكنهم حينما جاءهم النور رفضوه واصبروا عنه .. فكانهم انصرفوا عن كل ما يهديهم إلى طريق الله !!

فالحمد لله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة . . أعطانا وصفاً آخر من صفات المنافقين هو أن ادوات الإدراك التي خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم . . ولذلك فإن الإصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يفلح بتيجة . . لأن الله تبارك وتعالى ينهائهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التي كان من الممكن أن يعودوا بها إلى طريق الحق .



﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيهِ ۖ أَذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ ۝٦٩﴾

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ » .. الصيب هو المطر ..
والله تبارك وتعالى ينزل الماء فتقوم به الحياة .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَجَعَلْنَاهُنَّ آمَاءَ جُلُودٍ لَّنَّ ۖ حَمِيَّ ۝٦٩﴾

(من الآية ٣٠ سورة الانبياء)

ومن البديهي أننا نعرف أن إنزال المطر .. هو من قدرة الله سبحانه وتعالى
وحده .. ذلك أن عملية المطر فيها خلق بحساب .. وفيها عمليات تتم كل يوم
بحسب أيضا .. وفيها عوامل لا يقلر عليها الا الله سبحانه وتعالى .. فمسألة المطر
أحدث الأرض لها حين الخلق فكانت ثلاثة رياح الأرض من الماء والرياح من
الهامة لماذا ؟ من حكم الله في هذا الخلق ان تكون عملية البحر سهلة
وممكنة .. ذلك أنه كلما اتسع سطح الماء يكون البحر أسهل .. وإذا ضيق السطح
تكون عملية البحر أصعب .. فإذا جفنا نكوب علوه بالماء ووضعناه في حجرة منخفضة
يوما .. ثم عدنا اليه نجد أن حجم الماء نقص بمقدار سنتيمتر أو أقل .. فإذا أخذنا
الماء الذي في هذا الكوب وقلعناه في الحجرة .. فإنه يمتلئ في فترة قصيرة ..
لماذا ؟ لأن سطح الماء أصبح واسعا فتمت عملية البحر بسرعة

والله سبحانه وتعالى حين خلق الأرض .. وضع في الخلق حكمة المطر في أن
تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البحر بسهولة .. وجعل أشعة الشمس هي
التي تقوم بعملية البحر من سطح الماء .. وتم ذلك بحساب دقيق .. حتى لا تغرق
الامطار الأرض أو يحدث فيها جناف .. ثم سخر الريح لتدفع السحاب الى حيث
يريد الله أن ينزل المطر .. وقسم الجبال الباردة ليصطدم بها السحاب فينزل

المطر .. كل هذا بحساب دقيق لى الخلق وفى كل مراحل المطر ..
ومادام الماء هو الذى به الحياة على الأرض فقد ضرب الله لنا به المثل كما
ضرب لنا المثل بالنار وضوئها .. فكلها أمثلة مادية لتقرب الى عقولنا ما هو عيب
عنا .. فنبلاء يعطينا الحياة ..

لكن هؤلاء الماقتين . لم يلتفتوا الى هذا الخير . الذى ينزل عليهم من السماء من
غير تعب او جهد منهم . بل التصوا فى أشياء ثانوية ، كان من المفروض ان يرحبوا
بها لانها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل ان ينزل من السماء لابد ان يكون هناك شيء
من الظلمة فى السحاب الذى يأتى بالمطر . فيجب أشعة الشمس ان كنا نهارا .
ونحنى نور لقمر وانحوم ان كنا ليلا . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء .
انهم لم يلتفتوا الى الخير الذى ملا الله به سبحانه وتعالى الأرض بل التفتوا الى
الظلمة فغضبوا من الخير . كذلك صوت الرعد وبور الرق الرعد يستقبله الانسان
بالأذن وهى آلة السمع . والبرق تستلمه العين . وصوت الرعد قوى ، أقوى من
طاقة الادن . ولذلك عندما يسمعه الانسان يفرغ ، ويجازل ان يحس استقبال الادن
له ، بان يضع أنامله فى اذنيه

وهؤلاء الماقتون لم يضعوا الأنامل ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : « يجعلون
أصابعهم فى آذانهم » ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة فى تصوير تأثير الرعد عليهم .
فكأنهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل أصبعه فى دونه .
ليحميه من هذا الصوت المزعج فكأنهم يبالبون فى خوفهم من الرعد .

وبلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين لأنه سبحانه
وتعالى يقول « أصابعهم » نقول ان الأمر للجماعة بمعنى أمرا لكل فرد فيها ، فادا قال
المدرس للتلاميذ اخرجوا أفلامكم ، فمعنى ذلك ان كل تلميذ يخرج قلمه . وادا
قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك ان كل واحد يركب سيارته ..
لذلك فان معنى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ان كل واحد منهم يصع أصبعه فى
أذنيه .

لماذا يفعلون ذلك ؟! انهم يفتعنونه خوفا من الموت . لان الرعد وابرق يصاحبها
الصواعق أحيانا ، ولذلك فإنهم من مبالغتهم فى الخوف يحس كل واحد منهم ان

صاعقة ستقتله . فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بعبر حقيقتها هم لا يرون النعمة الحقيقية في ان هذا المطر يأتي لهم بعوامل استمرار الحياة . ولكنهم يأخذون لظواهر في البرق والرعد . وكذلك المنعمون لا يستطيع الواحد منهم ان يصبر على شهوات نفسه ونزواتها . انه يريد ذلك العاجل ولا ينظر الى الخير الخفي لدى وعد الله به عباده المؤمنين في الآخرة . . وهو ينظر الى التكاليف كآها شدة ومسألة تحمل النفس بعض المشاق . ويعمل من حقيقة جلاء التكاليف في الآخرة . وكيف انها ستوفر لهم السليم الدائم . تماما كما ينظر الانسان الى المطر على أنه عذبة وزعد ويرق . وبسبب انه بدون هذا المطر من المستحيل ان تستمر حياته

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شيء . بها هي في الحقيقة تأتي لوقت قصير وتختفي ، فهي قصيرة كالحياة الدنيا ، وقية . ولكن نظرهم اليها وقية ومادية لا هم لا يؤمنون لا بالدنيا وعملوا من الآخرة . عمدوا من ذلك الماء التي يبقى فترة طوية ، ونسبوا الى تلك لظواهر الوقتية التي تأتي مع المطر محامو من وكان حرقهم منها يجعلهم لا يحسوا بما في المص من خير . والمنفقون يريدون ان يأخذوا خير الاسلام دون ان يقوموا بواجبات هذا الدين !!

ثم بلغت الحق سبحانه وتعالى الى قضية هامة . وهي ان خوفهم من زوال متع الدنيا ومردعها لن يفعل لهم شئ . لان الله محيط بالكافرين . والاحاطة مماها السيطرة التامة على الشئ بحيث لا يكون أمامه وسيلة للاهلات . وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطه بالكافرين وغير الكافرين . . .
اذن عدم التفاتهم لسمع الحقيقى ، وهو سبحانه الله ، لا يعطيهم قدرة لاهلات من قدرة الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة .



يَكَادُ الزُّقُ يُخِطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشْوَافٍ
وَإِذَا أَطْمَعُوا عَلَيْهِ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَرَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٠﴾

أبصارهم . وليس للإنسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .

وقوله تعالى « كلما أضاء لهم مشوا فيه » .

أى أنهم يمشون على قدر النور المتبقي . الذى يعطيه لهم البرق . فلا نور فى قلوبهم . ولذلك اذا أظلم عليهم توفروا ، لأنه لا نور لهم .

وقوله تعالى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

يدعى بعض المستشرقين ان ذلك يتعارض مع الآية الكريمة التى تقول « سمع بكم عسى لهم لا يرجعون » كيف يكونون سمع بكم عسى . . أى أى منافع الادراك عندهم لا تعمل ، ونحن هنا نتحدث عن العسى الايمان ، ثم يقول تبارك وتعالى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » مع انهم سمع وبكم وعسى ؟ . .

نقول ان قول الحق سبحانه وتعالى : « سمع بكم عسى » أى لا يرون آيات الله ويؤمن الايمان ، ولا يسمعون آيات القرآن ويقلوبها . . اذن فوسائل ادراكهم للمعنويات تتعطل . ولكن وسائل ادراكهم بالنسبة للمحسوسات تبقى كما هى . فالمؤمن الذى لا يؤمن بيوم القيامة ، لا يرى ذلك العذاب الذى ينتظره فى الآخرة

ولو شاء الله سبحانه وتعالى ان يذهب بسمعهم وأبصارهم . بالنسبة للأشياء المحسوسة . لاستطاع لأنه قادر على كل شيء ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك . حتى لا يأتوا مجادلين فى الآخرة ، من انهم لو كان لهم بصر لرأوا آيات الله . ولو كان لهم سمع لتدبروا القرآن . فأبقى الله لهم أبصارهم وسماعهم . لتكون حجة عليهم ، بأن لهم بصر ولكنهم انصرفوا عن آيات الله الى الأشياء التى تأتئهم بفائدة عاجلة فى الدنيا مهما جاءت بغضب الله . وأن لهم سمعاً يسمعون به كل شيء من حطط المزامرات على الاسلام . وضرب الايمان وغير ذلك . فلذا تليت عليهم آيات الله فانهم لا يسمعونها . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

عَالِمًا ۚ

أى أنهم يسمعون ولا يعقلون ولا يدخل النور الى قلوبهم ، فكأنهم صم عن آيات الله لا يسمعونها.

والحق سبحانه وتعالى يريد ان يعطينا مثل المنافقين بأنهم لا يلتفتون الى القيم الحقيقية في الحياة ولكنهم يأخذون ظاهرها فقط يريدون النفع العاجل ، وظلمات قلوبهم . لا تجعلهم يرون نور الايمان وانما يبهرهم طريق الدنيا مع انه زائل ووقتي . فيحطف أبصارهم ولأنه لا نور في قلوبهم ، فادما ذهبت عنهم الدنيا ، تحبط هم الظلمات من كل مكان لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . مع أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لذهب بسمهم وأبصارهم ، لأنهم لا يستعملونها للاستخدام الايماني المطلوب والمفروض ان وسائل الادراك هذه . تزيدنا ايمان . ولكن هؤلاء لا يرون الا متاع الدنيا ولا يسمعون الا وسوسة الشيطان ، فالحمة الايمانية لوسائل الادراك توقفت ، وكان هذه الوسائل غير موجودة .



﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدٌ وَأَرْبَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١)

بعد أن حدثنا الله سبحانه وتعالى عن صفات المنافقين في ثلاث عشرة آية وأعطانا أوصافهم الظاهرة . وأعطانا أمثلة لما يحدث في قلوبهم كي يعرفهم المؤمنون ظاهرا وباطنا . ويحذروهم ولا يؤمنوا لهم . بين لنا كيف أن المنافقين لم يكفروا بالله كونه فسط . ويشتروا وجوده ، ولكن كفروا به كرب . والرب عطاؤه مكمل لكل من خلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذي استدعاهم للوجود وحلهم . ولذلك فانه سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم .

والله سبحانه وتعالى لا يحرم خلقا من خلقه من عطاء ربوبيته في الدنيا . فالشخص تشرق على المؤمن والكافر . وينظر ينزل على من قال لا اله الا الله ومن ستر وجوده تعالى : والهواء يتمس به ذلك الذي يقيم الصلاة والذي لم يركع ركعة في حياته . . والطعام يأكله الذي يحب الله والذي يكفر بنعم الله . . ذلك أن هذه عطايا ربوبية يعطيها الله تعالى لكل خلقه في الدنيا . .

اما عطاءات الألوهية ، فهي للمؤمنين في الدنيا والآخرة .

فالله سبحانه وتعالى ينفذ انتباه خلقه الى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفي ليؤمنوا بالله ويعبدوه

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس في القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا بد أن يكون الخطاب للناس في كل زمان ومكان . منذ نزول القرآن الكريم الى يوم القيامة .

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاص بقضية الإيمان في القمة ، وهي الخضوع لآله واحد لا شريك له .

وقوله تعالى : « الذي خلقكم والذين من قبلكم » معناه أن من مقتضيات العبادة أن الله هو خالق الناس جميعا . وليس في قضية الخلق كما قلنا شبهة ، لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه ، أو خلق هذا الكون ، بل إن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة في وجودنا ، قلالات والأم هنا سبب في وجود الإنسان فنجد الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَعَىٰ رَبُّكَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهَهُ وَيَا تَوَكَّلِينَ إِحْسَنًا إِنَّمَا يَمْلِكُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ مَسَافَهَاتٍ وَلَا تَتَّبِعْهُمَا رَفْعٌ لِّمَا قَوْلَا كَكْرِيحًا ٢١٥ ﴾

(سورة الاسراء)

وهكذا نرى أن الحق قد احترم السببية في الموجد ، مع أنه سبحانه وتعالى الموجد . أي خلق كل شيء . ولكن الله يحترم عمل الإنسان . مع أنه سبب فقط ، فالخالق هو مال الله ، يعطيه لمن يشاء . لكن نجد الحق سبحانه وتعالى وهو بحث على الصدقة يقول

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرَصًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

فكأنه سبحانه يحترم عمل الإنسان في الحصول على المال ، رغم أن المال مال الله . فقال وهو الخالق الأعظم « من ذا الذي يفرض الله قرصا حسنا » وهكذا تتجلى رحمة الحق بالخلق .

الله يقول - « ولعلكم تتقون » تقى ما ؟ تقى صفات الجلال في الله . فآله سبحانه وتعالى له صفات جلال وصفات جمال ، صفات الجلال هي « الجبار والقهار

والتكبر والقوى والقادر والمقتدر والعلو وعيرها من صفات الجلال .

قاله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقية حتى لا يغضب الله ، فيعاقبنا بمتعلقات صفات جلاله ، وأن تتمسك بصفات جمال الله .
الرحيم الوتود ، الغفار ، السواب ، فإذا نجحنا في ذلك كان لنا نجات من النار التي هي أحد جنود الله ، ومتعلقات جلاله .

على أننا لا بد أن ننتبه الى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول «يا أيها الناس» إنما يخاطب كل الناس ، فإذا أراد الخلق سبحانه وتعالى مخاطبة المؤمنين قال : «يا أيها الذين آمنوا» أي يا أيها الذين آمنتم بالله إلهنا ، ودخلتم معه في عقد إيمان .



﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا
تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَسْدَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

فبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن عطاء ربوبيه الذي يعطيه لخلقهِ جميعاً ،
المؤمن والكافر ، كان يكفي لكي يؤمن الناس ، كل الناس . أخذ بين لنا آيات
من عطاء الربوبية . وبلغنا إليها بعد أن لم يؤمن عندنا بقراءة هذه الآيات يدخل
الايمان في قلبه . فبلغنا الله سبحانه وتعالى الى خلق الأرض في قوله تعالى
«الذي جعل لكم الأرض مراشاً»

والأرض هي المكان الذي يعيش فيه الناس ولا يستطيع احد ان يدعى أنه خلق
الأرض أو أوجدها . ان فهم آية ربوبيه لا تحتاج لكي يتسه إليها الى جهد عقلي .
لأنها بديهيات محسوسة لله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى . «مراشاً» توحي بأنه أعد
الأرض إعداداً مريحاً للبشر . كما تفرش على الأرض شيئاً ، تجلس عليه أو تنام
عليه . فيكون فراشاً يريحك

ونحن نتوارث الأرض حياً بعد حيل . وهي تصلح لحياتنا جميعاً .

ومنذ أن خلقت الأرض الى يوم القيامة . مستظل مراشاً للإنسان

قد يقول بعض الناس أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك فيها
حصى أو غير ذلك مما يضايقك . نقول ان الإنسان الأول كان ينام عليها مستريحاً .
ان ضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمت الحضارة وزادت الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رصم ما وجد عليها
من أشياء لينة . فكأن الله تعالى . قد أعد لها إعداداً يتناسب مع كل حين . فكل

جبل رفته في العيش بسبب تقدم الحشرة كشعب الله سبحانه من العلم ما يطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول .

﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

(من الآية ٩٠ سورة الزمر)

والمهد هو فراش الطفل ، ولابد ان يكون مريحاً لأن الطفل إذا وجد في الفراش أي شيء يتعبه فإنه لا يملك الامكانيات التي تجعله يريحه ، ولذلك مهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً . ولكن الذي يهد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى . يجعلها فراشاً لمصاده وإذا قرأت قوله تعالى .

﴿ هُوَ الَّذِي حَمَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ظُلُومًا تَمُّشُوا فِي مَنَاسِكِهَا وَتَكُونُونَ مِّنْ رَّزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى الى السماء فيقول : «والسَّاءُ بَنَاءٌ» والبناء يفيد المتانة والتماسك أي أن السماء وهي فوقك - لأنرى شيئاً يجعلها حتى لا تسقط عليك . إنها سقف متماسك متين . . ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ وَبِمَسِّكَ السَّاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا طَائِفَةٌ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الحج)

وفي آية أخرى يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّاءَ سَقْفًا مَّحْمُومًا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الانبياء)

والهدف من هذه الآيات كلها أن نطمئن ونحن نعبد على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا لأن الله يحفظها .

إذن من آيات الحق سبحانه وتعالى في الأرض أنه جعلها مراثاً لى مهلة ومريحة حياة الإنسان . وحفظ السماء بقدرته جل جلاله ، فهي ثابتة في مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتمزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم ، ثم جاء بآية أخرى .

«واترل من السماء ماء فخرج به من الثمرات رزقا لكم»

فكان الحق سبحانه وتعالى وضع في الأرض وسائل استبقاء الحياة . فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يور له وسائل استمرار حياته . المطر يرل من السماء ، والسماء هي كل ما علاك فأظلك فثبت به انزوع والثمر ، وهذا رزق لنا ، والناس تختلف في مسألة الرزق . والرزق هو ما ينفع به ، وليس هو ما تحصل عليه . فقد تبيع مائاً واهراً ولكنك لا تنفعه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك ، وانت تظل جالساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى يوصله الى صاحبه . والرزق في نظر معظم الناس هو المال ، قال عليه الصلاة والسلام .

« يقول ابن آدم مالي مالي .. وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما اكلت فأفريت ، ولبست فألبيت ، أو تصدقت فأصيت»^(١)

هذا هو رزق المال . وهو جزء من الرزق . ولكن هناك رزق الصحة . ورزق الولد . ورزق في الطعام . ورزق في البركة . وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رزق وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يفتنا هذه الآية الكريمة الى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون . نعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقاءه . ولكن هذا الاحداث لم يتوقف عند الحياة المادية بل ان الله كما أعد لنا مقومات حياتنا المادية

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ورواه أحمد وعنه رواية مسلم بسنده عن عطاء بن رباح

أحد لنا مقومات حياتنا الروحية ، أو القيم في الوجود . وإذا قرأت في سورة الرحمن قوه تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

لوجدت القرآن يعطينا قيم الحياة ، التي بدونها تصبح الدنيا كلها لافيهة لها . لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحيلة قائمة في الآخرة . فإذا لم تأخذها بمهمتها في أنها الطريق الذي يوصلك الى الجنة . أهدرت قيمتها ثمناً .

ولم تعد الدنيا تعطيك شيئاً إلا العذاب في الآخرة .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق في هذه الآية بالسياء فقال سبحانه :

«فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

ليلفتنا الى أن الرزق ، لا يأتي إلا من أهل ، وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء لأنه ورق مباشر محسوس منا ، والماء يزل من السماء في أنقى صورته مطراً . كل ما يأتينا من السماء . فيه علو . ينزل ليزيد حيلة القيم لارتقاء ، عملية لو أراد البشر أن يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت ستكون ملايين الجنيهات ، نعطينا ماء لا يكفى أسرة واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماء في أنقى صورته لينبت به الثمرات ، التي تضمن استمرار الحياة في هذا الكون

ويحد أن نفهم هذه النعم كلها . والاصح أن ننسى فيها ونستوعبها بقول الحق تبارك وتعالى : «فلا تعلموا الله اعتادوا وانتم تعلمون»

(اعتادوا) جمع نَدَّ ، والد هو النظر أو الشبه . وأي عقل فيه ذرة من فكر يعتمد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شيئاً ولا نظيراً ولا يشبه بالله تعالى أحداً . قاله واحد في قدرته ، واحد في قوته ، واحد في خلقه . واحد في ذاته ، وواحد في صفاته .

كل ما يدعون فإهم ساعة العسرة يلجأون إلى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده المنجى والملاذ . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَاَ الْغَنِيَّ أَوْقَاعُ الْوُقَايَا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَادٌ لِّمُذْعَرِّهِ إِلَىٰ ضَرِّ مُّسَدِّرٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟ لأن الانسان لا يعيش نفسه أبداً في ساعة الخطر ، ولأن هؤلاء يعرفون بمفهوم أنه لا يمكن أن يوجد لله أنداد . ولكنه يتحدثهم لأعراض دينوية . فإذا جاء الخطر . يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى . لأنه يعلم يقيناً أنه وحده الذي يكشف الضر ، فحلاق الصحة الذي يعالج الناس دجلاً إذا مرض ابنه أسرع به إلى الطبيب لأنه يغش الناس . ولكنه لا يمكن أن يغش نفسه .

ولقد كان الأصمى وانما عند الكعبة . فسمع احربياً يدهو ويقول :

«يا رب أنت تعلم أن عاصيك وكان من حقك عل إلا أدعوك وأنا عاص . ولكنك أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمن أذهب . فقال الأصمى . يا هذا إن الله يعقر لك لحسن مسكتك»



﴿١٠﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيَّ عَبْدِي فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِّنْ مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَدِيقَيْنِ ۞ ۴۲ ۞

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا أن هؤلاء الذين يتحدون من دون الله انداداً لا يعتمدون على منطلق ولا عقل ويكتفون بمتطلبات على شهوات دنيوية عاجلة . أراد أن يأتي بالتحدي بالنسبة للقرآن الكريم - المعجزة الخالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى يثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد جعل خلق الكون إعجازاً عساً .. فإن القرآن منهج معجز إعجازاً قيباً .. قال الله جل جلاله .

« وان كنتم في ريب ، الخطاب هنا لكل كافر ومنافق غير مؤمن ، لأن المؤمنين آمنوا بالله ورسوله ليس في قلوبهم ريب ، بل هم يؤمنون بأن القرآن موحى به من الله ، صلح الى محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي المنزل من السماء .

والربيب . هو الشك . وقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْهُ ، فَاِذْ لَكُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ كُلُّ شَيْءٍ مُبِينٌ » .
من أين يأتي هذا الشك . والمعجزة بحيط بالقرآن ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟
ما هي مبررات الشك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب ولم يعرف
بالبلاغة واشهر بين قومه حتى يستطيع أن يأتي من عنده بهذا الكلام المعجز الذي لم
يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرسوا في البلاغة واللغة ان باتوا بأية من مثله .
هذه واحدة . والثانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب أبداً ولم يعرف
عنه كذب قبل تكليفه بالرسالة بل كانوا يلقبوه صلى الله عليه وسلم بالصادق
الأمين . والذين كانوا يلقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين اتهموه بأن
هذا القرآن ليس من عند الله . ايصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام مع
الناس . ويكذب على الله ؟! .. هذا مستحيل .

الكلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن لم يكن احد
ليستطيع أن يأتي به من غير حل علماء البلاغة العرب . والعلم الذى نزل في القرآن

الكريم . لم يكن يعرفه بشر في ذلك الوقت . فكيف جاءه النبي الأسمى بهذا الكلام المعجز . وبهذا العلم الذي لا يعلمه البشر ؟! لو جلس الى معلم او قرا كتب الحضارات القديمة . لقالوا دعي استبط منها ، ولكنه لم يفعل ذلك .

من أين دخل الريب الى قلوبهم ؟ لاشك أنه دخل من باب لباطل . والباطل لا حجة له . وبلاشك لقد مضحوا انفسهم بأنهم لا يرتابون في القرآن ولكنهم كانوا يريدونه أن ينزل على سيد من سادة قريش . واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ١٥ ﴾

(سورة الزحرف)

وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ وقالوا مجنون . والمجنون يتصرف بلا منطق . . يضحك بلا سبب . ويبكي بلا سبب . ويضرب الناس بلا سبب . ولذلك رد الحق سبحانه عليهم بقوله تعالى :

﴿ تَٰٓتَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١٦ مَآ أَتَىٰ بِنِعْمَةٍ رَّبِّكَ يَمْجُرُونَ ١٧ وَإِن لَّكَ لَآجِرًا ١٨ غَيْرَ مُمْنُونَ ١٩ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٢٠ ﴾

(سورة القلم)

فهل يكون المجنون هل خلق عظيم ؟ إذن فأسباب الريب كلها أو الأسباب التي تثير الشك غير موجودة . وغير متوافرة . ولا يوجد سبب حقيقي واحد يجعلهم يشكون في أن القرآن ليس من عند الله . ولكنهم هم القائلون كما يروى لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا آللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا فَانْزِلْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِحَذَابٍ إِلَيْنَا ٢١ ﴾

(سورة الاحقاف)

إذن فكل أسباب الشك غير موجودة وأسباب البقين هي الموجودة ومع ذلك ارتأبوا
وشكروا . وقوله سبحانه وتعالى

«عما نزلنا على عبدنا»

فالقرآن الكريم وجد في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الانسان ، وعندما جاء وقت
مباشرة لهمة في الكون نزل من اللوح اسحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم
نزل الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر ما احتاجت اليه
أساسيات والأحداث .

اذن فقوله ونزلناه أى نزل من اللوح المحفوظ الى اسماء الدنيا دفعة واحدة . وقوله
تعالى «أنزل» أى أنزل آيات على محمد صلى الله عليه وسلم بحسب اقتضاء الأحداث
والمناسبات

الحق سبحانه وتعالى يقول . «على عبدنا» وهذه محتاجة الى وقفة . فإله جل
جلاله به عبيد وله عباد . كل خلق لله في كونه عبيد لله سبحانه وتعالى .
لا يستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته . هؤلاء هم لعبيد . ولكن العباد هم
الذين اتحدت مراداتهم مع ما يريد الله سبحانه وتعالى . فخلوا عن اختيارهم
الدنيوى ، ليصبحوا طائعين لله باختيارهم ، أى أنهم تساووا مع المقهورين في أنهم
اختاروا منهج الله وتركوا أى اختيار يخالفه .

هؤلاء هم العباد ، وإذا قرأت القرآن لكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير الى
العباد بأنهم الصالحون من البشر همقود الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي هَتَّىٰ قَاتِي قَرِيبٌ أَجِبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي
وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١٨٨)

هذا ليس لكل خلق الله ، ولكنه للعباد . الذين إذا قال الله تعالى لهم افعلوا ففعلوا وإذا قال الله لا تفعلوا لم يفعلوا . أى أنهم لا يخالفون - بقدرتهم على الاختيار - منهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك في الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين لهم عيب بل يقول جل جلاله :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهَا بِتَعْصِيكَمْ عِبَادًا لَنَا أُولَئِكَ شَدِيدُ الْغَاسِقِ الَّذِي يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَقْصُورًا ۝ ﴾

(سورة الاسراء)

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يقولون ان كلمة عباد قد جاءت في وصف غير المؤمن في قوله تعالى :

﴿ أَأَنْتُمْ أَضَلُّنَّكُمْ عِبَادِي هَتَّوُلَاءُ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۚ ﴾ (من الآية ١٧ سورة الفرقان)

نقول : انكم لم تفهموا ان هذا ساعة الحساب في الآخرة ، وفي الآخرة كلما عباد لاننا كلما مقهورون فلا اختيار لأحد في الآخرة وإنما الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار ، ثم يصبح الانسان بعد ذلك مقهوراً .

نحن جميعا في الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو في الحياة الدنيا فقط . والعبودية هي رقى مراتب القرب من الله تعالى . لألك تأتى الى الله طائعا . منفذاً للمنهج باختيارك . ولقد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً رسولاً ، أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً وإذا أردنا أن نعرف معنى العبودية نقرأ في سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِمَبِئِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۚ ﴾

(من الآية ١ سورة الاسراء)

لنرى أنه في أعلى درجات الانعام من الله سبحانه وتعالى حل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعجزة الكبرى التي لم تحدث لبشر قبله صلى الله عليه وسلم سواء كان رسولاً أو غير رسول ، ولن تحدث لبشر بعده . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد إلى السموات المسبح بالروح والجسد ثم عاد إلى الأرض . وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة جبريل فتجاوز سدرة المنتهى وهي المكان الذي ينتهي إليه علم خلق الله من البشر والملائكة المقربين .

وبشرية الرسول أخذت جدلاً كبيراً منذ بدأت الرسائل السماوية . وحتى عصرنا هذا . وافرأ قوله تعالى :

﴿ قَالِ الْمَلَائِكَةُ لَئِنَّكُمْ لَمِنَ قَوْمِهِ مَن نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلًا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وقوله تعالى :

﴿ قَالُوا ابْشِرْنَا بِحَدَاثٍ قَدِيمَةٍ إِنَّا إِذًا لَّنِي ضَلَالٍ وَسُورٍ ﴾

(سورة القمر)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(سورة الاسراء)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ لَأُكَرَّ إِذَا تُخَسِرُونَ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ من الله . ولا بد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل إليهم . ولا بد أن يكون قد عاش

وكلمة بثل . معناه أن الحق سبحانه وتعالى يطلب المثيل ولا يطلب نص القرآن وهذا إسماعيل وزيادة في إظهار عجز القوم الذين لا يؤمنون بالله ويشككون في القرآن . وقوله تعالى : «وادعوا شهداءكم» .

معناه أن الله سبحانه وتعالى زيادة في التحدي يطالبهم بأن يأتوا هم بالشهداء ويعرضوا عليهم الآية ليعلمهم هؤلاء الشهود إذا كان ما جاءوا به مثل القرآن أم لا . ليس هذا إظهار منتهى القوة بله سبحانه وتعالى لأنه لم يشترط شهداء من الملائكة ولا شهداء من الدين أشهر عنهم الصدق . وانهم يشهدون بالحق . بل برك الحق سبحانه لهم أن يأتوا بالشهداء وهؤلاء الشهداء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين بمائل سورة من القرآن .

الله سبحانه وتعالى طلب منهم أن يأتوا بأبي شهداء متحيزين لهم . وأخلفها سبحانه وتعالى على كل أساس الأرض فقال : «من دون الله إن كنتم صادقين» ولكن إياكم أن تقولوا شهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن لأنكم تكونون قد كذبت على الله وادعيتن شيئاً لم يقله سبحانه وتعالى .

ولكن ما معنى قوله تعالى : «ان كنتم صادقين» صادقين في ماذا ؟ وما هو الصدق ؟ الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب ، كل منهما سبى كلما يعلم . أن هناك كلاماً غير مفيد ، فإذا قلت محمد وسكت فمن يسمعك سيسألك ، ماذا تقصد بقولك محمد ؟ وسؤاله دليل على أنه لم يستفد شيئاً ، ولكنه لو سألك من عندك ؟ وأجبت محمد مكانك تخبره بأن عندك محمداً وهذه كلمة واحدة لكك فهمتها بالمعنى الذي أخذته من كلام السائل . إذن فلا تقل كلمة واحدة ولكن قل كلاماً مفيداً إذن فالكلام المفيد هو الذي يسكت السامع عليه .

وكل متكلم قبل أن ينطق بالكلام يكون عليه نسبة ذهبية لما يقول ، يعبر عنها بنسبة كلامية ولكن هناك نسبة سارحية لما يقول تمثل الواقع .

أي أنك لو قلت محمد مجتهد فلا بد أن يكون هناك شخص اسمه محمد . ولابد أن يكون مجتهد ، فعلاً . لتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية . فإذ لم يكن هناك شخص اسمه محمد . أو كان هناك شخص اسمه محمد ولكنه ليس مجتهداً ،

فإن النسبة الكلامية تخالف النسبة الواقعية .

والصدق أن تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية «والكذب» ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية هذا المفهوم ضروري لعرض معنى الآية الكريمة .

إذن مقوله تعالى «صادقين» أي أن تتطابق النسب الكلامية التي يتقاربون مع نسبة واقعية نستطيعون أن ندللوا عليها . فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون قاله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم



﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ٢٤

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن الأدلة التي يستند إليها المشككون في القرآن الكريم . وهي أدلة لا تستند إلى عقل ولا إلى منطق . فمخادهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، وأن يستعينوا بمن يريدون من دون الله ، لأن القرآن كلام الله ، والله سبحانه هو الغافل . وبما أنهم يحاولون التشكيك في أن القرآن كلام الله . وأنه يرسل من عند الله ، فليستعينوا بمن يريدون ليأتوا بأية من مثله ، لأن التحدى هنا لا يمكن أن يتم إلا إذا استعانوا بجميع القوى ما عدا الله سبحانه وتعالى .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بالنتيجة قبل أن يتم التحدى . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا .

إن قوله سبحانه «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أنه حكم عليهم بالمثل وقت نزول القرآن وبعد نزول القرآن إلى يوم القيامة . لأن الله لا يخفى عن علمه شيء . فهو بكل شيء عليم . وكلمة «لم تفعلوا» عندما تأتي قد تغير اشك . فنحن نعرف أن معنى إن الشرطية يشير الشك . لأن الأمر لكي يتحقق يتعلق بشرط . وانت إن قلت إن ذاكرت تصحح ، ففي المسألة شك . أما إذا قلت كقول الحق «إذا جاء نصر الله والفتح» فمعنى ذلك أن نصر الله آت لا محالة .

وهذا حرف «إذا» ظرف ، وكل حدث يحتاج إلى مكان وزمن . فإذا جئت بأداة الشرط فمعنى ذلك أنك تقربها من عنصر تكوين الفعل والحدث . فإذا أردت أن تعبر عن شيء سيتحقق تقول إذا ، وإذا أردت أن تشكك فيه تقول «إن» والله سبحانه وتعالى قال «إن لم تفعلوا» ولأن الفعل ممكن الحدوث أراد أن يرحم الجانب المانع فقال «ولن تفعلوا» هذا أمر اختياري . فإذا تكلمت عن أمر اختياري ثم حكمت أنه

لن يحدث . فكان قدرتك هي التي منعه من الفعل . فلا يقال أنك قهرته على
الافعل . لا . علمت أنه لن يفعل . فاستعداداته لا يمكن ان تمكنه من الفعل .

وهذه امور ضمن احاديث القرآن الكريم في القضايا الغيبية التي احذر عنها ،
فمتى يقول الله سبحانه وتعالى «وجعلوا بها واستيقنتها أنفسهم» معناه أنهم
مصدقون ولكن الستهم لا تعترف بذلك . وقوله تعالى «فمن لم يفعلوا ولم تفعلوا»
معناه أن الشك مفتعل في نفوسهم ؛ هم لا يريدون أن يؤمنوا ولذلك يأتون بسبب
مفتعل لعدم الايمان . لقد استقر فكرهم على أنهم لا يؤمنون ، وما دام هذا هو
ماقرروا . فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب علققة لعدم الايمان .

وقوله تعالى : « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » .

الحق سبحانه وتعالى يريد هنا ان يفتنا الى صورة اخرى عن عجز هؤلاء الكفار .
فهم بحثوا عن أعذار ، ليبرروا بها عدم ايمانهم ونظفروا بأنهم يشكون في القرآن
الكريم . يقول لهم : لو كانت لكم قسرة وذاتية فعلا فامنعوا انفسكم من دحور النار
يوم القيامة . كما منعتم انفسكم من الايمان في الدنيا .

وهذا وعيد من الله . لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا ولم يختاروا قهراً بل
اختاروا عدم الايمان بمشيئة الاختيار التي أعطاه الله لهم . ولكن هناك وقت ليس
فيه اختيار وهو الآخرة فحاولوا ان تنفوا في الآخرة عذاب النار يوم القيامة . ولكن لن
يكون لأحد اختيار فإله سبحانه وتعالى يقول في ذلك اليوم :

﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويقول جل جلاله :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾

(سورة الانفال)

فلماذا نكم التي معكم من الايمان . . لن تقيمكم يومئذ من عذاب النار .
واقرا قوله تعالى :

﴿ اِنَّكَ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ اَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الانبياء)

لماذا هم وما يعبدون ؟ لان العابد يرتجى نفع المعبود . فكانها عندما يرى كل منها الآخر في العذاب تكون الحسرة أشد . ولذلك فإن الحجارة والأصنام التي يعبدونها ستكون معهم في النار يوم القيامة . وليس هذا عقاباً بالأحجار والأصنام . لأنها تخلق مفعود لله مسبح له ، ولكن هذه الأصنام والأحجار تكون راضية وهي تحرق الذين كفروا بالله . ونقول . «عدونا ونحن أعبد لله من استعمرين بالأسحار» .

وقوله تعالى : « أعدت للكافرين » الله سبحانه وتعالى يخبرهم وهم في الدنيا ، ان النار أعدت للكافرين . وقوله تعالى النار أعدت للكافرين تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن . وإرهاب غاية الإرهاب للكافر . . وقوله تعالى «أعدت» معناها أنها موجودة فعلاً وإن لم تكن نراها . وأنها مخلوقة وإن كانت محجوبة عنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عرصت عن الجنة وبوششت أن أتاكم منها بقطاف نفعلت »

وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً

والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً وأن لايمان سيقوده اليها فإنه يحس بالسعادة ويشتاق للجنة فإذا سمع قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ اُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الزمر)

ساعة تفرا هذه الآية الكريمة تعرف أن الله سبحانه وتعالى سيجعلك في الجنة

تأخذ ما كان لعبرك . لأن الميراث يأتيك من غيرك . وقد سبق علم الله سبحانه
وتعالى خلق الناس جميعاً وقبل أن يخلق أعد لكل خلقه مقعد في النار ومقعداً في
الجنة الذين سيدخلون النار حالدين فيها ، مقاعدهم في الجنة ستكون حالية ،
فإن الله سبحانه وتعالى يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومسلطهم في الجنة .
وخلق سبحانه عندما يقول « أعدت » فهي موجودة فعلاً



﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون في القرآن ليتحذروا من ذلك عذراً لعدم الإيمان . قال : إذا كنتم قد احترستم عدم الإيمان ، بما أعطيتكم من اختيار في الدنيا ، فإلحكم في الآخرة لن تستطيعوا أن تتقوا لدار . ولن تكون لكم إرادة

ثم يأتي الحق تبارك وتعالى بالصورة المقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتي الله بعدها بالصورة المقابلة وهي العذاب بالنار وإذا ذكرت النار بعدها ولهيها ذكرت بعدها الجنة . وهذه الصورة المتضادة لها تأثير على دفع الإيمان في النفوس . فلذا قرأ الانسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذي يزحزح عن النار ولا يدخلها يكون ذلك هورا ونعمة ، هذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى . ولذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿قَن زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَكَفَارٌ﴾

(من الآية ٢٨٥ سورة آل عمران)

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحزح عن النار فوز عظيم . . وفي الآخرة . وبعد الحساب يضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب صممه منهم من يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر أكثر ببطأ وهكذا ، والكافرون يسقطون في النار .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط والله سبحانه وتعالى قال .

﴿ وَمَنْ يَنْكُرْهُ إِلَّا وَارِعًا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ٧٦ ﴾ ثُمَّ يُخَيِّبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَنُورُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنِيًّا ٧٧ ﴿

(سورة مريم)

لأن مجرد رؤية المؤمنين لجهم نعمة كبرى ، فعين يرون العذاب الرهيب الذي أنجاهم الايمان منه بحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب . وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينما يرون أهل النار يحسرون بعظيم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منه ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسرون بعظيم غضب الله عليهم ان حرمهم من نعمه ، فكان هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة وديعة في العذاب لأهل النار . . والله سبحانه وتعالى يقول :

«ويشروه والبشارة هي الاخبار بشيء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأنت إذا بشرت إنساناً بشيء أحلته بشيء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .

والإنذار هو اخبار بأمر مخيف لم يأت وقته بعد .

ولكن لبشارة تأن أحياناً في القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . واقرأ قوله تعالى .

﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧٩ ﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُّ مُسْتَغِيرًا كَانَ لَرَبِّسَمْعَهَا قَبْشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨٠ ﴿

(سورة الحاقة)

البشارة هنا تنكبة من الله سبحانه وتعالى . فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة «فشرهم» يعتقدون أنهم سيمسمعون خبراً ساراً ، فيأتي بعدها العذاب الأليم ليريدهم غيماً على نعم

يقول الحق سبحانه وتعالى : «ويشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات» .

الشري ها إعلام بغير قادم للمؤمنين ، والايان هو الرصيد القلبي للسلوك .
لأن من يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يداكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل
عمل سلوكي لابد أن يوجد من ينبوع عقيدتي والايان أن تنسجم حركة الحياة مع
مافي القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان . .
فكان العمل الصالح ينبوعه الايمان . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَالْمَعْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝ إِلَّا الْيَئِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة المعصر)

وفي آية اخرى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ ۖ نَبِيٌّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾

(سورة فصلت)

ولكن من يكفى الاعلان عن كوني من المسلمين ؟ لا بل لابد ان يقرن هذا الاعلان
بالعمل بمبرادات الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى يُريد أن يفتنا . . الى أن قولنا لا اله الا الله محمد رسول
الله . . لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الاسلام . ذلك ان نطقنا بالشهادة لا يريد في
ملك الله شيئاً . . والله تبارك وتعالى شهد بوحداية الوهية لنفسه ، وهذه شهادة
الذات للذات . ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى ثم
شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم . . وفي ذلك
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَدِيمًا بِالْفِطْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالمنهج .. لماذا ؟ .. حتى لا تتعاند حركة الحياة بل تتسابق .. وما دامت حركة الحياة مستقيمة .. فلها تصبغ حياة متسائلة وقوية . وعندما انتشر الاسلام في بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس فقط بمجرد الايمان .. ولكن لابد أن تنسجم حركة الحياة مع منهج الاسلام .. فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج .. حيث لا يخدم قضية الدين أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا . ولذلك لابد أن ينص على الإيمان والعمل الصالح .. «والذين آمنوا وعملوا الصالحات» . والصالحات هي جمع صالحة . والصالحة هي الأمر المستقيم مع المنهج ، وصدها العسل . وحسن استقبال الإنسان الوجود .. فإن أقل الصالحات هو أن يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحاً .

الحق تبارك وتعالى يشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار .. والجنات جمع جنة ، وهي جمع لأنها كثيرة ومتنوعة .. وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا .. وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَتَنْتَرِكُنَّ فَعَلَمًا بِمَعَصِمٍ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنَّهُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَكَبِيرُ تَفْضِيلًا ٢١ ﴾

(سورة الإسراء)

الجنات نفسها متنوعة .. فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم .. وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى . وهناك عِلْيُون الذي هو أعلى وأفضل الجنات .. وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى وهو نعيم يعلم كثيراً عن أي نعيم في الطعام والشراب في الدنيا ..

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون من جوع أو ظمأ .. وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع . والله جل جلاله في هذه الآية بعد أمر غيبي .. ولذلك فإنه لكي يقرب المعنى إلى ذهن البشر .. لابد من استخدام الفاظ مشهورة وموجودة .. أي عن واقع نشهده وأقرأ ، قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٢ ﴾

(سورة السجدة)

إذن ما هو موجود في الجنة لا تعلمه نفس في الدنيا . . ولا يوجد لفظ في اللغة يعبر عنه . . ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والظر قد رآه . . ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التي تناسب مع عقولنا وإدراكنا . . فقال تعالى . « جنات تجري من تحتها الأنهار » . .

على أن هناك آيات أخرى تقول : « تجري تحتها الأنهار » ما الفرق بين الاثنين . تجري تحتها الأنهار . أي أن سيع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها . . أما قوله تعالى . « من تحتها الأنهار » فكان الأنهار تتبع تحتها . . حتى لا يخاف ناس من أن الماء الذي يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف . وهذه زيادة لأطمئنان المؤمنين أن معيم الجنة يلقى وتحالده . .

وما دام هناك ماء هناك خضرة ومنظر جميل ولا بُدَّ أن يكون هناك ثمر . . وقوله تعالى . « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » . . حديث عن ثمر الجنة . . وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا . . إنك في الدنيا لا بد أن تذهب إلى الشجرة وتأتي بها أو يأتيك خبزك بها . . ولكن في الجنة انمر هو الذي يأتي إليك . . بمجرد أن تشتهيبه تجد في يدك . . وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة . . ولكن الثمر في الجنة ليس كثمر الدنيا لا في طعمه ولا في رائحته . . وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الشجرة هي ثمرة الماسجو أو التين الذي أكنه في الدنيا . . ولكنها في الحقيقة تختلف تماما قد يكون الشكل متشابها ولكن الطعم وكل شيء مختلف .

في الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الاسان . . ولكن في الآخرة لا يوجد سلعام فضلات بل ن الاسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة في التكوين .

إذن معنى الجنة الأنهار مختلفة والشجر مختلفة . . والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذي يقول « الشيء كس فيكون » . . ولا أحد يفهم بعض .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «ولم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون»

الزوجة هي متعة للإنسان في الدنيا إن كانت صالحة . . والمنعصة عليه إن كانت غير صالحة . . وهناك منغصات نستطيع أن نضمها المرأة في حيلة زوجها تجعله شغيا في حياته . . كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار . . أولا تعطى اهتماما لزوجها أو تحاول إثارة بآن تجعله يشك فيها . . أما في الآخرة فتزول كل هذه المنغصات وتزول بأمر الله . . فالزوجة في الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه في الدنيا يمتحن . . فالؤمنون في الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا ومتاحسها وأول النمل واحتقد . . واقرأ قوله جل جلاله .

﴿وَرَبَّاعِي مَنِّي مُتَوَرِّعِينَ مِّنْ غُلٍّ إِثْمَانًا وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْعُرُونَ ۝١٧﴾

(سورة الحجر)

معنايس الدنيا ستختفى وكل شيء تتركه في الدنيا لن نجده في الآخرة . . فإذا كان أي شيء قد نعت حياتك في الدنيا فإنه سيبحتفي في الآخرة . . والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات لأن الزوجة هي متعة زوجها في الدنيا . . وهي التي تستطيع أن تحيل حياته الى نعيم أو جحيم . .

وقوله تعالى : «ولم فيها خالدون» . . أي لا موت في الآخرة ولن يكون في الآخرة وجود للموت أبدا ، وإنما فيها الخلود الدائم إما في الجنة وإما في النار .



﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن الجنة .. وأعطانا مثلاً يقرب لنا صورة السعير
الهائلة التي سينعم بها الإنسان في الجنة .. أراد أن يوضح لنا المنهج الايمانى لدى
يجب أن يسلكه كل مؤمن .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف كائناً بعبادته
ولكن الانسان الذى ارتضى دخول الايمان بالله جل جلاله قد دخل في عقد إيمان مع
الله تبارك وتعالى وما دام قد دخل العقد الايمانى فانه يتلقى عن الله منهجه في
افعل ولا تفعل وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن يتساءل عن الحكمة في كل
شيء .. ذلك أن الايمان هو إيمان بالعب .. فإذا كان الشيء نفسه عائب عنا فكيف
يريد أن نعرف حكمته ..

إن حكمة أى تكليف إيمانى هي : انه صادر من الله سبحانه وتعالى ، وما دام
صادراً من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كى تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبت
عليك له الطاعة لأنه إله وأنت له عابد .. فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قال افعل
حتى تفعل .. ويكفى أنه قال لا تفعل حتى لا تفعل .

الحكمة غالبة عليك .. ولكن صدور الأمر من الله هو الحكمة ، وهو الموجب
للطاعة فإنا أصلي لأن الله فرض الصلاة ، ولا أصلي كنوع من الرياضة . وأنا
أتوضأ لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بالوضوء قبل الصلاة . ولكنى لا أتوضأ كنوع من
الطهارة . وأنا أصوم لأن الله أمرني بالصوم . ولا أصوم حتى أشعر بجوع
الفقر . لأنه لو كانت الصلاة رياضة لا متبدلناها بالرياضة في الملاعب . ولو أن
الوضوء كان نظافة لغننا بالاستحمام قبل كل صلاة .. ولو أن الصوم كان لشعر
بالجوع ماوجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع .

أذن فكل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأى شيء آخر .. وكل ما يأتي من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأى صيغة أخرى .. ذلك هو الايمان الذى يريد الله ما أن نتمسك به ، وأن يكون هو سلوك حياتنا .

تلك مقدمة كان لابد منها اذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة .. استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يعطونا للمعنى الحقيقى . قالوا كيف يضرب الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف . الذى يكفى أن نضربه بأى شيء أو بكفك فيموت ؟ لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلا بالعليل الذى هو قسطنطين الجثة شديدة القوة .. أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلا بالبعوضة فقالوا : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » . ولم يعطوا الى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقها معجزة .. لأن فى هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها فى حياتها . فلها عيان وله حركات دقيقة جدا ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الانسان .. ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد يمتص دم الانسان ..

والبعوضة لها أرجل وله أجنحة ولها دوره تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها .. كل هذا فى هذا الحجم الدقيق .. كلما دق الشيء احتاج الى دقة خلق أكبر ..

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلا عندما اخترع الانسان الساعة . كان حجمها ضخما جدا لدرجة أنها تحتاج الى مكان كبير .. وكلما تقدمت الحضارة وارتقى الانسان فى صناعته وحضارته وتقدمه ، أصبح الحجم دقيقا وصغيرا ، وهكذا أخذت صناعة الساعات تلتق . حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم أو أقل .. وعندما بدأ اختراع المذيع أو الراديو كان حجمه كبيرا .. والآن أصبح فى غاية الدقة لدرجة أنك تستطيع أن تضعه فى جيбок أو أقل من ذلك .. وفى كل الصناعات عندما تترقى .. يصغر حجمها لأن ذلك محتاج الى صناعة ماهر والى تقدم علمى ..

وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها . أى بما هو أقل منها حجما .. فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا الى دقة الخلق .. وكلما لطف الشيء وصغر حجمه

حُتَاجٌ إِلَى دَقِّقَةِ الْخَلْقِ . . وَلَكِنَّ الْكَفَّارَ لَمْ يَأْخُذُوا بِالْمَعْنَى عَلَى هَذَا النُّحُوْلِ بِمَا أَخَذُوهُ بِالْمَعْنَى الْفُتُوْرَى الْبَسِطِ الَّتِى لَا يَمِثُلُ الْحَقِيقَةُ .

فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَما ضَرَبَ هَذَا الْمَثَلَ . اسْتَقْبَلَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ . وَاسْتَقْبَلُوهُ بِمَنْطِقِ الْإِيمَانِ بِاللّهِ بِصَدَقُوا بِهِ سَوَاءَ فَهَمُّهُ أَمْ لَمْ يَفْهَمْهُ . . لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَصْدُقُ كُلُّ مَا يَجِىءُ مِنْ عِنْدِ اللهِ سَوَاءَ عَرَفَ الْحِكْمَةَ أَوْ لَمْ يَعْلَمْهَا . وَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَنَّهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَ عَنْ عِلْمِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ هَلْ يَسْأَلُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعَاعٍ فَيَسْمَعُوا لَكَ أَوْ زِدْ فَعَمَلٌ خَيْرٌ أَلِى كَمَا تَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الاحرف)

إِنْ كُلُّ مُصَدِّقٍ بِالْفَرَنِّ لَا يَطْلُبُ تَأْوِيلَهُ أَوْ الْحِكْمَةَ فِي آيَاتِهِ . . وَلِلذَلِكَ قَالَ الْكَافِرُونَ : « مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا » وَيَأْتِي رَدُّ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « يَصِلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرٌ وَمَا يَصِلُ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ » . وَمِنْ هُمْ الْفَاسِقُونَ ؟ . هُمُ الَّذِينَ

يَقْصُرُونَ عَهْدَ اللهِ . . أَوَّلُ شَيْءٍ فِي الْعَسَقِ أَنْ يَنْقُضَ الْعَاسِقُ عَهْدَهُ . . وَيُقَالُ فَسَقْتُ الْوِطْبَةَ إِذَا بَعَدَتْ الْقَشْرَةُ عَنِ الثَّمَرِ . . وَعِنْدَمَا تَكُونُ الثَّمَرَةُ أَوْ الْبَلْحَةُ حَرَاءً تَكُونُ الْقَشْرَةُ مُنْتَصِفَةً بِالثَّمَرَةِ بِحَيْثُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْزِعَهَا عَنْهَا . . فَإِذَا أَصْبَحَتْ الثَّمَرَةُ

أَوْ الْبَلْحَةُ رَطْبًا تَسْوَدُ قَشْرَتُهَا وَتَبْعَدُ عَنِ الثَّمَرَةِ بِحَيْثُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْزِعَهَا عَنْهَا بِسَهُولَةٍ . هَذَا هُوَ الْعَاسِقُ الْمُبْتَعِدُ عَنْ مَنَهِجِ اللهِ . يَنْسَلِجُ عَلَيْهِ بِسَهُولَةٍ وَيَسِرُّ ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُنْتَصِفٍ بِهِ . . وَعِنْدَمَا تَبْعَدُ عَنْ مَنَهِجِ اللهِ فَإِنَّكَ لَا تَرْتَبِطُ بِأَوْرَاقِهِ وَنَوَاحِيهِ

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٢٧

بعد أن شرح الله لنا مفهوم الايمان . في أننا نتقن عن الله ونعبد الحكم ولو لم نعرف
الحكمة فكل ما يأتي من الله نأخذه بمنطق الايمان ، وهو أن الله الذي قال . وليس
بمنطق الكفر والتشكك . فكل شيء عن الله حكمته أنه صادر عن الحق سبحانه
وتعالى

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الفاسقين هم المبتعدون عن منهج الله وأورد الحق أن
يبين لنا صفات الفاسقين فحددها في ثلاث صفات . أولاً : الذين ينقضون عهد الله
من بعد ميثاقه ثانياً الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ثالثاً : الذين يفسدون
في الأرض . ثم حدد لنا الحق تبارك وتعالى حكمهم فقال أولئك هم الخاسرون
والخسران الذي وصلوا اليه هم من عملهم لأنهم تركوا المنهج وبدأوا بشرعوا لأنفسهم
هوى النفس ولذلك يقول الحق جل جلاله عنهم :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى قَارِئَتْ بِحَرْفِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ٢٨

(سورة البقرة)

إذن هم الذين احتربوا ، وهم الذين اشتروا الضلالة ودفعوا ثمنها من هدى الله
فكانهم عقدوا صفقة خاسرة لأن هدى الله هو الذي يقودنا إلى الحياة الخالدة والنعم
الذي لا يورث

والحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآلِهِمْ ابْتَغَىٰ يَفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَيُفَقِّهُونَ وَيُفْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ
أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَعْلُ
الْعَظِيمُ ١١٠ ١١١ ﴾

(سورة التوبة)

إذن فالمؤمنون باعوا لله سبحانه وتعالى أموالهم وأنفسهم ، وكانوا صادقين في
عهدهم ، أما الكفار والمنافقون ، فقد باعوا هدى الله ، واشتروا به ضلال الدنيا .
فالحق سبحانه وتعالى ذكر لنا أول صفت الفاسقين أنهم لا عهد لهم . ليس بينهم
وبين الناس قط . ولكن لا عهد لهم مع الله أيضا . وكما عاهدوا الله عهدا نقضوه .
والله يحب الوفاء بالمعهد . ولذلك يقول جل جلاله :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ أَسْتَجِيرَ إِلَّا بِأَلْفٍ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْتَغِ أَشْمَهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُورًا ١١٢ ﴾

(سورة الاسراء)

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ رَجَعْنَاهُمْ لَفَيُفِينُ ١١٣ ﴾

(سورة الأعراف)

ما هو العهد الموثق الذي أخذه الله على عباده فنقضوه ؟ انه الايمان الأول الايمان

الظفرى الموجود فى كل منا . والله سبحانه وتعالى اخذ من لبشر جميعا عهدا ، فوفى به بعضهم ونقضه بعضهم .

والله سبحانه وتعالى ذكر لنا فى القرآن الكريم . أن هناك عهدا موثقا بينه وبين خرية آدم . فقال جل جلاله .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

وهكذا اخذ الله عهدا على خرية آدم بأن يؤمنوا به واشهدهم أنه ربهم . وجاءت الفقرة إلى القلوب بمرور الوقت . فنقضوا العهد واتخذوا آلهة من دون الله . ادن أول صعدت العاصفين أنهم بنقضوا عهد الله . والذي ينقض عهدا مع بشر ، فسوكة هذا لا يقبله الحق سبحانه وتعالى حتى مع الكفار وغير المؤمنين وقرأ فوه تبارك وتعالى :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَنِ هَؤُلَاءِ الشُّرَكِيِّينَ لَمْ يَرْحَمْ يَقْضُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَنْتُمْ بِاللَّيْسِ عَنْهُمْ إِلَهٌ مُنْتَبِهٌ إِلَّا اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة النوبة)

وهكذا يرى أن الحق تبارك وتعالى حين أعلن براءته وبراءة رسوله صل الله عليه وسلم وبراءة المؤمنين من كل كافر مشرك فى قضية ايمانية كبرى . حرم الله فيها على الكفار والمنافقين أن يقتربوا من بيته الحرام فى مكة ، احترام جل جلاله العهد . حتى مع المشركين . وطلب من المؤمنين أن يوفوا به . فإذا كان هذا هو الملك الايمانى مع كل كافر ومشرك إن كنت قد عاهدته بهذا فأوف به الى مدته . فكيف بالمشركين وقد عاهدوا الخالق الأعظم . ثم ينقضون عهده الموثق . أنهم قد خانوا مبيع الله وعهده . وبذا لم يكن هم عهد مع الله سبحانه وتعالى فهل يكون لهم عهد مع خلق الله ؟!

اذن فالماسقون اول صفاتهم انه لا عهد لهم مع خالقهم ولا عهد لهم مع الناس .
ولذلك لا تأمن هم أبدا .

ثم تأتى بعد ذلك الصفة الثانية للفاسقين فى قوله تعالى :
« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وما أمر الله به أن يوصل هو صلة الرحم . فقد
أمرنا الله تعالى بأن نصل أرحامنا . فنحن كلما أولاد آدم . والرسول صل الله عليه
وسلم يقول فى حجة الوداع : كلكم لأدم وآدم من تراب »

وهكذا نرى أن هناك روابط انسانية يلفتنا الله سبحانه وتعالى اليها . وهذه الروابط ..
تبدأ بالأسرة ثم تتسع لتشمل القرية أو الحى . ثم تتسع لتشمل الدولة والمجتمع ، ثم
تتسع لتشمل المؤمنين جميعا ، ثم تتسع لتشمل العالم كله . هذه هى الأخيرة الانسانية
التي يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا اليها .

ولكن اللفتة هنا لا تقتصر على الناحية الانسانية ، بل تسجل أن ما فعلوه
معصية . ومخالفة لأمر الله تعالى . فانه أمر بأن نصل الرحم . وجاء هؤلاء ومخالفوا
وعصوا ما أمر الله به . وقطعوا هذه الصلة . اذن فالمسألة فيها مخدعة لشبهج ، وعصيان
لأمر من أوامره الله سبحانه وتعالى . فعلة الرحم توجد نوعا من التكافل الاجتماعى بين
البشر . نادا حدث لشخص مصيبة .. أسرع أقاربه يقفون معه فى عنته . ويحاول كل
منهم أن يخفف عنه . هذا التلاحم بين الأسرة يجعلها قوية فى مواجهة الأحداث .
ولا يحس واحد منها بالضيق فى هذا الكون ، لأنه متياك مع أسرته ، متياك مع حبه
وأقربته . وهكذا يخفى الحقد من المجتمع . ويختفى التمسك الاسرى .

ولعلنا اذا نظرنا الى المجتمعات الغربية لنى نعتبرا تفكك الأسرة . نجد أن كل
واحد منهم قد ضل طريقه وانحرف لأنه أحس بالضيق . فانحرف الى المخدرات أو الى
الحمر أو الى الزنا وغير ذلك من الرذائل التى تراها . جيل ضائع . من الذى أضاعه ؟
علم صلة الرحم .

واذا تحدثنا عن الانحرافات التى تراها بين الشباب اليوم فلا نلوم الشباب ، ولكن
نلوم الآباء والأمهات الذين تركوا أولادهم ويتاهموا وأهدروا صلة الرحم . نشب جيل
يعانى من عقد نفسية لا حدود لها ، أن الابن الذى يفقد جو الأسرة . يفقد ميزان

حياته . والله سبحانه وتعالى يريد المؤمنين متحابين متحابين من كل العدد التي تحطم الحياة . اذن معصية الرحم تضيع اجيالا بأكملها .

ونأى بعد ذلك الى الصفة الثامنة من صفات الفاسقين بقوله تعالى : « ويفسدون في الارض » . نقول : كل ما في الكون مخلوق على نظام : « قَدَّرَ فَهَدَى » أي كل شيء له هدى لا بد أن يتبعه . ولكن الانسان جاء في مجال الاختيار وأمسك قضية الصلاح في الكون

ومن رحمة الله أنه جعل في كونه خلقا يعمل مفهرا . ليضبط حركة الكون الأعلى . فالشمس والنجوم والأرض وكل الكون ماعدا الانس والحاد يسير وفق نظام دقيق لماذا ؟ لأنه يسير بلا اختيار له . والحق جل جلاله أخبرنا بأنه لكي يعتدل ميزان حياتنا . فلنحكم أنفسنا بمنهج الله . كما أن الكون المقهور محكوم بمنهج الله . فليس معنى الاختيار الانسان أن يتعدى عن منهج الله . لأن الله له صفة الفهر فهو يستطيع أن يخلق مقهورين ، ولكنه أعطانا الاختيار حتى نأتيه عن حب . وليس عن قهر . فأتى بحب الشهوات ولكنك تحب الله أكثر فتتهد بمسك بمنهج الله . اذن فالاختيار لم يُعط لك يُقيد في الأرض . ولكنه أعطى لنا . لنأى الله سبحانه وتعالى طائعين ولسنا معهورين .

ولذلك فكل ما يختار في أن يؤس أولا يؤس . وهذا الاختيار يشتر عبودية الله سبحانه وتعالى في قلوبنا . ولكن الانسان بدلا من أن يأخذ الاختيار ليأى الله عن حب . فينال الجزاء الأعظم . أحده ليفسد في الأرض . .

والمساد أن تنفل مجا اقل ولا تمنع . فتضيق هذه مكان هذه . فيغلب ايران أي أنك بها حال الله فيه اعمل . لا تعمل ، وفيما قال لا تفعل . تفعل . .

فتكون قد جعلت ميزان حياتك معكوسا . لماذا ؟ لأننا غير محكومين بقاعدة كنية تنظم حياة اساس . فكل واحد سيضع قاعدة له . ولكن واحد لن يفعل ما عليه فيحدث تصادم في الحياة . وكل مساد يشكل قبحا في الوجود . فها انت تسير في الطريق وترى عمارة مبنية حديثا قد تسربت المياه من مواسيرها . عندما ترى ذلك تتأدى . لأن هناك قبحا في الوجود في عدم امانة انسان في عمله . اذن فحين يفسد

عامل واحد . بعدم الاخلاص في عمله . يفقد الكون نعمة يحياها الله . في أن ترى
الشيء الجميل . فتقول : الله ..

فكل انسان غير أمين في عمله . يفسد في الكون . وكل انسان غير أمين في خلقه يفسد في الكون . ويعتدى على حرمات الآخرين وأموالهم . وهذا يجعل الكون تبيحا ، فلا يوجد انسان يأمن على عرضه وماله ...

لقد أراد المعتدى أن يحقق ما ينفع به نفسه عاجلاً . ولكنه أحدث فساداً في الكون .
كذلك عندما يغش التاجر الناس . وعندما يكتسب الإنسان المال بالهيب والسرقة .
فيفتح الله عليه أسوأ مصارف ذلك في الوجود . فهو أخذه الحرة بالفساد في الأرض .

والفساد في الأرض أن تخرج الشيء من حده اعتداله . ففسد في شهورك وفسد في أجيالك . وفسد في عقابك للناس . وفسد بآفاتك عن حقوق المير . والفساد في الأرض أن يوجد منهج مطلق غير منهج الله .

إن غياب منتج الله معناه أن يصبح كل منا عبد أهوائه . وإذا صارت الأمور حسب أهواء الناس . جاءت لهم حركة الحياة بالشقاء والشر بدلا من السعادة والأمن . إن ما نراه اليوم من شكوى الناس علامة على الفساد .

لأن معناها أن الناس تعالى ولا أحد يتحرك . ليرفع أسباب هذه الشكوى . ولن يستقيم أمر هذا الوجود ، ويتخلص من الفساد إلا إذا حكمتنا منهج لا هوى له . والذي لا هوى له هو خالق البشر . واضح ميزان الكون .

وأول مظاهر الفساد أن يوكل الأمر إلى غير أهله لأن إذا أعطى الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة . كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« إذا وُسل الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (١)

لماذا ؟ لأن المجتمع - حيثئذ - يكون مبنيًا على العناق واختلال الأمور ، لا على الاتقان والاختلاص . فالذي يجيد النفاق هو الذي يصل إلى الدرجات العلا ، والذي يتقن عمله لا يصل إلى شيء . وتكون النتيجة أن مجموعة من المافقين الجهلة هم الذين يسيرون الأمور بدون علم . والفساد في الأرض هو أن يضيع الحق . ويضيع القيم . ويصبح المجتمع غابة كل إنسان يريد أن يحقق هواه بصرف النظر عن حقوق الآخرين . ويحس من يعمل ولا يصل إلى حقه أنه لا فائدة من العمل ، فيتحول المجتمع كله إلى مجموعة من غير المنتجين .

والفساد في الأرض هو أن يجعل عقولنا هي الحاكمة فلا نتأمل في ميزان الكون الذي خلقه الله ، ونها غرضي يعقولنا يحطط . فنقطع الأشجار ورمي محرمات المصانع في الأنهار ففسدهم . وبأن الكيماويات السامة تروى بها الزرع أو يجارى المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سُمًا ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون وطغى الأرزون قد أصابها ضرر وأصبح يعرض حياة البشر على الأرض لأحصاد كبيرة . وتفسد مياه الأنهار . ولا تصبح صالحة للشرب ولا للمرى . ويضيع الخبر من الدنـب بالترويج . والفساد في الأرض هو أن ينتشر الظلم . وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهي من الشقاء والفساد في الأرض هو أن تضيع الأمانة . فتفسد المعاملات بين الناس . وتضيع الحقوق .

هذه هي بعض أوجه الفساد في الأرض . والله سبحانه وتعالى قد وضع قانونا كلياً ، هو منهجه يتعامل به الناس ولكن الناس تركوه ومشوا يتخبطون في ظلام الجهل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من استعمل رجلاً من عصاة ، وميهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » (١)

وهكذا يكون مدى حرص الاسلام على استقامة أمور الناس .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك هم الخاسرون »
خسروا ماذا ؟ خسروا ديارهم وأخرجتهم وخسروا أنفسهم . لأن الإنسان له حياتان . . حياة قصيرة في الدنيا مليئة بالمناهب وحياة طويلة حليلة في الآخرة .

والذى يبيع الحياة الأبدية وتعيمها وخلودها بحياة الدنيا التى لا يضمن فيها شيئا ، يكون من الخاسرين . . نعمر الانسان قد يكون يوما أو شهرا أو عاما . والحياة الدنيا مهما طالت فهي قصيرة . ومهما أعطت فهو قليل . فالذى يبيع آخرته بهذه الدنيا ، أهلكون رابعا أم خاسرا ؟ طبعا يكون خاسرا . لأنه اشترى مالا يساوى بنعيم الله كله . .

وإذا كان الانسان قد نسي الله سبحانه وتعالى وهو لاقيه حتما . ثم يبعث يوم القيامة ليجده أمامه . فيوفيه حسابه . أهلكون قد كسب أم خسروا ؟ . . طبعا يكون خاسرا . لأنه أوجب على نفسه عذاب الله . ولوجب على نفسه عقاب الله .

ان قوله تعالى : « الخاسرون » تدل على أن الصفة انتهت وضاع كل شيء لأن نتيجةها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتا ، ولا هو خسران يمكن أن يمحى فى الصفة القادمة . بل هو خسران أبدي . والندم عليها سيكون شديدا . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكَ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَأْتِينِي كُنْتُ تُرَابًا ۝١٥﴾

(سورة النبا)

لماذا ينمى الكافر أن يكون ترابا ؟ لحول العذاب الذى يراه أمامه . وهول الخسران الذى تعرض له . وهذا دليل على شدة اندم . يوم لا ينفع الندم . على أنه سبحانه وتعالى تحدث فى هذه الآية عن الخاسرين . ولكنه جل جلاله تحدث فى آية اخرى عن الاخسرين . فقال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ سَأَلْتُمْ بِالْأَنْصَارِ أَعْمَلًا ۝١٦ الَّذِينَ صَلَّى سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُخْرِجُونَ مَنَّا ۝١٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٨﴾

(سورة الكهف)

إذن فهناك خاسر . وهناك من هو أخسر منه . والأخسر هو الذي كفر بالله جل جلاله . ويوم القيامة . واعتقد أن حياته في الدنيا فقط . ولم يكن الله في ياله وهو يعمل أثر عمل ، بل كانت الدنيا هي التي تشغله . ثم فوجيء بالحق سبحانه وتعالى يوم القيامة . ولم يحسب له أية حسنة ، لأنه كان يقصد بحسناته الحياة الدنيا . فلا يوجد له رصيد في الآخرة .

والعجيب أنك ترى الناس يعدون للحياة الدنيا أعدادا قويا فيرسلون أولادهم إلى مدارس لغات . ويتحملون في ذلك مالا يطيقون . ثم يدفعونهم إلى الجامعات . أو إلى الدراسة في الخارج . هم في ذلك يعدونهم لمستقبل مضمون . وليس يقينا . لأن الإنسان يمكن أن يموت وهو شاب . فيضيع كل ما أنفقوه من أجله . ويمكن أن يحرف في آخر مراحل دراسته . فلا يحصل على شيء . ويمكن أن يتم هذا الأعداد كله ، ثم بعد ذلك يرتكب جريمة يقضى فيها بقية عمره في السجن . فيضيع عمره .

ولكن البقين الذي لا شك فيه هو أننا جميعا سنلاقي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . وسنحاسبها عن أعمالنا . ومع أن هذا يقين ، فإن كثيرا من الناس لا يلتفتون إليه . يسمون للمستقبل المظنون . ولا يحس واحد منهم بيقين الآخرة . فتجد قليلا من الآباء هم الذين يبذلون جهدا حثيثا على الصلوة وعبادة الله والأمانة وكل ما يقربهم إلى الله . انهم يسون النعم الخفي . ويحرون وراء الزائل فتكون النتيجة عليهم وبالا في الآخرة .



﴿ كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

كيف في اللغة للسؤال عن الحال . والحق سبحانه وتعالى أوردنا في هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام ، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما رواه الحق سبحانه وتعالى في آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السموات والأرض وخلق الناس .. أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها لو يخطئها .. فكيف بعد هذه الأدلة الواضحة تكفرون بالله ؟ .. كفركم لاحجة لكم فيه ولا متعلق .. والسؤال يكون مرة لتوبيخ .. كأن تقول لرجل كيف نسب أباك ؟ أو للتعجب من شيء قد فعله وما كان يجب أن يفعله .. وكلاهما متلاقيان . سواء كان القصد التوبيخ أو التعجب فان قصد واحد .. فهذا ما كان يجب ان يصح منك . ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بأدلة أخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يكذب بها . فيقول جل جلاله : « وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » .

وهكذا ينتقل الكلام الى اصل الحياة والموت . فبعد ان بين الحق سبحانه وتعالى .. ماذا يفعل الكافرون والفاسقون والمنافقون من افساد في الأرض وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل .. صعد الجبل الى حديث عن الحياة والموت . وقوله تعالى « كنتم أمواتا فأحياكم » قضية لا تحتل الجدل . ربما استطاعوا المجادلة في مسألة عدم اتباع المنهج ، أو قطع ما أمر الله به ان يوصل ..

وبكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها . فإلله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم .. ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .. وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للناس ان الذي خلقكم هو الله .. لم يستطيع أحد أن يكذبه ولن يستطيع .. ذلك أننا كنا فعلا غير موجودين في الدنيا .. والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجدنا واعطانا الحياة .

وقوله تعالى : « ثم يميتكم » . فإن أحدا لا يثبت في أنه سيموت .. الموت مقدر على الناس جميعا .. ولخلق من العلم وقع بالدليل .. والموت واقع بالحس والمشاهدة ..

إن قضية الموت هي سبيلنا لمواجهة أى ملحد .. فإن قالوا إن العقل كاف لإدارة الحياة .. وأنه لا يوجد شيء اسمه غيب .. تلك : الذى تحكم فى لخلق عباد ، هو الذى يتحكم فيه مرتا .. والحياة الدنيا هي مرحلة بين قوسين .. القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوحدا .. ونمضى رحلة الحياة الى القوس الثانى الذى نحمد فيه بشرتنا وتوقف حياتنا وهو الموت . أى أما فى رحلة الحياة من الله واليه ..

اذن فحركة الحياة الدنيا هي بداية من الله بالخلق ونهاية بالموت .

إنهم عندما تحدثوا عن اطفال الانابيب . وهي عملية لعلاج العقم أكثر من أى شيء آخر .. ولكنهم صوروها تصورا جاهليا . وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التى يكون المهنل عندها مسدودا أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعي . يأخذون هذه البويضة من رحم الأم .. ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج .. ثم يورعونها فى رحم الأم .

إنهم أخذوا من خلق الله وهي بويضة الأم والحيوان المنوى من الرجل .. وكل ما يفعلونه هو عملية التنقيح ومع ذلك يسمونه اطفال الانابيب .. كأن الابوية يمكن أن تخلق طعلا ؟! والحقيقة غير ذلك .. فبويضة الأم ، والحيوان المنوى للرجل هما من خلق الله .. وهم لم يخلقوا شيئا .. أننا نقول هم . اذا كنتم تعتقدون الموت والحياة فامنعوا انسانا واحدا أن يموت . بدلا من انعاق أبواب الجبهات فى معالجة عقم قد ينجح أو لا ينجح . ابقوا واحدا على قيد الحياة . ولن يستعينوا ..

إن الموت أمر حسي مشاهد . ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث العمياء أن الله سبحانه وتعالى قربها لك بشيء مشاهد . كيف ؟ عندما ينظر الانسان الى نفسه وهو حى .. لا يعرف كيف أحياء الله وكيف خلقه الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق فى القرآن الكريم فقال جل جلاله أن خلق الانسان من تراب ومن طين ومن ها منون ثم نفخ فيه من روحه ..

واقرا قول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة النجم)

وقوله تعالى :

﴿ وَبَعَثْنَا مِن نُّسْلِكِ مِنْ ظُلُمٍ ۖ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّائِمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الصافات)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّن حَمِإٍ مَّسْنُونٍ ۖ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعالى .

﴿ فَإِنَّا نَسُفُّهُ نَسْفَةً فَيَرْجِعُ فِي رُوحٍ فَيَقْعُ أَلَمًا مَّسْجُونٍ ۖ ﴾

(سورة ص)

فاحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة في الخلق لم نشهدها .. ولكن الموت شيء مشهود لنا جميعا .. ومادام مشهودا لنا ، يأتي الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التي لم نشهدها .. فالموت نقض للحياة .. والحياة أخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها .. ولكنها عيب لم نشهده ..

ولكن الذي خلق قال أنا خلقتك من تراب .. من طين .. من حمأ مسنون .. من صلصال كالفخار .. فلما وضع على تراب فأصبح طينا .. ولطوى تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا .. الصلصال .. جف فأصبح حمأ مسنونا ، ثم بحت في صورة اسنان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرا .. ثم يأتي الموت وهو نقض للحياة .. ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه ..

بناء العبارة يبدأ من أسفل إلى أعلى .. وهدمها يبدأ من أعلى إلى أسفل .. ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلة ما .. هي أول خطوة في طريق العودة .. فإذا كنت مسافرا إلى الاسكندرية .. فأول مكان في طريق العودة هو آخر مكان وصلت إليه ..

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه .. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالحمأ المسنون .. ثم يتعفن فيصبح كالصلصال .. ثم يتغير الماء الذي فيه فيعود ترابا .. وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة .. متفقا مع المراحل التي بيها لنا الحق سبحانه وتعالى ..

وقوله تعالى «ثم إليه ترجعون» .. أي أن الله تبارك وتعالى يحاسبكم ليحاسبكم .. لقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفة المادية أن ينكروا قضية البعث .. وهم في هذا لم يأتوا بجديد .. بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى .. وانفرا قوله تعالى عما يقوله أصحاب الجاهلية الأولى :

﴿ وَقَالُوا مَالُنَا إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَاتُنَا مَا يَمِيلُ كُنَّا إِلَّا كَلْهَفٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النحل)

وامية الكافر والسرف على نفسه .. الا يكون هناك بحث أو حساب .. والممن يتعجبون من ذلك نقول لهم : ان الله سبحانه وتعالى الذي أوجدكم من عدم

يستطيع أن يهديكم وقد كنتم موجودين .. يقول جل جلاله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٧ ﴾

(سورة الروم)

لإيجاد ما كان موجودا أسهل من الإيجاد من عدم هل غير مثال موجود .. والله سبحانه وتعالى يرد هل الكلام فيقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسِيَ خَلْقُهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٢٨ قُلْ يُحْيِيهَا
الَّذِي أَنتَ هَا أَوَّلَ حَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٢٩ ﴾

(سورة يس)

ومكذا فإن البحث أهون هل الله من بداية الخلق .. وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى في كتاب مبین .. وما أخذته الأرض من جسد الإنسان ترحه يوم القيامة .. ليعود من جديد

وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان .. واقرا قوله وتعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠ ﴾

(سورة غافر)

وقول الله سبحانه وتعالى : « ثم إليه ترجعون » .. هو التمام لمن آمن .. ومادنا إليه نرجع ومنه بدأنا .. فالخياة بدأتها من الله ونهايتها الى الله .. فلنجعلها هي نفسها لله .. ولا بد أن نلتم الى ابن الله تبارك وتعالى أخفى هنا الموت زمانا ومكانا وسببا وحمزا .. لم يخفه ليحبه .. وانما أخفاه حتى نتولعه في كل لحظة .. وهذا اعلام واسع بانوت حتى يسرع الناس الى العمل الصالح .. والى المثوبة. لأنه

لا يوجد عمر متيقن في الدنيا . فلا الصغير آمن هل عمره .. ولا الشاب آمن على عمره .. ولا الكهل آمن على عمره .. ولذلك يجب أن يسارع كل ما في الحيرات .. حتى لا يفتأجه الموت .. فيموت وهو عاص ..

ونلاحظ أن قصة الحياة جاء الله بها في آية واحدة والرجوع الى الله - وهو يقين بالنسبة للمؤمنين - يلزمهم بالمنهج ، فيعيشون من حلال . والتزلمهم هذا هو الذي يقودهم الى طريق الخنة . ويظلمتهم على اولادهم بعد أن يرحل الآباء من الدنيا .

فعمل الرجل الصالح ينعكس على أولاده من بعده . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْعِهِمْ قُرْبَةً ضَعُفًا خَفَرًا عَظِيمًا فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝﴾

(سورة الصه)

اذن فصاحب الالتزام بالمنهج ، يطمئن الى لقاء ربه ويطمئن الى جزائه ، والذي لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيه لا ينفع . ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً الا الحساب والنار .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْمُهَا الزَّلْطَانُ مَا؟ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَئِيمُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ هَوَئَهُمْ يَحْسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾

(سورة النور)

أى أن الكافر سيفاجأ في الآخرة بالله الذي لم يكن في باله انه سيحاسبه على ما فعل .. وقوله تعالى « واليه ترجعون » تقرأ قراءتان . بقصة على التاء . ومرة بقصة على التاء . الاولى معناها . أننا نخبّر على الرجوع . فلا يكون الرجوع الى الله تعالى بإرادتنا ، وهذا ينطبق على الكفار الذين ينصون على الرجوع الى الله . أما الثانية « ترجعون » فهذه فيها ارادة . وهي تنطبق على المؤمنين لأنهم يتمنون الرجوع الى الله .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ
إِلَ السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

بذكرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه هو الذي خلق ما في الأرض جميعا .
وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : « فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه
ترجعون » لتلفتنا الى أن ما في الأرض كله ملك لله جل جلاله ، وأنا لا نملك شيئا
الاملكية مؤقته . وأن ما لنا في الدنيا سيصير لغيرنا . وهكذا .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الحياة وقال « كنتم أمواتا فأحياكم » كأن الحياة
تحتاج الى امداد من الخالق للمخلوق حتى يمكن أن تستمر . فلا بد لكي تستمر الحياة
أن يستمر الامداد بالنعم . ولكن النعم تظل طوال فترة الحياة ، وعند الموت تنتهي
علاقة الانسان بنعم الدنيا . ولذلك لا بد أن يتببه الانسان الى أن الأشياء مسخرة له
في الدنيا لتخلعه . وأن هذا التسخير ليس بقدرات أحد . ولكن بقدرة الله سبحانه
وتعالى . والانسان لا يدري كيف تم الخلق . ولا ما هي مراحله الا أن يخبرنا الله
سبحانه وتعالى بها . فهو جل جلاله يقول :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ
عَصْدًا ﴿٣٠﴾﴾

(سورة الكهف)

وبلادهموا لم يشهدوا خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فلا بد أن نأخذ
ذلك عن الله ما ينبتنا به الله عن خلق السموات والأرض وعن خلقنا هو حقيقة
وما يأتيها عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف . ونحن الآن نجد بحوثا

كثيرة من كمية السموات والأرض وخلق الانسان . وكلها لي تصل الى حقيقة . بل
 سئل نظريات بلا دليل . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وما كنت متخذ
 المضلين عضدا » أى ان هناك من سيأتى ويضل . ويقول هكذا ثم خلق السموات
 والأرض ، وهكذا خلق الانسان . هؤلاء الضلون الذين جاءوا بأشياء هي من علم
 الله وحده . جاءوا تثبيتا لمنهج الايمان . فلم يأت هؤلاء المضلون ، ولو لم يقولوا
 خلقت الأرض بطريقة كذا واسماء بطريقة كذا . لقننا ان الله تعالى قد اخبرنا في
 كتابه العزيز ان هناك من سيأتى ويضل في خلق الكون وخلق الانسان ولكن كوسم
 اتوا . فهذا دليل على صدق القرآن الذى أنبأنا بحجبتهم قبل أن يأتوا بقرون .

والاستعانة من الشيء لا تقتضى معرفه أسراره . . فنحن مثلا مستخدم الكهرباء
 مع أننا لا نعرف ما هي ؟ وكذلك نعيش على الأرض ونستفيد بكل ظواهرها وكل
 ما سخره الله لنا . وعدم علمنا بسر اخلق والابجاد لا يحرماننا هذه الفائدة . فهو يعلم
 لا ينفع وجهل لا يضر . والكون مسخر لخدمة الانسان . والتسخير مفناه التذلل
 ولا تتمرد ظواهر الكون على الانسان . وذا كانت هناك ظواهر الكون تتمرد بقدر
 الله مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية . نقول ان ذلك يحدث لعلنا
 الحق سبحانه وتعالى الى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاتنا . ولا يسيطرنا عليه ،
 وانما يخدمنا بأمر الله له ، والا لو كانت المخلوقات تخدمك بدالك فافتر عليها
 حينها تتمرد على خدمتك . وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله . حتى
 الاسباب والسببات خاضعة ايض لطلاقة القدرة الالهية . فالاسباب والسيات في
 الكون لا تخرج عن ارادة الله

لذلك اذا تمرد الماء بالطوفان . وتمردت الرياح بالعاصفة . وتمردت الأرض
 بالزلازل والبراكين . فما ذلك الا ليعرف الانسان أنه ليس بقدرته ان يسيطر على
 الكون الذى يعيش فيه . وقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ آيَاتُنَا فَنُفِثَ فِيهِمْ مَّا مَلَكَوْنَ ۖ وَذَلَّلْنَاهَا
 لَهُمْ فَمِنْهُمْ رَجُومٌ وَمِمَّا يَأْكُلُونَ ۖ ﴾

والإنسان عاجز عن أن يخضع حيوانا إلا بتدليل الله له . . ومن العجيب ان ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الإنسان في الكون . فهي تفهم بالبرلزال قبل أن يقع وتخرج من مكان البرلزال هاربة بينما الإنسان لا يستطيع بعينه أن يفهم ما سيحدث .

والحق سبحانه وتعالى في قوله : «خلق لكم ما في الأرض جميعا» يستوعب كل أجناس الأرض . ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع أن يوجد شئ إلا من موجود أي أن الإنسان لم يتحدث شيئا في الكون . فأنت اذا أهدت حبة القمح . من أين جئت بها ؟ من محصول العام الماضي . و محصول العام ماضى . من أين جاء ؟ من محصول العام الذى قبله . وهكذا يظل تسلسل الأشياء حتى نصل الى حبة القمح الأولى . من أين جاءت ؟ جاءت بالخلق المباشر من الله . وكذلك كل ثمار الأرض اذا أعدتها لثمرة الأولى فهي بالخلق المباشر من الله سبحانه وتعالى . فادأ حاول أن تصل الى أصل وجود الإنسان . مستجدا بالخلق والعقل . . أن بداية الخلق هي من ذكر وأنى . خدع بالخلق المباشر من الله . لأنك أنت من أبك وأبوك من جدك و جدك من ابيه . وهكذا لمضى حتى نصل الى خلق الإنسان الأول . فنجد انه لا بد أن يكون خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . وما ينطبق على الإنسان ينطبق على الحيوان وعلى النبات وعلى الحمار . فكل شئ اذا رددته لأصله نجد أنه لا بد أن يبدأ بخلق مباشر من الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل عن الرقى والحصارة وهذه الاختراعات الحديثة . أليس للإنسان فيها خلق ؟ . نقول فيها خلق من مرحود . والله سبحانه وبعلى كشف من علمه لنشر ما يستطيعون باستخدام المواد التى خلقها الله فى الأرض أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة . ولكننا لم نجد ولم نسمع عن انسان خلق مادة من عدم

الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل ما فى هذا الكون من عدم . ثم بعد ذلك تكاثرت المخلوقات بقوانين سحرها الله سبحانه وتعالى ها . ولكن كل هذا التطور راجع الى أن الله خلق المخلوقات وأعطاها خاصية التناسل والتزاوج لتستمر الحياة جيلا بعد جيل . وكل خلق الله الذى تراه فى الكون الآن قد وضعه الله سبحانه وتعالى فيه من قوانين الأسباب ما يعطيه استمرارية الحياة من جيل الى جيل حتى ينتهى لكون . فادأ قال لك اسباب : أن أروع مذكائى وعلمى . فقل له . أنت تانى

بالبنوة التي خلقها الله . وتضعها في الأرض المحلوة لله . وينزل الله سبحانه وتعالى الماء عليها من السماء . وتنتبت بقدرة الله الذي وضع فيها غذاءها وطريقة انباتها . اذن فكل ما يحدث أنك تحرث الأرض . وترمي البذرة . يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٤﴾ أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُمْ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَرْزُقُهُمْ ﴾

(سورة النحل)

صحيح أن الانسان يقوم بحرث الأرض ورمي البذرة . وربما تعهد لزرع بالعناية والرى . ولكن ليس في كل ما يفعله مهمة خلق . بل ان الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . ولو كنت تزرع بقوتك فأت ببذرة من غير خلق الله . وأرض لم يخلقها الله . وماء لم ينزله الله من السماء . وطبعاً لن تستطيع . . ولكن ما هو مصدر الأشياء التي استحدثت ؟

يقول إن هناك فرقا بين وجود الشيء بالقوة . وجوده بالفعل . . فالسحلة مثلاً حبة كانت موجودة بالقوة . كانت نواة . ثم زرعت فأصبحت موجودة بالفعل . وأنت لا عمل لك في الحالتين فلا أنت بقوتك خلقت النواة . التي هي البذرة . ولا أنت بملك جعلت النواة تكبر . لتصبح نحلة بالفعل . على أن هناك أشياء مطمورة في الكون . خلقها الله سبحانه وتعالى مع بداية الخلق . ثم تركها مطمورة في الكون . حتى كشفها الله لمن يبحث عن أسرارهِ في كونه .

وكل كشف له ميلاد . اذا أخذنا مثلاً ما تحت الثرى . أو الكنوز الموجودة تحت سطح الأرض . لقد ظلت مطمورة حتى هدى الله الانسان اليها . وعلمه كيف يستخرجها . فالانسان لم يخترع مثلاً أو يوجد البترول أو المعادن . ولكنها كلها كانت مطمورة في الكون حتى جاء الوقت الذي يجب أن تؤدي فيه دورها في الحياة . فلذلك الحق عليها . فليس معنى أن الشيء كان غائبا عنه أنه لم يكن موجودا . أو أنه وحده لحظة اكتشافنا له . فالشيء الحادث لأن ، والشيء الذي سيحدث بعد سواب . خلق الله سبحانه وتعالى كل عناصره . وأودعها في لأرض لحظة الخلق . والانسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر . ولكنه لا يستطيع خلقها أو ايجادها . والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم استوى إلى السماء »

حينما يقول الله جل جلاله استوى . . يجب ان نفهم كل شيء متعلق بذات الله على أنه سبحانه ليس كمثله شيء . فانه استوى والمثلوك تستوى على عروشها . وانت تستوى على كرسبك . ولكن لأسا محكومون بقضية « ليس كمثله شيء » لا بد أن نعرف أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء والله حي . وانت حي . هل حياتك كحياته ؟ والله سبحانه وتعالى يعلم وانت تعلم . هل علمك كعلمه ؟ والله سبحانه وتعالى يقدر . وانت تقدر . هل قدرتك كقدرته . طبعاً لا . فعندما تأتى الى « استوى » فلا تحاول أن تفهمها ابداً بالمفهوم البشرى . . فانه سبحانه وتعالى يعلم ما فى الارض وما فى السماء وهو سبحانه يعلم المكان بكل ذواته والموجودين فى هذا المكان او المكين . بكل ذواته . وانت تعرف ظاهر الامر . والله سبحانه وتعالى يعلم غيب السموات والارض حق يوم القيامة . وبعد يوم القيامة ادن فهو جل جلاله . ليس كمثله شيء . ولا يمكن أن تحيط أنت بعقلك بفعل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى . فمفكك فاصر . من أن يدرك ذلك . كذلك قل سبحانه الله . ليس كمثله شيء فى كل فعل يتصل بذات الله . « استوى الى السماء » هذا الكلام هو كلام الله . فالتحدث هو الله عز وجل .

بعض الناس يقولون تلقينا القرآن وحفظناه . نقول لهم ان الذى حفظ القرآن هو الله سبحانه وتعالى . ومادام قد حفظ كلامه فهو جل جلاله يعلم أن الوجود كله لن يتعارض مع القرآن الكريم . والله سبحانه وتعالى حفظ القرآن ليكون حجة له على الناس . ومادام الله جل جلاله هو الخالق . وهو القائل . فلا توجد حقيقة فى الكون كله تتصادم مع القرآن الكريم . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهذا من عظمة الله ان حفظ كلامه ليكون حجة على الناس والله سبحانه وتعالى وجدت صفاته قبل أن توجد متعلقات هذه الصفات . فهو جل جلاله . خلق لأنه خالق . كان صفة الخلق وجدت أولاً . والا كيف خلق أول خلقه . ان لم يكن سبحانه وتعالى خالقاً ؟

والله سبحانه وتعالى رزاق . قبل أن يوجد من يرزقه . والا فأنى قدرة رزق الله

أول خلقه ؟ والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صناعته . وشهد أنه لا اله الا هو قبل أن يشهد أي من خلقه أنه لا اله الا الله . واقرأ قوله تعالى .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنَّكَ مُكَلَّمٌ وَأَنَّكَ عَلَىٰ سِدْرٍ مَّجِيدٍ ۖ وَشَهِدَ بِمَا كُنتَ تَكْفُرُ ۚ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

قاله سبحانه وتعالى شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يوجد أحد من خلقه يشهد بوحداية الوهينه . شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يخلق الملائكة . يشهدوا شهادة مشهد بأنه لا اله الا الله . وأولو اعلم شهادة علم . فكان شهادة ادات للذات . في قوله تعالى « شهد الله أنه لا اله الا هو » هي التي يعتد بها ، وهي أقوى لشهاداته ، فانه ليس محتاجا من خلقه إلى امتداد الشهادة .

الله سبحانه وتعالى بعد أن خلق الأرض وخلق السماء واستب له الأمر . قال « وهو بكل شيء عليم » أي لا تعيب درة من ملكه من علمه . فهو عليم بكل ذرات الأرض وكل ذرات الكس . وكل ذرات الكون . والكون كله لا يعمل الا بأمره ومراحه . واقرأ قوله تعالى .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَّوْدٍ فَتَكُنْ فِي صَفَرَةٍ أَوْ يَوْمِ الْغَوَاثِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ ١٦ ﴾

(سورة الحديد)



﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٥﴾

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه خلق جميع ما في الكون أراد أن يخبرنا
عن خلقه لعبارة هذا الكون . فكان القصة التي بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص
القرآن كانت هي قصة آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة في القرآن
الكريم كثيرا بتلك مادا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة ؟ وجاءت بتلك أيضا
على صدق البلاغ عن الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۖ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

كلغة الحق التي جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا ولكن بعرض حق . وله
سبحانه وتعالى أراد أن يشرح قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس أو
قصص التزيين لإمكان محاليتها الواقع وبأن بعرض حق . وهناك قصص تروي في
الدنيا ولا واقع لها بل هي من قبيل الخيال

وكلمة قصة مأخوذة من قص الأثر . بمعنى أن يتبع قصاص الأثر في الصحراء
الأثر التي يتبعها هي الرمال حتى يصل إلى مراده . عندما يصل إلى نهاية الأثر .
ومادام قد عرفنا أن الله يقص الحق يعرف أن قصص القرآن الكريم كلها
أحداث وقعت فعلا . ولكل قصة في القرآن عبرة أو شيء مهم يريد الحق سبحانه
وتعالى أن يلفت إليه فمرة تكون القصة تثبيت لنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت

المؤمنين وانرا قوله تعالى :

﴿ وَكَلَّا نَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِمْ قَوْلَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكل قصة تشتمل مؤاد الرسول والمؤمنين في المواقف التي تروى لهم فيها الأحداث وقصص القرآن ليست لقتل الوقت . ولكن المهدف الاساسي للقصة هو تثبيت ومع حركة الحياة الایمانية ولو نظرا إلى قصص القرآن الكريم نجد انها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخا والتاريخ يربط الأحداث بأزمانها وقد يكون التواريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يمر من وجهة نظر راويه . فكل قصص التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك القصة الواحدة تختلف باختلاف الراوي .

ولكن قصص القرآن الكريم . هو القصص الحق . والعبرة في قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا أحداثا في التاريخ تتكرر على مر الزمن . فمروء مثلا هو كل حاكم يريد أن يقبذ في الأرض وأهل الكهف مثلا هي قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله وقصة يوسف عليه السلام هي قصة كل اخوة فرغ الشيطان بينهم فجعلهم يمتدون على بعضهم . وقصة نبي العرین هي قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله مسحاته الأسباب في الدنيا ومكنه في الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضى الله . وقصة صالح هي قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله فحققها لهم فكفروا بها . وقصة شعيب عليه السلام هي قصة كل قوم سرقوا في اميزان والمكيال

وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر في كل زمان حتى في الوقت الذي نعيش فيه نجد فيه أكثر من مروع . وأكثر من أهل كهف يعمون بديتهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . . وبحسب أنه استغنى عن الله وبذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مجهزة الا قصة واحدة هي قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا ؟ لأن معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعى أي امرأة انها حملت

بدون رجل . مثل مريم . يقول . لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حددنا الله تعالى بالاسم . فقال : عيسى بن مريم . ومريم ابنة عمران . . . اما باقى قصص القرآن الكريم فقد جاءت مبهلة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى . ولا من هم أهل الكهف ولا من هو ذو القرنين ولا من هو صاحب الجنتين . الى آخر ما جاء في القرآن الكريم . لأنه ليس المقصود بهذه القصص شحها بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين . . . الخ يقول لهم لن نصلوا الى شيء لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص . نعرف أنه ليس المقصود شحها بعينه . ولكن المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص في القرآن لا تزد مكررة . وقد يأتي بعض منها في آيات . وبعضها في آيات أخرى . ولكن اللفظة مختلفة . تعطينا في كل آية معلومة جديدة . بحيث أنك اذا جمعت كل الآيات التي ذكرت في القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا

وأكبر القصص في القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام . وذكرونا القرآن الكريم بها دائما لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر في التاريخ . وفي كل مناسبة يذكرنا الله بلفظة من حياة هؤلاء . وقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَرْحَمَنَا إِلَّا أَنْعَ مُوسَى أَنْ نُرْضِعَهُ فَإِذَا خَشِيَ عَلَيْهِ خَالِقُهُ فِي الْيَمِّ وَلَا يُخَفِّي وَلَا يُخَفِّئُ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَّاهُوهُ مِنْ أَمْرِ تَرْسِينَ ﴾

(الآية ٧ سورة القصص)

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ (٢٨) أَنْ اقْنِصِي فِي التُّبُوتِ فَاقْنِصِي فِي التَّيِّبِ فَلَبِقْنِي الْيَمِّ بِالسَّحْلِ يَأْخُذُهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ ﴾

(الأجنان ٢٨ ، ٢٩ سورة طه)

والمهم السطحي بظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقوله تعالى : « وأوحيا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألفيه في اليم »

هذه اللفظة تدل على أن الله سبحانه وتعالى بعد أم موسى اعداد إيمانها للحدث ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط مربع « أن أقذفه في التابوت » فأقذفه في اليم فليطفه اليم بالساحل . . كلام يناسب لحظة ونوع الحدث . . فالآية الأولى . . بيت لنا أن أم موسى أرضعته قل أن تضعه في التابوت . وأنها ستلقيه في اليم عندما يحدث خطر ونحاف عليه من القتل وفيه تطمين لها . الا تخاف ولا تحزن لأن الله سبحانه وبها بشارتان أن الله سيرده لأمه وأن الله قد اختاره رسولا .

نأتي إلى الآية الثانية التي تكمل لنا هذه اللفظة فنقول « أقذفه في التابوت » هنا نعرف أن أم موسى ستلقيه في تابوت ، وهو ما لم يذكر في الآية لسابقه . ثم بعد ذلك يعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره إلى الماء أن يلقي التابوت إلى الساحل . وهذا ما لم يرد في الآية السابقة . ونعرف أيضا أن الذي سيأخذه وهو فرعون . سيكون بينهما عداوة متبادلة . . وهكذا نرى أن أبقى القصة . يكمل بعضها بعضا ، وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى في الآية الثانية يريد أن يثبت أنه سيكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون . كما أثبت عداوة فرعون له جل جلاله ولموسى ، فقال « عدو لي وعدو له » ولكن العداوة لا تستقر إلا إذا كانت متبادلة . فتأتي به ناكه لتكمل الصورة . في قوله تعالى :

﴿ فَالتَقَطَهُوَأَنَّعِرْعُونَلَيَكُونَهُمُعدُوًاوَسَرْنَا

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهكذا يثبت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى مستمرة حتى يقضي على فرعون . لأنه إذا كان انسان عدوا لك . وانت تقابل العداوة بالاحسان تحمد لعداوة بعد قليل . إذن هذه الآيات ليست تكرار ولكن آيات تكمل القصة . وتعطي الصورة الكاملة المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأتي قصة موسى متكاملة كقصة يوسف ؟ لأن الله سبحانه وتعالى

يريد أن يثبت بها نبينا عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فتأتي بها لقطة وحيدة لعلة لتؤدي ما هو مطلوب من التثبيت بما لا يحل لأن آيات تعطيل القصة متكيفة وهكذا قصة آدم جاءت لنا في آيات متعلقة ، لتعطيلها في مجموعها قصة كاملة في ثوبت نفسه كل آية لها حكمه يحتاج إليها التوفيق الذي نزلت فيه والله سبحانه وتعالى يروي لنا بداية الخلق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كنتم بنو آدم وادم حقيق من قرأه » (٦)

ولحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا كيف بدأ الخلق وقصة عداوة إبليس لأدم
وقدريته . فتكلم الله سبحانه وتعالى عن أول بشر عرفنا اسمه . وهو آدم عليه
السلام . وتكلم عن المادة التي خلق منها . وتكلم عن المسيح الذي وضعه لأدم
وحدثنا عن النقاش الذي دار مع الملائكة . كما أخبرنا ما دام سيكون حبيسة في
الأرض . وأنه علمه الأسماء كلها ليفقد حركة حياته . وعلمنا سطق علم الأشياء .
وعلم مسيحياتها . وحدثنا عن اخوار الذي حدث بين إبليس وأمام ربه حينما أبى
السجود . وبين لأحمة إبليس في الامتناع عن السجود ، وحطة إبليس ومدحه إلى
قلوب المؤمنين بالاعواء والوسوسة وغير ذلك .

اذن فهناك اشياء كثيرة تعرض لها قصة آدم ، ولربما بشرى يريد ان يوضح لآدم ما استطاع ان يأتي بكل هذه البقعات . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل كل لقطة نأق للنشيت

ولآية الكريمة: «فمَنْ يَصُدُّهُمَا لَمْ تَأْتِ فِي الْأَعْرَافِ وَلَا فِي الْأَشْرَافِ وَلَا فِي الْكُهْفِ وَلَا فِي ظُلَمٍ» وهذا يعرف أنه ليس هناك تكرار . فآيته سبحانه وتعالى أخبر ملائكته أنه جاء في الأرض حليفة . ها لا بد لنا من وقفة . أحق آدم كفر أم تخلفه الله وكل درسته مطمونة معه إلى يوم القيمة ، إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُنِيتَ بِأَلْمَلِكِ أَتَعْبُدُونَ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

(١) وراء البرار من حديقة ياسناد خم.

الخطاب هنا للجميع . لأدم ودريته . فكانه سبحانه وتعالى يشير الى أن الأصل الأول للمخلوق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من دريته أن أن يقوم الساعة وراثته أي أنه ساعة خلق آدم . كان فيه الدراب لى سبحانه منها المخلوق كله . هذا من هذا . حتى قيام الساعة

ولقد قلت إن كل واحد ما به درة أو حرة من آدم ، فلولاد آدم أحدو منه وخليل لى بعدهم أخذ من الميكروب الحى الذى أودعه آدم فى أولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضا من الحرة الذى خلق فى الأصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لابد أن تكون حلقة متصلة . كل ما يأخذ من الذى قبله ويعطى الذى بعده . ولو كان هناك حلقة مفترقة لتوقفت الحياة . كان يموت الرجل قبل أن يتزوج فلا تكون له درية من بعده . تتوقف حلقة الحياة فتكون حلقة حياة مستمرة . قليل لها حية متصلة لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم الى يوم هذا متصلة . فلا بد أن يكون فى كل ما درة من آدم الذى هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت بعدة الحياة فى حلقات متصلة الى يومنا هذا وتستطلى الى يوم القيمة

فإن الآن حى لاسى نشأ من ميكروب حى من أب . وابن أخذ حياته من ميكروب حى من أبيه . وهكذا حتى تصل الى آدم ، ابن فأنب مخلوق من جريه حى فيه الحياة لم تتوقف منذ آدم الى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود . إذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بآدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضا موصولة بآدم أول المخلوق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لأدم . فإنهم سجدوا لأدم ولدريته الى أن تقوم الساعة . ودريته آدم كانت مطمورة فى ظهره . وشهدت المخلوق الأول . إذن فعول الحق سبحانه وتعالى : « لقد خلقناكم ثم صورناكم » فيه جزئية جديدة لفصحة المخلوق

وقوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة : أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول له عند خلق آدم . خلقه خليفة فى الارض . والكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا فى المخلوق . بدليل

انه قال « ان جعل » إذن فهو أمر مفروغ منه . ويكنه اعلام للملائكة . . والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة . فهناك المديبات أمرا . والحفظة الكرام . وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى مهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فكان الاعلام . لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . ان حياة الانسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا ؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من ؟ قد يختلف بعضه بعضا في هذه الحالة يكون لها اعلام من الله بأن كل انسان سيموت ويحلله غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الانسان خليفة لجس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى . نفى أن يختلف الانسان جنسا آخر . واقرأ قوله جل جلاله .

﴿ إِنْ يَنْتَهِبْكُمْ وَيَتَذَكَّرْ يُخْلِقْ جَدِيدًا ۖ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة التوبة)

والخلق الجديد هو من نوع المخلوق نفسه الذي أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلقون بعضهم الى يوم القيامة . . فيقول جل جلاله :

﴿ نَخْلَقُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يُلْقَوْنَ فِيهَا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة مريم)

ولكن هذا يطلق عليه خلف . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب النير يماش في اكناهم

وبقيت في خلف كجلد الأجر

ويكن الله جعل الملائكة يسجدون لأدم ساعة المخلوق وجعل الكون مسجرا له

فكانه خليفة الله في أرضه . أمده بمطاء الأسباب . مخضع الكون له بإرادة الله وليس بإرادة الإنسان . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي : « يا بن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . وإلا تفص ملأت يدك شغلا ولم أسد فقرك » (١)

اذن كلمة خليفة تأخذ عدة معان ..
ماذا قالت الملائكة : « قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفث الدماء ونحن سبح بحمدهك ونقدس لك » .

كيف عرف الملائكة ذلك ؟ لابد أن هناك حالة قبلها قسوا عليها . أو أنهم ظنوا أن آدم سيطعي في الأرض . ولكن كلمة سمك وكلمة دم كيف عرفتاهما الملائكة وهي لم تحدث بعد ؟ لابد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَالْإِنسَانُ خَلَقَنَّهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴾ (٢)

(سورة الحجر)

فكان الحي قد خلق قبل الإنسان . وقوله تعالى : « إن أعلم ما لا تعلمون » معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لخلوقيتك أما علم الله سبحانه وتعالى .. فهو أرى لاسمائي ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم ذلك علنا أم أسروه في أنفسهم ؟ سواء قالوه أم أسروه فقد علمه الله . لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون . وأنه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخفى من السر ؟ السر هو ما أسرته الى غيرك فما أسر به الى غيري . فهو السر وما أخفيه في صدري ولا يطلع عليه أحد هو أخفى من السر . فلا يقال أسرت الا اذا بحث به لغيري أما ما أخفيه في صدري . فلا يعلمه أحد الا الله . فهذا هو ما أخفى من السر

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « إن أعلم ما لا تعلمون » أراد أن يعطي القصص بعد ما الحقيقى وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة . « ونحن نسبح

بِحَمْدِكَ وَقُدُّوسٌ لَكَ .

والتسبيح هو التزبده عما لا يليق بذات المتزبه . والتقديس هو التطهير . . مأخوذ من القُدُس وهو الدلو الذي كانوا يطهرون به . ولذلك نحن نقول سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ . أي مُطَهَّرٌ . . التسبيح يحتاج الى مُسْتَحٍ . والى ما فيسيحه . والملائكة قالوا : « سُبُّوحٌ لَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا »

وهذا تسبيح وتزبده لله سبحانه وتعالى . . والتسبيح والتزبده لا يكونان إلا للكمال للخلق الذي لا تشوبه أية شائبة . والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله الاله الالهة خليفه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لعبده الله تعالى . فلا تسمع في حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك . وهكذا صرفت الالهة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : « ونحن نسبح بحمديك ونقدس لك » كأن نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تزيده لله سبحانه وتعالى في ذاته . . فلا تشبهه بذات . وفي صفاته . فلا تشبهه بصغبات وفي أفعاله . فلا تشبهه بأفعاله ولكن ما معنى كلمة وبحمده ؟ معناها أننا نترحمك وبحمدك . أي يارب تزيينا لك نعمة . ولذلك فاني أحمدك على أنك أعطيتني القدرة لأترحمك . . والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأعيان . ولأنك يارب قدوس طاهر . لا يليق أن يرمع لربك إلا طاهر . ولا يليق أن يصدر عن يديك إلا طاهر . .

إنه عرفنا معنى تسبيح بحمديك وتقديس لك . ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : « اني أعلم ما لا تعلمون » ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه ألقى بالقضية التي تؤكد صدق الواقع . .



﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾

فالمخلوق سبحانه وتعالى . ود على الملائكة هذه الآية الكريمة . لانه علم آدم الاسماء كلها . . وكلمة كلها تعيد الاحاطة . ومعنى الاحاطة معرفة كل شيء عن هذه الاسماء .

هنا يتبادر سؤال . هل حَسَمَ الله سبحانه وتعالى آدم الاسماء منذ ساعة الخلق الى قيام الساعة مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها . فما هو حكم تلك الاسماء التي هي لمخترعات ستأتي بعد خلق آدم بقرون طويلة ؟

نقول ان الله سبحانه وتعالى حين علم آدم الاسماء وميزه على الملائكة يكون قد اعطى ذلك الأدنى عنصراً مميّزاً عن المخلوق من عنصر أعلى فأدم مخوف من طين . والملائكة مخلوقون من نور . وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطي الأدنى شيئاً أكثر من الأعلى . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعطي ذلك ليذكرنا أن ما نأمله ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه . ولذلك نجد سليمان وهو ملك وسى . أعطاه الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده . وميزه عن خلقه . يأتي الهدد ليقول لسليمان . واحطت بما لم تحيط به وجيتك من سبأ نبأ يقين .

كيف يحيط الهدد وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحيط به سليمان وهو الملك النبي الذي حكم الانس والجن ؟ لأن الله سبحانه وتعالى .. يكره العزور من خلقه . ولذلك يأتي أية تميز الأدنى عن الأعلى ليعلموا جميعاً أن كل قدراتهم ليست بذاتهم . وانما هي من الله . يأتي موسى وهو الرسل والنبي . فيتعلم من الخضر وهو العبد الصالح . ما لم يكن يعلمه .

وقد خلق الله سبحانه السميات وإن كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تنطق
 لأسماء هذه السميات من آدم . وإن البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم
 لآدم عليه السلام . وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق . لأن الخالق يعلم
 المخلوق . يقذف في قلب آدم أسماء السميات كلها لكل ما في الكون من أسماء
 المخلوقات ..

أذن فالشاهد الأول لآدم مع الملائكة . كان قد تم إيجاد كل السميات وأسمائها
 لله لآدم . طهيل أن الملائكة لم تتعرف على هذه السميات . بينما عرفها آدم .
 وهنا لابد لنا من وقفة . أن الكلام هو ناتج السمع . واللغة ناتج البينة ، والله
 سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . وهذا العلم لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان آدم قد
 سمع من الله سبحانه وتعالى .. ثم نطق . فأتت إذا أثبت بطفل عربي . وبركته في
 لندن مثلاً . فترى يتكلم الانجليزية بطلاقة . ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة
 العربية . والعكس صحيح . إذا أثبت بطفل انجليزي . وتركته في بلد عربي .
 يتكلم العربية .. ولا يعلم شيئاً عن الانجليزية . إذن فاللغة ليست وراثية ولا جنسية
 ولا بيئية . ولكنها محاكاة يسمعها الانسان فينطق بها . وإذا لم يسمع الانسان شيئاً وكان
 أصم فإنه لا يستطيع النطق بحرف واحد . فإذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء .
 فلا بد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى ..

والمعجب أن الطريقة التي علم الله سبحانه وتعالى آدم بها . هي الطريقة نفسها
 التي تتبعها البشرية إلى يومنا هذا . فأتت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال .
 ولكن لابد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والسميات . تقول له : هذا كوب . وهذا جبل
 وهذا بحر . وهذه شمس . وهذا قمر . وبعد أن يتعلم السميات . يستطيع أن
 يعرف الأفعال . ويتقدم في التعليم بعد ذلك ..

وهكذا نتعرف على النشأة الأولى للكلام . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى
 علمت آدم الأسماء .

وهنا نتوقف لسجوب عن سؤالين : الأول : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم
 آدم الأسماء كلها . فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات في العالم ؟
 نقول : إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التي يحتاج إليها في أولويات الوجود

ويستخدمها في متطلبات حياته على الأرض . فإذا حد جديد ، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المخلوقات والأسماء التي تعلموها . فما يجد في الوجود من أسماء تدخل على اللغة لم تكن من فراغ . وإنما جاءت من اللغة التي ينطق بها وتكتب بها .

كذلك كل شيء في هذا الكون . لو أعدده الآن إلى أصله نجد أن أصله من الله . ولو أعدت البشرية إلى أصلها لوجد أن أصلها إلى أن الإنسان الأول خلقه الله سبحانه وتعالى . ولو أعدت لعلم إلى أصله . وكل علم يحتاج إلى معلم . يقول لك من الذي علم المعلم الأول . ليس من البداية أن اعلم بدأ يعلم علمه الله سبحانه وتعالى . وكان هذا هو المعلم الأول . إذن فالذي علم الأسماء لأدم هو الله سبحانه وتعالى . وهو علمها لأولاده . وأولاده علموها لأولادهم وهكذا . .

يأتى السؤال الثانى إذا كان الله هو المعلم للكلام فلماذا اختلفت اللغات على الأرض وأصبح هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟

نقول ان تنوع فترات التاريخ وانتشار لسان على الأرض جعل كل مجموعة من البشر تفترت من بعضها لتكون له لغة واحدة . وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة . فالعربية والانجليزية والاطالنية مأخوذة من اللاتينية والعبرية والسريانية لها علاقة باللغة العربية . واللهجات التي يتكلم بها العالم العربى صاحب اللهجة الواحدة ، تختلف . . حتى أن لهجة الحرائر أو المغرب مثلا تختلف عن اللهجة المصرية أو السودانية . ولكن إذا تكلمنا باللغة العربية فهم بعضها بعضا ، بعد هؤلاء جميعا في الأصل هي لغة القراى . وهي العربية . ولكن في فترات الزمان انما يحى اندى مر على العرب انعزلت البلاد العربية بعضها عن بعض ومضى كل مجتمع يأخذ اللغة كمظهر اجتماعى فيسطو التعاضد بين اللهجات المختلفة

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم : انبشروا بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ؟ أى أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم في العلم . وأعطاه علما لم يعطه للملائكة . ثم جعل آدم هو الذى يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها . وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . يفعل

ما يشاء في كونه . وكما قلنا ان تمييز الأدنى عن الأعلى . لا يتم الا بمعل الله وحده .

وكي نقرب هذا الى العقول : هب ان انسانا ضعيفا يريد ان يحمل حلا ثقيل . لا يقدر . وادا كان هناك انسان قوى يعيه فانه لا يستطيع ان يعطيه من قوته ليحمل هذا الحمل . ولكن يعيه بان يحمل عنه . أما الذي يستطيع ان يجعل هذا الضعيف قويا بمكنه ان يجعل هذا الحمل الثقيل فهو الله سبحانه وتعالى . فالانسان لا يستطيع ان يعطي انسانا اخر من قوته . ولكن الله وحده هو القادر على ان يجعل الضعيف قويا وانقوى ضعيفا .

وقوله تعالى . « ان كنتم صادقين » وهل يكذب الملائكة ؟ ان الملائكة خلق من نور سبحانه الله . ويفعلون ما يؤمرون . نقول ان قوله تعالى « ان كنتم صادقين » فيما كنتم عنه الأحداث . أو فيما كنتموه ضربا بالغيث .

ولو ان الملائكة قاسوا حكمهم على حكم جس آخر كان في الارض كالحل مثلا الذين حلوا من الانسان . يقول الحق تعالى انكم أخطأتم في قياسكم هذا أو ان كنتم صادقين فيما تنسأتم به من عيب . فلا يعلم الغيب الا الله تعالى فالقياسات حاسها التوفيق .

وليس هذا مما في الملائكة . وبكيفية تصحيح فهم وتعريف له بان الملائكة لا يعلمون الغيب . ولذلك فهم حينما قاسوا أو حكموا على غيب جاسهم استوفوا . لأن الله وحده هو علام الغيوب . والذي دفع الملائكة الى ان يقولوا أو يظنوا هذا الكلام هو حبهم الشديد لله تعالى . وكراهيتهم لإفساد في كونه



﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾

هذه الآية الكريمة . توضح لنا ان الله سبحانه وتعالى هو المعلم الأول في الكون . ودا كان لكل علم معلم . فإن المعلم الأول لا بد ان يكون هو الله سبحانه وتعالى . واما كنا نشهد في عصرنا ألوانا من العلوم . فهذه العلوم من تفاعل العقل الذي وهه الله تعالى للاسان . من المواد التي وضعها الله تعالى في الكون . فالطيف واحسن الذي علمه الله للاسان

ان كل الاختراعات والابتكارات أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها . فالماء مثلا كان موجودا منذ الازل . والشمس كهدقة تبحر الماء لتصبح منه سخانا . فاذا استخدم الانسان الطاقة الحرارية في تبخير الماء واستخدم البخار كطاقة ، فهناك قمزة حصارية في العلوم اسمها عصر البخار ، وهو الذي كانت تسير به القطارات والآلات في المصانع وغير ذلك

إن هذا التقدم في العلم ، إنما هو نابع من وجود العلم والطاقة ، وراد عليها القدرة العقلية للاسان . الممنوحة له من الخالق ، التي جعلته يفكر في استخدام الطاقة الناتجة من البخار ، فاذا توصل الانسان لمراقبة شجرة ساقطة وهي تتدحرج إلى الارض لأن جذعها اسطواى . فانه أحد من نظم هذه الشجرة ما يصنع منه العجلة التي كانت تطورا هاما في تاريخ العلم . .

ادن فساق الشجرة الاسطونية هو الذي أعطي للانسان فكرة العجلة ، فلما طور الانسان استخدام البخار وصنع قطارا يسير بالبخار . فهذا التطوير هو ابن لحسن

السابق عن قدرة الطاقة النجمية عن تبحير الماء . وكيفية صناعة المجلة . . فكل علم تابع من علم سابق . . يترابط مع امكانيات وهبها الله سبحانه وتعالى للانسان ولذلك عندما جاء الاسلام لمعرض العلم التجريبي أو المادي . جاء ليلفتنا الى آيات الخالق في الكون . وطب من أن نتأمل في هذه الآيات . . ونعمل فيها العقل والادراك . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَانَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْضُونَ عَلَيْهِمْ نَجْمٌ مَعْجُونٌ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا بلغنا الله جل جلاله الى آياته التي في السموات والارض لعمل فيها العقل والادراك ، لتستبطن فيها ما يعطينا الحضارة . . ان القرآن يطالبنا بأن مواصلة لعلم الذي علمه الله لأدم . وإذا كان تاريخ العلوم يحصل لنا لتأخير عن قوم لم يكونوا مؤمنين ومع هذا سبقونا في العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنون أن نتأمل آيات الله تعالى في الأرض . فيوتن . ان الذي لاحظ قوة جاذبية الأرض - كان يراقب نفاحة تسقط من أهل الشجرة وتصطدم بالأرض فتوصل الى قانون الجاذبية .

وإذا أردنا أن نأخذ لمحة من علم الله الذي علمه لنا . فيكمي أنه ننظر الى النواة . فهي هذه النواة الصغيرة نخلة كاملة . متى وضعت النواة في الأرض . نمت النخلة . وأصبح لها وجرد .

ولكن يوضح هذا كله نقول إن كل علم مبني على نظريات . النظرية الاولى تؤدي الى الثانية . والثانية تؤدي الى الثالثة . وهكذا . . ولكن بداية كل هذه العلوم لم تبدأ بنظرية ، ولكنها بدأت بما يسمونه البدعيات . أي الأشياء التي لا تحتاج الى دليل . إنها الأشياء التي خلقها الله في الكون . وعلى هذه البدعيات بنيت النظريات الواحدة بعد الأخرى . حتى إذا أردت أن نعيدا الى أصلها ، فإنك تصل في نهاية الأمر الى أن العلم الأول من الله سبحانه وتعالى ، فالعلم الأول علمه الله . والشمرة الأولى خلقها الله . وكل اكتشافات الانسان منذ بداية احياء وحتى قيام الساعة موجودة بالقوة . مثل النواة التي فيها النخلة . تنتظر التأمل والعمل . لتصبح اكتشافا بالفعل . والله سبحانه وتعالى وهو المعلم الأول . وضع في كونه من العلم الكثير .

ومحضرى قول الشاعر حمد شوقى حين قال .

سبحك اللهم خير معلم	علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا	واس النور فحسم الانحلالا
وبجرت يسوع اليان محمدا	مضى الحديث وناول التريلا

وكان شوقى يصرح فى ابيانه أن كل علم هو مسرب الى الله وحده . وهكذا يتضح لك . أن قول الملائكة « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه الى الله . فانه سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والحكمة . وقوله سبحانه وتعالى « العليم الحكيم » العليم أى الذى يعلم كل شئ حافيا كان أو ظاهرا . والعلم كله منه . أما الحكمة فتطلق فى الأصل على قطعة الحديد التى توضع فى فم العرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن ينحكم فيه . ذلك أن الحصان حيوان مدبل شارد . يحتاج الى ترويض . وقطعة الحديد التى توضع فى فمه تجعله أكثر طاعة لصاحبه . وكان طلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه حل حلاله بحكم المخلوقات حتى لا يسير بغير هدى . ودون دراهه .

وحكمة أن يوضع هدف لكل حركة لتسبح الحركات بعضها مع بعض ، وبصير لكون محكوم بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وحكيم العليم . هو الذى يضع لكل كائن إطاره وحدوده . والحكمة هى أن يؤدى كل شئ ما هو مطلوب منه ببراعة . والحكمة فى الحقيقة هى أن تستطع الحكم السليم . والحكمة فى الشعر أن تزن الكلمات على المقاميل . والحكمة فى اللعب أن تعرف تشخيص المرمى والدواء الذى يعالجه . والحكمة فى الهندسة أن تصمم المستشفى طبقا لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك . أو فى تصميم المنزل للسكن المريح . وحكمة بناء منزل مثلا تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان لمعص

وانكون كله مخلوق من قبل حكيم عليم . وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شئ فى موضعه ليؤدى مهمته . ووصف لله تعالى بأنه حكيم يتطلب أن يكون عليما . لأن علمه هو الذى يجعله يصنع كل شئ بحكمة . وقد أعطى الله سبحانه

وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته ، وليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا
مادا سيعمل ذلك الاسد الذي سيتحده الله في الارض ولكمهم موحدين لمهمة
أخرى ومير الله لانسان بالعقل ليستكشف من ايات الله في الكون على قدر
حاجة حياته ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَرَى ۝ وَالَّذِي تُدْرِفُهُدَى ۝ ﴾

(سورة الأعل)

إذن فكر شيء خلق بقدر وكل مخلوق مبرر لما هداه الله له



﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْسُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ٣٧ ﴿

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على ملاحظة الملائكة بالنسبة لخلق آدم وحلته في الأرض ، وأن الله سبحانه وتعالى في حكمته ما يحصى عليهم . ولذلك فهم لم يدركوا هذه الحكمة . وقيل أن يخلق الله آدم ويجعله خبيعة في الأرض . كان على علم بكل ما سيحدث من آدم ودرته حتى قيام الساعة . وبعد قيام الساعة ، أما الملائكة فهم لم يكونوا على علم بذلك . لأن هذا ليس عملهم . وكما قلنا ، كل ميسر لما خلق له . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطي للملائكة الصورة بأنكم قد حكمتم على آدم إما من تجربته لحسن آخر عاش في الأرض ، وإما من صرنا بالغيب . والمقياسان غير صحيحين . ولذلك مير الله سبحانه في هذه الملاحظة آدم على الملائكة فعلمه أسماء المسميات كلها ، ثم طلب من الملائكة أن يبروه هذه الأسماء . ولكنهم قالوا : إن العلم من الله وحده . وبما أن الله تعالى لم يعلمهم الأسماء فلم لا يعرفونها . فطلب الله من آدم أن يبرهم بأسماء هذه المسميات فأخبرهم بها . ولكنه لم يبرهم بها بداته ولا من قبونه . ولا يعلم علمه وحده . ولكنه أخبرهم بتعليم الله سبحانه وتعالى له . وفي ذلك يقول الله تعالى

﴿ رَمَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ وَمَوْقُ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِندِي ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

إذن فعلم آدم للأسماء كان بمثابة الله سبحانه وتعالى . وهذه الميزة وحدها هي التي جعلت آدم في ذلك الوقت يعلم ما لا تعلمه الملائكة . وهذا رد الحق سبحانه وتعالى على قول الملائكة بأن آدم سيعد في الأرض . فذكرهم الله تعالى بقوله :

« ألم أقل لكم أني أعلم عيب السموات والأرض » أي إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم العيب . والعيب هنا هو الغيب المطلق . فهاك عيب نسي . قد تسرق حافظة نفوسى مثلا وأنا لا أعلم من الذى سرقها فهو عيب عني . ولكنه معلوم بلدى سرق ، وللمنى سهل له طريقة السرقة بأن حرسى له الطريق حتى يسرق دون أن يقابجه أحد . وقد يكون قد صدر نوار هام بالنسبة لى كترقية أو فصل أو حكم لم يصلى . فانا لا أعلمه . ولكن الذى وقع القرار أو الحكم يعلمه

هذا الغيب لنسى . لا يعتبر عيبا . ولكن الغيب المطلق هو الذى ليس له مقدمات تنبى عما سيحدث .. هذا الغيب الذى يفاجئك . وفاجئى كل من حولك بلا مقدمات .. هذا الغيب لا يعلمه لا الله وحده . وقوله تعالى : « وأعلم ما تبلون وما كنتم تكتُمون » تعطينا هنا وقفة . هل الملائكة قالوا لك سبحانه وتعالى : « اتبعنا فيها من يهد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمك ونقدس لك » هل قلنا الملائكة فعلا رجها ، أم أنهم قالوها فى أنفسهم ولم ينطقوا بها . قوله تعالى « وما كنتم تكتُمون » تعطيا إشارة الى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا . ولم يذره ، وعلى أية حال . سواء قالوه جهرا . أو قالوه سرا . فقد علمه الله . لأن الله جل جلاله بكل شىء محيط . ولا يريد لهذه النقطة أن تثير جدلا .. لماذا ؟ لأنه فى الحالتين .. سواء فى الجهر أو فى الكتمان . فإن الموقف يتساوى عند علم الله سبحانه وتعالى .. فلا داعى للجدل لأنه لا خلاف .



﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٦)

أصدر الله تعالى أمره للملائكة ليسجدوا لآدم . وهذه القضية أحدث جدلا طويلا . قال بعض الناس : كيف يسجد الملائكة لعبد الله ؟ والسجود لله وحده . وقال آخرون . هل معنى سجود الملائكة لآدم أنهم عبدوه ؟ وقالت فئة أخرى : السجود لغير الله لا يجوز تحت أى طرف من الظروف . فنقول هؤلاء : انكم لم تتركوا المعنى ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن ميز آدم على الملائكة بعلم الاسماء . . . طلب منهم أن يسجدوا لآدم ، وهنا لابد أن نعرف أن اسجود لآدم هو إطاعه لأمر الله . وليست عبادة لآدم . فالله سبحانه وتعالى هو الذى أمر الملائكة بالسجود ولم يأمرهم بذلك آدم . ولا يحق له أن يأمرهم . فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه وتعالى ، من أطاعه كان عبدا . ومن لم يطعه كان عاصيا . ومن رد الأمر على الأمر كان كافرا

ولكى نفهم معنى العبادة بقول ان العبادة هي طاعة أوامر الله واجتباب نواهيه . فما قال لى الله : اعمل . فإني أقبل . وما قال . لا تفعل . فإني لا أقبل . . لأن العبادة هي طاعة مخلوق خالقه في أوامره ونواهيه . ولذلك عندما يذهب الى الحج فإنا نقل الحجر الأسود في الكعبة ، وترجم الحجر الذى يمثل إبليس في منى بقيل حجرا وترجم حجرا . هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه . كما أمرنا بفعل . لا شيء مقدس عندها الا أمر الله ومنهجه . الملائكة هنا لم يسجدوا لآدم . ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . وفرق كبير بين السجود لشيء ، وبين السجود لأمر الله . السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . لا يعتبر خروجاً على المنهج ، لأن الأساس هو طاعة الله . وهل سجد كل الملائكة لآدم ؟ لا . وإنما

سجد لأدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وبك المهمة قد أوضحها الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكَ لَحَافِظِينَ ۝ كَرَامًا كُنُيُنَ ۝ يَعْمُرُونَ مَا تَمَعَّلُونَ ۝ ﴾ (١٢)

(سورة الانطار)

وقوله سبحانه :

﴿ مَا يُلْقِطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ ﴾ (١٦)

(سورة ق)

وقوله سبحانه :

﴿ مَا تَدْعُرُهُمْ أَمْرًا ۝ ﴾

(سورة النازعات)

ادن هناك من الملائكة من يسجل على الانسان اعماله . وكل قول يقوله وكل فعل يفعله . بن ويكتبون هذه الافعال . ومنهم من يحفظه من الشياطين . ومنهم من يعد أقدر الله في الأرض . هؤلاء جميعا لهم مهمة مع الانسان ولكن الأمر بالسجود لم يشمل اولئك الملائكة العالين من حوله العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الانسان . ولذلك عندما رفض ابليس لسجود قال له الله تعالى :

﴿ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيَّيْ أَمْتَكِبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝ ﴾ (١٦)

(سورة ص)

قوله تعالى . . كنت من ابداين - أى أنك كنت من الملائكة العالين . . الدين لم يشملهم أمر السجود . إذن فأمر السجود لأدم . . كأمر الله لنا بالسجود الى القبة في الصلاة . فنحن لا نسجد للقبة ذاتها . ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود الى القبة . سجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . ولكن إبليس رفض أن يسجد . وعصى أمر الله .

بعض الناس يقولون : أن إبليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم . وإبليس ليس ملكا . ولكنه من الجن . كما يروى لنا القرآن الكريم في قوله تعالى

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَخَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ونقول . أن كون إبليس من الجن هو الذى جعله يعصى أمر الله بالسجود . فلو أن إبليس كان من الملائكة - وهم مقهودون على الطاعة - كان لا بد أن يعطى أمر الله ويسجد . ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار أن يعطوا وأن يعصوا فذلك الذى مكه أن يعصى أمر السجود . ولذلك يرد الذين يأخذون من الآية الكريمة أن إبليس كان من الجن بأنه لم يشملهم أمر السجود . نقول لهم أن الحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أى باب الى المعصية دخل . . ذلك أنه دهن من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن في الحياة الدنيا وحدها ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهورا على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصى ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختارا . والاختيار هو الباب الذى دخل منه الى المعصية . هذه حقيقة يجب أن نفهمها . ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله أن أمر السجود لم يشمل إبليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْسَحَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وكان كفر إبليس وخلوده في النار أنه رد الأمر على الأمر . وقال .

﴿أَتَمَحْدُ لِمَنْ خَفَّتْ طِيًّا﴾

(من الآية ٦١ سورة الاحقاف)

وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . مبررا أكبر للسجود .
لهادام قد صدر الأمر الى الأعلى بالسجود لأنه ينطبق على الأدنى .

وقد كان إبليس كما جاء في الأثر يسمى طائوس الملائكة . . وكان يرهو بخيلاء
بينهم . . وهذه الخيلاء أو الكبر هو الذي جعله يقع في المعصية ، ولأن إبليس خلق
مختارا فقد كان مزهوا باختياره لطاعة الله . . قبل أن يقوده غروره الى الكبر
والمعصية . ولذلك لم يكذب بصدور الأمر من الله بالسجود لأدم حتى امتنع إبليس
تكبيرا منه . . ولم يجاهد نفسه على طاعة الله . . فمعصية إبليس هي معصية في
القيمة . لأنه رد الأمر على الأمر وظن أنه خير من آدم . . ولم يلتزم بطاعة الله ،
ومضى غروره يقوده من معصية الى أخرى . فصدقه الله من رحمته وجعله رجيا . ولما
عرف إبليس أنه طرد من رحمة الله طلب من الله سبحانه ونعالي أن ينفية الى يوم
الدين ، وقسم إبليس بعزة الله أن يخزي بني آدم . حلد الأماكس التي يأبى منها
الاعواء . فقال :

﴿لَمْ يَلْبِسْهُمْ مِنْ بَيْنِ آبَائِهِمْ وَمِنْ حَتَمِهِمْ وَعَنْ آبَائِهِمْ وَعَنْ حَتَمِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾

(سورة الاحقاف)

نلاحظ هنا أن الجهات بالسبة للانسان ستة . اليمين والشمال . والامام والخلف
وأعلى وأسفل ، ولكن إبليس لم يذكر الا أربعة فقط . أما الجهتان الأخيرتان وهما
الأعلى والأسفل . فلا يستطيع إبليس أن يقترب منها . أما الأسفل فهو مكان
السجود والخصوع لله . وأما الأعلى فهو مكان صعود الصلاة والدعاء . وهذه
المكانان لا يستطيع إبليس أن يقترب منها .

وهكذا نرى أن إبليس لم يتمتع من السجود فقط . وإنما رد الأمر على الأمر .
وهذا أول الكبر . ثم بعد ذلك مضى في فيه فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن
سبيل الله

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة أن تسجد له وحدث كفر إبليس ومعصيته أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض . ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله الله في تجربة عملية من المنهج الذي سيتبعه الإنسان في الأرض ، ومن الغواية التي سيتعرض لها من إبليس . فالله سبحانه وتعالى رحمة به لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته في الوجود على أساس نظري ، لأن هناك فرقاً بين الكلام النظري والتجربة .

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية ولكن عندما يأتي العمل فانك لا تفعل شيئاً . إذن فالعبرة التي عاش فيها آدم في الجنة كانت تطبيقاً عملياً لمنهج العبودية ، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج مبتدئاً نظرياً ، بل خرج بمنهج عمل تعرض فيه لا فعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، وادعاء الشيطان والمعصية . ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستعمر ويعود إلى الله . ولنعرف شو آدم أن الله لا يعق بانه في وجه العاصي ، وإنما يمنح له باب التوبة . والله سبحانه وتعالى أسكن آدم الجنة وبعض الناس يقول : أنها جنة الخلد التي سيدخل فيها المؤمنون في الآخرة وبعضهم قال : لولا أن آدم عصي لكانا نعيش في الجنة . نقول لهم لا . . جنة الآخرة هي للآخرة ولا يعيش فيها إنسان فترة من الوقت ثم بعد ذلك يطرد منها بل هي كما أخبرنا الله تعالى جنة الخلد . كل من دخلها عاش في نعيم أبدي .

إذن هي هي الجنة التي عاش فيها آدم وحواء ؟ هذه الجنة هي جنة لتجربة أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج . ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض . و الجنة ثانی من لفظ

«جن» وهو السر، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تسر من يعيش فيها فلا يراه أحد وفيها ثمرات تعطيه استمرار الحياة فلا يحتاج إلى أن يخرج منها . وسجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَسُوا لِيَصْرِفُنَّهَا فَصَبَحُوا ۝١٧ وَلَا يَتَنَّبَعُونَ ۝١٨﴾

(سورة الطه)

وهذه قصة الاخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنات الارض فمتعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فلذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها . وهناك في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين : في قوله تعالى :

﴿ رَأَيْتُ رَّبِّيَ قَدْ جَاءَ رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَّفْنَاهُ بِتَقْوَىٰ ۝١٧ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا رِجًّا ۝١٨﴾

(سورة الكهف)

وهي قصة ذلك الرجل الذي أعماه الله جنتين .. فبدلاً من أن يشكر الله تعالى على نعمه .. كفر وأنكر البعث والحساب في سورة سبأ اقرأ قوله تعالى عن أهل سبأ الذين هداهم الله وبين لهم الطريق المستقيم ولكنهم فضلوا الكفر . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَاءَ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلًّا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ۝١٧﴾

(سورة سبأ)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قد أطلق لفظ الجنة على جنات الدنيا ، ولم يقصره على جنة الآخرة
إذن فآدم حين قال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

فهو ليست جنة الخلد وإنما هي جنة سيّارة فيها قهورة تطيق المنهج . ولذلك لا يقال : كيف دخل ابليس الجنة بعد أن عصي وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد ولا بد أن تنتهي إلى ذلك جيّداً حتى لا يقال ان معصية آدم هي التي أخرجت البشر من الجنة لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فآدم مخلوق للخلافة في الأرض ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد في الآخرة ، ومن دخل جنة الخلد عاش في النعيم خالداً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وكلا مني وعدا حيث شئتما » فإله سبحانه وتعالى أمد الجنة التي سكنها آدم وهواء يكل ما يصمم استمرار حياتها ، تماماً كما خلق كل النعم التي تضمن استمرار حياة آدم وذريته في الأرض قبل أن تبدأ الحياة البشرية على الأرض . فإله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية فهو الذي خلق . وهو الذي أوجد من عدم ، ولذلك فقد ضمن لخلق ما يعطيهم استمرار الحياة على الأرض من ماء وهواء وطعام ونعم لا تعد ولا تحصى فكان الله تعالى قد أمد الجنة التي سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتها قبل أن يسكنها . كما أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الإنسان قبل أن ينزل آدم إليها . إذن فعوله تعالى : « وما آدم سكن أنت وزوجك الجنة »

هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج . والسكن هو المكان الذي يرتاح فيه الإنسان ويرجع إليه دائماً . فأنت قد تسافر فترات ، وكل الدول التي تمر بها خلال

سفرك لا نعتبر سكتنا الى أن تعود الى بيتك ، فهذا هو السكن والرجل يكذب وينهب في الحياة وأبنا ذهب فإنه يعود مرة أخرى الى المكان الذي يمكنه ليشريح فيه

وقوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » هو استكمال للمنهج . فهناك أمر ونهي
افعل ولا تفعل : « اسكن أنت وزوجك الجنة » أمر : « وكلا منها رغدا » أمر ،
« ولا تقربا هذه الشجرة » نهي وهذا أول منهج يعلم الانسان الطاعة لله سبحانه
وتعالى والامتناع عما نهى عنه ، وكل رسائل السماء ومنهج الله في الأرض أمر
ونهي . افعل كذا ولا تفعل كذا .

وهكذا فإن الحق سبحانه وتعالى ضمن لأدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن
رغدا . أي مباحا ولا تعب وعن سعة ويلون مشقة . كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير
والممنوع قليل . فكل ما في الجنة من الطعام والشراب مباح لأدم ، ولا قيد إلا على
شيء واحد - شجرة واحدة من بين ألوف الأشجار التي كانت موجودة في الجنة ..
شجرة واحدة فقط هي المنوعة .

ولما نظرت الى منهج السماء الى الأرض نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح فيه نعمًا
لا تحصى ولا تعد وقيد فيه أقل القليل .. فاللهي هنا لله عنه بالنسبة لنعم الأرض
هو أقل للقيل ، كما كان في جنة آدم شجرة واحدة والمباح بعد ذلك كثير . وإذا أحذنا
الفاظ العبارات نجد أن الله سبحانه وتعالى ساءة يقول : « قلنا يا آدم » أي بضمير
(نا) ضمير الجمع ، لأن الله واحد أحد ، ولكنهم يسمونها : ثمر الكبرياء وثمن
العظمة .

اذن فكل حدث يأتي فيه الحق تبارك وتعالى بنون الكبرياء وثمن التعظيم . لأن كل
فعل من الأفعال يحتاج الى صفات متعددة حتى يتم . فأنت اذا أردت أن تفعل شيئاً
فإنه يقتضى منك قوة ويقتضى منك علماً ويقتضى منك لذة ويقتضى منك حكمة ..
إذن فهناك صفات كثيرة موجودة يقتضيها العمل .

ولكن حين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن شهادة التوحيد يقول « إني أنا الله »
ولا يقول : إلهنا نحن الله .. لأنه جل جلاله . يريد توحيداً . ففي موقع التوحيد

بأنضمير الأفراد واحد أحد أما في صدر الأحداث . فيأتي بضمير الكبرياء والعظمة وأقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِنَّا لَمُؤْمِنُونَ ۝ ١٧ ﴾

(سورة التَّوْبَةِ)

وعندما أراد الحق تبارك وتعالى أن يمدح إبراهيم قال : « إن إبراهيم كان أمة » ما معنى أمة ؟ أي جامعا لصفات الخير التي لا تجتمع في فرد ولكنها تجتمع في أمة . فالأمة تجتمع فيها صفات الخير . . هذا متميز بالصدق ، وذلك بالشجاعة . وهذا بالعلم فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول إن إبراهيم كان أمة أي أنه كان جامعا لصفات الخير

ول قوله « قلنا يا آدم اسكن معك » آدم اسم علم عن المسمى الذي هو أول خلق الله من البشر « واسكن » تحتاج إلى عنصرين الهدوء والاطمئنان . هذا هو معنى اسكن توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أحد اسم السكن . وكلمة المسكن وأطلق على الروضة . وإذا فقد المكان الذي تسكن فيه عنصرا من هذين العنصرين وهما الهدوء والاطمئنان لا يقال عليه مسكن . والروضة سميت مكانا كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّكُمْ فِي عِندِهِ لَعَيْنٌ أَسْفَلٌ ۝ ١٨ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الروم)

لأن الهدوء والرحمة والبركة تتوافر في لزوجة الصالحة . والحق سبحانه وتعالى يفوق :

﴿ وَصَلَّى عَلَيْهِمْ إِذْ صَلَّوْا فَكَانَ صَلَاتُكَ سَكَنًا لَهُمْ ۚ ۝ ١٩ ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

أى راحة وأطمئناناً ورحمة . فالإنسان يريد في بيته أن تكون الحياة فيه مريحة له من هناك العمل وصخب الحياة . ويقول الحق سبحانه وتعالى . « اسكن أنت وزوجك » وكان من الممكن أن يقول اسكن وزوجك لأن الماعل في فعل الأمر دائماً مستتر . ولكنه سبحانه قال : اسكن أنت وزوجك . . وإياك أن تظن أن أنت هو ماعل الفعل اسكن . ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل .

إننا لابد أن نلاحظ أن كلمة زوج تطلق على الفرد ومعها مثله . ولذلك لم يأت بناء التأنيث . اسكن أنت وزوجك لأن الأمر التكليفي من الله . سواء فيه الذكر والأنثى . والوا لوله تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(من الآية ١٠ سورة طه)

إذن فيها متساويان في هذه الناحية . هذه الجنة ماذا أمر الله سبحانه وتعالى لأدم ودوجه فيها ؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْغَوْعَ فِيهِ وَلَا تَعْرَىٰ ۚ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهِ وَلَا تَصْحَىٰ ۚ ﴾

(سورة طه)

هذه عناصر الحياة التي وفرها الله لأدم ودوجه في جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف . وهكذا يرى من الأوصاف التي أعطاهها الله سبحانه وتعالى لنا هذه الجنة أنها ليست جنة الآخرة . لأنه أولاً فيها تكليف في قوله تعالى : « ولا تقرى » هذه الشجرة ، وجنة الآخرة لا تكليف فيها ، والحق تبارك وتعالى أباح لأدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة . والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة . ولذلك قال : « حيث شئنا »

وأنت لا تستطيع أن تقدم لإنسان صنف أو صنفين ونقول له كل ما شئت . لأنه لا يوجد أصله إلا جمالي ضيق للاختيار ، كما أن غلة عند الأصناف تجعل النفس قل . ولذلك لابد أن يكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

ثم جاء النهي . في قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » أى لا تقربا من مكانها . ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى ولا تأكلوا من هذه الشجرة ؟ . لأن الله جل جلاله رحمة بآدم وزوجه كان لا يريد أن يقع في غواية المصيبة . ولو أنه قال : ولا تأكلوا من هذه الشجرة لكان مباحا لهم أن يقربا منها فتجذبها بهيول مظهرها ويقربا من ثمارها فتفتتها برائحتها العذبة ولونها الجذاب . حينئذ يحدث الاغواء . وقد أيدىها تحت هذا الاغراء الى الشجرة ليأكلوا منها .

ولكن الله تعالى يعلم أن النفس البشرية اذا حرم عليها شيء ولم تحم سواه كان ذلك أدعى ألا تفعله . قاله تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر والا كنا جلوسا في مجالس الخمر ومع الذين يشربونها أو نتاجر فيها وهذا كله امرء يشرب الخمر . . ولكنه قال :

﴿ يَأْتِيهِمُ اللَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَرْزَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَأَجْزِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ٥٠ ﴾

(سورة المائدة)

هذا النص الكريم قد جعلنا بتعدد عن الاماكن التي فيها الخمر . فلا نجلس مع من يشربها ، ولا نتاجر فيها حتى لا تقع في المصيبة . فلذا رأيت مكانا فيه حرم فابتعد عنه في الحال حتى لا يعريك منظر الخمر وشربها بأن تفعل مثله . والحق جل جلاله يقول في المحرمات : « لا تقربوا ، واجتنبوا . » أى لا تجرموا حولها لأنها اذا كانت عالية عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها . ولذلك يقول لرسول صلى الله عليه وسلم :

(إِنَّ الْخَلَالَ بَيْنَ الْحَرَامِ بَيْنَ وَبَيْنِهِ أُمُورٌ مُّشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ سَبَّرَ لِدِينِهِ وَعَرَصَهُ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يَوْشِكُ أَنَّ يَمُوتَ بِهِ . أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى هُوَ اللَّهُ بِحَالِهِ) (١)

(١) (رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير)

ولقد كان بعض الناس يهلون على شرب الخمر ويقولون انه لم يرد فيها تحريم صريح .. فلم تأت مسبوقة بكلمة حرمت .. نقول ان كلمة اجنبوا . أشد من التحريم . لقوله تعالى : « اجنبوا الرجس من الأوثان » معناه ألا تنظر حتى الى الصنم . واجتناب الخمر ألا تقع عينك عليها .

وقد اختلف الناس في نوع هذه الشجرة . وهل هي شجرة تفاح أو نين أو حنبل أو غير ذلك . ونحن نقول : ليس هذا هو المقصود . ولكن المقصود هو التحريم . لأن منج الله سبحانه وتعالى يحلل أشياء . ويحرم أشياء .

وقوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » الظلم هو الجور والتعدي على حقوق الغير . والظالم هو من أخذ فوق ما يستحقه بغير حق . والظلم يقتضي ظلماً ومظلوماً . وموضوعاً للظلم . فكل حق - سواء كان مادياً أو معنوياً - يعتدى عليه انسان بدون حق فقد حمل ظلماً . حتى الانسان انه أحساناً يظلم نفسه . وقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة آل عمران)

كيف يظلم الانسان نفسه ؟ قد يظلم الانسان غيره . ولكنه لا يظلم نفسه أبداً . لأنه يريد أن يعطيها كل ما تشتهي . وهذا هو عين الظلم للنفس . لأنه أعطاه شهوة عاجلة في الدنيا . ربما استمرت ساعات . وحرماً من نعيم أبدي في الآخرة . فكانه ظلمها بأن أعطاه عذاباً لها في الآخرة مقابل متعة زائلة لا تدوم .. وهناك من يبيع دينه بدنياً . ولكن أظلم الناس لنفسه من يبيع دينه . بدنياً غيره . يشهد زوراً . ليرضى وثيماً . أو يتقرب لمستول . أو يرتكب جريمة .. إذن قوله تعالى :

« فتكونا من الظالمين » أي من الذين ظلموا أنفسهم بحصية الله



﴿ فَازْلُهمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقَدْ نَآأَهُمَا أَهْبَطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه في الجنة . وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام . بدأ الشيطان مهمته . مهمة حداث الرهية لآدم وزوجه . والحق سبحانه يقول : « فأزلمها الشيطان » أي أن الشيطان باشر مهمته . فلو قعها في الزلة . وهي العثرة أو الكبوة . كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبع الشيطان . وأبلعه أنه عدولهما . في قوله تعالى :

﴿ إِنْ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾

(سورة طه)

إذن فالعدوة معلنة ومسقة . ولتفرض أنها غير معلنة . ألم يشهد آدم الموقف الذي عمى فيه إبليس أمر الله وم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبر إبليس عليه . في قوله : « أنا خير منه » وقوله : « أسجد لمن خلقت طيناً » كل هذا كان ينبى أن يبه آدم إلى أن إبليس لن يأتى له بعير أبد ..

والحق سبحانه وتعالى لم يكب بالدلالات الطيمية التي نشأت من موقف إبليس في رفضه السجود . بل أخبر آدم أن الشيطان عدوله وزوجه . يقول الحق سبحانه وتعالى : « فأزلمها الشيطان عنها فأخرجها مما كانا فيه » من ماذا أخرجها ؟ من العيش الرعيد . واسع النعمة في الجنة . ومن الهدوء والاطمئنان في أن رزقها يأتيها بلا تعب . ولذلك سيأتى الحق في آية أخرى ويقول : « فلا يخرجكم من الجنة فتشقى »

وهنا لابد أن نتساءل : لماذا لم يقل فتشقي ؟

ان هذه لفظة من الحق سبحانه وتعالى .. الى مهمة المرأة ومهمة الرجل في الحياة .
فمهمة المرأة أن تكون سكناً لزوجها عندما يعود الى بيته . تذهب تعبته وشقاءه . أما
مهمة الرجل فهي العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده . والعمل نصب
وحركة .

وهكذا لمتنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكسح ويشقى . ثم يأتي
الى أهله فتكون لسكينة والراحة والاطمئنان .

إذا كانت هذه هي الحقيقة . فلماذا يأتي العالم ليغير هذا النظام ؟

نقول ان العالم هو الذي ينصب نفسه . ويتعب الدنيا . فعمل المرأة شقاء لها .
فمهمتها هي البيت . وليس عندها وقت لأي شيء آخر . فإذا عملت فذلك على
حساب أولادها وبيتها وزوجها .. ومن هنا ينشأ الشقاء في المجتمع . فبصريح
الأولاد يهرب الزوج الى مكان فيه امرأة تعطيه لسكن الذي يحتاج إليه . وينتهي
المجتمع الى عوصى ..

وكان يجب على آدم أن يتنبه الى أن إبليس يعتبره السبب في طرده من رحمة الله .
فلا يقل منه نصيحة ولا كلاماً ويحطأ .. كيف أزل الشيطان آدم وزوجه ؟ لقد
شرح الله سبحانه وتعالى لنا هذا ولكن ليس في سورة البقرة وإنما في آية أخرى .
فقال تعالى :

﴿ مَوْسَىٰ طَمَأَ الشَّيْطَانُ لِيَبْدِيَ طَمَأَ مَا يُدْرِي حَتَّىٰ مَاتَ سَوَاءٌ تَبَيَّنَ وَقَالَ مَا نَهَنَّاكَ رَبُّكَ
عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَلَكَئِيٍّ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْخَالِدِينَ ۝١٠﴾

(سورة الاحزاب)

اذن فإبليس قال كاذباً أن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكاً . ويصبح خالداً
لا يموت .. ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين للمعصية ، والشيطان لا يهجم
أي معصية ارتكبت . وإنما يريدك عاصياً على أي وجه . ولكن النفس عندما تؤسوس

لك بالمعصية ، تريد شيئا بذاته . وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان ووسوسة النفس . قال الشيطان يريدك عاصيا بأى ذنب . فلا امتنع في ناحية أنك من ناحية أخرى . فقد قال لآدم : هل أدلك على شجرة اخلد وملك لا يبلى ؟ ولكن هذه المحاولة لم تنجح . فقال لها : « ماهاكما وبكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحا .. لأكل إبليس من الشجرة . ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى ان يمهله الى يوم الدين ..

ما الذى اسقط آدم في المعصية ؟ انها القفلة أو النسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ قَتْسِي وَلَا تَجِدْ لَهُ عَزَمًا ١١٥ ﴾

(سورة طه)

وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ١ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

نعم النسيان كان معصية في الأمم السابقة . لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم «رفع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» (١)

ونسي وعصى ، تؤدي معنى واحدا ..

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ امْكُتُوا بِعَصْرِكُمْ لِيَعْلَمَ عَذْرَؤُنَا أَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُتَقَرُّوْنَ ٢١ ۝ ٢٢ ﴾

(سورة الاحراف)

هذا الهبوط هو بداية نزول الانسان الى الأرض بباشر مهمته في الدنيا . وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » . فهي اذن حياة موقوتة على قدر وقتها ، وعلى قدر حجمها ..

والذين يقولون بأنه لا بد من وجود بشر فسميه خطيئا . ليفسد العالم بهصلبه أو بغير ذلك من الخطيئة التي ارتكبتها آدم . نقول له . انك لم تفهم من الله شيئا ، لأن القصة هي هنا خطأ قد حدث وصوب . وفرق بين الخطأ والخطيئة . فالخطأ يصوب . ولكن الخطيئة يعاقب عليها .

وآدم أخطأ وصوب الله له . وتبقى من ربه كلمات فتاب عليه . اذن لا توجد خطيئة بعد أن علمه الله التوبة وتاب الى الله . ثم ماذا فعل آدم . حتى نقول نخلص العالم من خطيئة آدم . لأنه أكل من الشجرة . وهل خطيئها العالم كلها أكل ؟

من الذي أوجد القتل وسفك الدماء ، والزنا والاغتصاب والنميمة والغيبة ؟

لي أن كلامهم صحيح لكن لا بد ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلص الذي ندى العالم من الخطيئة . ولكن الخطيئة باقية . ومن الذي قال ان الخطيئة تورث . حتى يرث العالم كله خطيئة آدم ؟ . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ..

وقول الحق سبحانه وتعالى « ولما اخطوا بعضهم لبعض هتدوا العدواة هتدوا بين الشيطان والانس . والعدواة أيضا بين شياطين الانس والمؤمنين ، هذه العدواة التي تؤدي بها الى نشاط وتنبه . فالمستشرقون يعادون الاسلام . ولكن معاداهم هذه تعطينا نشاطا لكي نبحث ونطلع حتى نرد عليهم . وجنود الشيطان من الانس يعادون المؤمنين . وعداوتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخضع ولا نخفل . فانت مادام لك عدو .. فحاول أن تتفوق عليه بكل السبل

ولعل الحضارة الانسانية لا ترقى بسرعة قدر ارتقاها وقت الحروب . ففيها يحاول كل خصم ان يتغلب على خصمه . وتجنبد كل القوى للتفوق عليها على الدول الاخرى . هذه الارتقاعات والاختراعات . قد تكون للتدمير والقتل . ولكن بعد أن تنتهي الحرب توجه الى ارتقاعات الانسان في الأرض . فتمتبت الذرة وصعدوا اليه في

الحروب . والصواريخ التي وصل الانسان بها الى القمر كانت نتيجة حرب ،
والارتقاءات العلمية المختلفة التي تمت في أمريكا والاتحاد السوفيتي كان اساسها غذاء
كل معسكر للآخر .

وقوله تعالى « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » . . الهبوط فله يكون من مكان أعلى الى
مكان أسفل . وقد يكون الهبوط معنوياً . بأن تقول هذا الانسان هبط في نظري منذ
فعل كذا . هو لم يهبط من مكان أعلى الى مكان أسفل .

ولكنه هبط في قيمته . والمسافات لا تعني قرباً أو بعداً . فقد يكون انسان يجلس
الى جوارك وانت بعيد عنه لا تحس به . وقد يكون هناك انسان بعيد عنك بمئات
الأميال ولكنه قريب الى قلبك أكثر من ذلك الجالس الى جوارك . سواء كان الهبوط
مادياً أو معنوياً . فانه حدث لياشر آدم مهمته على الأرض . . والعداوة بين الايمان
والكفر مستمرة .

وهكذا بعد معصية آدم . هبط هو وحواء من الجنة لهما مساكنهما على الأرض . .
وقوله تعالى « اهبطوا » معناه أن آدم وحواء وإبليس هبطوا الى الأرض بعد أن تمت
التجربة الإيمانية .

نقد بين الله تعالى لأدم عملياً ان إبليس عدوه . لا يريد ان الخير . وأنه كاذب
في كل ما يمد به الانسان . وقد حدد الله الحياة الدنيا بأنها حياة موقوتة . فترات
محدودة . ومتاعها محدود . في قوله تعالى :
« ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » .

أي لا أحد سيبقى في الأرض إلا بمقدار ما قدر الله له من عمر ثم يموت . وبهذا
حذر الله آدم وفريقه من أن ينخدعوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل ، وأمدتها
قصير .



وقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ تَعْلَمَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ يَنْكَرُ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها :

« أوصاني بالاعتماد على السر والعلانية . والقصد في العفو والفقر وأن اعفو عمن ظلمني ، وأعطى من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمي فكرا ونطقى ذكرا ، ونظري هرا » (١)

فالتوبة لو لم تشرع لعان المجتمع كله . وخاصة المؤمنين الذين أمروا أن يقابلوا العدوان بالصفح والتظلم بالعفو . ولذلك كان تشريع التوبة من الله سبحانه وتعالى . رحمة بالناس كلهم .

والله جل جلاله شرع التوبة أولا ثم بعد أن شرعها تاب العاصي ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة أو لا يقبلها معا لمشيئته . واقرأ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة التوبة)

آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه . أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سبحانه وتعالى هذه التوبة ؟ ان بعض الناس يقول ان آدم قد عصي وتاب الله عليه . وابيس قد عصي فجعله الله خالدا في النار . نقول . انكم لم تنهسوا ماذا فعل آدم ؟ أكل من الشجرة المحرمة . وعندما علم أنه أخطأ وعصى . لم يصر على المعصية . ولم يرد الأمر على الأمر . ولكنه قال يارب أترك ومنهجك حق . ولكنى لم

أقذر على نفسي فسامعني .

اعترف آدم بذنبه . واعترف بضعفه . واعترف بأن المنهج حق . وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى . ولكن إبليس رد الأمر على الأمر . قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وقال « لأفعلن لهم صراطك المستقيم » وقال : « طبعرتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » وقال : « لأحتنكن ذريته إلا قليلا » فلإبليس هنا رد الأمر على الأمر . لم يعترف بذنبه ويقول يارب عليّ ضعفي . وأنت الحق وقولك الحق . ولكنه رد الأمر على الله تعالى وعاند وقال سأفعلن كذا وسأفعلن كذا . وهذا كفر بالله .

إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى . فإذا كنت لا تصل . فلا تقل وما فائدة الصلاة . وإذا لم تكن تركي . فلا تقل تشريع الزكاة ظلم لضعفين . وإذا كنت لا تطبق شرع الله . فلا تقل إن هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث . فإنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله . ولكن قل يارب إن فرص الصلاة حق وفرض الزكاة حق . وتطبيق الشريعة حق . ولكنني لا أقدر على نفسي . فارحم ضعفي يارب العالمين . إن فعلت ذلك . تكن حاصيا فقط .

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه . ولكن إبليس رد الأمر على الأمر . فيكون آدم قد عصي ، وإبليس قد كفر والعياذ بالله ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » هذه الكلمات التي تنقاهما آدم . أراد العليّه أن يحصروها . ما هذه الكلمات ؟ هل هي قول آدم كما جاء في قوله تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٥)

(سورة الاحزاب)

هذه الآية الكريمة . فلتنا على أن ذنب آدم لم يكن من ذنوب الاستكبار . ولكن من ذنوب الغفلة . . بينما كان ذنب إبليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله . ولكن آدم عندما عصي حدث منه انكسار .

فقال : يا رب امرك بالآ أقرب الشجرة حق . ولكني لم أقدر على نفسي . فأدم أقر
بحق الله في التشريع . يسما ابليس اعترض على هذا الأمر وقال :
« وأسجد لمن خفيت طينا »

الكلمات التي تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : « رب اظلمنا أنفسنا
وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وقد تكون : « اللهم لا اله الا أنت
سبحانك ربى ويحمدك . ان ظلمت نفسي ظلما كثيرا فاعف عني يا خير الشافعين . .
أو قل توبتي يا خير لتوايين . . أو قال : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله
المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لأدم بكلمات يتقرب بها اليه سواء كانت هذه
الآية الكريمة أو كلمات أخرى .

لو نظرنا ان تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه لوجدنا مبدأ مهما في حياة
المجتمع لأن الله سبحانه وتعالى كما قلنا لو لم يشرع التوبة ولو لم يبشره بأنه
سيقبلها . لكان الذي يذنب دنيا واحدا لا يرجع عن المعصية أبدا وكان العالم كله
سيعانى .

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يجعلنا مقيدين القهر يثبت صفة القدرة
لله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نأق من حب وليس عن قهر . ولذلك
خلقنا مختارين . وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصى وأن تطيع ومادم هناك اختيار
بالإنسان يختار هذه أو تلك .

إن الله لم يخلق بشرا يختارون الخير عن طول الخط . وبشرا يختارون الشر في كل
وقت . هناك من الخيرين من يقع في الشر مرة ، وهناك من الشريرين من يعمل
الخير مرة . فالعبد ليس مخلوقا أن يختار خيرا مطلقا أو أن يختار شرا مطلقا .
ولذلك فأحيانا ننسى أو نسهر . أو ندمى . ومادم العبد معرضا للخطيئة . فالله
سبحانه وتعالى شرع التوبة . حتى لا ييأس العبد من رحمة الله ، ويتوب ليرجع الى
الله . وقد جاء في الحكمة . « رب معصية أورثت دلا وانكسارا . خير من طاعة
أورثت عزا واستكبارا » .

وهكذا عندما نزل آدم لِبَاسٍ مهمته في الحياة . لم يكن يجعل أى خطيئة من كُتُوبِهِ .. لقد أخطأ وعلّمه الله تعالى كلمات التوبة . فتاب فتقبل الله توبته ..

وقوله سبحانه وتعالى : « انه هو التواب الرحيم » .. كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد . لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب من ذنب واحد لكل عبد من عباده كان تواباً . والمبالغة في الصفة تأتي من نلمحون . ألا أن الامر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الأشخاص . أو من شخص واحد . أو أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من اشخاص كثيرين ..

فاذا قست مثلاً : فلان أكل ، قد يكون أكلًا لأنه يأكل كمية كبيرة من الطعام . فيسمى أكلًا .. أنه لا يتجاوز طعامه في عدد مراته وجبات الطعام العادية للإنسان . ولكنه يأكل كمية كبيرة . فنسميه أكلًا . فيأكل مثلاً عشرة أرغفة في الاغطار ومثلها في الغداء ومثلها في العشاء .

وقد يكون الإنسان أكلًا اذا تكرر العمل نفسه . كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل في اليوم خمس عشرة مرة مثلاً .. قاله سبحانه وتعالى تواب لأن حلقه كثيرون . فلو أخطأ كل واحد منهم مرة يكون عدد ذنوبهم التي سيُتوب الله عليها كمية هائلة . فاذا وجد من يلزم عدة مرات في اليوم . فإن الله تعالى . يكون تواباً عنه ايضاً اذا تاب واتجه اليه ..

إذن مرة تأتي المبالغة في الحدث وان كان الذي يقوم به شخص واحد . ومرة تأتي المبالغة في الحدث لأن من يقوم به أفراد متعددون ..

إذن فإدم أذنب ذنباً واحداً . يقتضى أن يكون الله تائباً . ولكن فرية آدم من بعده سيكونون خلقاً كثيراً .. فتأتى المبالغة من ناحية العدد .

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » سيدنا عمر جاعته امرأة تصيح وتصرخ لأن ابنها ضيقت سلقاً . وقالت لعمر ما سرق ابني الا هذه المرة . فقال لها عمر . الله ارحم بعبيده من أن يأخذ من أول مرة . لايد أنه سرق من قبل ..

وانا اتقلى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .

كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث ، فإله يستر عبده مرة ومرة .
ولكن إذا ازداد وثبات في المعصية . يوقفه الله عند حده . وهذا هو معنى تواب .

والحق سبحانه وتعالى تواب برحمته . لأن هناك من يعفو ويظل بمن عليك
بالعفو . حتى أن المعفوعه يقول . ليتك عاقبتني ولم تحس على بالعفو كل ساعة . لكن
الحق سبحانه وتعالى . تواب رحيم . يتوب على العبد . ويرحمه بمحورته ذنوبه .



﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٨)

يقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية : « قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا » وفي سورة طه يقول جل جلاله « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب لكل حبة آدم المطمورة في ظهره . أمرا لهم جميعا بالهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد منا . الى أن تقوم الساعة فيه جزىء من آدم . ولذلك لابد أن قلعت الى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الاحقاف)

نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع . فلم يقل الحق سبحانه وتعالى لقد خلقتك ثم صورتك ثم قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ساحة الخلق كان كل حبة آدم مطمورين في ظهره . خلقهم جميعا ثم صورهم جميعا . ثم طلب من الملائكة السجود لآدم . فهل نحن كنا موجودين ؟ نعم كنا موجودين في آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول . « اهْبِطُوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه الى آدم وذريته جميعا الى يوم القيامة .

ومرة يقول « اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا » لأن هنا بداية تحمل المسؤولية بالنسبة لآدم . في هذه اللحظة وهي لحظة الهبوط في الأرض . سيبدأ منهج الله مهمته في الحياة . ومما دام هناك منهج وتطبيق فردي . تكون المسؤولية فردية . ولا يلى الجمع هنا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا » نلاحظ أن أمر الهبوط هنا

بالمثنى ثم يقول تبارك وتعالى جميعا جمع . يقول أنه مادامت بداية التكليف .
فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض لطرف الأول . هو آدم وروحه . والطرف
الثاني هو ابليس . فهم ثلاثة ولكنهم في معركة الايمان . فربقان فقط . آدم وحواء
ودريئهما فريق . والشيطان فريق آخر فكان الله تعالى يريد أن يلفتنا الى أن هذا
الهبوط يتعلق بالمنهج وتطبيقه في الأرض . وفي المنهج آدم وحواء حريصان على
الطاعة . وابليس حريص على أن يقودهما الى المعصية .

وفي قوله تعالى . « إماما ياتينكم منى هدى » نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن
مر آدم بالتجربة ووقع في المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحه أنه إذا
غفل يثوب . والله سبحانه وتعالى سيقبل توبته .

ادن فالحق سبحانه وتعالى يريد من آدم وحواء أن يسكن الأرض . ويبدأ مهمتهما
في الحياة . والله يدليهما على الخير مصداقا لقوله تعالى « فإما يأتينكم منى
هدى » . وهدى لها معنيان . . هي بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على
الطريق الموصلة للخير . وهما هدى وهو الاعانة على الايمان والريادة فيه . وانرا قوله
تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا رَادَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

الهدى هنا في الآية الكريمة.. بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق
تبارك وتعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

ما هو الخوف وما هو الحزن ؟ الخوف أن تترقع ضمرا مقللا لا قدرة لك على دفعه
فتحاف منه . والحزن أن يعوتك شيء تحبه وتحميه .

والحق سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية . من مشى في طريق الايمان الذي دلته
عليه . وأتبعته في منهجه . فلا خوف عليهم . أى أنه لا يحير سينوهم فيحزنوا
عليه . لأن كل الخير في منهج الله . فالذى يتبع المنهج لا يخاف حدوث شيء أبدا

وهذه تعطينا قضية مهمة في المجتمع . الذي لم يرتكب أية مخالفة .. هل يناله خوف ؟ أبدا .. ولكن من يرتكب مخالفة تجلبه دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره .. ويفاجأ بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الإنسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . أما دُنب أنا سبب فيه . والسائر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . وأما أمر لا دخل لي فيه . يجره على مخالفي . وهذا لابد أن يكون لحكمة . قد أدركها . وقد لا أدركها ولكنني اتقبلها . فالذي يتبع هدى الله . لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب . ولم يخرق قانونا . ولم يغش بشرا . أو يخفي جريمة . فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجيء ، فقلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولا يحزنون عليهم .. وقوله تعالى : « ولا هم يحزنون » لأن الذي يعيش طائعا لمخبر الله .. ليس هناك شيء يجعله يحزن . ذلك أن إرادته في هذه الحياة تخضع لإرادة خالقها . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو في سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه إلا التسبيح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو في سلام مع نفسه . وفي سلام مع ربه . وفي سلام مع المجتمع .

إن المجتمع دائما يسعد بالإنسان المؤمن الذي لا يفسد في الأرض . بل يفعل كل خير . فالؤمن نعمة جمال تشع في الكون . راحة حسن ورضا مع كل الناس . ومادام الإنسان كذلك . فلن يفقد ما يسهه أبدا . فإن أصابته أحداث .. أجراها الله عليه .. لا يقابلها إلا بالشكر . وإن كان لا يعرف حكمتها .. وإياك أن تعترض على الله في حكم .

ولذلك يقول احمدك ربى على كل فضائك وجميع قدرتك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك ..

والإنسان يتفعل للأحداث . ولكن هناك فرق بين الانفعال للأحداث وحدها وبين الانفعال للأحداث مع حكمة مجربا . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بمراقك يا ابراهيم لحزونون) (١)

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه واحمد وهذا لفظ البخاري

انظروا الى الايمان وهو يستقبل الاحداث . العين تدمع . ولا يكون القلب قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخضع لله . مقدرًا حكمته وارادته . .

والله سبحانه وتعالى لا يريد أن نستقبل الأحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن مع الايمان . فאלله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب الى طيب العظام يكرر لك عظامك لكي يصلحها . هل يفعل لك خيرا أو شرا ؟ طبعًا يفعل لك خيرا . وان كان ذلك يؤلك .



﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يبط إلى الأرض سيتلقى من الله متبجاً لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمناً في الدنيا والآخرة . لولم الله تعالى أن يعطينا الصورة المقابلة . فالحكم في الآية السابقة كان من الذين اعتدوا . والحكم في هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . . « والذين كفروا وكتبوا بآياتنا » والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود . ومحاولة ستر هذا الوجود هو إعلان بأن الله تعالى موجود . فانت لا تحاول أن تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً .

إن الشيء الذي لا وجود له لا يحتاج إلى ستر ، لأنه ليس موجوداً في عقولنا . رفقولنا لانهم ولا تسمع إلا ما هو موجود . توجد الصورة الذهنية أولاً . . ثم بعد ذلك يوجد الاسم أو الصورة الكلامية . ولدلت إذا حدثك إنسان عن شيء ليس له وجود فانت لاتفهمه . ولا تستطيع أن تعيه إلا إذا شبه لك بموجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى نستطيع أن نفهم . فانت لاتفهم غير موجود إلا إذا شبه بموجود .

وكل شيء لابد أن يكون قد وجد أولاً . ثم بعد ذلك تجمع مجامع اللغة في العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد في الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلاً قبل أن يوجد الصاروخ . ولا لسفينة الفضاء قبل أن تبتدع . ولا لاشعة الليزر قبل أن تكتشف . إذن فكل هذا وجد أولاً . ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله . وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو أثبت لوجوده . لأنك لا تستر شيئاً غير موجود . وهكذا يكون الكفر مثباً للإيمان .

وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم إلا إذا وجد المعنى في عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل إن الله جل جلاله . وهو غيب عما . إذا ذكر اسمه فهمه الصغير والكبير . والحامل والعالم . والذي طغى الدنيا . والذي لم يخرج من بيته . كل هؤلاء يفهمون الله بمطردة الإيمان التي وضعها في قلوبنا جميعاً .

أذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى « وكذبوا بآياتنا » والآية هي الشيء العجيب اللامت . فهناك في الكون آيات كريمة مثل الشمس والقمر والنجوم والأرض . والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية في كونه ولعلم الإنسان .

وهناك الآيات وهي المعجزات . عندما يرسل الله رسولا أو نبيا إلى قومه فلأنه سبحانه يخبرهم له قرائن الكون . ليثبت لقومه . أنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وهذه الآيات مقصود بها من شاهدها . لأنها تأتي لتثبت المؤمنين بالرسول . وهم يبرون بأمره يحتاجون فيها إلى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبي لقومه . . ونطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذي وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . إلى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه في آياته . عن كيفية خلق الإنسان . وعن منهج السبيل للأرض وغير ذلك .

والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الإسلام . ويحاولون الدين . هؤلاء جميعاً . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم ؟ يقول أحيانا يكون التكذيب متعمداً مثلاً حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بأفات وأمراض وبالعذاب الأصفر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا

يا . . ويقول الحق جل جلاله .

﴿ وَيَعْلَمُونَ بِهَا وَأَسْتَفِيتُهَا مِنْهُمْ قُلُوبًا وَعُلُوفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة النمل)

والآيات في الكون كثيرة . يو أنما التفتنا إليها لآمتًا . فهي ليست محتاجة الى فكر . بل ان الله تعالى ، رحمة بنا جعلها ظاهرة . ليدركها الناس . كل الناس . ولكن البعض وعم ذلك يكذب بآيات الله . وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس . والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والكاذبين بآيات الله في عذاب واحد . وقال جل جلاله : « أولئك أصحاب النار » والصاحب هو الذي يآلف صاحبه . ويجب أن يجلس معه . ويفضي أجل أوقاته . فكان قوله تعالى : « أصحاب النار » دليل على عشق النار لهم . فهي تفرح بهم ، عندما يدخلونها . كما يفرح الصديق بصديقه . ولا تريد أن تفارقهم أبدا . . ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلْ لَمْ تَكُنْ لِي وَتَقُولُ هَلْ مِنْ عَزِيدِ ۝١٧ ﴾

(سورة ن)

وهكذا نرى مدى العشق ، بين النار والكافرين . ان النار تصاحبهم في كل مكان . وهي ليست مصاحبة كريمة بالنسبة للنار . ولكنها مصاحبة لمحبها النار . فالنار حين تحرق كل كافر وأثم وموافق تكون سعيدة . لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته في الحياة الدنيا . . وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله وانحلس له العبادة وطبق منهجه . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا بِكَ رَبِّمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٣٥ ﴾

(سورة هود)

أى أن الجنة نصاحب المؤمنين . ونحبهم وتلازمهم . مثلما نصاحب النار الكافرين
والمكذبين . . وكما أن النار تكون سعيدة وهي تحرق الكافر . فجنة تكون سعيدة
وهي تمنع المؤمن . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « هم فيها خالدون » أى أن
العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتقر . ولا يخفف . بل هو مستمر الى الأبد . . واقرأ
قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴾

(سورة الفرق)

ومعكدا نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل المنهج الى الأرض مع آدم ، وأن
آدم نزل الى الأرض ومعه الهدى ليهتدق لول منهج لسماء على الأرض فكان الله
سبحانه وتعالى لم يترك الانسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذى
يسير له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول
التوبة حتى لا ييأس الانسان . ولا يحس أنه اذا أخطأ أو نسى أصبح مصيره جهنم
بل يحس أن أبواب السماء مفتوحة له دائما . وأن الله الذى خلقه رحيم به . اذا أخطأ
فتح له أبواب التوبة وصفر له ذنوبه حتى يحس كل انسان برعاية الله سبحانه وتعالى
له وهو على الأرض . من أول بداية الحياة

فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطئ .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وذريته أنه من يطلع ويؤم بعش الحياة الطيبة في
الدنيا والآخرة ومن يكفر ويكذب فإن مصيره عذاب أبدي .

لقد عرف الله آدم بعدوه ابليس . وطلب منه أن يجذره . فإذا فعل بنو آدم ؟ هل
استقبلوا مسج الله بالطاعة أو بالمعصية ؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله أو تركوها وراء
ظهرهم ؟



﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازَهَبُونَ﴾

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بآدم ، وعداوة إبليس لآدم
وسببها قص علينا التجربة الأولى للمسيح في إحدى الجنت ، وكيف أن آدم
تعرض للتجربة فاقضاه الشيطان وصلى . ثم نزل إلى الأرض مسلحا بمنهج الله .
وعصيا بالتوبة من أن يظفر . بدأت مهمة آدم على الأرض .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو
آدم منهج الله بالكفر والمعصيان . فاختار جل جلاله قصة بني إسرائيل لأنها أكثر
القصص معجزات ، وأنبياء بني إسرائيل من أكثر الأنبياء الذين أرسلوا لامة واحدة
وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وأثاما فكانوا
أكثرها أنبياء . كانوا كلها خرجوا من معجزة انصرفوا . فتأتيهم معجزة أخرى .
فينصرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفوقوا في الأرض ثم يجمعوا مرة
أخرى في مكان واحد . ليدققوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم .
ولذلك أخذت قصة بني إسرائيل فذلك الحجم الضخم في كتاب الله . وفي تثبيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فموسى عليه السلام الذي أرسله الله إلى بني
إسرائيل من أهل العزم من الرسل . ولذلك فإنك تجد فيه تربية أولا . وتربية
ثانيا . . . ولا بد أن نلجأ إلى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بني إسرائيل : فالحق جل
جلاله . حين يريد أن ينادى البشر جميعا يقول : « يا بني آدم » وقرأ قوله تعالى :

﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازَهَبُونَ﴾

وقوله سبحانه

﴿يَلْبِسْ آدَمَ لَا يَفْهَمُ الشَّيْطَانُ﴾

(من الآية ١١ سورة الاعراف)

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يا بني آدم ؟ لأنه يريد أن يذكرنا بعمه عليا منذ بداية الخلق لأن هذه النعم تخص آدم وذرته . فالله تعالى خلق آدم بيده . وأمر ملائكته أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل ما يصمم استمرار حياته . ليس باضروديات فقط ولكن بالكماليات . ثم دربه الحق على ما سيتعرض له من أهواء الشيطان . وأهيمه أن الشيطان عدوه . ثم علمه كميات التوبة . ليتوب عليه . وأمدّه بنعم لا تعد ولا تحصى .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للإنسان . فإذا تذكرنا نعم الله علينا . فإنا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية .

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا في هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : « يا بني اسرائيل » لماذا ؟ ومن هو اسرائيل ؟

اسرائيل مأخوذة من كلمتين : اسر وويل (اسر) يعني عبد مصطفى أو مختار . (ويل) معناها الله في العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله . والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذرته . .

فإذا نظرنا الى اسرائيل الذي هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صعبا لله . وعندما ينادي الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بني اسرائيل فإنه يريد أن يذكرهم بمنزلة اسرائيل عند الله . ما واجهه من بلاء . وما تحمله في حياته فاذكروا ما وصاكم به حين

حضرت الوفاة .. واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ أَنْتُمْ مَسْلُوبُونَ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يأتي بعد ذلك قول يعقوب . واقرا قوله تعالى .

﴿ يٰٓبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة البقرة)

تلك هي الوصية التي وصي بها يعقوب بنبيه . . فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله اله واحد . لا شريك له . وأن الدين هو الاسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فليحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت . وساعة الموت يكون الانسان صادقا مع نفسه . وصادقا مع ربه . وصادقا مع دينه . فكأنه سبحانه وتعالى حينما يقول : يا بني اسرائيل : يريد أن يذكرهم بـ اسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضلهم على الآباء عليهم يتعظون أو يتجملون من المعصية فمعا كما يكون هناك عبد صالح اسرف أيناه عن أنفسهم .

فيقال لهم :

الآن نحن نريد أن نذكر أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما ينصب الله ... يا بني اسرائيل .

اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق . واسحاق ابن ابراهيم . وابراهيم احب اسحاق واسماعيل . ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول . « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول اذكروا نعمته الله . وإنما يقول : « اذكروا الله » لأن بني اسرائيل ماديون ودنيويون .

فكان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : ما دتم ماديين ودنيويين . فلاذكروا نعمته الله المادية عليكم

ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الانسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم الماديون بجيرون النعمة . وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون في معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين . « اذكروا الله » أما نحن مع المنعم . بينما نخطئه سبحانه لبني اسرائيل . « اذكروا نعمته الله »

والحديث القدسي يقول : « أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أضمر له » (١)

فأله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار . . . ولذلك فإن المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله . لماذا ؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه وتعالى يهوى بعباده ملائكته . ويقول : انهم يعبدوني لذلك . فتقول الملائكة : مل يحدوك لنعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يرالون يحبوني . . . ومن عبادي من أحب دعاءهم . فأنا ابتليهم حتى يقولوا يارب . لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى . ولذلك إذا ابتل عبد في صحته مثلاً . وسلب منه نعمة العافية . ترى الجاهل هو الذي ينظر الى هذا نظرة عدم الرضا . وأما المتعمق فينظر الى قول الله في الحديث القدسي . ان الله عز وجل يقول يوم القيامة . « يا بن آدم مرضت فلم تعطني قال : يارب وكيف أعوزك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبادي فلاناً مرض فلم تعله . أما علمت أنك لو عدته بوجدتي

(١) روى الترمذي وابن ماجه من حديث الحبيب ورواه النسائي .

عنده ﴿ ٢٧ ﴾ فلر فقد المؤمن نعمة العافية . . فلا يأس فان الله تعالى يريد ان يعيش مع المنعم . . وأنه طوال فترة مرضه في معبة الله تعالى ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » معناها . ان لم تكونوا مؤمنين لداين . فستحيوا أن تتركبوا المعصية بنعمتي التي انعمت عليكم . ولقد جاءت النعمة ها لأن بني اسرائيل يعبدون الله من أجل نعمة .

« اذكروا نعمتي » الذكر هو الحفظ من السيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا نسي المسبب لنعم . فالشمس تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع الا بإذن الله ويشكره . والمطر ينزل كل فترة من منا يتذكر أن المطر ينزله الله ليشكره . فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا وعظمته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فيالذكر يكون في بالنا وإلهنا . ونعمته يكون ذكره وشكره دائماً

والحق سبحانه وتعالى طلب من بني اسرائيل أن يذكروا النعمة التي أنعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا المنعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك في ركن ركين . لا يصل اليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يجعلنا حركة الحياة في كل شيء . فذكر الله يوجد في القلوب المشروع . ويقلل من المصاعب ويتضع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة . حين يقول الحق سبحانه وتعالى . « اذكروا نعمتي » معناها اذكرون حتى بالنعمة التي أنعمت عليكم . وقوله تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » العهد هو الميثاق . والفرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا لَكُمُ الْيَمِينَ قَبْلَ هَٰذَا وَلَمْ نَجِدْ لَهُمْ عَزَمًا ۝١١٥﴾

(سورة طه)

أذن فالعهد أمر موثق بين احد وربه . ما هو العهد الذي يريد الله من بني

سرايل أن يوفوا به ليقى الله بعهدهم ؟

يقول : اما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن يؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا اذا هبط الانسان في مكان ليس فيه أحد . ثم نام وقام عوجد مائة حافلة بالنعم امامه . ألا يسأل نفسه . من صنع هذا ؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لا بد أن يكون لها من صانع خصوصاً أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فادا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذي خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن إيجاد همه المصمم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

اذن فذكر الله وشكره واجب بالفطرة السلية ، لا يحتاج الى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبد ونشكره هر فطرة الايمان لما اعطاه لنا من نعم . عى أن الحق سبحانه وتعالى تجلده يقول :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

وفى آية اخرى :

﴿ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ما هي هذه القضية التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبينها اليها في هذه الآيات الكريمة ؟ الله سبحانه وتعالى يريد أن يعرف أنه قد وضع في يدينا مفتاح الجنة . فهي يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذي يعود الى الجنة او الى النار . ولذلك اذا وفيت بالعهد أوفى الله . واذا ذكرت الله ذكرك . واذا نصرت الله نصرك . .

والحديث القدسي يقول : وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراها وإن تقرب إلى ذراها تقربت إليه باها وإن أتى يمشي أتته هرولة (١)

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبيننا أن المحتاح في يدنا نحن . فإذا بدأنا بالطاعة . فإن عطية الله بلا حدود . وإذا تقربنا إلى الله تقرب إليها . وإذا بعدنا عنه نادانا . هذا هو إيمان الفطرة

هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه في قوله : «أوهوا بعهدى أوف بعهدكم» أو هو العهد الذى أخذه الله على الأنبياء ليبينوا أنهم آمنوا بهم إذا جاء رسول مصلى لما معهم فلا بد أن يؤمنوا به وينصروه ؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الأنبياء جميعا العهد لرسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . أو هو العهد الذى أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بني إسرائيل الذين تلقوا التوراة ولفنوها وكتبوها وحفظوها عهد بالآ يكتوموا منها شيئا . وأقرأ قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ فِتْنَةً وَرَأَوْا ظُهُورِهِمْ رَاشِقُوا بِهِ كَمَا قَلِيلًا فَنَقَسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

(سورة آل عمران)

والهدف من هذا العهد . ألا يكتوموا ما ورد عن الإسلام في التوراة . وألا يحضوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى جاءت بها . والله سبحانه وتعالى قد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة وفي الإنجيل . وأقرأ قوله تعالى :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَمِئُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة البقرة)

(١) رواه البخارى في كتاب التوحيد ورواه مسلم والترمذى

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من انشوراة وعرف بنو اسرائيل
انفسهم صدق ما نزل في القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من
قومهم . وقد كان أهل الكتاب من تورا وانجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هي
الرسالة الخاتمة . وأنه لا بد أن يؤمن به قوم كل نبي . من هذا هو العهد الذي يوجب
على كافة الأمم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرتة ان أدركوه . وان لم
يدركوه فالستونية على ايمانهم واحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه . ان
كانت هي عهد ايمان الفطرية ، او كانت هي عهد الايمان برسول الله صلى الله عليه
وسلم فكلامها وارد .

وقوله تعالى . « اوف بعهدكم » أي بما وعدتكم من جنة الميم في الآخرة . فإله
سبحانه وتعالى بعد نزول الاسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة
والسلام . وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

واقرا قوله تبارك وتعالى عندما أحذب الترجمة موسى وقومه وطلب موسى من الله
سبحانه وتعالى الرحمة قال تعالى :

﴿ وَأَكْتُبُ لَكَ فِي هَذِهِ الدِّينِ حَسَنَةً مِنَ الْآخِرَةِ إِنَّ هُدُنَا إِلَيْكَ قُلْ عَذَابٌ أَمِيبٌ بِهِ
مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبُوا الرَّكُونَ وَالَّذِينَ
هُمْ بِأَيْدِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُومًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْفَاحِشَاتِ وَيُصْخِرُ عَنْهُمْ إصرَهُمْ وَأَلْعَنَ الَّذِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ قَالَتِ الْفِتْنَةُ أَتَمُوتُونَ وَيُصْرَهُمْ وَيُصْرَهُمْ وَيُصْرَهُمْ وَيُصْرَهُمْ وَيُصْرَهُمْ وَيُصْرَهُمْ وَيُصْرَهُمْ وَيُصْرَهُمْ
هُمْ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يذكر في سرائيل في هذه الآية الكريمة : ألمهد الذي أحده
عليهم ويذرهم أن رحمة هي للمؤمنين برسول لله صلى الله عليه وسلم متى
جاءت رسالته ..

وقوله تعالى : « وإياي فارهبون » أي به لا توجد قوة ولا قدرة في لكون الأ قوة
الله سبحانه وتعالى . ولذلك فائقوا يوما ستلايون فيه الله ومحاسنكم وهو سبحانه
وتعالى فهار جبار . ولا نجاه من عذابه لمن لم يؤمن .



﴿وَمَا مِنْكُمْ مَّنْ أَنْزَلْتُ مَصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا
أَوَّلَ كَافِرٍ يَّمُوتُ لَا تَسْتَرُوا بَنَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنقُوزَنَّ﴾ ﴿٤١﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى بنو إسرائيل بالعهود التي نطعموها على أنفسهم سواء بعدم السبيل والتعير في التوراة لإحساء أشياء وإصابة أشياء وذكرهم بمهادهم بالنسبة للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه في التوراة . حتى أن الخبر اليهودي ابن سلام كان يقول لقومه في المدينة : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لآبني ومعرفتي لمحمد أشد . أي أنه كان يذكر قومه أن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الموجودة في التوراة . لا تجعلهم يحطون به . قال الحق تبارك وتعالى : «ومرأ بما أنزلت مصدقا لما معكم» . لأن القرآن مصدق للتوراة . والفصد ها التوراة الحقيقية قبل أن يحرقوها بالقرآن ليس موافقا لما معهم من المحرف أو المبدل من التوراة بل هو موافق للتوراة التي لا زيف فيها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «ولا تكونوا أول كافرين» . ولقد قلنا أن اليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وإنما كانت قريش قد كفرت به في مكة . المنصود في هذه الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب . لماذا ؟ لأن قريشا لا صلة لها بسميح السماء . ولا هي تعرف شيئا عن الكتب السابقة ولكن أحسن اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة . وكانوا يستفتحون برسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المدينة ويقولون : «جاء رسلنا سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم» . ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن يسارعوا بالإيمان به . كانوا أول كافرين به .

والله سبحانه وتعالى لم يقاسم أهل الكتاب محيىء محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما نههم إلى ذلك في التوراة والإنجيل . ولذلك كان يجب أن يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين . لأن الذي جاء يعرفونه

وقوله تعالى : « وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا » : الحق سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن الصفقة الإيمانية . يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة اقرا قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثِهِمُ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وفي آية أخرى يقول

﴿ هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ يَمِينَةٍ تُبْحِكُم مِّنْ عَذَابِ الْبَاسِ ﴿١٠﴾ تَذَرُونَهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيُحِبُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾

(من الأمان ١٠ ، ١١ سورة الصف)

ان الحق سبحانه وتعالى استعمل كلمة الصفقة واشراء والبيع بعد ذلك في قوله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا رُدِّيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَفَرُّوا الْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

ويعلم أن التجارة هي وسيلة بين المنتج والمستهلك . . المنتج يريد أن يبيع إنتاجه . والمستهلك يحتاج الى هذا الانتاج . والبيع عملية تطول فترة . . وتقصر فترة مع عملية تحرك السلعة والاقبال عليها ان كان سريعا او بطيئا . وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليعين لنا أنها أقصر طريق الى النفع . فالتجارة تقوم على يد الانسان . يشتري السلعة ويبيعها . ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضا من حرية نفسك . ليحيطك أعنود وأوسع منها .

وكما قلت : لو قارنا بين الدنيا بعمرها المحدود . . عمر كل واحد منا . كم سنة ؟
خمس . . ستين . . سبعين !! نجد أن الدنيا مهما طالبت . . ستنهي . والانسان العاقل هو الذي يضحى بالفترة الموقوتة والمنتهية ليكون له حظ في الفترة الخالدة .

وبذلك تكون هذه الصفقة رابحة .

إن النعيم في الدنيا على قدر قدرات البشر والنعيم في الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى . يأتي الأسان ليقول لماذا أصيب على نفسي في الدنيا ؟ لماذا لا أمتع ؟ تقول له : لا . . إن الذي ستناله من العذاب والعقاب في الآخرة لا يساوي ما أخفته من الدنيا . . إذن الصفقة حاسرة . أنت اشتريت زائلا . ودفعته ثمنا نعيم حالد . .

والله سبحانه وتعالى يقول لليهود : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » أي لا تدفعوا الأيت الإيمانية التي أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمنا قليلا . وعندما يأخذ الإنسان أقل مما يعطى . فذلك قلب للصفقة . والقلب ثلث من الخسارة دائما .

وكان الآية يقول . تدعون آيات الله التي تكون مبهجة المتكامل لتأخذوا حرضا من أعراض الدنيا . فيمنه قليلة ووقته قصير . هذا قلب للصفقة .

ولذلك جاء الأداء القرآني مقابلا لهذا القلب . ففي الصفقات . . الإثنان دائما تدفع والسلعة تؤخذ . ولكن في هذه الحالة التي نتحدث عنها الآية . في قوله تعالى « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » قد جعلت الثمن الذي يجب أن يكون مدفوعا جعلته مشترى وهذا هو الحق والخطأ .

الله يقول « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » أي لا تقبلوا الصفقة . الشيء الذي كان يجب أن تضجوا به لا تجعلوه ثمنا . لأنك في هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة . ما دمت تشتري الآيات بالثمن . . فقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية . وليتك جعلتها ثمنا عاليا . بل جعلتها ثمنا رخيصا .

قد تنكرت لعهدك مع الله ليفي لك مالك أو مركزك !! أما إذا صحى الأسان بشيء من منع الدنيا ليأخذ متع الآخرة اباقية . فتكون هذه هي الصفقة الرابعة . ذلك لأن الإنسان في الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم ولكنه في الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى في النعيم .

بعض الذين لا يريدون أن يعملوا أنفسهم على منج الله يستعملون مكاسب الصفقة . استعجالا أحق . انهم يريدون المتعة حراما أو حلالا . . نقول لكل واحد منهم : ان كنت مؤمنا بالآخرة : أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة . . لأنك في كلتا الحالتين ستعذب في النار . . فكأنك اشترت بإيمانك ودينك متعة زائلة . وجعلت الكفر ومعصية الله هم الثمن فقلبت الآية ، وجعلت الشيء الذي كان يجب أن يشتري بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع . ويباع بماذا ؟ بنعيم زائل ! وعندما يأخذ الإنسان أقل مما يعطى . . يكون هذا قلبا للصفقة

فكان الآية تقول : انكم تدفعون آيات الله وما تعطونكم من خيرى الدنيا والآخرة لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمنه قليل . والثمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرهما . . وهى ليست سلعة . فهب أن معك كتر قارون ذهبا . وأنت في مكان منزول وجائع . ألا تعطى هذا الكثر لمن سيعطيك رغيها . . حتى لا تموت من الجوع ؟ ولذلك يجب ألا يكون المال خفية أو سلعة . بل أن جعلته خفية يكون معك المال الكثير . ولا تشتري به شيئا لأن المال غايتك . فيفسد المجتمع .

إن المال عبد مخلى . ولكنه سيد ردى . هو هيك حين تنمقه . ولكن حين تحزنه وتتكالب عليه يشفيك ويمرضك . لأنك أصبحت له عaslما .

والآية الكريمة . تعطينا فكرة عن اليهود لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب . قاله سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال في الربا يصبح سلعة . فلهاته تأخذ بمائة وخمسين مثلا . . وهذا يفسد المجتمع ، لأنه من المفروض أن يريد المال بالعمل . فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل . فسدت حركة الحياة وزاد الفقير فقرا . وزاد الغنى غنى . وهذا ما نراه في العالم اليوم

فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقتصر على المال وتتراكم عليها فوائد حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه . وكلها مرف الوقت . زادت القوائد . فيضاعف الدين . ويستحيل التسديد . والدول الغنية تزداد غنى ، لأنها تدفع القروض وتسترد بأضعاف قيمته

وإذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولا تشتروا بآياتنا ثمنا قليلا » يجب ألا نهم أنه

يمكن شراء آيات الله بثمن أعلى . لا . لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا .
وقليلا جدا . لأنه يقابل آيات الله . وآيات الله لا تقدر بثمن . فالصفة خاسرة
مهما كانت قيمتها .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإياي فاتقون » وفي الآية السابقة قال . « وإياي
فارهبون » وهي وعيد . ولكن « إياي فاتقون » رافع مقوله تعالى « وإياي
فارهبون » هي وعيد وتحذير لما سيأتى في الآخرة . ولكن « وإياي فاتقون » يعنى اتقوا
صفات الجلال من الله تعالى . وصفت الجلال هي لئى تتعلق سطش الله وعذابه .
ومن هذه الصفات الجبر والقهار والتكبر والفناء والمستقم والمثلل . وغيرها من صفات
الجلال .

الله سبحانه وتعالى يقول : « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » كيف ؟ نقول إن
الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيتا وبين النار . وهي أحد جنود لعذاب الله
سبحانه وتعالى . وقاية . ويريدنا أن نجعل بيتا وبين عذاب النار وقاية . ويريدنا
أيضا ، أن نجعل بيتا وبين صفات الجلال فى الله وقاية . فقولته تعالى « وإياي
فاتقون » أى اجعلوا بيكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . حتى لا يصيبكم
عذاب عظيم . وكيف نجعل بيتا وبين صفات الجلال فى الله وقاية ؟ أن نكون
أعمالنا فى الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى . اذن فالتقوى مطلوبة فى الدنيا



﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

بعد أن حذر الحق سبحانه وتعالى اليهود من أن يبيعوا دينهم بثمن قليل وهو المال أو النفوذ الدنيوي . قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » مادة تلبس . مأخوذة من اللباس الذي يرتديه . واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفي الحق ولا نظهره . فاللباس تغليب للجسم يستره فلا يبين تفاصيله . .

والحق هو القضية الثابتة المقدرة التي لا تتغير . فلنترض أننا شهدنا شيئاً يقع . ثم روى كل منا ما حدث . إذا كنا صادقين لن يكون حديثنا إلا مطابقاً للحقيقة . ولكن إذا كان هناك من يحاول تعبير الحقيقة فيكون لكل منا رواية . وهكذا فالحق ثابت لا يتغير .

في التوراة آيات لم يعرفها اليهود .. وآيات محرفة . كل الآيات التي تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه .. وأنه النبي الخاتم .. حورفها اليهود . والآيات التي لا تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحرفوها .. فكأنهم خلطوا الحق بالباطل .. ما الذي جعلهم يدخلون الباطل ويحاولون إخفاء الحقائق ؟ المصلحة الأولى . يشترطوا بآيات الله ثمتا قليلا . والباطل هو ما لا واقع له . ولذلك فإن أبواب الباطل متعددة .

وباب الحق واحد . فאלله سبحانه وتعالى يريد أن يهلفنا أن اليهود قد وضعوا في التوراة باطلا لم يأمر به الله . وكنتموا الحقيقة من رساله محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو اسيان ؟ لا بل فعلوه وهم

يعلمون . نأى مثلا الى قول الحق تبارك وتعالى لليهود :

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ حُدُودًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ حَطْبُكُمْ وَسَمَرُ بَدِ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

وحطة أى خط عا يلوب دسوبا . يأتى اليهود ويخبرون قول الله . مبدلا من أن يقولوا حطة . يقولوا حطة . من يسمع هذا اللفظ قد لا يتنبه ويعتمد أنهم قالوا ما أمرهم الله به . مع أن الواقع أنهم حرقوه . وبذلك عندما كانوا يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : راعنا ليا بالسنتهم . وكان المفروض أن يقولوا راعينا . ولكنهم قالوا راعنا من الرهونة . والله تعالى نبه المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقولوا مثلهم . فقال حل حلاله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » .

أى اتركوا هذه الكلمة نهائيا ، هذا ليس الحق بالباطل . اذن فاليهود اليسوا الحق بالباطل . ولا نساك لا يلبس الحق بالباطل . . . إلا اذا كان لا يستطيع مواحهه الحق . لأن عدم القدرة على مواجهة الحق ضعف نقيضه الى الباطل ، لأن الحق يتعب صاحبه . . . والانسان لا يستطيع أن يتحمل نفسه على الحق .

وقوله تعالى . « وتكتسبوا الحق وأنتم تعلمون » ، أى أنهم يفعلون ذلك عن عمد وليس عن جهل . فقد يكتم الانسان حقا وهو لا يعلم أنه الحق ولكن اذا كنت تعلمه فذلك هى النكبة لأنك تحميه عمدا متعمدا . أو وأنتم تعلمون . قد يكون معناها أن اليهود - وهم أهل كتاب - يعلمون ما سيصيبهم من الآخرة من العذاب الأليم . . بسبب اختنائهم الحق . فهم لا يجهلون ماذا سيحدث في الآخرة . ولكنهم يقدمون على عملهم مع علمهم أنه خطأ فيكون العذاب حقا .



﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

إقامة الصلاة معروفة . وهي تبدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم . بشرائطها من عناصر القيام واركوع والسجود . ولكن الحق يقول « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » إما أنه يريد منهم أن ينضموا إلى مركب الإيمان الجامع لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع . إذن فهو يريد منهم أن يؤمنوا بحمد صلى الله عليه وسلم . ولا يفتنوا أن إيمانهم بموسى عليه السلام يعفيهم من أن يكونوا خاصعين لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ويقولون دينا كالدينا . إنما جاء الإسلام لمن لا دين له وهم الكفار والمشركون . . فيقول هم : « اركعوا مع الراكعين » .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلتفتهم إلى أن صلاتهم لن تقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع . وصلاة اليهود ليس فيها ركوع . . وإن كان فيها سجود ، وفي كلتا الحالتين فإن الحق سبحانه وتعالى يلتفتهم إلى ضرورة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحق سبحانه وتعالى حينئذ قال . (ولا تشتروا بآيائكم ثمنا قليلا) يريد أن يلتفتهم إلى أن العكس هو المطلوب وأنهم كان يجب أن يشتروا الإيمان وشهادوا الصفة الرابعة . ولن يحدث ذلك إلا إذا آمنوا بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . فهذا هو الطريق الوحيد لرض الله سبحانه وتعالى .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلم تكبرهم على الدين الجديد فأمرهم بالصلاة كما يصح المسلمون . وبالزكاة كما يزكي المسلمون . فلا يعتقدون أن إيمانهم بموسى والتوراة سيقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذي آمنوا أن يؤمنوا به . بل أن إيمانهم بموسى والتوراة . لو كانوا مؤمنين بها حقا . . يستوجب هذا الإيمان عليهم أن

يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التوراة تأمرهم بذلك . فكان عدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كفر بالتوراة وانتقض لتعاليمها .

والصلاة كما قل .. استحضار العبد وقفته بين يدي ربه . وحسباً يقف العبد بين يدي الله .. لا بد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء . ويدخل بدلاً منه الخضوع والخضوع والذلة له . والمتكبر صهل عن رؤية ربه الذي يقف أمامه . انما عدم إيمانهم بهذا النبي والوقوف بين يدي الله للصلاة كما يجب أن تؤدي ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سموات . انما هو رفض للخضوع لأوامر الله

وبعد ذلك تأتي الركعة لأن العبد المؤمن لا بد أن يوجه حركة حياته إلى عمل نافع يتسع له ولم لا يقدر على الحركة في الحياة . والله سبحانه وتعالى حسبنا بطلاننا بالسعي في الأرض لا يطلب أن يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط ، بل يطلبنا أن نكون نمرتنا أكثر من حاجة حياتنا . حتى يتسع هذا التحرك ليشمل حياة غير القادر على حركة الحياة . فيتسع المجتمع للجميع . ويزول منه الحقد والحسد ، وتنصف النفوس .



﴿أَنَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَشْتُلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

بعد أن لفت الله انتظار اليهود . الى ان علم ايمانهم بالاسلام هو كفر بالتوراة . .
لان تعاليم التوراة تأمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد . وقد أعطوا أوصاف رسول
الله صلى الله عليه وسلم . وزمنه في التوراة . وأمروا أن يؤمنوا به . قال تبارك
وتعالى : « أَنَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » لقد كان اليهود يمشرون بحجىء
رسول جديد . ويعلنون أنهم سيؤمنون به . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولم يكن من قومهم كفروا به . لأنهم كانوا يريدون أن تكون السطوة لهم . بأن يأتي
الرسول الجديد منهم . فلما جاء من العرب عرفوا أن سطرهم سترول . وأن
سيادتهم الاقتصادية ستنتهى . فكفروا بالرسول وبرسالته .

ولابد أن ننبه الى أنه اذا كانت هذه الآيات قد نزلت في اليهود . فليس معناها أنها
تنطبق عليهم وحدهم . بل هي تنطبق على أهل الكتاب جميعا . وغير المؤمنين .
فالعبرة ليست بخصوص الموضوع . ولكن العبرة بعموم السبب .

ان الكلام منطبق هنا على المسلمين الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا
وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرض
شفاهم بمقارض من نار . سأل : من هؤلاء يا جبريل : فقال خطباء الفتنة . انهم
الذين يزينون لكل ظالم ظلمه . ويجعلون دين الله في خدمة أهواء البشر . وكان
الأصل أن تخضع أهواء البشر لدين الله . وهؤلاء هم الذين يحوّلون تحت شعار
التجديد . أن يجعلوا لباس حجة في أن يحتلوا من منهج الله . فهم يبررون
ما يفعل . ولا يتدبرون حساب الآخرة .

إن علماء الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبرير ما يقع من غيرهم . ومنهج الله لا يمكن أن ينحصر أبداً لأمواء البشر . وعلى الذين يفعلون ذلك أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله . ويحاولوا استدراك ما وقع منهم . لأن الرجوع إلى الحق خير من التهادي في الباطل .

وقول الحق سبحانه وتعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يعطينا مصححاً آخر من مناهج الدعوة . لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ومنهج الله . يريد أن يخرج من لا يؤمن من حركة الباطل التي ألغها . وإخراج غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاق على نفسه . لأنه خروج عن الذي اعتاده . وبعد هذا ألقه . واعتراف أنه كان على باطل لذلك فهو يكون معصوم العيب هل من يرى له طريق الإيمان ليرى هل يطبق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق النامي عن المنكر ما يقوله ؟ فإذا طبقه عرف أنه صادق في الدعوة . وإذا لم يطبقه كان ذلك عدواً ليعود إلى الباطل الذي كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تقال . وسلوك يفعل . فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة . والله سبحانه وتعالى يقول .

﴿ يَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا يَرْفَعُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ① كَبُرَ مَقَباً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ② ﴾

(سورة الصف)

لماذا . . ؟ لأن من يراك تفعل ما تنهيه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش . وما لم ترتصه أنت كسلوك لنفسك لا يمكن أن تبشر به هيرك . لذلك اقرأ القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ① ﴾

(سورة الاحزاب)

فمنهج الدين وحده لا يكمي .. الا بالتطبيق . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر الا كان أسبغهم اليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه الفتوة قولاً وعملاً ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه . حين يريد أن يقنن أمراً في الاسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لي أن أمر بكذا وكذا ، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجمعك نكالا للمسلمين . وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة ، لأنه يعلم من أين تأتي ..

وفي الدعوة الإسلامية لا بد أن يكون العلماء قدوة لمنصلي أمر الناس . ففي كل صوم الدنيا القدوة ليست مطلوبة إلا في الدين . فانت إذا ذكر لك عالم كيميائ بارع . وغفل لك أنه يتناول الخمر . أو يفعل كذا . تقول مالي وسلوكه . أنا أخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع في ذلك . ولكن لا شأن لي بسلوكه . وكذلك كل علماء الأرض ماعدا عالم الدين . فإذا كان هناك عالم يصرك بالطريق المستقيم . وتتلقى عنه علوم فينك ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق . أنتستمع له ؟ أبدا . انه يهبط من نظرك في الحال ولا تحب أن تسمعه . ولا تجلس في مجلسه . مهما كان علمه . فتقول له كفك ودعلا

وهكذا فإن عالم الدين لا بد أن يكون قلوباً فلا ينهى عن منكر ويفعله أو يأمر بمعروف وهو لا يفعله . فالناس كلهم مفتحة أعينهم لما يصنع والاسلام قبل أن ينشر بالمتبع العلمي .. انتشر بالمتبع السلوكي . وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته اليه . فالدين بشروا الاسلام في الصين .. كلك أغلبهم من التجار الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام . فاجذبوا حولهم الكثيرين فاعتنقوا الاسلام . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣)

(سورة فصلت)

فالشروط الأولى هي الدعوة إلى الله . والشروط الثانية العمل الصالح . وقوله : « أرى » من المسلمين ، لم يسب الفضل لنفسه لولادته . ولكنه نسب الفضل إلى الإسلام . ولكن قولوا لي : أي فائدة أن تقول أننا مسلمون وعمل بعمل غير المسلمين ؟

اذن فقله تعالى . « اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يذكر الله بأن اليهود يقولون مالا يفعلون . ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لأمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالإسلام . لأن ذلك أمر في التوراة . ولكنهم نسوا أنفسهم . وهم أول مخالف للتوراة . لأنهم لم يتبعوها . . وهم يتلون كتابهم الذي يأمرهم بالإيمان الجديد .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إلا أنهم لا يؤمنون . ولو كان عندهم ذرة من العقل لأمروا بما يطلبه منهم كتابهم الذي يتلونه . ولكنهم لا يفكرون بصرفهم ، وإنما يريدون علوا في الأرض والآية . كما قلنا . لا تنطبق على اليهود وحدهم . بل على كل من يملك هذا السوء



﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١٥)

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان قدرة . وبعد أن قلنا اني أن التوراة تطالب اليهود . بأن يؤمنوا بحمد عليه الصلاة والسلام . يطلب الله سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر والصلاة . ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثا شاقة ستقع . وأن المسألة لن تكون سهلة بل تحتاج الى جهد . فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب . وهم ملذاموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل .. لأنهم فعلوا الصعقة . فجعلوا آيات الله ثمنا لمتع الدني . واشتروا بها متعهم وملذاتهم . وبعد أن تعودوا على الرب وغيره من وسائل الكسب الحرام . لابد أن يستمروا بالصبر اذا أرادوا العودة الى طريق الإيمان

وكما قلنا فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب . فاتها موجهة للجميع . فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتج الى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه . وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله سبحانه وتعالى .

والصبر في الآية الكريمة فسرهُ بعض العلماء بأنه الصيام ، فكان الله تعالى يأمرهم أن يحرموا ويصبروا على ألم الجوع . ومشقة الإيمان والصلاة كما قلنا خشوع وحضوع وذلة لله .. تهى استكبارهم بأن يؤمنوا بدين لم يتزل على أحد من احبار اليهود . والحق سبحانه وتعالى يقول : «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»

ويطلب الحق في قوله . « واستعينوا بالصبر والصلاة » الاستعانة بشهتين هما الصبر

والصلاة . وكان سياق الآية يقتضي أن يقال : « وانها » لكن القرآن قال : « وانها لكبيرة » فهل المقصود وحدة منها الصلاة فقط أم الصبر ؟

يقول انه عندما يأتي أمران منضيان الى بعضهما لا تستقيم الأمور الا بهما معا ..
يكونان علاج واحد .. وقرأ قوله تعالى :

﴿ يَحْتَمِلُونَ بِأَنَّهُ لَنُكَفِّرَنَّ بَرُؤُوكُمْ وَأَنَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْصِدَهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧)

(سورة التوبة)

فقال يرصده ولم يقل يرصوه . التفسير السابق نفسه نفهمه : ليس لله حق ولرسوله حق . ولكن الله ورسوله يلتزمان على حق واحد . وكذلك قوله تعالى

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ مَهْرًا مَّغْضُوا إِلَيْهَا وَوَرَّكُوا وَنَاجَى ﴾

(من الآية ١١ سورة الجمعة)

وكان المقروص أن يقال اليها . ولكن التجارة واللهو لمي عين واحد . هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر : « واستمعوا بالصبر والصلاة » لأن لعلاج في الصبر مع الصلاة . والصبر كبير أن تتحملة النفس وكذلك الصلاة لأنها يأخذان من حركة حياة الانسان . والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من تعيم الدنيا ورخرها . والصلاة تحارب الاستكثار في النفس . فكان الوصفة الايمانية لا تتجرا . فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تنفع الصلاة الا بالصبر .

وقوله تعالى : (لا على الخاشعين) . ما معنى الخشوع ؟ الخشوع هو الخضوع لمن نرى أنه فوقك بلا منازع . فالناس يتفاوتون في القيم والمواهب . وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومراهبه . ويقول . أنا خير من فلان . أو أنت خير من فلان . إذن فمن الممكن أن يستكبر الانسان بما عنده . ولكن الانسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده . لأن لو تكبر عليه أتعبه في دنياه . ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب من الشيوخ والخشوع على الشيوخ . فكل انسان ما يحتاج للآخر . هذا خشوع على الشيوخ . وكل انسان منا مبرز بما لا يقدر عليه غيره . هذه مواهب

على الشروع . هذا في الشر ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنه خشوع لمن خلق ووهب وأوجد .

والخشوع يجعل الانسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ويعرف ضالة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة . . ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار . ولذلك فلنخضع للذي لا يتغير . لأن كل ما يحصل عليه الانسان هو من الله وليس من ذاته . والذين يعترفون بوجود الأسباب يقول لهم : اعبدوا واحشعوا لواهب الأسباب وخالفها . لأن الأسباب لا تعمل بذاتها . والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا . . أي متداولة بين الناس . انسان يفاخر بقوته ، يأتي من هو أقوى منه فيهزمه . انسان يفاخر بماله . يضيع هذا المال في لحظة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنْ يَمَسُّكَ قَرْحٌ مِّنَ الْقَوْمِ فَزَيِّدْهُ مِثْلَهُ ۖ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدَارِيهِ بَيْنَ أَفْئِسٍ وَيَلْبِسُ ۚ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذُ مِثْرًا شُهَدَاءَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ ١١ ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك لا بد أن نفهم . أن الانسان الذي يستعمل بالاسباب سياتى وقت لا تعطيه الاسباب . فالانسان اذا بلغ في عيه وأعين الناس مرتبة الكمال . اغتر بنفسه . يقول له . لا تغتر بكلمات نفسك . فإن كانت موجودة الآن . فستغير غدا . . فالخشوع لا يكون الا لله . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وأما لكبيره إلا على الخاشعين » من هم الخاشعون ؟ الخاشع هو العاطع لله . الممتنع عن المحرمات . الصابر على الأقدار . الذي يعلم يقينا داخل نفسه أن الأمر لله وحده . وليس لأى قوة أخرى . . فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .



ويقول المعري في آخر حديثه :

فكل مكسب بالأحره خاسر . والنفس البشرية لا بد ان تحتاط للقاء الله . وان تعترف ان هناك حسراً وتعمل لذلك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون انهم ملائكة وهم وانهم اليه راجعون » والرجوع الى الله سبحانه وتعالى أمر يقيني . فمانعت قد جئت الى الدنيا مخلوقا من الله فأننت - لا محالة - سترجع اليه . وهذا اليوم يجب أن نحتاط له . حيلة كبرى . وان نرتبه . لاث يوم عظيم . . . ولحق سبحانه يقول :

(سورة الحج)

ويَقُولُ جَل جَلَالَهُ :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (٤٧)

(مسودة المزمّل)

إذا كان هذا حالنا يوم القيامة ، فكيف لا يكفى مجرد الظن لأن نتمسك بمنهج الله . ونحن نحتاج لأحداث دينية لا تساوى شيئا بالنسبة لأحوال يوم القيامة . أن الظن هنا بأننا سنلاقى الله تعالى يكفى لأن يعمل له ألف حساب .



الخاتم . وبما ان اوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت في التوراة وطلب منهم ان يؤمنوا به وينصروه فان عدم ايمانهم به هو كفر بالتوراة . كما ان الانجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم ان يؤمنوا به . فعلم ايمانهم به كفر بالانجيل .

وقوله تعالى : « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » اي اذكروا اني جعلت في كتابكم ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته . والمعنى اذكروا نعمتي بأن فصلتكم عن العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الأنبياء .

ومادام احق سبحانه وتعالى . قد فضلهم على العالمين فكيف بمن عليهم ؟ يقول المن هنا لشدة التكاية بهم . فآله سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم الفرقة والخصاير وعبد الطاغوت .
واقرا قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَحْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا زُرَّةً حَسِينَةً ۖ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مُثَوِّبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَلَايِرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ مَن سَوَاءَ السَّبِيلِ ۖ ﴾

(سورة المائدة)

فآله سبحانه وتعالى بين لنا كيف كهر بنوا اسرائيل بأنبيائهم وقتلوههم . رغم ان الله تعالى أعطانهم خيرا كثيرا .. لكنهم نكثوا العهد .. فاستحقوا العذاب . فهم لم

يَجْعَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً فِي إِخْلَاصِهِمْ وَلَا يَمَانُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَصَدِّقَ مَتَجَهَهُ .
وَتَصَدِّقَ الرِّسُولَ الْخَاتَمَ الَّذِي ذَكَرَ عَنْهُمْ فِي الثَّوَرَةِ . كَانَ يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِأَقْلِهِ وَأَنْ
يَذْكُرُوا نِعْمَهُ لِكَثْرَةِ الْفَضْلِ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَا عَلَيْهِمْ

واحق يريد ان يلفس الى انه مادام قد انعم عليهم .. فلا يظنوا انهم غير مطالبين
بالايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . انما كان لابد ان يفهموا ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم ويوضح لهم الطريق الصحيح فكان
يجب عليهم ان ينصروه . والنعمة لا يمكن ان تستمر مع الكفر بها . وحتى لا يظن
ان الله سبحانه وتعالى قد قس عليهم بان جعلهم امة متفرقة في الأرض كلها . ثم بعد
ذلك يجمعون في زمن واحد ليفتلقوا .. واقرأ قوله تعالى .

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُوتُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الاسراء)

أي أرض تلك التي طلب الله سبحانه وتعالى من بني اسرائيل ان يسكنوها ؟
مادام الحق سبحانه وتعالى قال . « اسكوا الارض » فهي الأرض كل الأرض .
وهل تكون الأرض كلها وطناً لليهود . طبعاً لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم ان
يفتقدوا في الأرض . فلا تكون لهم دولة الا عندما يشاء الله ان يجمعهم في مكان
واحد . ثم يسلط عليهم عباده المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَصَبَّأَ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ① فَلَمَّا جَاءَ وَعْدُ ② وَلَهُمَا بِعَنَاقِكُمْ ③ عِدْدَانَا ④ أُولَى نَأْسٍ شَدِيدٍ بِالْحَسْرِ ⑤
يَخْلُلُ ⑥ الدِّيَارَ ⑦ وَكَانَ وَعْدًا مَقْضًى ⑧ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ
بِأَمْرٍ ⑨ وَبَنِينَ ⑩ وَجَعَلْنَا كَثْرًا بَعْدَ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿

(سورة الاسراء)

هذه هي المرة الاولى التي انتصر فيها المسلمون على اليهود . يقول الحق سبحانه

وتعالى . « ثم ردنا لكم الكرة عليهم » وعاد الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهي على المسلمين . لأنهم هم الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : « وأمددناكم بأموال وبنين » معناها أنهم ينتصرون على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهد في الفترة الأخيرة . أي أن المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى أن إسرائيل قلقة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى . وجلب الأموال والمساعدات من الدول الأخرى أي أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . وإسرائيل لا تستطيع أن تعيش إلا بالمهاجرين إليها وبالمعونات التي تأتيها . فالمدد لا بد أن يأتي من الخارج . إذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد .. فمعتاه أنه يريد رجالا يأتيونه من خارج أرض المعركة ليصحبوا مددا وقوة لهذا الجيش . وقوله تعالى : « وجعلناكم أكثر نفيرا » النفي هو الصوت العالي الذي يجذب الانتباه . ونحن نرى الآن أن إسرائيل تسيطر على وسائل الإعلام والدعاية في العالم . وإن صوته عال ومسموع .. ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوء وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » .. ومعنى هذا أن المسجد الأقصى سيصبح من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود هيأى المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عن . ويقول الله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لغيا » والتلفيف هو الجمع غير المتجانس . الذي يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما أن الله سبحانه وتعالى فدق في أن يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين .. يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لا بد أن يجمعهم في مكان واحد . لأنهم لو بقوا كجاليات متفرقة في كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات لقي يمحشون فيها لاقتضى ذلك أن يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتي بهم من كل دولة إلى المكان الذي فيه بيت المقدس حتى يمكن أن يحاربهم المسلمون ، وأن يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم . ويمنعهم وكفرهم حتى لا يقول أحد إن الله سبحانه كان قاسيا عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا في الأرض فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ١٨

قوله تعالى : « وأنتم أيها الناس لا تجرى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » وهو يوم القيامة الذي لا ينفع الإنسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم ان يجعلوا بينهم وبين صلاته الجلال لله تعالى في ذلك اليوم وقاية .

ان هناك آية أخرى نقول :

﴿ وَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ١٩

(سورة البقرة)

وهذه الآية وردت مرتين وصدر اليتين مثنى . ولكن الآية الأولى نقول : « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » والآية الثانية : « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » هل هذا تكرار ؟ نقول لا . والمسألة تحتاج الى فهم . فالآيتان معقتان في مطلقهما : في قوله تعالى : « وأنتم أيها الناس لا تجرى نفس عن نفس شيئا » .

ففي الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل . والثانية آخر الشفاعة وقال لا تنفع . الشفاعة في الآية الأولى مقدمة والعدل متأخر . وفي الآية الثانية العدل مقدم والشفاعة مؤخرة . وفي الآية الأولى لا يقبل منها شفاعة . وفي الآية الثانية .. لا تنفعها شفاعة . والمقصود بقوله تعالى « وأنتم أيها الناس لا تجرى نفس عن نفس شيئا » هو يوم القيامة الذي قال عنه سبحانه وتعالى .

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١١)

(سورة الانفطار)

وقوله تعالى :

« لا تجزى نفس عن نفس شيئا » كم نفسا هما ؟ انهما اثنتان . نفس عن نفس . ههنا نفس أولى ونفس ثانية . فما هي النفس الأولى ؟ النفس الأولى هي الجازية . والنفس الثانية . . هي المجزى عنها . . وبما دام هناك نفسان فنقوله تعالى . « لا تقبل منها شفاعة » هل من النفس الأول أو الثانية ؟

إذا نظرت الى المعنى فالمعنى انه سيأتى انسان صالح في يوم القيامة ويقول يا رب أنا مسألجى عن فلان أو أغنى عن فلان أو أقمى حق فلان . النفس الأولى أى النفس الجارية تحاول ان تتحمل عن النفس المجزى عنها .

ولكى تقرب المعنى والله المثل الأعلى نفترض ان حاكم غضب على أحد من الناس وقرر ان يتقم منه أشنع انتقام . بأن صديق لهذا الحاكم ويحاول ان يجزى عن المعضوب عليه . فيما لهذا الرجل من منزله عند الحاكم يحاول ان يشفع للطرف الثالث . وفى هذه الحالة اما ان يقبل شفاعة أو لا يقبلها . فإذا لم يقبل شفاعة فانه سيقول للحاكم أنا مسأدد ما عليه . . أى سيدفع عنه فدية ، ولا يتم ذلك إلا اذا فسدت الشفاعة .

فإذا كانت المسألة وفى يوم القيامة رجع الله سبحانه وتعالى . . يأتى إنسان صالح ليشفع عند الله تبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه . فلا بد أن يكون هذا الإنسان المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله . واقرأ قوله سبحانه

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَمِنْ خَلْفِهِمْ مُشَقُّونَ ۚ ﴾

(سورة الانبياء)

والانسان الضائع يحاول ان يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح ما بئى مساومة أخرى . ادن لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا اذا هشت الشفاعة

هنا الضمير يعود الى النفس الجازية أى التى تتقدم للشفاعة عند الله . يقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها شفاعة » فلا يقبل منها أى مساومة أخرى ويقول سبحانه : « ولا يؤخذ منها عدل » . وهذا ترتيب طبعى للاحداث .

في آية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المحررة عنها قل ان نستشعر بغيرها ونطلب منه ان يشفع لها . لا بد ان تكون قد ضاقت حينها وعزت عليها الأسباب . فيضطر ان يذهب لغيره . وفي هذا اعتراف بمحرره . فيقول يارب ملا أفعل حتى أكفر عن ذنوبى فلا يقبل منه . فيذهب الى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرا قول الحق تبارك وتعالى

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّمُونَ نَاكِوَارَهُمْ وَمِمْ عَدْرِيَهُمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا نَأْمُوقُونَ ۝ ١٧ ﴾

(سورة السجدة)

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله بأن يبيدهم الى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا يجبرهم من العذاب ذلك ان الحسنات يذهبن السيئات . .

فيذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله :

﴿ فَلَوْ نَوَيْتُمْ إِيمَانًا سَمِعْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُنُوبَكُمْ عَنَّا غَاطَبٌ فَانْتَدِبُوا كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة النجم)

فهم عرضوا ان يكفروا عن سماعهم . بان طلبوا العودة الى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَنَا رَسُولٌ نَّبِيًّا بِالْحَقِّ فَمَا لَهُ نَائِبِينَ شَفَعَاءَ فَبَشَّرُوهُنَّ أَنَّهُنَّ أَوْ رُدَّ فَعَصَلَ خَيْرَ الَّذِي تَكُنَّ عَمَلٌ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصُلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

(سورة الاحزاب)

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا في حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ بمصدق القول تعالى : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » .. وهكذا نرى الاختلاف في الآيتين . فليس هناك تكرار في القرآن الكريم ..

ولكن الآية التي نحن بصددنا تتعلق بالنفس المجازية . أو التي تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه . « فلا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والآية الثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . أي ان انضمير هنا عائد على النفس المجزى عنها فهي تقدم العدل أولا : « ارجعنا نعمل صالحا » فلا يقبل منها ، نبحث عن شفاعة فلا نجد ولا تنفعها شفاعة .

وهذه الآيات التي أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة . هل ان هناك مثلا آخر في قول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ يَمْلِكُ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الانعام)

والآية الثانية في قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(سورة الاسراء)

يقول بعض الناس ان « نرزقكم » في الآية الأولى « ونرزقهم » في الآية الثانية من جمال الأسلوب . نقول لا . قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَاقٍ ، أَيْ مِنْ فَقْرٍ مُوجُودٍ وَمَادَامَ الْمَقْرُ مُوجُودًا فَالْإِنْسَانُ لَا يَرِيدُ أَوْلَادًا لِيُزَادَ فَقْرُهُ » ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » . أَيْ أَنْ مَجِيءُ الْأَوْلَادِ لَنْ يَزِيدَكُمْ فَقْرًا . لِأَنَّ لَكُمْ دَرَرَتَكُمْ وَهَمَّ دَرَرَتِهِمْ . وَلَيْسَ مَعْنَى أَنْ لَهُمْ دَرَرَتُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ سَيَنْقُصُ مِنْ رِزْقِكُمْ . فَلَأَبْ رِزْقٌ وَلِلْوَلَدِ رِزْقٌ . أَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ أَمْلَاقٍ » فَكَانَ الْمَقْرُ عَيْرَ مُوجُودٍ وَلَكِنَّهُ يَخْشَى أَنْ رِزْقُ بَأَوْلَادِ يَأْتِيَ الْمَقْرُ يَقُولُ لَهُ الْحَقُّ : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » . أَيْ لَنْ رِزْقُهُمْ سَبَابُهُمْ قَبْلَ رِزْقِكُمْ

عندما نقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » مكررة في الآيتين لا نظن ان هذا تكرار . لأن احدهما حثامها . « لَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ » والثانية : « لَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ » فالصغير مخلف في الخاليتين . مرة يرجع الى النفس الخازية فقدم الشفاعة وآخر العدل . ولكن في النفس المجرى عنها يتقدم العدل وبعد ذلك الشفاعة . الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ يَنْتَظِرُهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ وَأَحْسَنُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلِيِّهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جِزٌّ عَنْ

وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النمل)

أى ان الانسان لا يمكن ان يحزى عن انسان مهما بلغت قرابته . . لا يحزى الولد من أمه أو أبيه . أو يحزى الوالد من أولاده . واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ وَصَدِيقَتِهِ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْقِيهِ ۖ ﴾

(سورة هجس)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها عدل » . « لا يؤخذ منها عدل » . العدل هو المقابل . كان يقول لحسرف على نفسه يارب فعلت كذا وأسرفت على نفسي فأعدهس الى الدنيا أعمل صالحا . وكلمة العدل مرة تأتي بكسر الميم وهى مقابل الشيء من جنسه أى ان يعدل الفماش فماش مثله ويعدل للذهب ذهب مثله وعدل بفتح العين مقابل الشيء ولكن من غير جنسه . والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين حصصين . ومعناه الانصاف ومعناه الحق . والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير . وانك لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره الى كل الجالسين . حتى لا يقال انه مهتم بواحد منهم عن الآخر .

ولابد ان نعرف ما هى النفس . كلمة النفس اذا وردت فى القرآن الكريم . فافهم ان لها علاقة بالروح . حينما تنصل الروح بالمادة وتمطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل ان تنصل بها الروح تكون مفهورة ومنفردة مسبحة لله . فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لان الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقى الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتحرك لشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب الى عالمها التسخيرى . والمادة تذهب الى عالمها التسخيرى . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ ﴾

(سورة النور)

لماذا تشهد ؟ لأنها لم تعد مسخرة للإنسان تتبع أوامره في الطاعة والمعصية فحراسك مسخرة لك بأمر الله في الحياة الدنيا وهي مسخرة وعابدة . فإذا أخطأتك في معصية فأياها قلعتهك لأنك أجبرتها على المعصية فتأني يوم القيامة وتشهد عليك . والله سبحانه وتعالى يقول .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَنشَأَهَا خَوْرَهَا وَنَفَوَهَا ۖ ﴾

(سورة الشمس)

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة الثانية والحياة الروحية . لأن الحياة الروحية تختلف عن الروح التي في جسدك . وهي تنطبق على الملائكة مصداقاً لقوله تعالى .

﴿ زَلَّ بِرُّ الرُّوحِ الْأَمِينِ ۖ ﴾

(سورة الشعراء)

وقوله جل جلاله .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۖ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

هذه هي الروح التي فيها انقاء ولصفاء . وقوله تعالى . « ولا هم ينصرون » . أي ان الله سبحانه وتعالى اذا ألقى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف عذابهم . لا يمكن ان يحدث هذا . لأن الأمر كله لله .



﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْبُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِمَّنْ رَزَّيْكُمْ عَظِيمٌ ﴾

بعد أن حذر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من يوم لا تنفع فيه الشماعة أراد أن يذكرهم بعصاه عليهم وبعصمه . قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ﴾ هي ظرف لشيء وسبق أن قلنا أن الطرف نوعان . لأن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمان يقع فيه وإلى مكان يقع فيه . وعندما أقول لك إحسن مكانك هذا الطرف يراد به المكان وعندما يحاطب الله عز وجل عباده . أذكر أذ فعلت كذا . أي أذكر وقت أن فعلت كذا ظرف زمان . وقرن الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ ﴾ أي أذكروا الوقت الذي نجاكم فيه من فرعون .

والآية التي نحن بصددنا وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم . قوله تعالى

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْبُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِمَّنْ رَزَّيْكُمْ عَظِيمٌ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْبُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٤٦ سورة الاحزاب)

وقوله جل جلاله في سورة إبراهيم :

﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَقَذِّبُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسْتَعْبِدُونَ
نِسَاءَكُمْ﴾

(من الآية ٦ سورة إبراهيم)

الاختلاف بين الأولى والثانية هو قوله تعالى في الآية الأولى «يلذبحون أبناءكم» وفي الثانية «يقتلون أَسْمَاءَكُمْ» (يقتلون أَسْمَاءَكُمْ) «ونجينا» في الآية الأولى «وأنجينا» في الآية الثانية. ما الفرق بين نجينا وأنجينا؟ هذا هو الخلاف الذي يستحق أن نتوقف عنده. في سورة البقرة «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» . . . الكلام هنا من الله. أما في سورة إبراهيم فنجد «أذكروا نعمة الله عليكم إِذْ أَنْجَاكُمْ» . الكلام هنا كلام موسى عليه السلام ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى؟ . . .

إن كلام موسى يحكى عن كلام الله أن الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بتمام النعمة، ولا يمتن بالنعم الصغيرة. والله تبارك وتعالى حين يمتن على بني إسرائيل قال: «ونجيناكم من آل فرعون يلذبحون أبناءكم ويستعبدون ساءكم». ولم يتكلم عن المذاب الذي كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون أنهم كانوا يأخذونهم أجراء في الأرض ليحرقوا وفي أجال لينحتوا الحجر وفي المنازل ليخدموا. ومن ليس له عمل يفرضون عليه الجزية. ولذلك كان اليهود يذكرون ويسببون ملابس هدية حتى يتهاون فرعون في أخذ الجزية منهم وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمْ آتِلَةً وَآلَمْسَكَةَ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

أي أنهم يتمسكون ويظهرون للذلة حتى لا يدفعوا الجزية. ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا المذاب. بل يمتن عليهم بتمام النعمة. وهي نجاة الأبناء من الذبح واستحياء النساء. لأنهم في هذه الحالة يستدل مساؤهم ورجالتهم. فامرأة لا تجد رجلا يحميها وتتحرف.

كلمة نَجَّى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير . كلمة نَجَّى تكون وقت نزول العذاب . وكلمة أنجى تمنع عنهم العذاب الأولي للتخفيف من العذاب والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا . ففضل الله عليهم كان على مرحلتين ، مرحلة انهخلصهم من عذاب واقع عليهم . والمرحلة الثانية انه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم العذاب

قوله تعالى . « يسومونكم سوء العذاب » ما هو السوء ؟ انه المشتعل على الوان شتى من لعذاب كالخلد والسحرة والمعل بالاشعال الشاقة . ما معنى يسوم ؟ يقال سام فلان خصمه أى أذله وأعتى وأرهنه . وسام ملعدوة من سام الماشية تركها نزعى . لذلك سميت بالسلم أى المروكة . وعندما يقال إن فرعون يسوم بنى اسرائيل سوء العذاب . معناها أن كل حياتهم ذل وعذاب . فتجد أن الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن حكم مصر من القراحة يتكلم عن قراحة قدماء كانوا في عهد عاد وعهد ثمود . واقرا قوله تعالى .

﴿ وَالْمَجْرِي ۝ وَلِبَاسٍ مَّجْرِي ۝ رَأْسُفَجٍ وَالْوَرِي ۝ وَالْبَلِي إِذَا بَسِرَ ۝ عَلِي فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ ۝ أَلَّا تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ يَوْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ ﴾

(سورة الفجر)

أى أن الله تبارك وتعالى جاء بحضرة القراحة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود . وهذا دليل على أن حضرة عاد وثمود قد هـ . والله سبحانه وتعالى وصف عادا بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد . أى أنها حضرة أرفى من حضرة قدماء المصريين . قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عادا بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد . مع أنه يوجد الآن حضارات متقدمة كثيرة .

نقول إن الله قد كشف لنا حضرة القراحة وآثارهم . ولكنه أخفى هنا حضرة

عدد . ولقد وجدنا في حضارة الفراعنة أشياء لم يصل اليها حتى الآن . مثل برعتهم في تحنيط الموتى والمحافظة على الجثث . وبناء الأهرامات وغير ذلك . وبما أن حضارة عدد كانت أرقى من حضارة الفراعنة . فلنأخذ نكتون قد وصلت إلى أسرار ما زالت خافية على العالم حتى الآن . ولكننا لا نعرف شيئاً عنها ، لأن الله لم يكشف لنا آثارها .

ولقد تحدث الحق تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون . وتكلم عنهم في أيام موسى باسم آل فرعون . ولكن الزمن الذي كان بين عهدي يوسف وموسى لم يسم ملك مصر فرعون . فسماه العبري الذي هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك . وقال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتْرِكُ يَسَ﴾

(من الآية ٥١ سورة يوسف)

اذن فالحاكم أيام يوسف كان يسمى ملكاً ولم يسم فرعون . بينما حكام مصر قبل يوسف وبعده كانوا يلقبون بفرعون . ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوس أهل بني إسرائيل . فقد أقبلوا على مصر وانتصروا على لفراعة . وحكموا مصر سنوات حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها .

والعريب أن هذه القصة لم تعرف إلا بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك رموز اللغة الهيروغليفية . وكان ملوك الهكسوس من الرعاة الذين استعمروا مصر فترة . ولذلك روى في قصة يوسف عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى : « وقال الملك أتتوني »

وهكذا نعلم أن القرآن الكريم قد روى بدقة قصة كل حاكم في زمه . وصف الفراعنة بأنهم الفراعنة . ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون ولكن كان هناك ملك . وعندما جاء موسى كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر . فلذا كان هذا الأمر لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس . عندما اكتشف الفرسيون حجر رشيد ، ولكن القرآن أرح له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرناً . وهذه معجزته تنصم لمعجزات

كبيرة في القرآن الكريم عن شيء كان مجهولا وقت نزول القرآن وأصبح معلوما الآن . لتجد أن القرآن جاء به في وصمه الصحيح والسليم .

بعد أن تحدثنا عن الخرق بين نجيياكم وأنجيياكم . نتحدث عن الفرق بين « يذبحون أبناءكم » . و « يقتلون أبناءكم » . الذبح غير القتل . . الذبح لابد فيه من ارفقة دماء . والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شرطا فيه أن تسفك الدماء .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن فرعون حينما أراد أن يستقم من ذرية بني اسرائيل انتقم منهم الانتقامين . . انتقاما لأهم كانوا أعداء لالهكموس وساعدوهم على احتلال مصر . ولذلك كان ملك امكوس انحد يوسف وزيرا . فكان الهكموس كانوا موالين لبني اسرائيل . وعندما انتصر العراصة انتقموا من بني اسرائيل بكل وسائل الانتقام . قتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم .

أما مسألة الذبح في قوله تعالى : « يذبحون أبناءكم » فلقد رأى فرعون ندرا هبت من ناحية بيت المقدس فأحرفت كل المصريين ولم ينح منها عبر بني اسرائيل . فلما طلب فرعون تأويل الرقيا . قال له الكهات يخرج من ذرية اسرائيل ولد يكون على يده نهاية ملكك . فأمر القوايل (الدايات) بذب كل مولود ذكر من ذرية بني اسرائيل . ولكن قوم فرعون الذين تمردوا السلطة قالوا لفرعون : ان بني اسرائيل يوشك أن يفرصروا وهم يقومون بالخدمات لهم . فجعل الذبح سنة والسنة الثابتة يفرق على المواليد الذكور وهارون ولد في السنة التي لم يكن فيها ذبح فتبع . وموسى ولد في السنة التي فيها ذبح فحدث ما حدث

اذن سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه . ولمرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولد . ولو فعلوه بأي طريقة أخرى كان الفقه من فوق جبل أو ضربوه بحجر عظيم . أو طعموه بسيف أو برمح قد يحرق من الموت . ولكن الذبح يجعلهم يتأكدون من موته في الحال فلا ينجو أحد .

والحق يقول : « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » كلمه الابن تطلق على الذكر ، ولكن الولد يطلق على الذكر والانثى . ولذلك كان

الذبيح المذكور فقط . أما النساء فكانوا يتركونهن أحياء

ولكن لماذا لم يقتل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الفكرة من هذا هو إبقاء عنصر الأتوية يتسع بين آل فرعون . لذلك لم يقتل سات ولكنه قال نساء أى أنهم يريدونهن لستمعة وذلك للتكيد بينى اسرائيل . ولا يقتل رجولة الرجل الا انه يرى الفاحشة تصنع في نساءه

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . ما هو البلاء ؟ بعض الناس يقول إن البلاء هو الشر . ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « وتبلوكم بالشر والخبر فتنة وإلياً ترجعون »

اذن هناك بلاء بالخبر وبلاء بالشر . والبلاء كلمة لا تخيف أما الذى يخيف هو نتيجة هذا البلاء . لأن البلاء هو امتحان أو احتصار . إن أدبته ونجحت فيه كان حيرا لك . وإن لم تؤده كان ريبا عليك . والحق سبحانه وتعالى يقول في حيله ابراهيم .

﴿ وَإِذْ أَبْنَىٰ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَاحَ الْأَوَّلَ فَأُخْرِجُوا مِنْهُ نَبِيُّ مُّؤْمِنٌ قَالَ إِنِّي جَاءُكَ لِلنَّاسِ إِيمَانًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فإبراهيم نجح في الامتحان ، والبلاء جاء لبنى اسرائيل من جهتين . . بلاء الشر بتعديدهم وتفتيلهم وذبح آبائهم . وبلاء الخير بانجاتهم من آل فرعون . ولقد نجح بنو اسرائيل في البلاء الأول . وصبروا على المذاب والقهر وكان بلاء عظيم . وفي البلاء الثانى فعلوا أشياء مستعرض لها في حينها .



﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾

مرة ثانية تأتي « وإذ » . وبأى الانجاء وسيلة . هذه الوسيلة ذكرتها الآية الكريمة .
فقد خرج موسى وقومه وكانوا ستمائة ألف كما تقول الروايات . وعرف فرعون
بمخروجهم فخرج وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون) . عندما رآهم
قوم موسى كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿قَالُوا أَوْفِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقال لهم موسى كما جاء في الكتاب العزيز :

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ مَتَكُومُكُمُ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وعندما جاء قوم فرعون بخدمتهم الضخم يقاومون قوم موسى ونراهم يلجأون إلى
أنهم رأوهم رؤية انعين قال قوم موسى « انا لمذكون »

وهذا كلام منطقي . فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده . ولكن حين تخرج
الأحداث من نطاق الأسباب إلى قنوة المسبب فهي لا تخضع لأسباب الكون .
ولذلك قال لهم موسى بملء فيه :
« كلا ان معي ربى سيهدين » .

وبذلك نقل المسألة من الأسباب إلى المسبب تبارك وتعالى . فيمنظرون الأحداث
يكون فرعون وحشوده سيدركونهم . ولكن ينظر الحق سبحانه وتعالى فانه سيهيء
لهم طريق النجاة .

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق . وهكذا
توقف قاتلون الماء وهو الاستطرق والسيولة . وانفلق البحر وأصبح كل جزء منه
كأنه جبل . ذرات الماء تماسكت مع بعضها لبعض لتكون جبينين كبيرين بينهما يابس يمر
منه بنو إسرائيل .

هذا هو معنى قوله تعالى : « وإذا فرقنا لكم البحر » والفرق هو الفصل بين
شيئين . وإذا كان البحر قد انشق . فأين ذهب الطين المثل في قاع البحر ؟ ..
قلوا ان الله ارسل ريحا مزلزلة عليه فجعلته . ولذلك قال الحق جل جلاله :
« طريقا في البحر يبسا »

ويقال انه حين كان موسى وقومه يعبرون البحر سألوا عن بقية الخرافهم . فقال لهم
موسى انهم في طرق أخرى موازية لطريقنا . قلوا يريد أن نطمئن عليهم . فرفع
موسى يده إلى السماء وقال اللهم أعني على خلافهم السيئة . فأوحى الله إلى موسى
أن يضرب بعصاه الخراف فانفجحت طاقة بين كل عمر . فكانوا يرون بعصاهم
بعضاً .

وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون إلى البحر ليعبروه . اراد
أن يضرب البحر ليعود إلى السيولة . فلا يلحق بهم آل فرعون . ولكن الله أوحى
إليه .

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُذُوعٌ مَّفْرُوقُونَ ﴾ (٢٤)

(سورة الدخان)

أي اترك البحر على ما هو عليه حتى يشمكم قوم فرعون . ظاهرين أنهم قادرين

عل أن يسلطوا نفس لطريق ويمشوا فيه . وسيماء يكون أولهم قريبا من شامتكم
واخرهم عند الشاطئ الآخر . أعيد الماء الى استطراقه . فأكون قد أنجيت وأهلك
بالسبب الواحد . فالحن سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بني اسرائيل بأنه انجاهم
من العذاب وأهلك عدوهم . فكان العطاء عطاءين . عطاء الجواب بأن انجاهم .
وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم .

وقوله تعالى : « وانتم تنظرون » في هذه الآية لم يتحدث الحن جل جلاله عن
فرعون . وانما حدث عن اغراق آل فرعون . لماذا ؟ لأن آل فرعون هم الذين أعادوه
على جبروته وبطشه وطغيانه . هم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني اسرائيل .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى هو اسرائيل آل فرعون وهم يفرقون فرقفوا
يشاهدونهم . وأنت حين ترى مصرع عدوك . تشعر بطرارة التي في قلبك تزول .
« وانتم تنظرون » تحتل معنى آخر . أي ينظر بعضكم الى بعض وانتم غير مصدقين
أنكم نجاتكم من هذا البلاء العظيم . وفي نفس الوقت تطعنون وانتم تشاهدونهم .
وهم يفرقون دون أن ينجر منهم أحد حتى لا يدخل في قلوبكم الشك . انه وبما نجي
بعضهم وسيعودون بجيش ليهزمكم



﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ
مِّنْ يَّعْبُدِيهِ وَأَنْتُمْ طَائِفَتٌ مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾

قول الحق سبحانه وتعالى «وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج ، فعجنا كلم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور . كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين . وأنه أرسله ليخلص بني اسرائيل من طغيان فرعون وعذابه . . وأنه سيمنه بآيات ومعجزات . . . حتى يفتنح فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى . . بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه الى فرعون . وما حدث مع السحرة ثم نجاة موسى وقومه . . بأن شق الله جل جلاله لهم البحر . هذا في وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد . . ولذلك بمجرد أن نحي الله سبحانه وتعالى موسى وقومه وأغرق فرعون . . كان لابد أن يتم إبلاغ موسى بالمنهج . وكان الرعد يشمل أربعين ليلة . . هذه الليالي الأربعون حدثت كئلائين أولاً . . ثم أتتها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَا فِي عَشْرٍ نِّمَّةً مِّمَّا تَوَسَّعَتْ رِيَّةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الاحراف)

وعلمنا يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائماً بالليلة . . والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار . . الشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق . . فإذا نظرت الى قرص الشمس . . لا يمكن أن تحدد في أي وقت من الشهر نحن . . هل في أوله أو في وسطه أو في آخره . . ولكن اذا جاء الليل بمعجزة أن تظن الى القمر تستطيع أن تحدد الزمن . فإذا كان القمر هلالاً فنحن في أوائل



الشهر .. وإذا كان بلوا فنحن في وسطه وهكذا ..

إن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر وقياس الزمن في عرف الناس ؛ الإنسان العادى يستطيع أن يحدد لك الزمن بالتقريب بالليالى . ويفوق لك الهدوى في اصحراء ، هذا القمر ابن كذا ليلة .

وفي منطق الدين نحسب كل شيء بدخول الليل .. فهذه ليلة الأول من شهر رمضان نصل فيها التراويح .. وليلة العيد لا تصل فيها التراويح .. وليلة النصف من شعبان .. وليلة الاسراء والمعراج .

وفي كل مقاييس الدين الليل لا يتبع النهار إلا في شيء واحد هو يوم عرفه .. فلا نقول ليلة عرفه وإنما نقول يوم عرفه .. اذن الليلة هي ابتداء الزمن في الدين .. والزمن عند الله مدته اثنا عشر شهرا للعام الواحد .. السنة الميلادية تختلف عن السنة الهجرية . والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى وزع رحمة على كونه .. فلو أن المواقيت الدينية سارت على مواقيت الشمس .. لجاء رمضان مثلا في شهر محدد لا يتغير . يصومه الناس صيفا في مناطق عديدة . وشتاء في مناطق عديدة ولا يختلف أبدا .. فيظل رمضان يأتي في الصيف والحر دائما بالنسبة لبعض الناس .. وفي الشتاء والبرد دائما بالنسبة لبعض الناس ..

ولكن لأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال .. فمعنى ذلك أن كل نضجات الله في كونه تأتي في كل الفصول والأزمان .. فتجد رمضان في الصيف والشتاء .. وكذلك وقفة عرفات وكذلك كل المناسبات الدينية الطيبة .. لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوما عن السنة الميلادية . والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة .

واحق سبحانه يقول : «فَمِمَّنْ أَخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ» .

يريد أن يخص بنى اسرائيل .. ويبين لنا كفرهم بنعم الله . قاله نجدهم من آل فرعون .. ولم يكادو يعبرون البحر حتى رأوا قوما يعبدون الأصنام . فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿يَعْمَىٰ أَجْمَلٌ لَّنَا إِنَّا كَاكَّاهُمْ أَهْمَةً﴾

(من الآية ١٣٨ الاعراف)

حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالي . موسى عليه السلام أخذ
الغنياء وذهب ليقبض ربه . وبورك أحياه هارون مع بني اسرائيل . وبني اسرائيل
عندما كانوا في مصر . وكانوا يخدمون ساء آل فرعون . أخذوا منهن بعض
الحلى والذهب خلسة . . ومع أن فرعون وقومه متمردون على الله نبارك وبغالي . .
فإن هذا لا يبرر سرقة حلى نسائهم . . فتحن لا تكافي من عصي الله فيها بأن
نعصى الله فيه . . ونصبح متساويين معهم في المصيبة . . ولكن تكافي من عصي
الله لينا بأن نطيع الله فيه

وأبو الدرداء رضى الله عنه حينما بلغه أن شخصا سبه . بعث له كتابا قال
فيه يا أحمى لا تسرف في شتمنا . واجعل للصحيح موضعا فلنا لا تكافي من
عصى الله فينا بأكثر من أن يطع الله فيه . بنو اسرائيل سرقوا بعض حلى ساء
آل فرعون . . فجعلها الله فتنة لإغوائهم . ورين لهم الشيطان أن يصنعوا منها
عجلا يعبدونه . صنعه لهم موسى السامري الذي رباه جبريل . فأخذ الحلى
وصهرها ليجعلها في صورة عجل له خرار . وقال لهم هذا الحكم واله موسى

اتعرف لماذا فتهم الله سبحانه وتعالى بالعجل ؟

لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام . وإلزام لا يأتي منه خير
مطلق . . ولابد أن تأخذ العبرة من هذه الواقعة . وهي أن الحرام يتقلب على
صاحبه شراً وريلاً ، إن كان طعامك حراما يدخل في تكوين خلاياك ويصبح في
جسدك احرام . . فإذا دخل الحرام إلى الجسد يبل معلق في الحرام . . فالاحرام
يؤرق الجسد ويسوقه إلى المعاصي .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ،
وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : يا أيها الرسل كلوا من
الطيبات واحملوها صالحة . وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ، ثم ذكر ، الرجل يطيل السفر
أشفعت أخيراً يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه
حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ (١)

وقد حصل لبني اسرائيل اشياء نفسة وسرقوا ذهب آل فرعون فانقلب عليهم
طنبا ، وقال الله تعالى عنهم : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأشم ظالمون »

وعند الله لموسى كما قال أهل العلم كان ثلاثين ليلة . . إتمام الثلاثين ليلة يؤنيه
ما وعد . . وكلمة وعد هي الإخبار بشيء سار . والوعيد هي الإخبار بشيء
سيئ . فإذا سمعت وعدا فاعرف أن ما سيحيى بعده خير . وإذا سمعت وعيدا
تعرف أن ما بعدها شر ، لا أية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى .

﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الحج)

هل الوعد هنا بخير أو المعنى مختلف ؟ . . بقول : إن كانت النار موعودا فهي
شر . وإن كانت النار هي الموعودة والكفار هم الموعود بهم فهي خير للنار ؛
لأن النار تفرح بتعذيب الكافرين من عباد الله . ونعرف هذا الفرح من قوله
تعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آمَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿١٥﴾ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ نَارُ اللَّهِ تَحْرَقُ فِيهَا وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة ن)

ولا يستزيد الانسان إلا من شيء يحبه . . والنار - ككل شيء - مسبوقة
لله تكبره العصاة . . ولكنها غير مأمورة بحرقتهم في الدنيا . . ولكن في الآخرة
تكون سمينة وهي تحرق العصاة والكافرين .



﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٢٤ ﴿

الله سبحانه وتعالى يمن على بني اسرائيل مرة اخرى مع أنهم ارتكبوا ذنبا من ذنوب القصة .. ومع ذلك عفا الله عنهم لأنه يريد أن يستبقى عنصر الخير للناس .. يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم . يفتح أبواب التوبة للواحد بعد الآخر .. لتمحو خلايا الشر في النفس البشرية ..

إن الإنسان حين يلذب ذنبا يفعل من قصة الإيمان .. ولو لم تشرع التوبة والعفو من الله لزاد الناس في معاصيهم وغرقوا فيها .. لأنه إذا لم تكن هناك توبة وكان الذنب الواحد يؤدي الى النار .. والعقاب سينال الإنسان فإنه يتهاوى في المعصية وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده .. وفي الحديث الشريف :

«لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ اضْطَلَّ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ» (١)

معنى الحديث . رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه . هذا البعير تاه في صحراء جرداء .. بحث عنه صاحبه فلم يجده .. لقد فقده وفقد معه كل مقومات حياته . ثم ينظر فيراه أمامه . كيف تكون فرحته ؟ .. طبعا بلا حدود . هكذا تكون فرحة الله تعالى بتوبة عبده المزمّن يل أشد من ذلك .

إن الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة . يريد لحركة العالم أن تسير .. هب إن مصا عملت مرة . أو قادت شهورتها مرة الى معصية . أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء . لو لم تكن هناك توبة ومغفرة . لا نقلب

كل هؤلاء إلى شياطين .. بل إن أعمال الخبير تأن من الذين أسرفوا على أنفسهم .. هؤلاء يحسنون كثيرا ويفعلون الخير كثيرا .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُغْنِيَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ كَرِهَ

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وقوله جل جلاله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

إذن فتكون الله سبحانه وتعالى يتوب على بني إسرائيل مع أنهم كفروا بالقصة في حادثة العجل .. فذلك لأن الله يريد استشفاء الخير في كونه .. ولقد عذب بنو إسرائيل العجل قبل أن ينزل عليهم المنهج وهو التوراة .. ولكن هل بعد أن أنزل عليهم المنهج والتوراة تابوا وأصلحوا أو استعصموا في معصيتهم وعنادهم ؟



وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾

الحق سبحانه وتعالى يذكر في إسرائيل هنا . . أنه بعد أن أراهم من المعجزات الكثير . ونجاهم من آل فرعون وشق لهم البحر . كان لابد أن يؤمنوا إيماناً حقيقياً لا يشوبه أى نوع من التردد . . ذلك لأنهم رأوا وشهدوا . وكانت شهادتهم عين يقين . أى شهدوا بأعينهم ماذا حدث . .

وبكى هل استطاعت هذه المشاهدة أن تمحو من قلوبهم النفاق والكفر ؟
لا . . لقد ظلوا معاندين طوال تاريخهم . لم ياحلوا أى شيء بسهولة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمة من أن يكونوا كبنى إسرائيل ويكونوا قوماً شددوا فشده الله عليهم . . وكان ذلك بالنسبة لقصة البقرة . . التي أمروا أن يذبحوها ليعرفوا من القاتل في جريمة قتل كادت تنبر حروباً بينهم . . فأخذوا يسألون ما حى وما لونها إلى آخر ما استحدث عنه . . عندما أتى إلى الآيات الكريمة الخاصة بهذه الواقعة . فلو ذبحوا أى بقرة لكانت لهم . . لأنه يكفى أن يقول لهم الله سبحانه وتعالى إذبحوا بقرة فيذبحوا أى بقرة . وعدم التحديد يكون أسهل عليهم . ولكنهم سألوا وظلوا يسألون فشده عليهم . . بتحديد بقرة معينة بذاتها . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (دروني ما تركتكم فلأنا هلك من قبلكم بكثرة سؤالكم واختلافهم على أسيانهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) (١) .

والله سبحانه وتعالى في قوله : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان » كان إتيان موسى الكتاب والفرقان . . نعمة يجب أن يذكرها قومه . . وأن يستقبلوا منهج الله

عن أنه نعمة . . فلا يأخذ الإنسان التكليف الا في من زاوية ما يقيد حركته
ولا ما يعطيه له . . ذلك أن الله حين حرم عليك السرقة . . حرم على الناس
جميعا أن يسرقوك . . فإذا أخذ منك حرمتك أن تسرق . . فقد أخذ من الناس كل
الناس حرمتهم أن يسرقوا منك . . وهذه حماية كبيرة لك .

ما هو الكتاب وما هو الفرقان ؟ . الكتاب هو التوراة . . هو الذي يبين
المنهج . . والفرقان هو الأشياء التي يفرق الله فيها بين الحق والباطل . . فكان
المعرف تطلق مرة على التوراة . . لأنها تفرق بين الحق والباطل . وتطلق أيضا
على كل ما يفرق بين الحق والباطل . . ولذلك سمي يوم بدر يوم الفرقان . . لأنه
فرق بين الحق والباطل . . فكان منهج الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل
ويفرق بينهما .



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُرُوا لَكُمْ ظِلْمَتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ
خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾﴾

بذكر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بقصة عبادة العجل . وهي قصة مخالفة
خطيرة لمنهج الله ومحالمة في القمة . . عبادة الله وحده . والذي حدث ان موسى
عليه السلام ذهب لميفات الله ومعه بقية قومه ليتلقى المنهج والتوراة . وأخبره
الله سبحانه وتعالى ان قومه قد ضلوا وعبدوا غير الله . . وعاد موسى وهو في قمة
الغضب . واسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته . . ويقول له لقد اخطأتك
عليهم لكبلا بضلوا ، فقال هرون عليه السلام .

﴿قَالَ يَنْتَرُمَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٥٢﴾﴾

(سورة طه)

لنتة عبادة العجل حدثت بسبب السامري . واسامري اسمه موسى السامري
ولدت له أمه في الصحراء وماتت فكفله جبريل ورياه . وكان جبريل عليه السلام
يأتيه على حصان يحمل له ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وكان موسى السامري
يرى حصان جبريل ، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتحصر وتست الأرض
بعد هذا التراب وأيقن ان في حافر الحصان سرًا . . فأخذ قبضة من أثر الحصان
ووضعها في العجل المصنوع من الذهب فأخذ يحدث خوارا كأنه حي . .

ولا تنسج من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها
الناس . . لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه . والذي يحمل دعوة الحق

لا بد أن يهتبه الله سبحانه وتعالى تهبة خاصة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينتقل إلى المدينة . تعرض هو والمسلمون لابتلاءات كثيرة . . . ولقد جاء حدث الأسراء والمهراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نطقت عنه أسباب الدنيا في مكة وذهب إلى الطائف يدهو أهلها فسلطوا عليه غلاتهم وسفهاءهم فخذفوه بالحجارة حتى أدموا قنميه الشريفتين . . . ورفع يديه إلى السماء بالدعاء المأثور :

«اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس»

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنين معه . . . حتى أن مصعب بن عمير فتح قبرش للدئل . . . الذي كان عنه من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رثى بعد إسلامه وهو يرتدى جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى في قلب مصعب بن عمير حبه للإيمان . . . هل يحب الدنيا أكثر أو يحب الله ورسوله أكثر . . . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقول للمصحابة انظروا كيف فعل الإيمان بصلحبكم .

والله تبارك وتعالى لا بد أن يحسن ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته إلى الدنيا كلها . . . لا بد أن يكونوا صابرين على البلاء . أقرباء أمام خصوم الدعوة . . . مستعدين لتحمل المتاعب والآلام . . . لأن هذا هو دليل الصديق في الإيمان . . .

ولذلك نجد كل دعوة ضلال تبنى بالفائدة لأصحابها . . . دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية . . . أما الشعب فإنه يرتدى ملابس رخيصة . . . ويسكن في بيوت ضيقة . أما السادة الذين يتفكرون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية . . . هذه دعوة الباطل . . . وعكس ذلك دعوة الحق . . . صاحب الدعوة هو الذي يذبح أولاً ويضحي أولاً . لا يتنفع بما يقول بل على العكس يضحي في سبيل ما يقول . . . إذن الباطل يأتي بالخير لصاحب الدعوة . . . ولذا رأيت دعوة تغلق على أتباعها فاعلم أنها دعوة باطل . . . لولا أنها أعطت بسعاه ما تبعها أحد .

والآية الكريمة التي نحن بصلحها هي تفريح من موسى عليه السلام لقومه . . . الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخلوا العجل إلها . . . ومتى

حدث ذلك ؟ في الوقت الذي كان موسى فيه قد ذهب ليقاها ربه بياض بالمنهج .
والذين اتخذوا العجل إلها هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أو ظلموا
أنفسهم ؟ . ظلموا أنفسهم لأنهم أوردوها مورد التهلكة دون أن يستفيدوا
شيئا . . والظالم على أنواع . . ظالم في شيء أهل أي في القمة . . وظالم في مطلوب
القمة . . الظالم في القمة هو الذي يجعل الله شريكا ولذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا اتَّخَذْنَا لَكُمْ عِزًّا ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقاد)

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكا لمن خلق
ورزق . وذلك الذي جعلته إلها كيف يعبد ؟ العباد طاعة العابد
للمعبود . فإذا قال لكم هذا العجل الذي عبدتموه من دون الله أن تصعدوا . .
لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة . . والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة . .
بأن أخذتم حقوق الناس وسيبستموها . في كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله
سبحانه وتعالى ولكن من نفسك . لماذا ؟ . لأنك أمنت بالله أو لم تؤمن
سيظل هو الله انقضى القادر العزيز . لن ينقضى إيمانك أو عدم إيمانك من ملك
شيئا . ثم تأتي يوم القيامة فيعذبك . فكان الظلم وقع عليك وإذا أخذت
حقوق الناس فقد تمتع بها أياما أو أسابيع أو سنوات ثم تموت وتركها وتأخذ
العذاب . فكانك ظلمت نفسك ولم تأخذ شيئا . . لذلك يقول الحق جل
جلاله :

﴿ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

وظلم الناس يعود على أنفسهم . . لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم
الله سبحانه وتعالى . وقوله سبحانه «فتوبوا إلى بارئكم» . . الحق تبارك وتعالى
قال في الآية السابقة «حقونا عنكم» ثم يقول في هذه الآية «فتوبوا إلى بارئكم» .
لأن التوبة هي أصل المغفرة . أنت تتوب من فعلك للذنوب وتعتزم ألا تعود لفعله
أبدا وقبل الله توبتك وعمو عنك . .

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للأمم السابقة . . . أما وقد شرع الله لهم أن يتوبوا . فهذا فضل من الله وعفو . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « فَاقتلوا أنفسكم » . فانظروا الى دقة التكليف ودقة الحثية في قوله تعالى : « فتوبوا الى ربكم فاقتلوا أنفسكم » الله سبحانه وتعالى يقول لهم . . . أنا لم أغلب عليكم حالقا خلقكم أو أحذكم منه . . . ولكن أنا الذى خلقكم . ولكن الخالق شيء والبارئ شيء آخر . . . خلق أى لوجد الشيء من عدم . . . والبارئ أى سؤلة على هيئة مستقيمة وعن أحسن تفويم . . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ قَسَوَى ① وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ② ﴾

(سورة الأهل)

ومن هنا نعرف أن الخلق شيء والتسوية شيء آخر . . . يربوكم مأخوذة من برىء السهم . . . وبرىء السهم يحتاج الى دقة وبراعة .

وقوله تعالى : « فَاقتلوا أنفسكم » لأن الذى خلقك وسواك كفرت به وعبدت سواه . فكأنك في هذه الحالة لا بد ان تعبد له الحياة التى وهبها لك . . . وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى . جعل موسى بنى اسرائيل ينفون صفوا . وقال لهم ان الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده . . . ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ . كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه اسمه فيشق عليه التنفيذ . . . فرحمهم الله بأن يعث ضبابا يسترهم حتى لا يجهلوا مشقة في تنفيذ القتل . . . وفيل أنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفا .

وعندما حدث ذلك استصرخ موسى وهارون ربيها . . . وقالا البكية البكية . أى أبكوا عسى أن يعفو الله عنهم . ووقفوا أمام حائط البكى فرحمهم الله . . .

ونوله تعالى « فَاقتلوا أنفسكم » لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها . . . هى التى جعلتهم يتمرّدون على المنهج .

إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب . لأن الذى عبد العجل واتخذ إلها آخر غير الله . كونه يقدم نفسه ليقول فهذا اعتراف منه بأن العجل الذى كان يعبد

بأهل .. وهو بذلك يعيد نفسه التي لمردت على منيع الله الى العبادة الصحيحة .. وهذا أقسى أنواع الكفارة .. وهو أن يقتل نفسه اثباتاً لإيمانه .. بأنه لا إله إلا الله وتحمي على ما فعل وأعلننا لذلك .. فكان القتل هنا شهادة صادقة للعودة الى الإيمان .

وقوله تعالى {وذلك خير لكم عدد بارتكبكم} .. أى أن هذه التوبة هي أصلق أنواع التوبة .. وهي خير لأنها تحييكم من عذاب الآخرة .. وقوله سبحانه {فتاب عليكم} إنه هو التواب الرحيم .. التوبة الأولى أنه شرع لكم الكفارة والتوبة الثانية عندما تقبل منكم توبتكم .. وعفا عنكم عفاً أبدياً



﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ لَنْ نُّؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْنَاكُمُ الصَّعِيقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

بعد أن تاب الله على نوم موسى بعد عبادتهم للصجل .. عادوا مرة أخرى الى
عبادتهم وماديتهم . فهم كانوا يريدون إلها ماديا .. إلها يرونه ولكن الاله من
عظمته أنه غيب لا تتركه الأبصار .. واقرا قوله تعالى :

﴿لَا تَدْرِيكَ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

(سورة الأنعام)

فكون الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر .. هذا من عظمته جل جلاله ..
ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحس .. لا تتسع عقولهم
ولا قلوبهم الى أن الله سبحانه وتعالى فوق المادة وبق الأبصار .. وهذه النظرة
المادية نظرة حقاء .. والله تبارك وتعالى قد أفتنا الى قضية رؤيته جهرا في
الدنيا .. بقوله تعالى :

﴿رَبِّ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(سورة الذريرت)

لى أن الله جل جلاله وضع دليل القصة على وجود الله الذي لا تتركه
الأبصار . وضع هذا الدليل في نفس كل واحد منا . وهي الروح الموجودة في
الجسد .. والإنسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فذهبت فيها الحياة والحركة
والحس .. لذن كل ما في جسدك من حياة .. ليس راجعا الى المادة التي تراها

أمامك وإنما يرجع إلى الروح لئلا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها .. فإذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .

إذا كانت هذه الروح التي في جسدك .. والتي تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلتك . فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى .. كان يجب أولاً أن تسأل الله أن يجعلك تدرك الروح التي في جسدك ولكن الله سبحانه وتعالى قال إنها من أمر الله .. وأمرأ قوته جل جلاله :

﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥)

(سورة الأسراء)

إذا كانت هذه الروح هي مخلوقة لله لا تدركها فكيف تطمع أن ترى خالقها وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله سبحانه . حتى يرى الله جهرته .. فكلمة نرى نطلق ويراد بها العلم . مثلاً .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَلَفَ إِلَهُهُ هُوَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الفرقان)

أى أعلمت .. ولكن جاءت كلمة جهرته لتنتفى العلم فقط وتطلب بالرؤية بجهرة واضحة يدركونها بحواسهم . وهذا دليل على أنهم منمسخون بالمادية التي هي قوام حياتهم .. يقول هؤلاء إن سؤالكم يتسم بالغباء .. فأنتم حين تطلبون أن تروا الله جهرته . والمفروض أن الله تارك وتعالى له مدلول عندكم .. ولذلك تطلبون رؤيته لتقارنوا المدلول على الموجود . ذلك لو كانت القضية أصلاً أن تعرفوا أن الله موجود أو غير موجود . والذي شجعتهم على أن يقولوا ما قالوا .. طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه . وقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِيْهُ فَقُلْ لَا تَنْصُبْنِيْ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِيْ وَلَئِنِ اسْتَحْثَّ رَبُّهُ لَجَعَلَهُ رَكَبًا وَهَبًا وَهَبَ مَوْثِقَ الْجَبَلِ ﴾

(من الآية ٦٤٣ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف أن قضية رؤية الله في الدنيا محسومة . . وأنه لا سبيل إلى ذلك
والإنسان في جسده البشري . . لأن هذا الجسد له قوانين في ادراكاته . . ولكن
يوم القيامة يكون خلقا بقوانين تختلف . . ففي الدنيا لابد أن تخرج مخلقات
الطعام من اجسادنا . وفي الآخرة لا مخلقات . وفي الدنيا يحكمنا الزمن . . وفي
الآخرة لا زمن . إذ يظل الإنسان شابا دائما . . إذن فهناك تغيير . .

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة في الدنيا باعدادك وجسدك لا يمكن أن
ترى الله . وفي الآخرة يسمح لإعدادك وجسدك بأن يتجسج عليك الله سبحانه
وتعالى . وهذا قمة النعيم في الآخرة . أنت الآن تعيش في آثار قدرة الله . .
وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى . وفي ذلك يقول الحق جل
جلاله

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿١٢١﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(سورة القيامة)

والإنسان في الدنيا قد اخترع آلات عكسته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة
يرى الأشياء الدقيقة بواسطة الميكروميكوب والأشياء البعيدة بواسطة
التلسكوب . . فإذا كان عمل الإنسان في الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره . .
فما بالك بقدرة الله في الآخرة . . وإذا كان الإنسان عندما يضعف نظره يطلب
منه الطبيب استعمال نظارة . فإذا ذهب إلى طبيب أمهر أجرى له عملية
جراحية في عينه يستغنى بها عن النظارة ويرى بدونها . . فما بالكم باعداد الحق
للمخلق وبقدرة الله التي لا حدود لها في أن يعيد خلق العين بحيث يستطيع أن
تتمتع بوجهه الكريم .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجر
البشري لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتفال نور الله فجعله دكا . .
وكان الله يريد أن يفهم موسى . . أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة
منه . لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى
إذا كان موسى قد صعد برؤية المتجمل عليه فكيف لو رأى المتجلى ؟ .

والإنسان حين يمجز عن إدراك شيء في الدنيا لأنه مخلوق بهذه الامكانيات

يكون العجز عن الادراك ادراكا لأن العجز عن الادراك هو في عظمة الله سبحانه
ونعالى . . وقوم موسى حوينا طلبوا منه أن يروا الله جبهة أخذتهم الصاعقة وهم
ينتظرون . . عندما اجتزلوا هذا الاجترأ على الله أخذتهم الصاعقة . . والصاعقة
إما نار تاق وإما عذاب ينزل . . المهم أنه بلاد يعمهم . . والصاعقة قد أم ابت
مرسى .



﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَيْنِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٥٦

فلحق سبحانه وتعالى يكمل لنا قصة الذين قالوا «اربا الله جهرة فانخلتهم الصاعقة» . موسى عليه السلام أصيب بالصاعقة أيضا . عندما طلب أن ينظر الى الله . ولكن هناك فرق بين الحالتين . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَرَرُّ مَوْتٍ صَحِيقًا فَلَبَّأَ أَفَاقٌ قَالَ مَبْعَثْنَاكَ نَبِيًّا إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الاحقاف)

ولكن الامر لم يكن كذلك مع قوم موسى . فمع موسى قال الله سبحانه وتعالى : «فلبأ أفاق» أى أن الصاعقة أصابه بنوع من الاغواء . ولكن مع قوم موسى . قال : «ثم بعثناكم من بعد موتكم» . فكان قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة . . فموسى أفاق من تلقاء نفسه . . أما أولئك الذين أصابهم الصاعقة من قومه : فقد ماتوا ثم بعثوا لعلهم يشكرون .



﴿وَقَدْ لَبَّيْنَا عَلَىٰ كُمُ الْقِمَامَ وَأَرْسَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلَوىٰ
كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٥٧

قاله سبحانه وتعالى يريد أن يمتن على بني اسرائيل بنعمه ومعجراته . . ووبرنا
أنه برغم كل هذه النعم عاش بنو اسرائيل في عبادهم ونعتهم ، بعد أن طلب
بنو اسرائيل أن يروا الله جهرة فقلبتهم الصاعقة . ثم بعثهم الله تبارك وتعالى
لعلهم يشكرون . ذكر ما الحى جل جلاله نعماء أخرى من نعمه على بني
اسرائيل . وقال اذكروا إذ كنتم في الصحراء وليس بها ظل تحتمون به من
حرارة الشمس القاسية . وليس فيها مكان تستظلون فيه ، لأنه لا ماء ولا بات
في الصحراء . فظلل الله سبحانه وتعالى عبيكم بالغمام أى جاء الغمام رحمة
من الله سبحانه وتعالى . ثم بعد ذلك جاء المن والسلوى .

والمن بقط حراء تتجمع عن أوراق الشجر بين الصجر وطلوع الشمس . وهى
موجودة حتى الآن في العراق . وفي الصباح الباكر يأتي الناس بالملاءات البيضاء
ويعرضونها تحت الشجر . . ثم يرون الشجر يحف تسقط القطرات الموحدة على
ورق الشجر فوق الملاءات . . فيجمعونها وتنصح من اشهى أنواع الحلويات .
فيها طعم القشلة وحلاوة عسل النحل . وهى نوع من الحلوى اللذيذة المغذية
سهلة الهضم سريعة الامتصاص في الجسم . والله سبحانه وتعالى جعله بالنسبة
لهم وقود حياتهم . . وهم في الصحراء يعطهم الطاقة . أما السلوى فهى طير من
السماء ويقال إنه السمان . يأتيهم في جماعات كبيرة لا يعرفون مصدره . ويبقى
على الأرض حتى يسكنوا به ويدبحوه ويأكلوه

قاله تبارك وتعالى قد رزقهم بهذا الرزق لطيف من غمام يقيهم حرارة
الشمس ، ومن يعطيهم وقود الحركة . وسوى كغذاء لهم ، وكل هذا يأتيهم من

السياء دوخا نعب منهم . . ولكنهم لعدم ايمانهم بالغيبات يريدون الأمر المادى
وهم يخافون أن ينقطع كبر والسلوى عنهم يوما ما فهاذا يفعلون ؟

لو كانوا مؤمنين حقا لقالوا : إن الذى رزقنا باليمن والسلوى لن يصيبنا . .
ولكن الحق جل جلاله ينزل لهم طعامهم يوما من الساء وهم بدلا من أن يتأبخوا
هذه النعمة بالشكر قابلوها بالاحمود

وقوله تعالى : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فالحق سبحانه وتعالى
يتحدث للمرة الثالثة عن ظلم قوم موسى . فى المرة الأولى قال « ورائهم
ظالمون » وفى الآية الثانية قال : « ظلمتم أنفسكم » . . وفى هذه الآية قال :
« وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

ولقد سبق أن قلت انه لا أحد يستطيع أن يظلم الله لأن الله سبحانه وتعالى
باق بقدرته وقوته وعظمته . . لا يقلل منها لو كفر أهل الأرض جميعا ولا يزيد فيها
لو آمن أهل الأرض كلهم . فقدرته الله باقية وكلمته ماضية . . ولكن نحن الذين
نظلم أنفسنا . بأن نورد ماورد التهلكة والمذاب الذى لا نجاة منه دون أن
نعطيها شيئا

إن الدنيا كما قلنا عالم اغيار والعممة التى أنت فيها رائلة عنك . إما أن تتركها
بالموت أو تتركك هى وتزول عنك . وتخرج من الدنيا تحمل اعمالك فقط . . كل
شيء زال وبقيت دنوبك تحملها الى الآخرة . ولذلك فإن كل من عصى الله
وتحرد على دينه قد ظلم نفسه لأنه قادها الى العذاب الأبدى طمعا فى نعوذ أو مال
زال بعد فترة قصيرة ولم يدرك . فكأنه ظلمها بأن حرمها من نعيم أبدي واعطاها
شهوة قصيرة عاجزة .



﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَيَرْزِقُ الْمُحْسِنِينَ﴾

من هذه الآية الكريمة نعرف أن بني اسرائيل رفضوا ورق السماء من المن والسلوى مع أنه كان ورقا عاليا عاليا في الجودة لأنه طعام حلوى شهي ينزل لهم من السماء مباشرة ، وعاليا في الكثرة من أنه كان يأتيهم بلا عمل وبلا تعب وبكميات هائلة تكفيهم وتزيد .. وطلبوا من موسى طعام الأرض الذي يرزقونه بأنفسهم ويروونه أمامهم كل يوم فقد كانوا يخافون أن يستيقظوا يوما فلا يجدون المن والسلوى . الحق سبحانه وتعالى يكمل لنا القصة في آية قادمة .

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى إِنَّا فَتْنُكَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لِسَارِبِكَ فَيُخْرِجَ لَكَ مِنْ
الْأَرْضِ مِنْ ثَقِيلٍ وَفِتْنًا بِهَا وَقَوْمَهَا وَعَسِيهَا وَتَصْلِيهَا قَالَ أَسْتَيْلُونَ الْآلِي هُوَ الَّذِي
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى متراحم ومتن على بني اسرائيل بنعمه وكيف قابلوها بالبحر .. فيذكرهم بإنجائهم من عذاب آل فرعون . ويذكرهم بالبحر الذي امتلأ لهم فمشوا فيه ثم انقص الماء بعد ذلك على آل فرعون فأغرقهم . ويذكرهم كيف أنهم عبدوا العجل بعد ذلك وكان من الممكن أن يهلكهم الله بدمهم . كما أهلك الأمم السابقة ولكنه عفا عنهم . ثم يذكرهم بنصه عليهم بأن أعطاهم الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل . ويذكرهم بأنهم طلبوا أن يروا الله جهرة .. فصحقوا وماتوا ثم بعثهم الله . ويذكرهم كيف ظلمهم بالغيام

من حرارة الشمس المحرقة .. ودرقهم بالمل والسوى .. ثم يذكرهم بأنهم طلبوا طعام الأرض فاستجاب لهم .

إن هذه الآية يقول الحق تبارك وتعالى : « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » . وفي آية أخرى يقول « رغداً حيث شئتم » . الفرق في المعنى أن قوله تعالى : « حيث شئتم رغداً » يدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام . « ورغداً حيث شئتم » يكون هناك صنف واحد والبشر جائعون فيقبلون على الطعام .. عندما يقول الحق جل جلاله : « كلوا رغداً » يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان جوعان ولذلك تعد له ألواناً متعددة من الطعام لضربه على الأكل . « فكلوا منها حيث شئتم » فيقال : « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » فإذا كان الإنسان جوعان يرضى بأي طعام .. فيقال رغداً حيث شئتم .

إن المسألة في القرآن الكريم ليست تقدماً وتأخيراً في الألفاظ .. ولكن المعنى لا يستقيم بدون هذا التعبير . قوله تعالى « ادخلوا هذه القرية » .. والقرية هي هنا بيت المقدس أو فلسطين أو الأردن . الحق تبارك وتعالى يقول : « وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسريده المحسين » ..

والحق جل جلاله حين خاطبهم بين ثناهم لم يكونوا في حالة جوع شديد بحيث يأكلون أي شيء فقال : « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » أي مستحبون فيها ألواناً كثيرة من الطعام يغريكم على الأكل ولو لم تكونوا جائعين . وقوله تعالى : « وادخلوا الباب سجداً » .. أي ادخلوا الباب وأنتم في منتهى الخضوع .. « وقولوا حطة » أي حط عنا ذنوبنا يا رب . غير أنهم حتى في الأمر يعيرون مضمونه .. ويلبسون الحق بالباطل . وهذه خاصية بهم . ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين . دخلوه زاحفين على ظهورهم .. مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه .. فكان المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة .. ولكنها أنت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق وبدلاً من أن يقولوا حطة . أي حط عنا يا رب ذنوبنا قالوا حطة والحطة هي التمعج .. ليطهروا النفس لأغراضهم .. فكان المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة ولكن رغبة في المخالفة .

ومع أن الحق تبارك وتعالى وحدهم بالمغفرة والرحمة والزيادة للمحسنين ..

لأنهم خالَمُوا وعَصَوْا . وقوله تعالى . «وسرِّد المحسِّين» بآى فى الآية الكريمة :

﴿يَلْزِمْنَ أَحْسَنَ الْخَيْرِ زِيَادَةً﴾

(من لآية ٦٦ سورة يونس)

أى لهم احر مثل ما فعلوا أضعاها مصاعمة وماهى الزيادة ؟

أن يروا الله يوم القيامة هذه هى الزيادة التى ليس لها نظير فى الدنيا .



﴿ قَبَدْ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

الله سبحانه وتعالى يشرح لك في هذه الآية الكريمة كيف أن اليهود قوم معصية رغم نعم الله عليهم . . فلما أن الله سبحانه وتعالى كلمهم تكليماً لم يستطيعوه ؛ لأنه شاق عليهم فربما كان لهم عذرهم . . ولكن الله تبارك وتعالى لا يكلف إلا بما هو في طاقة الإنسان لو أقل منها . يقول جل جلاله :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَخُسْئَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾

(س الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

والله تبارك وتعالى لم يكلف بني اسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية التي يقال إنها القدس ويقال أنها قرية في فلسطين أو قرية في الاردن . . إلا بناء على طلبهم . فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أن يدخلوا وانها فيه زرع . ليأكلوا مما تنتج الأرض ويطمثوا عن طعامهم . . لأنهم يخافون أن يأتي يوم . لا ينزل عليهم المن والسلوى من السماء . . فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم ادخلوا الباب عاشمين . وقولوا يارب حط عنا ذنوبنا . . بدلا من اسرائيل القول فبدلا من أن يقرلوا حطة فقلوا حطة . . وبدلوا طريقة الدخول فبدلا من أن يدخلوا ساجدين دنعوا على ظهورهم زاحفين . . وكان هذا رغبة في المخالفة . . فأصابهم الله بعداب من السماء بما كانوا يفسقون . أى يتعنون عن منهج الله ولا يطبقوه . رغبة في المخالفة وإصرارا على العناد

﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ ﴾

ومعناها . اذكر اد استسقى موسى لقومه . . وعله وردت كي يباقي عدة آيات في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخْبَرْنَا مَنَافَةَ إِلَٰهٍ قَرِيبًا أَنَّهُ يَكُونُ لَكُمْ مَعَهُ عَذَابٌ ۖ ﴾

(من الآية 121 سورة الاعراف)

وقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۖ ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ أَنْ تَرِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ۖ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلنا أن هذه كلها نعم امتن الله بها على بني اسرائيل وهو سبحانه وتعالى يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن يذكر بني اسرائيل حينما تاهوا في الصحراء أنه أظلمهم بالمقام وسقاهم حين

طلبوا السقيا . . ولقد وصلت ندرة الماء عند بني اسرائيل لدرجة أنهم لم يجيدوا ما يشربونه . . لأن الانسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقى به زرعه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقى به أنعامه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه . . وهذا هو قمة الجفاف أو الجذب . .

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى . . ولا نطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفذت . . وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم . . فالماء مصدر الحياة ينزله الله من السماء . . وينزله نقيا طاهرا صالحا للشرب والرى والزرع وسقيا الأنعام . .

والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع اليابس . . حتى تكون مساحة سطح الماء المعرضة للتبخّر بواسطة اشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البخر . . فانك اذا جئت بكوب ماء وتركته في حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . . ثم عدت تجدته ناقصا قيراها أو قيراطين . . ولكن إذا أمسكت ما في الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة . . فإنه يجف قبل أن تغادرها . . لهذا . . لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة . . ولذلك يتم البخر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

هذه هي النظرية نفسها التي تتم في الكون . . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليسم البخر في سرعة وسهولة . . فيكون السحاب ينزل المطر تأخذ منه ما تحتاج اليه ، والباقي يكون يتابع في الأرض ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿الرَّ تَرَأْنَاهُ أَزْلًا مِنْ السَّحَابِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾

(س الآية ٢١ سورة الزمر)

هذه الناييع تذهب الى أماكن لا يصلها المطر . . يشرب منها الناس بما تُسميه الأبلو أو المياه الجوفية . . وتشرب منها أنعامهم . . فلذا حدث جفاف يخرج الناس رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا . . يتضرعون الى الله ليمطرهم بالماء . . ونحن اذا توسلنا بأطفالنا الرضيع وبالصغار عطفنا الله .

وبعض الناس يقولون ان المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة . . يصعد البحار من
البحار ويصبح سحابا في طبقات الجو العليا ثم يبرل مطرا . تلك هي القوانين
الثابتة لنزوله .

وأن السحاب لايد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمتار . . ليصل الى برودة
الجو التي تجعله يبرل مطرا . ولايد أن يكون السحاب ملقحا . يقول ان هذا
كله مرتبط بمتغيرات . فالرياح تهب أولا تهب . ونحمل السحاب الى منطقة عالية
باردة ولا تحمله وغير ذلك .

إذن فكل ثابت محمول على متغير . قد تعرف أنت القوانين الثابتة . . ولكن
القوانين المتغيرة لايمكن أن تنبأ بما ستفعل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذْقًا ۝﴾

(سورة الحجر)

إذن فمواصل سقوط المطر لا تخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل
الحاسم . ليسوق السحاب الى المناطق الباردة وإلى الارتفاع المطلوب . ولايد أن
نسبه الى ان هناك قوانين ثابتة في الكون وقوانين متغيرة . . وأن لقانون المتغير هو
الذي يحدث التغير .

وقوله تعالى : ﴿وإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ . تدل على أن هناك مستسقى
يفتح القاف وأن هناك مستسقى بكسر القاف . . مستسقى بكسر القاف أى
صارع الى الله لينزل المطر . . أما المستسقى بفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى
الذي ينزل المطر

إن هذا الموقف خاص بالله تبارك وتعالى فلا توجد مخارن للمياه وليس هناك
ماء في الأرض من أنهار أو آبار أو عيون ولا منجأ الا الله . فلايد من التوسل
لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا
استسقى بالعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بيننا صلى الله عليه وسلم فتسقى ، وإنا نتوسل اليك بهم نينا فاسقنا قال :
فيسقون،^(١)

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . بدليل أن عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ،
وإنما توسل بهم رسول الله . . نقول ونحن توسل عمر ؟ . . أتوسل بالعباس أم
بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . توسل بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة
أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإنما تتعدى إلى
أقاربه . .

وهنا يأتي سؤال فلماذا نفل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عم
الرسول ؟ . . نقول لأن رسول الله قد انتقل ولا يتنفع الآن بالماء . . ولكن عمه
العباس هو الحى الذى يتنفع بالماء . . لذلك كان التوسل بهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم . ولم يكن منطوقاً أن يتوسلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وهو
ميت لا يحتاج إلى الماء . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بلوى الجاه . . نقول
لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم . . لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن يتنسب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لا بد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وبهالى بعد أن قابل بنو إسرائيل النعمة
بالحمود والكران فكيف يسفهم ؟ . . نقول إنها النبوة الرحيمة التي كانت
السبب في تنزل الرحمة تلو الرحمة على بنى إسرائيل . وكان طمع موسى في رحمة
الله بلا حدود . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام
لقومه وكانت الاستجابة من الله تلى

كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال
يا رب استقم . . ولكن هذه لم تأت حلفت وجاء بعدها الأجابة : «إراد استسقى
موسى لقومه فقلنا اصرب بعصاك الحجر» . إذن قوله يا رب استق قومى
واستجابة الله له مخلوقة لأنها مفهومة . . ولذلك جاء القرآن باللفظات الأساسية
وترك اللفظات المفهومة للكاء الناس . . تماماً كما جاء في سورة الحمل: الهدد ذهب
ورأى ملكة بنقىس وعرشها . وعبد إلى سليمان وأخبره . فطلب سليمان من الهدد

أن يلقى الى ملكة سبا وقومها كتابا وقال .

﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ عَنْهُمْ فَأَنْظِرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ٢٨ قَاتَ

بَنَاتِ السَّلْوَاتِ إِنِّي أَنَا إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿ ٢٩ ﴾

(سورة المل)

سليمان أمر المهند أن يلقى كتابا الى بلقيس وقومها . والآية التي بعدها جاءت بقوله تعالى : قالت «يا أيها الملأ إني ألقي الى كتاب كريم» كل التعاصيل حدثت من أن المهند أخذ الكتاب وطار الى ملكة سبا وألقى الكتاب أمام عرشها . والتعطت بلقيس ملكة سبا الكتاب وقرأته . . ودعت قومها وبدأت تروى اليهم قصة الكتاب . . كل هذا حذف لأنه مفهوم

قال موسى يارب «سق قومي . . والله سبحانه وتعالى قال له إن أردت الماء لقوميك . . كل هذا محذوف . وثاني الآية الكريمة . «نفسا اضرب بعصاك الحجر» .

«اضرب بعصاك الحجر» لنا معها وقفه . . لسان حين يستسقى الله . . يطلب منه أن ينزل عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن يرسل على بني اسرائيل مطرا من السماء . ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة . . فقال سأمدكم بماء ولكن من جس ما معكم الماء وهو الحجر الموجود تحت أرجلكم . . لن أعطيك ماء من السماء . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبري بني اسرائيل مدى الإعجاز . . فأعطاهم الماء من الحجر الذي تحت أرجلهم .

ولكن من الذي يتأثر بالضرب ؟ الحجر أم العصا ؟ . . العصا هي التي تتأثر وتتسعف والحجر لا يحدث فيه شيء . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن يتفلق الحجر . . ولذلك يقول الشاعر :

أياهلنا من صنوف القدر

بنفسك تغف لا بالقدر

وما ضاربا صخرة بالعصا

ضربت العصا أم ضربت الحجر

إن انفجار الماء من صخرة اعصا دليل على أن العصا أضرت فقط إلى الصخرة
فتصهر منها الماء . وحتى لو كانت اعصا من حديد . . من تكون قادرة على أن
تجعل الماء يسبح من الحجر ؟

خالق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من
السماء . . ولكن الله أرادها معمة مركة . . ليعلموا أنه يستطيع أن يأتي بالماء من
الحجر الصلب . . وأن نفع الماء من متعلقات «كن»

هنا لابد أن نطرح السؤال نعتي بين اسرائيل وقاهو لموسى هب أما في مكان لا حجر
فيه . من أين يسبح الماء ؟ . لابد أن تأخذ معك الحجر حتى إذا عطشا تضرب
الحجر بالعصا . . ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة «كن» . .
ولذلك نجد مثلا كبار الأطباء يجتارون في علاج مريض ثم يشفي على يد طبيب
ماشي، حديث التخرج . هل هذا الطبيب الماشي يعرف أكثر من أساتذته الذين
علموه ؟ . الجواب طبعا لا

إن التلميذ لا يتفوق على استاذة الذي علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها
ولكن بقدرة المسبب . ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب
الناشي . . فكشف الله له الداء وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» لماذا اثنتا عشرة
عينا لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انحراف . كل مجموعة منهم كانت تسمى
«سبطا» لها شيخ مثل شيخ القبيلة . . والحق ببارك وتعالى يقول «قد علم كل
أناس مشربهم» أي كل سبط أو مجموعة ذهب لمشرب . . تبعث العيون من الحجر
وامتدت تشعبا إلى الأسباط جميعا كل في مكانه . فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب
موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة
وكانت الجهة السفلى من الحجر الملازمة للأرض . والجهة العليا التي ضرب
عليها بالعصا لم يسبح منها شيء ، أما باقي الجهات الأربع فقد سبح منها كل منها
ثلاثة يابيع .

وهناك شيء في اللغة يسمونه اللفظ المشترك . . وهو الذي يستخدم في معاني
متعددة . . فإذا قلت سقى القوم دوابهم من العين . . العين هنا عين الماء . .
وإذا قلت أرسل الأمير عيونته في المدينة يعني أرسل جنوده . . وإذا قلت اشتره

بعين أى بذهب . . وإذا قلت نظر الى بعينه شئنا أى ببصره . . إذن كلمة عين تستخدم في أشياء متعددة . ومعناها هنا عين الماء الحارية

قوله تعالى : «قد علم كل أئامس مشربهم» أى أن كل سبط عرف مكانه الذى يلزمه . . حتى لا يضيع من كل منهم الماء . . ولكن الانسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلسه الله منه ويكون ملتزما بالاداء ، فإذا فرح الله كرمه وعادب اليه النعمة يعود الى طغيانه . ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها . «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تنثروا فى الأرض مفسدين» أى لا يكون شكركم على النعمة بالافساد فى الأرض . . وانظروا قومه تعالى .

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَيِّدِكَ كِسْفٌ مِّن مَّاءٍ حَمِيمٍ ۖ ذُرِّيَّتُكَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَكْبَرُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا مُّحِيطًا ۝١٥ فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَآءِ ۖ وَأَكْبَرُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا مُّحِيطًا ۝١٦﴾

(سورة مائ)

ها ترى أن أهل ساء رزقهم الله فأعرضوا عن شكره . كانوا ينفون بالسيد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار . . وعدمهم بما يحتاجون إليه منها طواى العام ، وأحذروا يتماحرون يعلمهم وسوا الله الذى علمهم . . فكان هذا السيد هو لنكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم . . كذلك حدث لبني اسرائيل ، قيل لهم . «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تنثروا فى الأرض مفسدين» فافسدوا فى الأرض ونسوا نعمة الله فزل بهم العذاب



﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُوْنَ لَنْ نُّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُخْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَبِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَاطُوا بِمُضِرٍ فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

هذه الآية لكرمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعن بني إسرائيل . وكنا قد نمرضا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى . وقلنا أن تكرار نزول المن والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا . وكلمة واحد هي أول العدد . فإذا انضم إليه مثله يصير اثنين . . وإذا انضم إليه مثله يصح ثلاثة . إذن فأصل العدد هو الواحد . . والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية . . فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعنى أنه ليس كمثله أحد . . ولكنه لا يعنى أنه ليس مكونا من أجزاء . . فانت لست واحداً ولست أحداً لانك مكون من أجزاء - كما أن هناك من يشبهونك . . والشمس فى مجموعة واحدة ولكنها ليست أحداً لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل . والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله شيء . . وأحد ليس مكونا من أجزاء . . ولذلك من أسماه الحسنى الواحد الأحد . . ولا نقول أن الاسم مكرر بهذه معنى المردية ، وهذه تنفى التجرة .

وقوله تعالى : « لَنْ نُّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ » . . نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه مكون من صنفين هما المن والسلوى . . ولكنه واحد لرتابة نزوله . . الطعام كان يأتيهم من السماء . . ولكن تمتعهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتى . . نريد طعاما نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا . . وكان هذه المعجزات كلها ليست كرامة . . لتعطيتهم الثقة فى استمرار رزق الله . . إنهم يريدون أن يروا . . ألم يقولوا لموسى : « أرنا الله جهرا » . .

ماذا طلبوا؟ .. قالوا . « فادع لنا ربك يخرج لنا مما نبت الأرض » « ادع لنا ربك ، أى اطلب من الله . ولأن لدعاء لون من الطلب فذلك حين نتوجه إلى الله طالباً أن يعطينك . . فذلك تدعو بذلة الدعى أمام عزة المدعو . . والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء . . ومن مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب . . ومن أعلى إلى أدنى قيل أمر . .

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما نبت الأرض . . وعدوا ألواناً لأطعمة المطلوبة . . وقالوا « من بقلها وفثائها وفرمها وعدسها وبصلها » . . ولكتها كلها أصناف ثلث عن أن من يأكلها هم من صنف العبيد . . والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بنى إسرائيل . . ويبدو أن بنى إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها .

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فتزل عليهم المن والسلوى ولكهم قضاها طعام العبيد . . والبقول ليس مقصوداً به السموات فحسب . . ولكنه كل نبات لا ساق له مثل الخس والعجل والكراث والجرجير . . والقثاء هو القطة صنف من الخيار . . والقثوم هو لقميح أو اشوم . والعنبر والنصل معروفان . . والله سبحانه وتعالى قبل أن يجيبهم أراد أن يؤنبهم . فقال « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » .

عندما نسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المتروك . . تقول اشتريت الثوب بدرهم يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركت الدرهم .

قوله تعالى : « الذى هو أدنى بالذى هو خير » أى انهم تركوا الذى هو خير وهو المن والسلوى . . واتخذوا الذى هو أدنى . . والدنو هنا لا يعنى الدناءة . . لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءة . . ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأمر المباشر . ما يخلق الله بالأمر المباشر منه بكلمة « كن » . . يكون حياء بما جاء بالأسباب . لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه . . عطاء خالص من الله . أما الخلق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه . . كأن نحرث الأرض أو نغرس الدور . . ما جاء خالصاً من الله بدون أساسك بقرب

من عطاء الآخرة التي يعطي الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة « كن » . . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتِهِمْ إِنِّي مَامِتَعْنَاهُمْ أَزْوَاجٌ مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَمِيدَةِ الدُّنْيَا
لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝﴾

(سورة طه)

فالله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة . . . ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه . . . مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق في هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله . فلا رازق إلا الله ولكن الذي يجعل الرزق حراما هو استعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام . . . ولو صبروا لحاءهم حلالا . . . يقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يبرق . . . ولكنه سمي رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه . . . ذلك أن الرزق من الله يكون بأسباب أعلى وأفضل منزلة من الرزق الذي يتم بالأسباب . .

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » . . . يكون المعنى أتستبدلون الذي هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى . . . وهو المثل والسلوى بأنفسكم « يكن » قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب في الدنيا . . . ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التائب . . . وقال لهم الحق سبحانه وتعالى « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » . . . ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصروا على العطب برغم أن الحق جل جلاله يرون لهم أن ما ينزله إليهم خير مما يطلبونه . .

لاحظ هنا أن مصر جاءت مؤنثة . . . ولكن كلمة مصر حين ترد في القرآن الكريم لا ترد مؤنثة . . . ومن شرف مصر أنها ذكرت أكثر من مرة في القرآن الكريم . . . لاحظ أن مصر حينا يقصد بها وادي النيل لا تأتي أبدا مؤنثة وإقرأ قوله تعالى :

﴿ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَا مِنْ مِصْرَ يَبُوتَا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يونس)

وقوله جل جلاله .

﴿الْبَسَ لِي مَلَكٌ مِصْرَ وَهَئِهِ الْبُنَىٰ يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا﴾

(من الآية ٢١ سورة البقرة)

وقوله سبحانه :

﴿وَقَالَ الْيَسَّىٰ اشْتَرَيْتُهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرٍ أَهْتَىٰ أَكْرِىٰ مَثْوَاهُ﴾

(من الآية ٢١ سورة يوسف)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾

(من الآية ٩٩ سورة يوسف)

كلمة مصر ذكرت في الآيات الأربع السابقة بغير تنوين . . ولكن في الآية التي نحن بصددتها : « ادخلوا مصرًا » بالتنوين . . هل مصر هذه هي مصر الواردة في الآيات المشار إليها ؟ . يقول لا . . لأن الشيء المصنوع من الصوف للعلمية والتأنيث . إذا كان لبقعة أو مكان . . مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثا . . ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكرا . فإن كان بقعة فهو عديم عنوع من الصرف . وإن كان مكانا تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث . ومرة تكون هناك علمية وأهمية ولكن الله صرفها في القرآن الكريم . كلمات نوح ولوط وشعيب ومحمد ويهود

كل هذه الأسماء كان مقروضا أن تجمع من الصرف ولكنها صرفت . فقل في القرآن الكريم نوح ولوط وشعيب ومحمد ويهود . إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التي جاءت في قوله تعالى : « ادخلوا مصرًا » لكم ما سألتكم « هي مصر التي عاشوا فيها وسط حكم فرعون . قوله تعالى : « ادخلوا مصرًا » من

الممكن أن يكون المعنى أى مصر من الأمصار . . ومن الممكن أن تكون مصر التى عاش فيها فرعون . . وكلمة مصر تطلق على كل مكان به مفتى وأمير وقاص . . وهى مأخوذة من الانقطاع . لأنه مكان يقطع امتداد الأرض الخلاء . . ولكن الثابت فى القرآن الكريم . . ان مصر التى لم تكون هى علم على مصر التى تعيش فيها . أم مصرًا التى خضعت للنوبيين وهى تعنى كل وادٍ فيه زرع . .

وقوله تعالى . « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » . . الذلة هى المنهكة التى تؤدى إلى الإنكسار . . ويمكن أن توضع عنك بأن تكون فى حى ميرك فيمرك بأن يقول إنك فى حماه . . والله سبحانه وتعالى يقول عن بنى إسرائيل .

﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَقِمُوا إِلَّا مَحْبِلًا مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلًا مِّنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة آل عمران)

حبل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . وعاشوا فى حى العهد . . إذن يحبل من الله أى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به . . ويحبل من الناس أى فى حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية . إذا عاهدتهم عزوا وإن تركتهم ذلوا .

وقوله تعالى . « وضربت عليهم الذلة » ضرب أى طبع طبعه قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بدرة على النقود . . ولذلك يقال ضربت فى مصر . . أى أعدت بضربة قوية أدنتهم وبقيت بارزة لا يستقيمون معها . أما المسكنة وهى إنكسار فى الهيئة

أهل الكتاب كانوا يدمرون الجرية والجرية كانت تؤخذ من الأعداء . . وكانوا يلبسون الملابس القادرة . . ويقفون فى موقف الدل والخزى حتى لا يدفعوا الجرية

وقوله تعالى . « وباءوا بعصب من الله » . . أى غضب الله عليهم بدنوبهم وعصيانهم حتى أصبح انغضب . من كثرة عصيتهم . كأنه سمة من سماتهم

لماذا ؟ ٩ . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، أي أنهم كانوا يكفرون بالنعمة ولا يشكرون . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنا قليلا . . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق . .

الأنبياء غير الرسل . والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسول لأنهم جاءوا بمنهج جديد . ولذلك كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة . . ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعدائهم . . فمجيء الأنبياء ضرورة . . لأنهم عاينوا سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وينو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتلوا بهم فقتلواهم . . لماذا ؟ . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج . . ولذلك تجد الكافر والعاصي وغير المنتزم يعار ويكره المنتزم بمنهج الله . ويحاول إزاته عن طريقه ولو بالقتل . . إذن فعصم الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما لارتكبوهم من آثام



﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾

بعد أن تحدث الحق سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل وكيف كفروا بعبده ..
أراد أن يعرض لما حساب الأمم التي سبقت أمم رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم القيامة ، ولقد وردت هذه الآية في سورة المائدة ولكن بحلاف يسير من
التقديم والتأخير . ففي سورة المائدة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

أى أنه في سورة المائدة تقدمت الصابرون على النصارى . واختلاف الإعراب
فبينما في البقرة وه الصابرين ، . وفي المائدة وه الصابرون ، . . . وردت آية أخرى
في سورة الحج :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالْمَجْرُسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿١٧﴾

(سورة الحج)

الآيات الثلاث تبدو متشابهة .. إلا أن هناك اختلافات كثيرة .. ما هو سبب
التكرار الموجود في الآيات . وتقديم الصابرين مرة وتأخيرها .. ومع تقديمها
رفعت وتغير الإعراب . وفي الآيتين الأوليين (البقرة والمائدة) تأتي « من آمن »

بِالله واليوم الآخر وعمل صالحا قلهم أجرحهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . أما في الآية التي في سورة الحج فقد زاد فيها : « المجوس والذين أشركوا » . . . واختلف فيها الخبر . . . فقال الله سبحانه وتعالى : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

صلما خلق الله آدم وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى مِّنَ رَبِّي أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقَّ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

مفروض أن آدم أبلغ المنهج لأولاده . . . وهؤلاء أبغوه لأولادهم وهكذا . . . وتشغل الناس الحياة وتطراً عليهم الغفلة . . . ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم . . . فكان لابد من رحمة الله لخلقهم أن يأتي الرسل ليذكروا ويثبثوا ويثبثوا .

الآية الكريمة تقول : « إن الذين آمنوا » . . . أي إيمان الفطرة الذي نزل مع آدم إلى الأرض . . . وبعد ذلك جاءت أديان كثر الناس بها فأبطلوا من على الأرض . . . كقزم نوح ولوط وفرعون وغيرهم . . . وجاءت أديان لها أتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئة ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل عاسق في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوصع الايمان في الأرض . . .

إذن الذين آمنوا أولاً سواء مع آدم أو مع الرسل . الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي وقعت . ثم الدين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئة . فإله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا . فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . فكان رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة . . . وكل إنسان في الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . . فقد دعى الناس كنهم إلى الايمان برسالته . . . ولو بقي إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من

عهد نوح أو إبراهيم أو هود .. وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى النصابية .. كل هؤلاء مطالبون بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بدين الإسلام .. فلاسلام يسمح العقائد السابقة في الأرض .. ويجعلها مركزة في دين واحد .. الذين آمنوا بهذا الدين : ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون .. والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن .. وهذا إعلان بوحدة دين جديد .. يتظم فيه كل من في الأرض إلى أن تقوم الساعة .. أما أولئك الذين ظنوا على ما هم عليه ولم يؤمنوا بالدين الجديد لا يفصل الله بينهم ولا يوم القيامة .. ولذلك فإن الآية التي تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة .. جاء فيها كل من لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام .. بما فيهم المشركون والذين أشركوا ..

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن .. عمن تبع ديناً سبق الإسلام وبقي عليه بعد الإسلام .. وهو يظن أن هذا الدين باطله .. نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية في قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خَيْرَ الْإِسْلَامِ دَبَّتْ عَنْهُ بِقَبْلِ مِنْهُ﴾

(عن الآية ٨٥ سورة آل عمران)

وقوله جل جلاله :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

(من الآية ١٩ سورة آل عمران)

إذن التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات في الوجود حسمت .. فالذي آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .. لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة والذي لم يؤمن بقول الله تبارك وتعالى له « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .. إذن الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم .. والذين هادوا هم أتباع موسى عليه السلام .. وجاء الاسم من قولهم « إنا هدنا إليك » - أي هدنا إليك .. والنصري جمع نصرائي وهم منسوبون إلى الناصرة المثلدة التي ولد فيها عيسى عليه

السلام .. أو من قول الخواريين نحن أنصار الله في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَرِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِآلِهِ وَآلِهَتِهِ وَآتَيْنَاهُ بِالْحَقِّ وَإِنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم . قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم عبروا بعده وعبدوا من دون الله الوسائط في الكون كالشمس والقمر والكواكب . أو لصابئة هم الذين انتقلوا من الدين الذي كان يعاصرههم إلى الدين الجديد . أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا يقع العقل .. كيف نمبد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها ؟ . فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب . فقالوا عنهم إلههم صبتوا عن دين آبائهم .. أي تركوه وأمنوا بالدين الجديد . وأما كان المراد بالصابئين فهم كل من مال عن دينه إلى دين آخر

أنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى . جاء بالصابئين في سورة الشورى متأخرة ومنصوبة .. وفي سورة المائدة مقدمة ومبروعة .. نقول هذا الكلام يدخل في قواعد النحر الآية تقول : « إن الذين آمنوا » .. نحن نعرف أن (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر . فالذين مبنى لأنه (اسم موصول في محل نصب اسم لأن : « والذين آمنوا » معطوف على الذين آمنوا يكون منصوباً أيضاً .. والنجاري معطوف أيضاً على اسم إن .. والصابئين معطوف أيضاً ومنصوب بآباء لأنه جمع منكر سالم ..

نأتى إلى قوله تعالى : « من آمن بالله واليوم الآخر » هذه مستقيمة في سورة البقرة إعراب وترتيا .. والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة .. لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى .. ولكن في آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .. الذين آمنوا اسم إن والذين هادوا معطوف .. و« الصابئون » كان القياس إعرابياً أن يثقل والصابئين .. وبعدها النصارى معطوفة .. ولكن كلمة (الصابئون) توسطت بين اليهود وبين

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءَ آتَيْنَتَكُمْ يَمِيقَؤُورَ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ٦٣

يَمِيقُ الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على بني إسرائيل بالنعم التي أنعم بها عليهم ويذكرهم بجهودهم بها . . . ولكنا نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن اليهود . . . يتكلم معهم بالخطاب المباشر . . . فهل الذين عاصروا نزول القرآن وهم الذين أخذ الله تبارك وتعالى عليهم الميثاق . هؤلاء مخاطبون بمرء آياتهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى عليه السلام .

نقول انه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان . . . فحين يمتس الله عليهم أنه أهلكت أهل فرعون وأتخذهم . . . يمتن عليهم لأنه أنقذ آباءهم من التذبيح . . . ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فهم كانوا مظلومين لظهور آباءهم . . . ولكن ينقذهم الله كان لا بد أن تستمر حلقة الحياة متصلة . . . فمتى انتهت حياة الأب قبل أن يتزوج وينجب انتهت في اللحظة نفسها حياة ذريته . . . اشء نفسه يطبق على قول الحق سبحانه وتعالى . « وَإِذَا اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ » . . . إمتنان على اليهود المعاصرين لنزول القرآن . . . لأنه سبحانه وتعالى لو لم ينقذ آباءهم من الموت عطشا لماثوا بلا ذرية .

إذن كل إمتنان على اليهود في عهد موسى هو إمتنان على ذريته في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ولحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم . . . ولولا هذا الميثاق ما آمنوا ولا آمنتم ذريتهم .

وقوله تعالى : « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » . . . أي إن الله تبارك وتعالى يذكرهم

بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى ليلتقي ربه ليتلقى عنه التوراة . . فعبد بنو إسرائيل العجل . وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح . وجلسوا في تعاليمها مشقة عليهم . وقالوا نحن لا نطبق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه .

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى . . وهم يقولون إن الله كلّفهم ما لا يطيقون مع أن الله جل جلاله لا يكلفه نفساً إلا وسعها . . هذا هو المبدأ الإيماني الذي وضعه الحق جل جلاله . . يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

يظنون أننا نضع أنفسنا حكماً على تكليف الله . . فإن كنا نعتقد أننا نقرر على هذا التكليف نقل هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقرر عليه بحكمنا نحن . . نقل الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا . . ولكن الحكم الصحيح هل كلّفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك ؟ إن كان الله قد كلّفك فهو عليم بأن ذلك في وسعك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . . ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل . . وأن ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي ليرير أنه ليس في وسعنا أن نؤدي بعض التكليف . . ربما كان هذا التكليف في الوسع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة .

نقول لمن يرقّد هذا الكلام : إن الذي كلّفك قدماً هو الله سبحانه وتعالى، إنه يعلم أن وفي وسعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله . . وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة . . والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان ؛ فهناك من يصل اقروض وهي لتكليف . . وهناك من يزيد عليها السن . . وهناك من يقوم الليل . . فيظل يتقرب الى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض . . وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهر العربية . . أو كل اثنين وخميس على

مدار اعلم أو في شهرى رجب وشعبان . وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات . وهناك من يلتزم بحدود الركاة ومن يتصلق بأكثر منها

إذن كل التكليف اتق كلنا الله بها في وسعنا وأقل من وسعنا . ولا يقال إن العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكليف ونزيد عليها دون أى مشقة . والله سبحانه وتعالى رفع قوى بنى إسرائيل الطور رحمة بهم . . . تماماً كما يمسك لطبيب الشرط ليريل صديداً تكون داخل الجسد . . لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفصله ورحته بنى إسرائيل رغم أنولهم . . رفع فوقهم جبل الطور المرجود في سينه . وقال لهم تقبوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل . . تماماً كما أهدك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقابلوا الرسل الذين من قبلهم . قد يقوى العصى إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو انقائل .

﴿ لَا إِسْكَرَاءَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وفوه تعالى :

﴿ قَسَّ شَاءَ قَلْبُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ قَلْبُكَفَّرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحداً على التكليف . . ولكنه رحمة منه خبرهم بين التكليف وبين عذاب يعصيههم فيهلكهم . . وهذا العذاب هو أن يطبق عليهم جبل الطور . . إذن المسألة ليس فيها إيجاب ولكن فيها تحيير . وقد خير الدين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلم يصدقوا حتى أصابهم الهلاك . . ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ملجدين على الأرض وسجدوا لهم دليل

على أنهم قبلوا المنهج .. ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فونهم خشية أن يطبق عليهم .. ولذلك نحمد سبحانه اليوم حتى اليوم على جهة من الوجه .. بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أصل وكان ذلك خوفاً من أن ينفض الحبس عليهم .. ولو سألت يهودياً لماذا تسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل الثنوية ويتر متعضاً .. تقول انهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فونهم .. فكانوا في كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والدين شهدوهم من أولادهم ودينتهم اعتقدوا أنها شرط من شروط السجود عندهم .. ولذلك أصبح سجودهم على جانب من الوجه .. ونظروهم إلى شيء أعلاهم يجاهون منه .. أي أن الصورة التي حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لا زالوا ياقين عليها حتى الآن

في هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ رفعنا فوقكم الطور .. » وفي آية أخرى يقول المولى جل جلاله في نفس ما حدث :

﴿ وَإِذْ شَفَعَ الْجَبَلُ فَوَنَّهُمْ كَأَنَّهُمْ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

« ننشأ » كان الجبل وتد في الأرض وفريد أن نخضعه .. فنحركه يمينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض .. هذه الحركة والزحزحة والجذب هي التثنية .. والجبل كالرند تماماً يحتاج إلى هز ورعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه .. وهذه الصورة عندما حدثت خضعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج

يقول الحق سبحانه وتعالى « خذوا ما آتيناكم بقوة » . الأخذ عادة مقابل للمعطاء .. أنت تأخذ من معطي .. والتكليف أخذ من الله حتى تعطى به حركة صلاح في الكون .. إذن كل أخذ لابد أن يأتي من عطاء ؛ فانت تأخذ من الجبل الذي سبقت وتعطي للجبل الذي يليك .. ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لابد أن تضيف عليه . وهذه الإضافة هي التي تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : « بقوة » .. أي لا تأخذوا التكليف بتعازل .. والإنسان عادة

ياحد بقوة ما هو نافع له . . ولذلك فطبيعة منافع الله أن تؤخذ بقوة وبيقين
لتعطى خيرا كثيرا بقوة وبيقين . . وإذا أخذت منفع الله بقوة فقد التمتنت عليه
وان صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر . . لذلك تجد في القرآن الكريم
يسألونك عن كذا . . دليل على أنهم عشفوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم
يريدون زيادة النفع .

ومادم الحق سبحانه وتعالى قال : « خذوا ما آتياكم بقوة » . . فقد عشفوا
التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .

وقوله تعالى : « وادكروا ما فيه لعلكم تتقون » . . اذكروا ما فيه أى ما فى
المنهج وأنه يعالج كل قصايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا . . لعلكم
تتقون . أى تطيعون الله وتتقون عظامه وعذابه يوم القيامة



﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٤ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا كيف أمر اليهود بأن يتذكروا المنهج ولا ينسوه .. وكان مجرد تذكرهم للمنهج يجعلهم يؤمنون بالإسلام ويرسل الله صلى الله عليه وسلم لأنه مكتوب عندهم في التوراة ومذكورة أوصافه .. ماذا فعل اليهود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : « ثم توليتم من بعد ذلك .. أي أعرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه .. » ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ، ما هو الفضل وما هي الرحمة ؟ الفضل هو الزيادة عما تستحق .. يقال لك هذا حقك وهذا فضل مني أي زيادة على حقك ..

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سألوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل الجنة أحدٌ الجنة غيلةً قللوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة) (١) .

فإذا تساءلت كيف يتم هذا ؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمه ؟ نقول نعم لأن عمل الدنيا كله لا يساوي نعمة من نعم الله على عبده ، فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل .. وكل من يدخل الجنة فيفضل الله سبحانه وتعالى .. حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهي كل ما يملكون في هذه الدنيا .. يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

(١) « رواه البخاري ومسلم واحد وابن ماجه والدارمي » .

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَشِيرُونَ بِالدِّينِ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ حَلِيمِهِمْ
 إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧)

(سورة آل عمران)

فلما كان هؤلاء الشهداء وهم في أهل مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفصل
 الله .. فلما بالك عن هم أقل منهم أجرا .. والله سبحانه وتعالى له فضل على
 عباده جميعا .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَكُوفٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤٣ سورة البقرة)

أما الرحمة فهي التي فتحت طريق التوبة لغيران الذنوب. والله سبحانه وتعالى
 يريد أن يلفتنا إلى أنه لولا هذا الفصل لبني إسرائيل .. ولولا أنه صح لهم باب
 الرحمة والمغفرة ليعودوا مرة أخرى إلى ميثاقهم ومنهجهم .. لولا هذا لكانوا من
 الخاسرين الذين أصابهم خسار مبین في الدنيا والآخرة .. ولكن الله تبارك
 وتعالى بفصل منه ورحمة قد قادهم إلى الدين الذي حفظه الله سبحانه وتعالى
 بقدرته من أي تحريف .. ورفع عنهم عبء حفظ الكتاب .. وما يتبع عن ذلك
 من حمل ثقيل في الدنيا .. ورحمهم بربوب الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله
 رحمة للعالمين .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧)

(سورة الأبياء)

وأعطاهم فصل هذا الدين الخاتم الذي حسم قضية الإيمان في هذا الكون ..
 ومع هذه الرحمة وهذا لفصل .. بأن نزل إليهم في التوراة أوصاف رسول الله
 صلى الله عليه وسلم وموعد بعثه .. فتبع لهم بابا حتى لا يصحوا من
 الخاسرين .. ولكنهم تركوا هذا الباب كي تولوا عن دينهم

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه . أراد أن يبين لنا بعض الذي فعلوه في مخالفة أوامر الله والتحليل عليها . . والله تبارك وتعالى له أوامر في الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا . . وهو لا يحب أن نأخذ أى أمر به يتعلق بالدنيا أو بالدنيا مأخذ عدم الجهد . . أو نفضل أمراً على أمر . ولذلك نجد في سورة الجمعة مثلاً قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَالِمِينَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَاعُوا
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(سورة الجمعة)

هذان أمران أحدهما في الدين والثاني يتعلق بالدنيا . . وكلاهما من منهج الله . فإله لا يريدك أن تتأخر وتعمل وقت الصلاة . . ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى في المسجد بعد الصلاة . . إذا نودي للصلاة فإلى المسجد . . وإذا قضيت الصلاة فإلى السعي للرزق . . وهناك يومان في الأسبوع ذكرا في القرآن بالإسم وهما يوم الجمعة والسبت . . بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تذكر في القرآن بالإسم . . وهي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . . الجمعة هي عيد المسلمين الذي شرع فيه اجتماعهم في المساجد وأداء صلاة الجمعة . . ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد . . فأيام الأسبوع

نسبت إلى الأعداد فيها عدا الجمعة والسبت . لذلك نجد الأحد منسوب إلى واحد
والإثنين منسوب إلى اثنين . . . والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة والأربعاء منسوب إلى
أربعة والخميس منسوب إلى خمسة . .

كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب . لماذا ؟ لأنه
اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظام وجوده . . فسهاه الله تبارك وتعالى الجمعة
وجعله لنا عيداً . . والعيد هو اجتماع كل الكون في هذا اليوم ، إحتفاءً بنعمة الله
في إيجاد الكون وتمهيداً في ذلك اليوم . فالمؤمنون بالله يجتمعون إحتفاءً بحفاوة
بتيام خلق الكون هم . . . والسبت . . . الباء والتاء تنهيد بمعنى انقطع . . . وسبت
وسبت مبتا إذا انقطع عمله . . . وبلاحظ أن خلق السموات والأرض تم في ستة
أيام مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٢ سورة الحديد)

وكان تمام الخلق يوم الجمعة . . . وفي اليوم السابع وهو يوم السبت . . كان كل
شيء قد إستقر وفرغ من خلق الكون . . . ولذلك به سببت أي أن هذا اليوم
يسمى سبتاً . . . لأن فيه سيكون الحركة بعد تمام الخلق . . . فلما أراد اليهود يوماً
للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك وتعالى أن ينتليهم في هذا اليوم
والإتلاء هو إمتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان صيد
السمك . . . وكان الإتلاء في هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل
الحياة لى يصطادونها تأتي إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يبحثون عنها طوال
الأسبوع وربما لا يجدونها . . . وفي يوم السبت جاءتهم ظاهرة على سطح الماء تسمى
إليهم لئمتهم . . . وإقرأ قوله سبحانه وتعالى

﴿ رَسَلْنَاهُمْ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً آتِيهِمْ إِذْ يَعْطُونَ فِي آسِنَاتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِينَئِذٍ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَكَاءُ يَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ سَوْفَهُمْ عَذَابٌ كَارٍ

يَنْقُضُونَ ﴿١٠٠﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا يمثل سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت . فإذا جاء صباح الأحد اعتفت بعيدا وهم يريدون أن يجعلوا السبت هذا لهم لا يفعلون فيه أى شيء . ولكنهم فى الوقت نفسه يريدون أن يحصلوا من هذه الأسماك والحيتان . صنعوا شيئا اسمه الخياض العميقة ليحتالوا بها على أمر الله بعدم العمل فى هذا اليوم . وفى الوقت نفسه يحصلون على الأسماك . هذه الخياض يدخلها السمك بسهولة . ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها ويتركونه يبيت الليل وفى الصباح يصطادونه . وكان هذا تحايلا منهم على مخالفة أمر الله . والله سبحانه وتعالى لا يحب من يحتال فى شيء من أولامره .

ويقول الله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومثورة . . يعلمها الأجداد للأباء والآباء للأحفاد . . وهى ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك عندما نسمع : « ولقد علمتم » أى لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة . . وكأنها من قصص التراث التى يتناقلونها . .

وقوله تعالى : « الذين اعتدوا منكم فى السبت » . . المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة انهم اعتكروا على أمر الله بالراحة يوم السبت . . هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت . . ولكنهم تحايلا على المنوع بنصب الفخاخ للحيتان والأسماك . . وكانوا فى ذلك أغبياء . . وقد كان المنوع أن يأخذوا السمك فى حيازتهم بالصيد يوم السبت . . ولكنهم أخذوه فى حيازتهم بالفخاخ . . وقوله تعالى : « اعتدوا » أى تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم . . وعادة حين يجرم الله شيئا يأتى بعد التحريم قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء . . حتى لا تقع فى المعصية . يقول لك لا تقرب . . ولكن بنى إسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصون . . وحسبوا أنهم يستطيعون خداع الله بأنهم طائعون مع أنهم

عاصرون . وصدر حكم الله عليهم : « فلنأخذهم كونوا قردة خاصتين » .

وعادة أنك لا تأمر إنساناً أمراً إلا إذا كان في قدرته أن يفعله . . الأمر هنا أن يكونوا قردة . فهل يستطيعون تنفيذه ؟ وأن يغيروا خلقهم إلى قردة . . إنه أمر في مقدرة الله وحده فكيف يقول لهم كونوا قردة ؟

يقول إن الأمر نفسه هنا هو الذي يستطيع أن يجعلهم قردة . . وهذا الأمر يسمى أمراً تسخييراً ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة . ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا . وهذا يدل على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار . . ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم . . لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذه ما سمعوه وبما كان ذلك لازماً . . ولكن بمجرد صدور الأمر وقبل أن يتسهبوا أو يعلموا شيئاً كانوا قردة .

ولقد اختلف العلماء كيف تحول هؤلاء اليهود إلى قردة ؟ كيف مسحوا ؟ قال بعضهم لقد تم المسح وهم لا يدرون . . فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان . . لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا . . وقال بعض العلماء إن الإنسان إذا مسح فإنه لا يتناسل ، ولذلك جبرده مسحهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا . ولماذا لم يتناسلوا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَلَا زُرَّةً وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَلَا تَرَوْا زُرَّةً ﴾

(س الآية ١٦١ سورة الأنعام)

ولو أنهم تناسلوا . . لتحمل الأبناء وزر آبائهم . وهذا مرفوض عند الله . إذن فمن رحمة الله أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون . . ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما حدث لهم

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسحوا قردة . فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن ؟ نقول لهم أنه لم يكن كل اليهود عاصين . . ولكن كان منهم أقلية هي التي عصت ومسحت . وبقيت الأكثرية ليعمل نسلها إلينا اليوم . وقد قال عليه

أخرون أن هناك آية في سورة المائدة تقول :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثْوً عِندَ اللَّهِ مِنْ نَعَةِ اللَّهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَأَخْزَايِرَ وَعَبْدَ أَنْطَغُوتٍ أُولَئِكَ تَرْمَكَا وَأَصْلٌ عَنْ سَوَاوِ السَّيْلِ ﴿٢٨٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسحهم قرعة وخنزير وعبد الطاغوت .. ولقد احبرنا الله جل جلاله أن اليهود مسحوا قرعة . ولكنه لم يقل لنا أنهم مسحوا خنزير .. فهم مسحوا قرعة ؟ ثم بعد ذلك إرداد غضب الله عليهم ومسحوا خنزير ؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمة في القيم والإرادة والحنقة ؟

نقول علينا أولاً أن ننظر إلى البهيمية التي نقلهم الله إليها . نجد أن القرعة هي الحيوان الوحيد المفضوح العودة دائماً .. وإن عورته لها لون مميز عن جسده .. وأنه لا يتأدب إلا بالعصا .. واليهود كذلك لم يقبلوا المسيح إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور .. وما هم فيه الآن ليس مسيح خلقه ولكن مسخ خلق .. والخنزير لا يثابرون حل أتناهم وهذه لازمة موجودة في اليهود .. وعبد الطاغوت . الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد في البغى والظلم .. وعبد الطاغوت هم الطاغوتون لكل ظالم يعينونه على ظلمه وهم كذلك

إذن فعملية المسخ هذه سواء تمت مرة واحدة أو حل مرتين مسألة شكلية .. ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا في الآية التي ذكرناها في سورة المائدة سميت اليهود الأخلاقية . فكأنهم مسحوا خلقه ومسحوا أخلاقاً .



﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخفة الخلفية والأخلاقية لليهود : « وجعلناها نكالاً لما بين يديها » أى مامعها : « وما خلفها » أى ما بعدها : « والنكال » هو العقوبة الشديدة . والعقوبة لابد أن تنشأ عن تحريم أولاً . . هذا هو المبدأ الإسلامى والمبدأ القانونى . . فرجال القانون يقولون لا عفو ولا تجريم ولا تحريم إلا بنص . . قبل أن تعاقب لابد أن تقول إن هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا . . وفى هذه الحالة عندما يرتكبها أى إنسان يكون مستحقاً للعقوبة . ومادام هذا هو الموقف فلا بد من تشريع .

والتشريع ليس معناه إن الله شرع العقوبة . . ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتحذير حتى لا يفعلها أحد . . فإذا ثبت الجريمة فلا بد من توقيع العقوبة . . لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها . . وهذا الزجر يسمى نكالا وسما النكول فى اليمين أى الرجوع فيه .

إذن قوله تعالى : « فجعلناها نكالاً » . أى جعلناها زجراً وعقاباً قوياً . . حتى لا يعود أحد من بنى إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة : « ونكالاً لما بين يديها » . . أى عقوبة حوى يرونها الذين عاصروها تكفى لكيلا يقتربوا من هذه المصيبة أبداً . . وتكون لهم موعظة لا يسونها : « وما خلفها » يعنى جعلناها تتوارثها الأجيال من بنى إسرائيل جيلاً بعد جيل . . كي يبتنا الأب يحكى لابنه حتى لا يعود أحد فى المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة : « وموعظة للمتقين » . . أى موعظة لكل الناس الذين سيبلعهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بنى إسرائيل وما عاقبهم به . . حتى يقرأ أنفسهم شر العذاب يوم القيامة الذى

سيكون فيه ألراى أشد كثيرا من هذا العذاب . . عل أننا لابد أن نلتص الإنتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص هو مبدأ إلهى . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

أى بأن الرسول أولا ليحرم هذه الأفعال . . فإن اوتكبتها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة . ومن هنا فإن كل ما يقال عن كوابيس بأثر رجعى مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله . . فلا يوجد فى هذه السياه ما يقال عنه أكر رجعى .



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

تعرصا إلى هذه الآية الكريمة في بداية سورة البقرة . . لأن السورة سميت بهذا الاسم . ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف . « واذ » . يعنى وادكرو : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . . ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة . . ولابد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب في قوله تعالى .

﴿وَإِذْ قَسَمَ لَكُمْ تَقَاتَرًا فَمِنْهُمْ مَن مِّنْهَا وَأَلَّهِ يُخْرِجُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٦٨﴾ فَمِنَّا أُصْرِبُوهَ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(سورة البقرة)

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علة . . ولكن هذه عظمة القرآن الكريم . . لأن السؤال عن العلة أولا معناه أن الأمر صادر من مساوئك . . فإذا قال لك إنسان إعمل كذا . . تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأطيعه . . إذن الأمر من المساوى هو الذى تسأل عن علة . . ولكن الأمر من غير المساوى . . كأمر الأب لابنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده . . مثل هذا الأمر لا يسأل عن علة قبل تنفيذه . . لأن الذى أمروه أحكم من الذى صدر إليه الأمر ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علة أولا . . فيكون قد فعل الأمر بعلة . فكانه قد فعله من أجل العلة . . ومن هنا يزول الإيمان . . ويستوى أن يكون الإنسان مؤمنا أو غير مؤمن . . ويكون تنفيذ الأمر ملائوتا من الله . .

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا . عرف علته أو لم يعرف . ويقوم بتعبه لأنه صادر من الله . ولذلك فإن تنفيذ أى أمر إيمان يتم لأن الأمر صادر من الله . . وكل تكليف يأتى . . علة حدوثه هي الإيمان بالله . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » . . أى يا من آمنتم بالله ربنا وإلهنا وحالقا . . حذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك .

في هذه الآيات التي نحن بصدد ما أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك . فجهاد بالأمر بديع البقرة أولا . وبالعلة في الآيات التي روت لنا علة القصة . وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى . . سواء عرفت العلة أو لم تعرفها . . فأنت تؤدي الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصل . . فلو أدبت الصلاة على أنها رياضة أو أنها وسيلة للاستيقاظ المبكر . . أو أنها حركات لازمة للبيئة المناصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر . . إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادي وليدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها . . وأن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك . . وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التي فرضها الله عليك لأن الله فرضها . . وكذلك كل العبادات الأخرى . .

الصوم ليس شعورا بإحساس الجائع . ولا هو طريقة لعمل لرجيم ولكنه عبادة . . إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك . . وإن جعلت للصيام أى سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله . . والله أغنى الشركاء عن الشرك . . فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه . . وكذلك كل العبادات .

هذا هو المفهوم الإيمانى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلمتنا إليه في قصة بقرة بني إسرائيل . . ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا . . بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه في آخرها عن السبب . . ومبررنا أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغيرو إيماننا بحقيقة ما حدث . . وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهي موجودة .

قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة » . . أعطى الله تبارك وتعالى

الأمر أولاً بختبر قوة إيمان بني إسرائيل .. وعلى قيامهم بتحميد التكليف دون
تلك أو غفل .. ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أحلوا في المساومة والتباطؤ .
« وإذ قال موسى لقومه » .. كلمة قوم تطلق على لرجل فقط .. ولذلك يقول
القرآن الكريم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَسُوا لَا تَسْخَرُوا قَوْمَ مِثْلَ نَبِيٍّ أَنْ يَكُونُوا حِزْبًا مِمَّنْ وَلَا نِسَاءَ
مِنْ نِسَاءِ نَبِيٍّ أَنْ يَكُنَّ خِزْيًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن قوم هم الرجال . لأنهم يقومون على شؤون أسرهم ونسائهم . ولذلك
يقول الشاعر العربي :

وما أدرى ولست أحوال أدرى
أقوم آل حصي أم نساء

فالقوام للرجال .. والمرأة حياتها مبنية على السرة في بيتها .. والرجال يقومون
لها بما تحتاج اليه من شؤون . والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها
وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال . قوله تعالى : « إِنْ لَّمْ
يَأْمُرْكُم » .. الأمر طلب فعل ، وإذا كان الأمر أعلى من المأمور نسميه أمرا . وإذا
كان مساويا له نسميه إلتماسا . وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء .. على أننا
لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى على سلمان زكريا :

﴿ هَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾

(من الآية ٢٨ سورة آل عمران)

هل هذا أمر من زكريا ؟ طبعاً لا . لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى
الأعلى .. قوله تعالى : « اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ » لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب
منه أن يذبح بقرة .. أهله يحتاج إلى إيضاح ؟ لو كانوا دبحوا بقرة لكان كل شيء
قد تم دون أي جهد .. فإمام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة .. فكل

ما عليهم هو التعميد ..

ولكن أنظر إلى النبأ حتى في أسؤال .. إنهم يريدون أن يفعلوا أى شيء لإبطال التكليف .. لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا .. أى أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلانها دون تحديد .. فاتهموا موسى أنه هزأ بهم .. كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى .. لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة .. وعندما سمع موسى كلامهم ذهل .. فهل هناك نبي يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى .. أبطل نبي الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل المزول ؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون .. جاهلون بربهم ورسولهم وجاهلون بأمرهم .. وأهم يحاولون أن يأتوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى .. فأتجه إلى السماء يستعيد بالله من هؤلاء الجاهلين .. الذين يأتونهم أنيسر فيريدونه حسرا ويأتونهم السهل فيريدونه صعبا .. ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء في حياتهم صعبا وشاقا .



﴿ قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبُّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ٦٨ ﴿

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم . لم يقولوا ادع لنا ربنا . بل قالوا ادع لنا ربك ، وكأنه رب موسى وحده . ولقد تكررت هذه الطريقة في كلام بني إسرائيل عدة مرات . حتى أنهم قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ فَادْعُ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَيْنِلاً إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة البقرة)

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة . يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى . فبدلاً من أن يتفقدوا الأمر وتتهدم المسألة يوجهون سؤالاً آخر . فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدي الجواب إلى سؤال في غير محله منهم . ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدال . بأن يعطيهم أوصافاً لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط . فكأنهم شددوا على أنفسهم بشدد الله عليهم .

نأتى إلى أسئلة بني إسرائيل . يقول الحق سبحانه وتعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » . سؤال لا معنى له ولا محل . لأن الله تبارك وتعالى قال هم إنها بقرة . ولم يقل مثلاً إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال . وجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : « إنها بقرة لا فادريس ولا بكرة » . الفادريس هو الراسع والمراد به بقرة غير مسنة . ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الراسع ؟ البقرة تعرض للحمل كثيراً وأساساً هي ليس وللإنجاب . ومادامت قد تعرضت للحمل كثيراً يكون مكان اللبن فيها في

اتساع .. أى أن عطش يزيد اتساعا مع كل حل جديد .. وعندما يكون عطش البقرة
واسعا يعرف عنها أنها مسنة وولدت كثيرا وصارت فارضا .

وكلمة « بكر » لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها رجل .. ومنها أنها بكر ولدت
مرة واحدة .. ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة
السن .

وقوله تعالى : « عوان بين ذلك » .. يعنى وسط بين هذه الأوصاف كلها .
الحق بعد ذلك يقرصهم فيقول : « فافعلوا ما تؤمرون » .. يعنى كماكم مجادلة
ونعدوا أمر الله وانسحبوا البقرة .. ولكنهم لم يسكنوا انهم يريدون أن يحلوا .
ولذلك غيروا صيغة السؤال .



﴿ قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ ٦٦

بحثوا عن سزال آخر . مالونها ؟ كان الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن
اسن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها ؟ مع انه سبحانه وتعالى قال لهم : « فافعلوا
ما تؤمرون » فلم يفعلوا بل سأوا ما لونها ؟ « مال إنه يقول إنها بقرة صفراء »
والصفرة لون من الألوان ثم قال جل جلاله « فاقع لونها » . يعنى صفرة
شديدة . . ثم قال « تسر الناظرين » . . يعنى أن كل من ينظر إليها يسر
لبسارتها وبظافتها وحسن مطهرها وناسق جسدھا . .

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . وفي الألوان لا يمكن أن نحدد
لونها إلا برؤيته . ولذلك فإن المحسّات في الألوان لا بد أن نسق معرفتها وبعد
ذلك تأتى باللون المطلوب . . لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع
تحديد . لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . ومزج الألوان يعطيك
علدا لا نهائيا من درجاتها . ولذلك فإن لمشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون
أن يقوموا بدهان شقة بيون إلا إذا قام بعمل مريج اللون كله مرة واحدة . حتى
يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . ولكن إذا طليت منه أن يدهن
الشقة باللون نفسه . . بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع .
إذا سمعت صفراء يأتى اللون الأصفر إلى دحك . فإذا سمعت "فاقع" فكل لون
من الألوان له وصف يناسبه يعطيا دقة اللون المطلوب . . "فاقع" أى شديد
الصفرة

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة . إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر
الناظرين . وكان من المفروض أن يكتفى بـ «إسرائيل» بذلك ولكنهم عادوا إلى
السؤال مرة أخرى .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ
عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ورغم أن ما قيل لبنى إسرائيل . . . واضح تمام الوضوح عن البقرة . . . وعصرها
وشكلها ولونها ومنصرها . . . فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم
ينظرون إلى البقر . . . وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان
كذا . . . والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا . . . وعادوا إلى موسى يسألونه أن
يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عندهم . . . وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم
ينعدوا أمره منذ أن قال لهم اذهبوا بقرة ثم قال لهم : « افعلوا ما تؤمرون » . . .
فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وصاعروا بسبب عنادهم وجدلهم . . . وجاء الجواب
من الله سبحانه وتعالى .



﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّدَلُولٍ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَنْ نَجِدَ بِهَا لَحِقًا بِالْحَقِّ
فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا بِفَعْلُولٍ﴾ (٧٨)

(بقرة لا دلول) . البقرة الدلول هي البقرة المروضة الممروية تؤدي مهمتها بلا
تعب . فغاما مثل الخيل المروضة التي لا تتعب راحتها لأنها سم ترويضها .
وسيدنا اسماعيل هو أول من روض الخيل وواسها . وقال الله سبحانه وتعالى
لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة . لا أحد قادها ولا قامت بعمل
إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سميتها في الحقول بدون قائد . «ثير الأرض»
أي لم تستخدم في حراثة الأرض أو فلاحتها . «ولا تسقي الحرث» أي لم
تستخدم في إدارة السواقي لسقية الررع . «مسلمة لا شية فيها» أي حاله من
العيوب لا أدنها مثقوبة . ولا فيها أي علامة من العلامات التي يميز الناس بقارهم
بها . . ولا رحلها عرجاء ، حاله من القمع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع .
وكلمة «لا شية فيها» أي لا شيء بها .

والمائل في وصف البقرة كما جاء في الآيات يرى الصعوبة والشد في اختيار
أوصافها . كان الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم من أعمالهم . ولم يجد بنو
اسرائيل إلا بقرة واحدة تطبق عليها هذه المواصفات فقالوا «والآن حثت بالحق»
كان ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق . وذبحوا البقرة ولكن عن
كره منهم . . لأنهم كانوا حريصين على ألا يدبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ
المنهج . هم يريدون أن يحاطلوا الله سبحانه وتعالى . . والله يقول يا أيها
المؤمنين ان يسارعوا إلى تنفيذ تكاليفه . واقرأ قوله تعالى

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعِيرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحِجَّ عَنْفُسَ السَّعَاتِ وَالْأَرْضُ عِدَّتْ

لِلْمُتَنِفِّينَ ﴿٥٥﴾﴾

وهذه السرعة من المؤمنين في تنفيذ التكليف .. دليل على عشق التكليف ..
لأنك تسارع لضل ما يطلبه منك من تحب . وقوله تعالى : «وما كادوا
يفعلونه» .. يدك على أنهم حاولوا الإبطاء في التنفيذ والتلكؤ .

أما لا يد أن نلتفت إلى أن تباطؤ بني إسرائيل في التنفيذ خدم قضية إيمانية
أخرى . فالبقرة التي طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره
لهم بقرة نادرة لا تتكرر .. والمواصفات التي أعطيت لهم في النهاية . لم تكن
تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها في ثمنها ويبيعها بأعلى الأسعار

والقصة أنه كان هناك في بني إسرائيل رجل صالح . يتحرى الحلال في
الرزق والصدق في القول والإيمان الحقيقي بالله . وعندما حضرته الوفاة كان عنده
عجلة وكان له زوجة وابها الصغير . ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة
اتجه إلى الله وقال : اللهم إن استودعك هذه العجلة لولدى ، ثم أطلقها في
المراعى .. لم يوص عليها أحدا ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمية
على كل شيء .. ثم قال لامرأته إن لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها
إلا الله .. ولقد أطلقها في المراعى ..

وعندما كبر الولد قالت له أمه . إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهي
عجلة .. فقال يا أمي وأين أجدها ؟ . قالت كن كأيك هو توكل واستودع ،
وأنت توكل واسترد . فقال الولد اللهم رب إبراهيم ورب موسى . رد إلى
ما استودعه أبى عندك . فأذا بالعجلة تأتي إليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليربها
لأمه . وبينما هو سائر رآه بنو إسرائيل . فقالوا إن هذه البقرة هي التي طلبها
الرب .. وذهبوا إلى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم . قالوا بثلاثة
دينارين .. فذهب ليشترى أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دينارين
فألت أمه لا .. لا تباع . فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدتها ذهباً ، فدفعوا
له ما أراد .. وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظاً على أولاده يرعاهم ويسر
لهم أمورهم



﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا﴾ ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٤)

قصة الفتيل هي أن رجلاً ثرياً من بني إسرائيل لم يكن له ولد يرثه . . وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل . . والمال والذهب مما حياة بني إسرائيل . فتأمر على هذا الرجل الثرى ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولي على أمواله . . ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة لبيتهم أهلها يقتل الثرى . . وفي الصباح قام أهل القرية ووجدوا جثة الثرى أمام قريتهم . ووجدوه غريباً عن القرية يسألوا من هو ؟ حتى وصلوا إلى ابن أخيه فتجمع أهل القتل وانهمروهم بقتله . وكان أشدهم تحمساً في الاتهام القاتل بن أخيه . .

وقوله تعالى وإدارأتم فيها الدراً هو الشيء حين يجرى اليك وكل واحد ينفيه عن نفسه . . إدارأتم أى أن كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكن واحد يقول لست أنا . .

وليس من الضروري أن يتهم أحداً آخر غيره المهم أن يدفعها عن نفسه .

ولقد حاول أهل القريتين . قرية الفتيل ، والقرية التي وجدت أمامها الجثة . أن يدفع كل منها شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر . . ولم يكن هناك دليل دامع يربح اتهاماً محمداً . بل كانت الأدلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى .

وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم

يستدل على قاتله . . فإن قرية القنيل وأهله يأخذون حسين رجلا من أعيان القرية
التي وجدت بجوارها الجثة . . فيلقوا اليهين بأنهم ماقتوه . ولا علموا
قاتله . وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من حسين رجلا . تكررت الأيمان حتى
نصير حسين يمينا . فيعلمون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله . عندها يتحمل
بيت المال دية القنيل . .

ولكن الله كان يريد شيئا آخر . يريد أن يرد هذه الجريمة على جحود بني
اسرائيل باليوم الآخر . . ويجعل الميت يقف امامهم ويطلق اسم قاتله .
ويعلمهم يرون البعث وهم أحياء . ولذلك قال سبحانه وتعالى . «والله مخرج
ما كنتم تكتمون» . . أي أن بني اسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة ديروهم
على أن تبقى في طي الكتمان فلا يعلم أحد عنها شيئا . . ولذلك جاء الشهاب وقتل
عنه دون أن يراه أحد . . ثم حمل الجثة خفية في ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت
أحد اليه . ثم ذهب الى قرية مجدورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها يائسون
واصرف عائدا .

كانت كل هذه الخطوات في رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تكشف ابدا
ولا يعرف سرها أحد . ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك . . أراد أن يكشف
الجريمة بطريقة لا تحتمل الخذلان ، وفي نفس الوقت يرد على جحود بني اسرائيل
للعت . . بأن يرسم البعث وهم أحياء .



﴿فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى
وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٢)

احتدام الخلاف بين بني اسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة . . فمرروا أن يلجأوا الى موسى عليه السلام ليطلب من الله نارك وتعالى أن يكشف لهم لعر هذه الجريمة ويدلهم على القاتل . وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اديحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة آية بقرة لانتهدت بلشكلة . . ولكنهم ظنوا يقولون ما لونها وما شكلها الى آخر ما روينا . . حتى وصلوا الى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وديحوها . . فأمرهم الله أن يصربوه ببعضها . . أي أن يصربوا القاتل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت . .

ونظر الى العظمة في القصة . . جرد من ميت يضرب به ميت فيحيا . . اذن لمسألة أعدها اخو بصورة لا تجعلهم يشكون أحد . . فلو أن الله احيا يدون أن يضرب بجرد من البقرة . . لقالوا لم يكن قد مات ، كانت فيه حياه ثم افق بعد غيابة . . ولكن الله أمرهم أن يديحوا بقرة حتى تحوب ليعطيهم درسا ايماني بقدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بملاديات . . وأن ياخذوا جزءاً أو أجزاء منها وأن يصربوا به القاتل فيحيا وينطق باسم قاتله ويمتد الله بعد ذلك . .

يقول الحق جل جلاله . . «كذلك يخبي الله الموتى ويريككم آياته لعلكم تعقلون» ليري سوا اسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يخبي الله الموتى وليعرفوا أن لانسان لا يبقى حيا بأسباب الحياه . . ولكن بإرادة مسبب الحياه في أن يقول «كن فيكون» . .



ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَزْشَدُّ
قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ
مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ
مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم . لأن القلب هو موضع ارقه والرحمة والعطف . . وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فإنه يعتلء رحمة وعطفا . والقلب هو العضو الذي يحسم مشاكل الحياة . . فإذا كان القلب يعمر باليقين والايان . . فكل جارية تكون فيها خيرة الايمان .

وحتى يعرف قوة وقدره وسعة القلب على الايمان واحتوائه أوصح الله تعالى هذا المعنى في كتابه العزيز حيث يقول :

﴿ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَالٍ تَقْشِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ لَمْ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّكَ ذَكِّرٌ لِلَّهِ ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا نرى أن الجلود تقشر من هول الوحيد بالنار . . وبمجرد قراءة ما ذكره
القرآن عنها . . وبعد ذلك تأن الرحمة ، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن
لا بد أن تلين القلوب لأنها هي التي تعطى اللسحة الايمانية لكل جوارح الجسد

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«ألا وإن في الجسد مضغطة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد

الجسد كله ألا وهي القلب»^(١)

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الايمان ، وكما أن الايمان في القلب فإن القسوة والكفر في القلب . فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو . . ماذا ؟ . لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا والألمة فيحتول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأى طريقة فلا تأن إلا بالنظم والطنين وأخذ حقوق الضعفاء ، ثم لا يفترط فيها أبدا لأنها هي منتهى حياته فلا شيء بعدها

انه يجد انسانا يموت امامه من الجوع ولا يعطيه رعيئا . وإذا خرج الايمان من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل ايمان لجوارح . فلسمة الايمان التي في اليد تخرج فتشد اليد الى السرقة والحرم . وشمعة الايمان التي في العين تخرج فتشتر العين الى كل ما حرم الله . وشمعة الايمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم الى المسجد أبدا ولكنها تمشي الى الخيابة وإلى السرقة . . لأنه كما أننا لقلب نخرج الايمان في الجسم .

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم يقول : «هي كالحجارة أو أشد قسوة» . . الحجارة هي الشيء القاسي الذي تدركه حواسنا ومأنوف لما ومألوف لبي اسرائيل ايض . . لأن لهم مع الحجارة شوط كبيرا عندما ثابوا في الصحراء . . وعندما عطشوا وكان موسى يضرب لهم الحجر بمصاه

الله تبارك وتعالى لفتهم الى أن المروحي أن تكون قلوبهم لينة ورفيعة حتى ولو كانت في قسوة لحجارة . . ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح في شدة الحجارة وقسوتها بل هي أشد .

ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة . . لا تنظر الى لينة مادة القلوب ولكن انظر الى ادائها لمهمتها .

الجليل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتدا للأرض صلبا قويا ، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته . . أما قلوب بني اسرائيل فهي أشد قسوة من الجليل . والمطلوب في القلوب اللين ، وفي الحجارة

الفسرة .. فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة .. فالخطاب مثلا أعوج .
هذا العوج يجمعه يؤتى مهمته على الوجه الأكمل .. فعوج الخطاب استقامة
لمهمته . . . وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى من الحجارة ..
وتكون على العكس تماما من مهمتها ..

ثم يقول الحق نبارك وتعالى .

﴿وَإِنْ مِنْ الْحِجَابَةِ لَمَا يَتَمَجُّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَسْقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الفرق)

هنا يذكرهم الله لما رأوه من الرحمة الموجودة في الحجارة .. عندما ضرب موسى
الحجر بالصخرة فأنفجرت منه العيون . وذلك مثل حصى شهوده . يقول لهم الحق
جل جلاله : ان الرحمة تصيب الحجارة فيتمجر منها الأنهار ويخرج منها الماء ويقول
سبحانه . وان منها لما يهبط من خشية الله

اذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء . ولكن قلوبكم اذا قت
لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تحشع أبدا والله سبحانه وتعالى نزل
عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وسره ومغفرته الكثير . كان المفروض
أن تلين قلوبكم لذكر الله .

ولكن ما الفرق بين تفجر الأنهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء ؟
عندما تتمجر الحجارة يخرج منها الماء . نحن نذهب الى مكان الماء لنأخذ
حاجتنا .. ولكن عندما تتمجر منها الأنهار فالماء هو الذي يأتي ايننا ونحن في
أماكننا . وفرق بين عطاء تذهب اليه وعطاء يأتي اليك . أم هيوط الحجر من
خشية الله فذلك حدث عندما تعجل الله للجبل فجعله دكا . واقرأ قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا جَعَلْنَا رِجْلَ الْبَلْعِ جَعَلَهُ دَكًا وَكَانَ تَوَّاسٍ صَبَاحًا﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

يذكروهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تحمل الله له هبط وانهار من خشية الله وهكذا لا يعطيهم الأمثلة مما وقع لعبدهم ، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم .

وقوله تعالى «وما الله بغافل عما تعملون» أي تذكروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كل ما تعملونه يعرفه وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتلون إلى رحمته ومعرفته ، فلا تمحوا قلوبكم نفسوا حق لا يوردكم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره .



﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَفَرِيقٌ مِنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٥﴾

يعطينا الحق تبارك ونعالى هنا الحكمة فيما رواه لنا عن بني إسرائيل ومن قصصهم . لانهم سيكون لهم دور مع المسلمين في المدينة ، ثم في بيت المقدس ، ثم في المسجد الأقصى . فهو يروى لنا كيف أتبعوا نبيهم وكيف عصوا ربه وكيف قاتلوا النعمة بالمعصية والرحمة بالجحود . وإذا كان هذا موقفهم يا محمد مع الله ومع نبيه . . فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا في الاسلام ، مع أنهم عنتهم للتوراة تدعوهم الى الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . .

هذه الآيات تحمل أعظم نعيمة للرسول الكريم . وتطالبه ألا يجزى عن عدم ايمان اليهود به لأن عليه البلاغ فقط ، ولكن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤمن كل أهل الأرض يهود ونصارى وكفرا ، ليس معناه أنه لم يفهم مهمته ، ولكن معناه أنه أدرك حلاوة التكليف من ربه ، بحيث يريد أن يجدى كل خلق الله في الأرض . . بوعظته الله ويقول له لا تعتقد أنهم سيؤمنون لك . وليس معنى عدم ايمانهم أنك لست صادقا . . فتكذيبهم بك لا ينهش أن يؤثر عليك . . فلا تطمع يا محمد أن يؤمنوا لك . .

ما هو الطمع ؟ . . الطمع هو رغبة النفس في شيء غير حقها وإن كان محبوبا لها . . والأصل في الانسان العاقل ألا يطمع إلا في حقه . . والانسان أحيانا يريد أن يرفه حياته ويعيش مترفا ولكن بحركة حياته كلها هي . نقول له إذا أردت أن تتوسع في ترفك فلا بد أن تتوسع في حركة حياتك ، لأنك لو أثرت معتمدا على حركة حياة غيرك فسيهد ميزان حركة الحياة في الأرض ، أي إن كنت تريد أن تعيش حياة متزنة فمش على قدر حركة حياتك ، لأنك إن فعلت غير ذلك تسرق وترش وتفسد فإن كان عندك طمع فليكن فيما تقدر عليه .

إذن فكلمة «المعتطمعون» ما تحدد أنه يجب ألا نطمح إلا فيما يقدر عليه . هؤلاء اليهود هل يقدر على أن نجعلهم يؤمنون ؟ يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . . هذا أمر زائد على ما كلمت به . . لأن عليك البلاغ ، وحتى لو كان محيا إلى نفسك . . فإن مقسماتهم مع الله لا تعطيك الأمل في أنك ستصل إلى النتيجة التي ترجوها

وهذه الآية فيها تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيلقيه مع اليهود . وتعطيه الشحنة الإيمانية التي تجعله يقابل عدم إيمان هؤلاء بقوة وعزيمة . . لأنه كان يتوقعه فلا يحزن ولا تذهب نفسه حشرات ، لأن الله تبارك وتعالى قد وضع في نفسه التوقع لما سيحدث منهم . . فإذا جاء تصرفهم وفق ما سيحدث . . يكون ذلك أمرا محتملا من النفس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ينظر إلى الأمانة والهدى فريق منهم ليس كنهم هذا هو ما استسط معه العلم نظريته صباه الاحتمال . . وهي عدم التعميم بحيث تقول انهم جميعا كذا . لابد أن نصنع احتمالا في أن شخصا ما سيؤمن أو سيشك أو سيجالف . هنا فريق من أهل الكتاب عرفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل . . وعندما بحث أسوانه ، هؤلاء لم يعرفوا كلام الله . لو أن القراء جاء بالحكم عاما لتغيرت نظرة الكافرين للإسلام . وقالوا لقد قل هنا هذا الذين اتنا حرفا كتاب الله ولكننا لم نعرفه ونحن نتظر رسوله . . فكان هذا الحكم غير دقيق . ولابد أن شئنا ما خطأ . . لأن الله الذي نزل هذا القرآن لا يخفى عليه شيء ويعرف ما في قلوبنا جميعا . ولكن لأن الآية الكريمة تفوق أن فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه . الكلام بلا تعميم ومتنطق بدقة على كل حال

والحق جل جلاله يقول : «ثم يحرفونه من بعد ما عفلوه وهم يعلمون» . . هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعملوه وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوه . لقد قرأوه في التوراة وفروا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنهم يعرفونه كأشخاص . ثم حرفوا كلام الله وهم يسمعون . . ومعنى التحريف تغيير معنى الكلمة . كانوا يقولون السَّلام عليكم بدلا من السلام عليكم . ولم يتوقف الأمر عند التحريف بل تعداه إلى أن جاءوا بكلام من عندهم وقالوا أنه من التوراة

﴿وَإِذَا قَالُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ
إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

هذه صور من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث . مؤمنون
وكافرون ومنافقون . المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذي يعيش فيه .
والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعبه . والمنافق
لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق
وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع الكون . . فهو يقول ما لا يؤمن به . .
وفي داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعبه ، وفي الآخرة هو في الدرك
الأسفل من النار . وهذه الآية تتشابه مع آية تحدثنا عنها في أول هذه السورة .
وهي قوله تعالى :

﴿وَإِذَا قَالُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ
إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

(سورة البقرة)

في الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود
وشيطانيهم من اليهود . . وهنا الدور من اليهود والمنافقين من اليهود . الحق
سبحانه وتعالى يقول : وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وهل الإيمان كلام ؟ . .
الإيمان يقين في القلب وليس كلاما باللسان . والاستدلال على الإيمان بالسلوك
فلا يوجد إنسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أوريا . يقول آمنت نفاقا ولكن
سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . ولذلك كان سلوكهم هو الذي يفضحهم
يقول تعالى : وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم

وفي سورة أخرى يقول الحق :

﴿وَبِذَٰلِكَ نُفَصِّلُ لِقَوْلِهِمْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَصِيكُمْ أَلَأْمَلٍ مِنَ الْعَبِيدِ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

وفي سورة المائدة يقول سبحانه :

﴿وَإِذَا جَاءَ وَكْرٌ قَالُوا آمَنَّا وَهُمْ قَدْ نَجَّوْا بِهِمْ﴾

(من الآية ٦١ سورة المائدة)

ها أربع صور من صور المنافقين . كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب . في الآية الأولى «وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم» وفي الآية الثانية : «وإذا خلا بعضهم إلى بعض قلوا الحمد لله بما فتح الله عليكم» وفي الآية الثالثة : «عصوا عليكم الأئمة من الغيظ» . وفي الآية الرابعة : «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا في التوراة أوصاه كذا . . حينئذ كان أحبار اليهود ينهونهم عن ذلك ويقولون لهم : «الحمد لله بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» فكانهم علموا صقلت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها . إن الغريب أنهم يقولون : «ي فتح الله عليكم» . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه . . ولو أراد الله لهم الفتح لأمتت انقلوب . .

قوله تعالى : «ليحاجوكم به عند ربكم» يدل على أن اليهود المنافقين والكمار وكل خلق الأرض يعلمون أنهم من خلق الله ، وأن الله هو الذي خلقهم . . ومداوموا يعلمون ذلك فليذا يكفرون بخالقهم ؟ «ليحاجوكم به» أي لتكون حجتهم عليكم قوية عند الله . . ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا «عند ربكم» والمحااجة معناها أن يلتقى فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة

يدلى فيها كل فريق بحجته . واقرأ قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه هي المأظرة التي حدثت بين ابراهيم عليه السلام والنمرود للذي آتاه الله الملك .. ماذا قال ابراهيم ؟

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ وَرَبِّيَ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه كانت حجة ابراهيم في الدعوة الى الله ، فرد عليه النمرود بحجة مزيفة . قال انا احيى واميت .. ثم جاء بواحد من جنوده وقال خواسه اقتلوه .. فلما التجهروا اليه قال اتركوه .. ثم انضت الى ابراهيم :

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

جدل عقيم لان هذا الذي أمر النمرود بقتله . كان حيا وحياته من الله .. والنمرود حين قال اقتلوه لم يمته ولكنه أمر بقتله .. وفرق بين الموت والقتل .. القتل أن تهلك بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها . والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة لم تهلك .. الذي يميت هو الله وحده ، ولندنت بقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ مَآءٌ أَوْ قُتِلَ أَمَلَّيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة آل عمران)

والنمرود لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده الى الحياة .. ولكن ابراهيم عليه السلام .. لم يكن يريد أن يدخل في مثل هذا الجدل العقيم ..

الذي فيه مقارعة الحجّة بالحجة يمكن فيه الجدال ولو زيقا .. ولذلك جاء بالحجة البالغة التي لا يستطيع النمرود ان يجادل فيها :

﴿ قَالَ لِرَبِّهِمْ فَلِمَ إِذَا بَأْسَ بِالنَّاسِ مِنَ الشَّرِّ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذا هو معنى الحجّة .. كل طرف يأتي بحجته ، وما داموا يحاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسيصف المظلوم من الظالم .. اذا كانت هذه هي الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم ؟ الجواب لا .. لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم في هذا الخطأ فهذا ليس فتحا ..

وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » نعتام متعلقى للآية .. لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل .. الذي يقول « ليحاجوكم عند ربكم » يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الاله ولا يخوفه لا يمكن أن يتصرف بالعقل .



﴿ ٧٧ ﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

يرون الله لنا بأنه يعلم امرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : « أنحدثوهم بما كتبه الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » .. الله علم وسمع .. وعندما يلقى المنافقون المؤمنون ويقولون آمنا .. « إذا علو عضوا عليكم الأنامل من الغيظة هذا انفعال حركي ليس فيه كلام يقال ولكن فيه واقع يرى .. ومع ذلك فهو ليس سرا .

ما هو السر وما هو العلن ؟ .. الأمر المعلن هو الذي يخرج منك الى من عنده آله السباع ليسمعك .. والأمر المعلن يخرج منك الى من عنده آله الرؤية ليراك .. فإن كان حركة بلا صوت فهذا عنده العيون . وإن كان بصوت فعلته الأذن .. هذه وسائل الإدراك الأصلية ..

وقوله تعالى « يعلم ما يسرون وما يعلنون » ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون .. وإذا كان يعلم ما نسر ألا يعلم ما نعلن ؟ . لا شك أنه يعلم .. ولكنها دقة في البلاغة القرآنية ، ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه .

ونحن نعلم أن الله غيب .. وغيب يعني مستور عن حواسنا .. وما دام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور .. وبما كان العلن الظاهر له قوانين أخرى .. فمثلا إذا كان هناك شخص في المنزل ، ثم يقول « أنا أعلم ما في المنزل وما هو خارج المنزل .. لو قال أنا أعلم ما في المنزل لقلنا له أنت داخله فلا حراسة في ذلك .. ولكنك مستور عما في الخارج فكيف تعلمه ؟

ومادام الله غيبا فقول ما يرون أقرب لغيبه . وما يعلنون هي التي تحتاج وقفة . لا تظنوا أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وتسمى فقط . . لا . . إنه يعلم الشهود والفائب . . إذن فللمناسب لأن الله غيب عن ابصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يرون أولا . .

ما معنى ما يرون ؟ . . السر هو ما لم نهمس به إلى غيرك . . لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سرا . ولكن السر هو ما تسره في نفسك ولا نهمس به لأحد من الناس . . وإذا كان السر هو ما تسره في نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان . . والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفي . . والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب . . فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيبا . إنه يعلم السر والعلن . . والله جل جلاله يقول في القرآن الكريم :

﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

(من الآية ٧ سورة طه)

فإذا كان السر هو ما تخفيه في نفسك وله واقع داخلك . . « ما هو أخفى » هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك .



﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَتْلُمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

الله سبحانه وتعالى لا زال يتحدث عن أهل الكتاب .. فبعد أن بين لنا الذين يقولون : « اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجركم به عند ربكم » .. انتقل سبحانه وتعالى الى طائفة أخرى وهم من أمياهم بالأميين .. وأصبح قول في الأمي هو أنه كما ولدته أمه .. أي لم يعلم شيئا من ثقافة وعلم في الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه . ولذلك فإن الأمي على إطلاقه هو الذي لا يكتسب شيئا من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه .. لأن الشائع في المجتمعات أن الذي يعلم هم الخاصة لا العامة .. وعلى أية حال قللنا كلها ملتقى في تعريف الأمي .

قوله تعالى : « ومنهم أميون » .. تلاحظ أن هناك معسكرات من الأميون واجهت الدعوة الإسلامية .. فللمعسكر الأول كان المشركون في مكة ، والمعسكر الثاني كان أهل الكتاب في المدينة . وأهل الكتاب تطبق على أتباع موسى وأتباع المسيح .. ولكن في الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصاري .. وكان هناك مجتمع . وللقصود من قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » هم اليهود الذين كان لهم مجتمع في المدينة .. وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : « ومنهم أميون » . معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين .. وهؤلاء هم الذين سيأتى قول الله تعالى عنهم في الآية التالية :

﴿نَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَنَّهُمْ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

هنا قسم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام .. منهم قسم أنى لا يعرفون

الكتاب وما يقوله لهم آحيارهم هو الذي يعرفونه فقط .. وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما في التوراة . من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمنوا به .. والكتاب هنا يقصد به التوراة .. والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم .. ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أمان .. فكان الأمان يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأمان ؟ .. إنها تطلق مرة بدون تشديد الياء ومرة بتشديد الياء . فإن كانت بالتخفيف تكون جمع أمانة .. وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمنية بالتشديد على الياء . الأمنية نجدها في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرِهِ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

هذا بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد .. في قوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

ما هي الأمنية ؟ .. الأمنية هي الشيء الذي يجب الإنسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل .. إذن لن يحدث ولن يكون له وجود .. ولذلك قالوا إن من معاني التمني اختلاق الأشياء .. اشاعر الذي قال :

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا

فَأُغِيرَ بِمَا قَتَلَ الشَّيْبَ

هل الشباب يمكن أن يعود ؟ .. طبعاً مستحيل .. هذا شيء لن يحدث .. والشاعر الذي قال :

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَذُوبُ فَنُظْمَتِهَا
عُقُودَ مَنَحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ عِلْمِ

هل النجوم مستنزل من السماء وتأتى إلى هذا الشاعر . . ينقلها أبيات شعر إلى
حييته . . إذن من معاني التعمى للكذب والاختلاق . ولقد فسر بعض المستشرقين
قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى (أى
قرأ) : « ألقى الشيطان فى أمنيه » (أى فى قراءته) . . وطبعاً الشيطان من يلقى
فى فراءة الرسول إلا كذباً وإفترافاً وكفراً . . اقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَتَيْتُمُ الْمَرْءَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَعْثَفَتْ أَمْ لَا ﴾ ١٦ ﴿ وَمَنْ أَشَلُّفَ الْأَقْرَبِ ﴾ ١٧ ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْآلُفُ ١٨ ﴿﴾

(سورة النجم)

قل أعداء الإسلام عداًم قد ذكر في القرآن أسماء الغرائق . وهي الأصنام التي كان يعبدونها الكفار . . ومنها اللات والعزى ومنة الثالثة الأخرى . . إذن فشماعة هذه الأصنام تركت في الآخرة . . وهذا كلام لا يتسجم مع منطق الدين كله الذي يدعو لعبادة الله وحده . . وخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلاً يدعو لعبادة الله وحده . . إذن فهكون الشيطان قد ألقي في أصبته فيما يقوله رسول الله . . ثم أحكم الله سبحانه آياته فقال تعالى :

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِنسَانِ سَمِيعٌ نُّبِّئُهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النجم)

وهم يريدون بذلك أن يشككوا . . في أنه من الممكن أن يلقى الشيطان بعض أفكاره في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن الله سبحانه ينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم آياته .

إن الله جل جلاله لم يترك وحده لعبث الشيطان . . ولذلك سنبعث الآية بمبدأ من كل ما قيل . نقول لو أنك تنبّهت إلى قول الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا نحن) لو قلنا نحن بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته . . إذن هو سبحانه لن يترك رسوله

يخطئ .. وبذلك ضمننا أن كل ما يتهى إليه الرسول صواب .. وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم .. فنطمئن إلى أنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقه الشيطان في قبي الرسول ويصلنا دون أن ينسخ .

فإذا قلنا : إن الله ينسخ ما يلقى الشيطان فما الذي جعلكم تترقبون ما ألقاه الشيطان مادام رسول الله صل الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم .. ثم من هو الرسول ؟ بشر أوحى إليه منهج من السماء وأمر بتبليغه .. ومن هو السى ؟ .. بشر أوحى إليه منهج ، ولم يؤمر بتبليغه .. ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا السى .. ويكون انبى قدوة سلوكية .. لأنه يطبق منهج الرسول الذى قبله فهو لم يأت بجديد .

الآية الكريمة جاءت بكلمتى رسول أو نبى .. إذا كان معنى أمنية الشيطان مستغنى بالسبب لرسول فهو غير مستقيم بالسبب للنبى .. لأن النبى لا يقرأ شيئا ، ومادام النبى ذكر فى الآية الكريمة فلا بد أن يكون للنبى معنى آخر غير القراءة .. لأن السى لم يأت بكلام يقرؤه على الناس .. فكأنه سيفراً كلاما محكما ليس فيه أمنية الشيطان أى قرأته .

إن التمسى لا يأت بمعنى قراءة الشيطان .. وأمنية الرسول والنبى أن ينجعوا فى مهمتهما .. فالرسول كمنبع لمنهج الله والنبى كأسوة سلوكية .. المعنى هنا يختلف .. الرسول أميته أن يبلغ منهج الله .. والشيطان يحاول أن يترع المنهج من قلوب الناس . هذا هو المعنى .. والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله فى الأرض وتنظم حركة الناس .. هذا هو المعنى .

وكلمة تمى فى هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبى يجب أن يسود منهجه الأرض .. والشيطان يلقى العراقيل والله يحكم آياته وينصر الحق . ويجب أن نفهم الآية على هذا المعنى . بهذا يتنى تماما ما يدعوه المستشرقون من أن رسول الله صل الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما يوحى إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما فى الوحى .. مستحيين .

وقوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمان » معناها أنه يأت

قوم لا يعرفون شيئا عن الكتاب إلا طنا . فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم . وكأن الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن كثيرا من المذهب الدينية في الأرض يشأ عن الملمس لها . فهناك أناس يأتون آخرين ليقلوا لهم ما انتهت إليه الأحكام الدينية . فيال الأمي أو غير المثقف يسأل علما عن حكم من الأحكام الشرعية . ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه . . لأن علمه قد انتهى عند السؤال عن الفتوى . والحق سبحانه وتعالى كما يقول

﴿وَلَا تَرْدُدُوهُ وَرَدَّهُ آخَرُ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

أي لا يحمل احدا ديب احده يوم القيامة . . يقول تعالى .

﴿يَحْمِلُوْهُ أَوْزَارُهُمْ كَمَا يَوْمَ نُنْفِئُهَا مِنْ آوْرَارٍ لِلَّذِي يَصْنَعُهُمْ يَبْغِيْهِمْ عِلْمٌ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

بعض الناس يظن أن الأتني بيها تخلص . يقول لا . من يركب إثما يحاسب عليه . ومن يصل غيره بفتوى غير صحيحة يحمل له بها ما حرم الله فإنه يحمل معاصيه ومعاصي من أصل . . فيكون له وور لأنه صل، وورر لأنه أصل غيره . بل وأكثر من ذلك . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .

(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)^(١)

ولابد أن ننسب إلى حظيرة الفتوى في الدين بعير علم . الفتوى في الدنيا أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه هو أن تجعلك غمر صمقة . لكن الفتوى في الدين مستدوم عمرا طويلا

(١) (رواه أحمد ومسلم أن أبي هريرة)

الحق تبارك وتعالى يقول . « إن هم إلا يظنون » .. والظن كما قلنا هو سبة راحمة ولكن غير مؤكدة . وإذا كان التمسى كما ورد في الذمة هو القراءة . فهؤلاء الآمنون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(سورة البقرة ٥٠ سورة الحج)

وهكذا يرى أن هناك صفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئا . والله حل جلاله قال إن مثله كالحمار . ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأثقال . ولكن الإنسان ليست مهمته أن يحمل ما يجهل . ولكن لابد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه



﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ شَعْنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧١)

هذه الآية الكريمة جاءت في القسم الثاني من اليهود وهو المقبل للأمين .. وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب .. وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، وبدأ الآية بالوهد بالجزء مباشرة . لاحظ أن كلمة ويل في اللغة تستعمل معها كلمتي ويح وويس .. وكلها تعني الهلاك والعذاب .. وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿يَوَيْلٌ لِّلنَّاسِ هَٰذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَعِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصِيَ﴾ (٤)

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

وقوله جل جلاله :

﴿يَوَيْلٌ لِّلنَّاسِ هَٰذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَعِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصِيَ﴾ (٥)

(من الآية ٩٧ سورة الأنبياء)

هذه الولايات تعني الحسرة وقت رؤية العذاب . وقيل إن الويل وإد في جهنم يهوى الإنسان فيه أربعين خريفاً والعياذ بالله .. والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفاً .. لأن كل من ارتكب إثماً نتيجة لقرينتهم لكتاب سيكونون شركاء وسيحصلون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفاً مضاعفاً كثيرة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يكمنون أن يقول الحق قولاً ليس للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى معهوداً يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم . . يقول لا . . لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . رئيس الدولة مثلاً يتصل بأحد ورائه ويقول له ألم أكتب إليك كتاباً بكذا فهاذا لم تنعه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كسوه بأمره ، وروساه الدول نادراً ما يكتبون كتباً بأيديهم

إن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . فهم لا يكتبون مثلاً بأن يقوموا لغيرهم يكتبوا . ولكن لإمتناعهم بترييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماماً . فليست للسأنة نزوة عبثية . ولكمها مع سق الإصرار والترصد . وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمننا قليلاً ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب في الماضي إذا احتلفوا في شيء ذهبوا إلى الكهنة والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم . لماذا ؟ لأن الناس حين يحتلمون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا غخطين . بمعنى لا أهرم امامه ولا ينهرم امامي . . وإنما يقولون نعتيد حكم فلان . فإذا كنت سئلاً إلى تشريع السماء ليحكم بنا . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو مهزم ومغتصر . ذلك حين أخضع أباً وأنت لحكم الله يكون كل ما راصب نتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودي والمسيحي أحلوا بصندوق فتاوى متناقضة . . كل منهم حسب مصلحته وهواه . ولذلك تضاربت الأحكام في القضايا المشابهة . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . بل أصبح الحكم خاضعاً لأهواء ومصالح وقضايا الشر . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . إنما يريدون أن يجعلوا على المكسوب قدسة تجعل الإنسان يأخذ به لا متناقضة . . وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ، يكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابة ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأخبار ، بدأوا يطيبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . . الحق سبحانه وتعالى يقول . « ليشتروا به ثمنا قليلا » . . وقد قلنا إن الإنسان لا يشتري الثمن . ولكنه يدفع الثمن ويشتري السلعة . . وبكتك هنا تدفع لتأخذ ثمنا . . تدفع من منتهج الله وحكم الله فتغفره وتبدله لتأخذ ثمنا موافقا . . والله سبحانه وتعالى يعطيك في الآخرة الكثير ولكنتك نبيعه بالقليل . وكل ثمن مهم يبلغ تأخذه مقابل منتهج الله يعتبر ثمنا قليلا

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » ثم جاء قوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » فاعه الكتابة لها ويل وعذاب . وساعة بيع الصفة لها ويل وعذاب . . والذي يكسبه هو ويل وعذاب

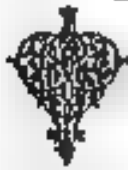
لقد نشرت هذه المسألة في كتبة صكرت العمران التي كانت تباع في الكنائس لمن يدفع أكثر والحق سبحانه وتعالى يقول . « وويل هم مما يكسبون » وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجهل بك خبرا أو نفعاً . وهناك كسب وهذا اكتسب . كسب نافع بالشيء النافع ، واكتسب نافع بالشيء الضار . . ولكن في هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : « وويل هم مما يكسبون » . . وفي آية ثانية قال : « بل من كسب سيئة » .

فلماذا تم هذا الإستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبعيا ، إنما هو احتمال في الكسب . أي اكتساب . ولا بد أن نفهم إنه بالسبب الجوارح الإنسان . . فإن هناك القول والفعل والعمل . بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل نقول لا . هناك قول هو عمل اللسان . . وبعض هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان . . وعمل وهو أن يوافق القول العمل . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ ﴾

إذن هناك قول وفعل وعمل . . والإنسان إذا استخدم جوارحه استخدما
 سليما يفعل ما هو صالح له . . فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يخطب الله
 فإن جوارحه لا تفعل ولكنها تفعل . . تصادم ملكاتها بعضها مع بعض
 والإنسان وهو يفتح الخزنة ليأخذ من ماله يكون مطمئنا لا يخاف شيئا
 والإنسان حين يفتح خزنة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال . .
 والإنسان مع روجته منسجم في هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون في وضع
 مختلف . . إنها حالة افتعال . . وكل من يكسب شيئا حراما إفتعله . . ولذلك
 يقال عنه اكتسب . . إلا إذا تمس وأصبح الحرام لا يهره ، أو عن نقول عنهم
 محتادو الإجماع . . في هذه الحالة يفعل الشيء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه . .
 هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذي يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله . .
 أصبح الإثم لا يهزمهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين في آية واحدة .



﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتُخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَتَمْتَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

من يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس . . لقد زين لهم الشيطان
الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كبروا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الديني
وفازوا به . . لأنهم لن يعذبوا في الآخرة إلا عدداً حقيقاً قصيراً . . ولذلك يفضح
الله تبارك وتعالى ما يقولونه بعضهم مع بعض . ماذا قالوا ؟ قالوا لن نمسنا النار إلا
أياماً معدودة .

المس يعنى اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء . . ولكن لا يحس أحدهما
بالآخر إلا إحساساً خفيفاً لا يكاد يذكر . فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أن يلك
على يده يقال مسست . ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو
نعومة جلده . . ولكن اللمس يعطيك إحساساً بما تلمس : « قالوا لن نمسنا النار
إلا أياماً معدودة » وهكذا أخذوا أقل الأقل في العذاب . . ثم أقل الأقل في الزمن
فقالوا أياماً معدودة . . الشيء إذا قيل عن معدود فهو قليل . . أما الشيء الذي
لا يحصى فهو الكثير . . ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

فمجرد الإقبال على العدد معناه أن الشيء يمكن إحصاؤه . . فلن لم يكن ممكناً
لاقبل أحد على حده ، ولا ترى من حاول عدّ حبات الرمال أو ذرات الماء
في البحر . . نعم الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك

لا يُبذل أحد على إحصائها .. وإذا سمعت كلمة « أياما معدودة » فأعلم أنها أيام قليلة . ولذلك نرى في سورة يوسف قول الحق جل جلاله .

﴿ وَثَرَوْا بِشَمْنٍ يَخْسِرُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

قوله لن نخسرا النار إلا أياما معدودة .. دليل على غيائهم لأن مدة النار لا تكون إلا لحظة . ولكنها أمان وضعها الشيطان في عقولهم ليأتى الرد من الله في قوله سبحانه : « قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهدا » أى إذا كان ذلك وعدا من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم .. بل هو جل جلاله الذى يحكم .. فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ها أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. قبلنا من أن يقول لهم اتصرون على الله أو تكذبون عن الله . أو تخلقون عن الله ما لم يقله .. قال : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » إن الذى يخلق الكلام يعلم أنه مخلق .. إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدقه ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مخلق رغم أنهم صدقوه . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فليحل بكم ما يكون الحق . الحق من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها) (١) .

إذن مخلق الشيء يعرف إن هذا الشيء مخلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم .. « لن نخسرا النار إلا أياما معدودة » قول مخلق . ولكن لمن يقولون على الله ما هو إفتراء وكذب ؟ يقولون للأميين الذين لا يعرفون الكتاب

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم .. فجاء القرآن قائلا . « بلى » وهي حرف جواب مثل نعم تماما .. ولكن « بلى » حرف جواب في النفي .. يعني ينفي الذي قبله . هم قالوا لن نمتنا النار إلا أيما معدودة ورسول الله سلمهم هل اتخذوا عند الله عهدا أم يقولون على الله مالا يعلمون ، فجاء لقرآن ليقول : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. بدياه الجواب بلى تنفي ما قالوا . لأن بلى تأتي بعد النفي . ونعم تأتي بعد الإجابة .. فإذا قال إنسان ليس لك عندي شيء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندي شيء .. أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندي شيئا أو أشياء . ولذلك بعد قولهم « لن نمتنا النار إلا أيما معدودة » .. لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت . وجاء الكلام بعدها مؤكدا انفي :

« من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هم قالوا لن نمتنا النار .. قال لن نمتكم فقط بل أنتم فيها خالدون .. وقوله تعالى : « أصحاب النار » .. الصيغة تقتضي نوعا من الملازمة فيها لمهاذب المتصاحين .. ومعنى ذلك أنه سيكون هالك لمهاذب بينهم وبين النار

هنا ملاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال . « بلى من كسب سيئة » .. وكان السياق يقتضي أن يقال اكتسب .. ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا .. كما يت في الآية السابقة .. وقوله تعالى « وأحاطت به خطيئته » .. احاطة بمعنى

لا يوجد منفذ للإنفلت من الخطيئة لأن محيطه به . وأنسب تفسير لقوله تعالى :
« كَسِبَ سَيِّئَةً وَاحْتَاطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ » .. أن المراد الشرك .. لأن الشرك هو الذي
يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه .. والله تعالى يقول .

﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ ﴾^{٤٦}

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط .. ولكم كانوا كافرين مشركين .
والدليل قوله تعالى : « هم فيها خالدون » وأصحاب الصفاة أو الكبائر
الذين يتوبون منها لا يحللون في النار .. ولكن المشرك بالله والكافر به هم
الخالدون في النار . وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر .
لأن الله سبحانه وتعالى قال ،

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ظَنَّ بِقَبْلِ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥٧ ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك قلت هناك فرق بين .. الإنسان الذي يرتكب معصية لأنه لا يقدر على
نفسه فيندم ويتوب .. وبين إنسان يفرح بالمعصية .. ولذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبه .. وهناك من يفرح بالمعصية وهذا
يرداد بمعصية



﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .. العذاب والبارء يأتي بالمقابل وهو النعيم وجنة .. ذلك أن المقابلة ترينا الفرق .. ونعطي للمؤمن إحساسا بالسعادة .. لأنه زحزح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط .. بل دخل الجنة ليقم خالدا في النعيم .. ولذلك يقول سبحانه .

﴿مَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَدُخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن الفوز في الآخرة ليس هل درجة واحدة ولكن على درجتين .. أولى درجات الفوز أن يزحزح الإنسان عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم .. يكفي أنك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا المزل كل .. يكفي ذلك ليكون فوزا عظيما .. لأن الكافر في هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار . مرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه . وإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعميا خالدا كان هذا فوزا آخر .. ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز .. ولم يقل من أدخل الجنة فاز .. بل قال « مَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَدُخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » .. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الْوَالِدِينَ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
قَوَّلْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ثمانية أشياء : الميثاق . وهو العهد
الموثق المرتبط وربطاً دقيقاً وهو عهد المعطرة أو عهد النذر . مصداقاً لقوله تعالى .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنبَنَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى عن رسوله جيف . أن يبشروا برسالة
رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثته .
أو ألا يكتموا ما في كتبهم ولا يعيروه . . . والميثاق هو كل شيء فيه تكليف من
الله . . . ذلك أنك تدخل في عقد يمان مع الله سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به
وتترك ما نهى عنه . . . هذا هو الميثاق . كلمة الميثاق وردت في القرآن الكريم
بوصف غبيظ . في علاقة الرجل بالمرأة . قال سبحانه وتعالى .

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَسْتَبْدِلَ رَوْحَ مَكَانَ رَوْحٍ وَهَاتِبْتُمْ إِحْدَثَهُنَّ فَتَنَطَرَا فَلَا تَاْخُذُوا مِنْهُ
شَيْئًا أَتَاْخُذُوهُنَّ يَتَنَبَّأْنَ وَإِنَّمَا فِيهَا ۖ وَكَيفَ تَاْخُذُوهُنَّ وَقَدْ فُتِنَ بِهِنَّ إِلَىٰ بَعْضِ
وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَيبًا ﴿٧١﴾﴾

(سورة النساء)

يقول معم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به . أشياء لا نحل
لأيها أو لأحياها أو أي إنسان هذا زوجها . وأرجل إذا دخل على ابنة وكنت
ساقها مكشوفة تسارع بشعره . . فإذا دخل عليها زوجها فلا شيء عليها . إذن
هو ميثاق عظيم لأنه دخل مناطق العمرة وأباح العمرة للزوح والزوجة . . ولذلك
يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ هُنَّ لِيَسَّ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَسَّ عَنْ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن كلا منهما يعطى ويحمى ويستمر عمدة لأحر . والاب لا يفرح من انتقال
ولاية ابنته إلى غيره . إلا انتقال هذه الولاية لزوجها . . ويشعر بالقلق عندما
تكبر الفتاة ولا تتزوج

الحق يقول : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله » هذا الميثاق
شمل ثلاثة شروط : « لا تعبدون إلا الله » . . أي تعبدون الله وحده . . وتؤمنون
بالتوراة وموسى نيا . . لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هي قمة الإيمان . ولكن
لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه . . بل الذي يحدد منهج العبادة هو المعبود وليس
العابد . . لا بد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن به . . ثم بعد
ذلك تؤمن بموسى نيا . . لأنه هو الذي نزلت عليه التوراة . وهو الذي سيبين
لك طريق العبادة الصحيحة . وبدون هذه الشروط الثلاثة لا نستقيم عبادة بني
إسرائيل

وقوله تعالى : « وبالنوالدين إحسانا » لأسباب السبب المباشر وجودك . . ربيك
وأنت صغير ، ورعيك ، وقوته تعالى : « إحسان » معناه ريادة على المفروض .
لأنك قد تؤدي الشيء بالقدر المفروض منك . فالذي يؤدي الصلاة مثلا بقدر
العرض يكون قد أدى . . أما الذي يصل انتواقل ويقوم الليل يكرر قد دخل في
مجال الإحسان . أي عطاؤه أكثر من المفروض والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنْ أَمْتَقِينَ فِي حَسَنٍ وَعَمُونَ ﴾ (٢٢٩) أَحَدِينَ مَاءَ أَنْهُمْ رِبِّهِمْ أَنْهُمْ كَأَوْ قَبْلَ

ذَٰلِكَ مُحْسِنٌ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ مَا يَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَأَخْلَاهُمْ مِمَّنْ يَسْتَمِعُونَ
﴿١٨﴾ وَإِنَّا لَأَوَّلَهُمْ خَقَّ النَّاسِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

(سورة النحل)

وهكذا نرى أن الإحسان ريانة عن الفروض في الصلاة والتسبيح والصدقة .
والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطى نوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب
عليك ..

وقوله تعالى : «وذوي القربى» . يحدد الله لنا فيها الورثة الثانية بالنسبة
للإحسان .. فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا . ولو أن
كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين في المجتمع ..
والله يريد مجتمعاً لا فقر فيه ولا حقد . وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان
لوالدين والأقارب .. فيكون لكل محتاج في المجتمع من يكمله ..

يقول الله سبحانه : «واليتامى» . واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ
ميلغ الرجال . هذا في الإنسان أما في الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه ..
لأن الأمومة في الحيوان هي الملازمة للتطفل ، ولأن الأب غير معروف في الحيوان
ولكن الأم معروفة . اليتيم الذي فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أحله
ومن يداوم عنه .. والله سبحانه وتعالى جعل الأم هي التي تربي وترعى ..
والأب يكافح من أجل توفير إحتياجات الأسرة ولكن أحياناً ينقلب الآن
ولذلك يقول شوقي رحمه الله :

لَنَسَّ الْيَتِيمَ مَنِ انْتَهَى أَبْوَاهُ مِنْ
هَمْ الْخَبَاةِ وَخَلَفَاءِ ذُلِيلَةٍ
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلَقَّى لَهْ
أَمْشًا تَخَلَّتْ أَوْ أَمَّا مَسْمُولَةٍ

إن اليتيم يكون مكسراً لأنه فقد والده فاصح لا نصير له . فإذا رأينا في
المجتمع الإسلامي أن كل يتيم يرعاه وعاية الأب كل رجال المجتمع . فذلك

يجعل الأب لا يخشى أن يترك إبنه بعد وفاته .. إذن لمعاية المجتمع لليتيم تضمن
أولا حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيم وله مال فإن الناس كلهم يطعمون في ماله ،
لأنه لا يقدر أن يحمله . هذه وحده .. والثانية أن هذا التكافل يذهب الحقد
من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنا على أولاده ..

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » .. في الماضي كما نقول إن المساكين هم
الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ليفيمو به حياتهم .. إلى أن نزلت الآية
الكريمة في سورة الكهف :

﴿ لَمَّا أَلْفَيْنَا فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فعرفنا أن المسكين قد يملك . ولكنه لا يملك ما يكفيه . وهذا نوع من
التكافل الإجتماعي لابد أن يكون موجودا في المجتمع .. حتى يتكافل المجتمع
كله .. فانت إن كنت فقيرا أو مسكينا وبأنيتك من رجل غني ما يعينك على
حياتك .. فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يصيبك .. ولكن إذا كان هذا
الغني لا يعطيك شيئا .. هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا .. تكون النتيجة أن
حقه يزداد عليك ..

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « وقولوا للناس حسنا » . كلمة حسنا بصم
أخاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء .. والحسن هو ما حسنه الشرع .. ذلك أن
العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ما حسنه الشرع أو ما حسنه العقل ؟ نقول ،
ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع .. لأن العقل قد يختلف في
الشيء الواحد .. هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا .. والله تبارك وتعالى
يقول :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَخْسَرُ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة البقرة)

هذا هو معنى قوله تعالى « وقولوا للناس حسنا » .. ثم جاء قوله جل

جلاله : « أقيموا الصلاة » وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وعلينا أن نفرق بين أن تقول صلوا . وبين أن تقول أقيموا الصلاة . . . أقيموا الصلاة معناها صل ولكن صلاة على مستواها الذي يطلب منك . وإقامة الصلاة كما قلنا هي الركن الذي لا يسقط أبد عن الإنسان .

ويقول الحق : « وآتوا الزكاة » . بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه : « وفوى القربى وابيتامى والمساكين » .. يقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق فى الزكاة ماداموا فقراء . لحسن جميعا أننا نعيش فى بيئة إيمانية متكاملة متكاملة يحاول كل منا أن يمدون الأخر .. فالزكاة فى الأساس تعطى للمفقر ولو لم يكن بيتا أو قريبا .. بل لكل فقير حقوقا ورعاية .. فلذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حظان حق التقرب وحق المفقر .

وإن كان بشيا فله حق اليتيم وحق الفقير . بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى
عناصر الميثاق التثبية . قال : « ثم توليتهم » . نون يعنى أعرض أو لم يطع أو
لم يستمع . يقول الحق سبحانه . « ثم توليتهم إلا قليلا منكم وأسم
معرضون » . هذا هو واقع تاريخ بني إسرائيل . لأن بعضهم ثول ولم يطع
الميثاق وبعضهم أطاع .

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شس حملة على المحالفين منهم
ولذلك أحترم الواقع وقال : « إلا قليلا » وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر فامون
صيانة الاحتياط ..

إن الحق جل جلاله يتكلم بإصاف الخالق للمخلوق . لذلك لم يقل « ثم توليم » بل قال « لا قليلا » . « توليم » يعنى أعرضهم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ثم توليتهم إلا قليلا متكم وأنتم معرضون » نريد أن نأخذ الدقة الأدائية . إذا أردت أن نفسر تولي . معنتها أعرض أو رفض الأمر . . ولكن الدقة في نظري للقرآن لو جردنا أنه حين يلتقى المؤمن بالكافر في معركة فلاه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ يُؤْمِرْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ أَنْ لَا تُنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ فَقَدْ لَبَّى اللَّهَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إذن ماثلولى هو الإعراض . . والحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بين
لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة . . المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بشيء
الحرب من المعركة . . ولكن بنية أن يذهب لمقاتل فى مكان آخر أو يعاود إخوانه
الذين تكاثروا عليهم الأعداء . . هذا إعراض ولكن ليس بنية الحرب من
المعركة . . ولكن بنية القتال بشكل أنسب للتصحر . .

نفرض أن إنساناً مدين لك رأيتك وهو قادم فى الطريق فتوليت عنه . . أنت لم
تعرض عنه كرها . . ولكن رحمة لآلك لا تريد المساس بكرامته . . إذن هناك تول
أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء
اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأى نية أخرى . . أى أنهم أعرضوا وبهم
متعمدون أن يعرضوا . . وليس لمذهب آخر .



﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتِفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

قلت ساعة سمع «إذ» فأعلم أن معناها أذكر . ومعنا إن الميثاق هو العهد الموثق . وقوله تعالى : «لا تسفكون دماءكم» .. والله تبارك وتعالى ذكر قبل ذلك في الميثاق عبادة الله وحده . وبإلوالدين إحسانا ودى الغربى واليتامى والساكين . وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة إلى آخر ما جاء فى الآية الكريمة وكلها أوامر أى وكلها افعل إستكمالا للميثاق بقول الله فى هذه الآية الكريمة ما لا تفعل .. فالعبادة كما قلنا هى إطاعة الأوامر والامتناع عن النواهى .. أو ما نهى عنه الميثاق .

«لا تسفكون دماءكم» ومعناها لا يسفك كل واحد منكم دم أحبه . لا يسفك بعضهم دم بعض . ولكن لماذا قال الله : «دماءكم» ؟ لأنه بعد ذلك يقول : «ولا تخرجون أنفسكم من دياركم» .. الحكم الإيماني يخاطب الجماعة الإيمانية هل أنها وحدة واحدة .. لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم -

(مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحيمهم كمثل الجسد الواحد إذا شتكى منه عضو تداهى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) (١) .

فكلن المجتمع الإيمان وحدة واحدة . والله سبحانه وتعالى يقول .

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسْلُوْا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَشِّرَةٌ طَيِّبَةٌ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ولكن إذا كنت أنا الداخل فكيف أسلم على نفسي ؟ كان الله يحاطب المؤمنين على أساس أنهم وحدة واحدة . . وعلى هذا الأساس يقول سبحانه : « لا تسفكون دماءكم » أى لا تقتلوا أنفسكم . السفك معناه حب الدم . . « ودماءكم » هو السائل الموجود في الجسم اللازم للحياة . . وقوله تعالى : « ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم » يعنى لا تخرج بعضكم بعضا من ديارهم . . ثم ربط المؤمنين من بني إسرائيل بقوله تعالى : « ثم أقررتم وأنتم تشهدون » . « أقررتم لى أقررتم : « وأنتم تشهدون » الشهادة هي الإخبار بمشاهد . . وانقاص يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فبرود ما شاهدوا . . وأنتم حين تروى ما شاهدت . . فكان الذين سمعوا أصبح ما وقع بشهودا وواقعا لديهم . . وشاهد الزور يغير الواقع

الحق سبحانه وتعالى يحاطب اليهود المصاحبيين برسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويذكرهم بما كان من آياتهم الأولى . . وموقفهم من أحد الميثاق حين دفع فرقهم جبل الطور وهي مسألة معروفة . . والقرآن يريد أن يقول لهم إنكم غيرتم وبدلتهم فيما تعرفون . فالذى جاء على هواكم طبقتموه . . والذي لم يأت على هواكم لم تطبقوه .



﴿ثُمَّ أَسَمَ هَؤُلَاءَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِحُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ ديارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَى فَذُوهُمْ وَهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْئُوتٌ مُنُونٌ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُوبٌ بِبَعْضِ فَمَا جَرَأُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ عَذَابٍ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

يخاطب الحق جل جلاله اليهود ليوضحهم لأنهم طبعوا من التوراة ما كان من هواهم . ولم يظنوا ما لم يعجبهم ويحول لهم : « أفئوتون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروا

ولقد نزلت هذه الآية عندما رنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد بالرجم فقالوا نذهب إلى محمد ظانين أنه سيحبهم من الحد الموجد في كتابهم . . أو أنه لا يعلم ما في كتابهم . . فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا الحكم موجد عندكم في التوراة . . قالوا عندما في التوراة أن نلطح وجه الراس والرائية بالفداة ونطوف به على الناس . قال لهم رسول الله لا . . عندكم آية الرجم موجدة في التوراة فامضوها . مكانهم حين يجيبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحبب حدا من حدود الله . يذهبون إليه ليعتروه .

واسحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . أي بعد أن أحد عليكم الميثاق ألا تفعلوا . . تقتلون أنفسكم . يقتل بعضكم بعضا ، أو أن من قتل سيقتل فكانه هو الذي قتل نفسه . والحق سبحانه قال « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه ؟ لأن إشارة للتبعية لكم بلتمت إلى الحكم .

وقوله تعالى « وتخرجون مريقا منكم من ديارهم » وحذرهم بقوله « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . . وجاء هذا في الميثاق . . هو الحكم الذي

يريد الحق تبارك وتعالى أن يلمتنا إليه ؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة انتقل من دار شرك إلى دار إيمان .. ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا .. هناك من آمن من أهل المدينة .. لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة ولكنها كانت هجرة إلى دار أمن وليست دار إيمان .. ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به .. أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم .. وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من هجرة إيمانية موجودة .. لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أسد على اليهود خطة حياتهم .. فاليهود كانوا محتلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة .. وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج .. وبينهما حروب دلتمة قبل أن يأتي الإسلام .. فاليهود قسروا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا استمرار العدواة فكلمها هذا القتال أماجوا أحد العسكريين على الآخر ليعود القتال من جديد .. وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم .

إن الذي صنع الشيوعية يهودي ، والذي صنع الرأسمالية يهودي .. والذي يحرك العدواة بين العسكريين يهودي .. وكان بنو النضير وبني قينقاع مع الخزرج وبني قريظة مع الأوس .. فإذا اشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم خلفاؤه من اليهود عندما تنتهي المعركة ماذا كان يحدث ؟ إن المأسورين من بني النضير وبني قينقاع يقرم بنو قريظة بالمساعدة في فك أسرهم .. مع أنهم هم التبون في هذا الأمر .. فإذا انتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخزرج ومن خلفائهم اليهود .. يأتي اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود .. لأن عندهم نصبا انه إذا وجد أسير من بني إسرائيل فلا بد من فك أسره .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم إن أهالكم في أن يحارب بعضكم بعضا وإن تسفكوا دماءكم .. لا تتفق مع الميثاق الذي أخذه الله عليكم بل هي مصالح دنيوية .. تقتلون أنفسكم والله يهاكم عن هذا : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » والله يهاكم عن هذا : « تظهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .. وهذا ما كان يحدث في المدينة في الحروب بين الأوس والخزرج كما بينا .. والأسارى جمع أسير وهي عن غير قياسها ، لأن القياس فيها أسرى .. ولذلك نرى في آية أخرى أنه يأتي قول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَجْوَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ولكن القرآن أنى بها أسرى . واللغة أحيانا تأتى على خبر ما يفتضيه قياسها لتلتصق إلى معنى من المعاني . فكسلان لجميع كسالى . والكسلان هو هابط الحركة . الأسير أيضا أنت تهدت حرركه . فكان جمع أسير على أسارى إشارة إلى تقييد الحركة . القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى . ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلى تقييد الحركة مثل كسالى . ومعنى وجود الأسرى أن حربا وقعت . الحرب تقتضى الالتقاء والالتحام . ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كسمة الأسر هذه أخذت من أجل تهدة سعار اللقاء . فكان الله أراد أن يحمى القوم من شرسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم استأسروهم . لا تقتلوههم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل . ولكن خذوهم أسرى وفي هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم العديبة . وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة . لأنه لو لم يكن الأسر مباحا . لكان لابد إذ انتهى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر . لذلك يقال حله أسيرا إلا إذا كان وجوده خطراً على حياتك .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ حَرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ » . كانت كل طائفة من اليهود مع طليعتها من الأوس أو الخزرج . وكانت تخرج المملوك من دياره وتأخذ الديار . وبعد أن تنتهى الحرب بمأذوهم . أى يأخذون منهم العديبة ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم . لماذا يقسم اليهود أنفسهم هذه القسمة . إنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دينية . لماذا ؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب . ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج . ويكون بيكم إثم وعدوان

وقوله تعالى « تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدَاوَةِ » . تظاهرون عليهم أى



تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : « بالإثم » . والإثم هو الشيء الخبيث الذي يستحي منه الناس : « والعدوان » . أى التعدى شراسة وقوله تعالى « وأن يأتوكم أسارى ثقاتهم وهو محرّم عليكم إخراجهم » أى إخراجهم من ديارهم وتدخلوا المدينة لترجعوه إليهم .

ثم يقول الله تبارك وتعالى : « أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . أى تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية وتفسحون أنفُسكم مع الأوس أو الخزرج .. تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بآله ورسول وكتاب .. مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد أمركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « فما جراء من يفعل ذلك منكم إلا خيرا في الحياة الدنيا » أى بكم معتم ذلك وحالتم لتصلوا إلى عهد ديموى ولكم لم تصلوا إليه .. سببكم الله بحرى في الدنيا أى أن الخراء لم يتأخر إلى الآخرة بل سيأتيكم حرى وهو الهوان والذل في الدنيا وماذا في الآخرة ؟ يقول الله تعالى « ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » الخرى في الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأخرج بنو قيسقاع من ديارهم في المدينة كذلك دبح هو قريظة بعد أن حانرا العهد وخاموا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جراء بعض الذنوب إلى الآخرة وجرأ اعظم في الدنيا لا يؤجل إلى الآخرة ، لأن المظلوم لابد أن يرى مصرع ظالمه حتى يعتدل نظم الكون . ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد اليهود أتاها حرى الدنيا سريعا . « يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب »

قد يتساءل الناس ألا يكفهم الخرى في الدنيا عن عذاب الآخرة ؟ نقول لا .. لأن الخرى لم ينهم في الدنيا حدا . ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم فالخرى حين يبال الإنسان كحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة .. فالذى سرق وقطعت يده ولذى زنا ورجم هؤلاء نالهم عذاب من حدود الله فلا يحاسبون في الآخرة .. أما لظالمون فالأمر يختلف .. لذلك عزا نجا إناسا من الذين أوتكبوا إلها في الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم ليجوا عن عذاب الآخرة .. مع انه لم يرههم أحد أو يعلم هم أحد أو يشهد عليهم أحد ..

حتى لا يأتى واحد ليفول : لماذا لا يعفى الظالمون الذين أصابهم خزي في الدنيا من عذاب الآخرة ؟ يقول إنهم في خزي الدنيا م يحسبون عن جرائمهم أصابهم ضرر وعذاب . ولكن أشد العذاب ينتظرهم في الآخرة . وما أهول عذاب الدنيا الذى هو بقدرة البشر بالنسبة لعذاب الآخرة الذى هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهى فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود في العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله . « وما الله بغافل عما تعملون » . . أى لا تحسب ان الله سبحانه وتعالى يغفل عن شىء في كونه فهو لا تأخذه سنة نوم . . وهو بكل شىء محيط .



﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضلالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .. جعلوا الآخرة ثمناً لنزواتهم ونفوسهم في الدنيا .. هم نظروا إلى الدنيا فقط .. ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب في كل ما تفعله ثواب الآخرة .. فالدنيا عمرك فيها محدود .. ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة .. عمر الدنيا بالنسبة لك هو مدة بقائك فيها .. وإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك .. والخروج من الدنيا بالموت .. والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفاً لأن عمرنا فيها مطلقون .. هناك من يموت في بطن أمه .. ومن يعيش ساعة أو ساعات .. ومن يعيش إلى أرباب العمر .. إذن فانتهى إلى الآخرة ، ففيها العيم الدائم والحياة بلا موت والمتعة على قدرات الله .. ولكن خيبة هؤلاء أنهم اشتروا الدنيا بالآخرة .. ولذلك يقول الحق عنهم : ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .. لا يخفف عنهم العذاب أي يجب ألا يأمنوا أن العذاب في الآخرة سيخفف عنهم .. أو يستغل درجته أو تنقص مدته .. أو سيأتي يوماً ولا يأتي يوماً وقوله : ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ النصرة تأتي على معنيين . تأتي بمعنى أنه لا يغلب .. وتأتي بمعنى أن هناك قوة يتنصر له أي تنصره .. كونه يغلب .. الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .. ولكن الله يملك النفع والضرر لكل خلقه .. ويملك تبارك وتعالى أن يفهر خلقه على ما يشاء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

أما مسألة أن ينصره أحد .. فمن الذي يستطيع أن ينصر أحدا من الله ..
واقرأ لوله سبحانه وتعالى عن يوح عليه السلام :

﴿ وَنَقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣ سورة هود)

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلا يخفف عنهم العذاب » . أمر لم يقع بعد
بل سيوقع مستقبلا .. يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع .. يقول
إن كل أحداث الكون وما يقع منها هو عند الله ثم وانتهى وقضى فيه . لذلك
نجد في القرآن الكريم قوله سبحانه :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

أتى فعل ماض .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى
أتى ثم يقول لا تستعجلوه ؟ إنه مستقبل بالسبب ك .. أما بالسبب الله تبارك وتعالى
فيلزم قد قال أتى .. فمعنى ذلك أنه حدث .. فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من
أمور الله من حدوث .. فالعذاب أت لهم آت .. ولا يخفف عنهم لأن أحدا
لا يملك تخفيفه .



فَقَاتِلُوا

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا .. إلى أنه لم يترك الأمر لبني إسرائيل بعد موسى .. أن يعملوا بالكتاب الذي أرسل معه فقط .. ولكنه أتم ذلك بالرسول .. حين تسمع « قفينا » .. أي اتبعنا بعضهم بعضا .. كل بخلاف الذي سبقه. « وقفنا »

مشتقة من هذا . وقفا الشيء حلقه . وتقول قهوت فلاناً أى سرت حلقه قريباً منه .

إن الحق يريد أن نلصق إلى أن رسالة موسى لم تقف عند موسى وكتابه . . ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياء ليدكروا وينبأوا . ولقد قلنا إن كثرة الأنبياء لنبى إسرائيل ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم . . إهم يتعشرون أهم أكثر الأسماء . ويعتبرون ذلك ميرة لهم ولكنهم لم يفهموا . فكثرة الأنبياء وأرسل دلالة على كثرة فساد الأمم ، لأن الرسل إنما يبعثون لتخليص البشرية من فساد وأمراس وإفادها من الشقاء . وكلما كثرت الرسل والأنبياء دل ذلك على أن القوم قد انحرفوا بمحرد دهاب الرسول عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد . . تماماً كما يكون المريض في حالة خطيرة فيكثر أطباؤه بلا فائدة . . وليقطع الله سبحانه وتعالى عليهم الحجة يوم القيامة . . لم يترك لهم فترة من غفلة . . بل كانت الرسل تأتيهم واحدا بعد الآخر على فترات قريبة

وإذ نظروا إلى يونس وأسمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وجريل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى . . يرى موكباً طويلاً جاء بعد موسى . . حتى إنه لم تمر فترة ليس فيها نبى أو رسول . وحتى تفرق بين النبى والرسول . . يقول النبى مرسل والرسول مرسل . . كلاهما مرسل من الله . ولكن النبى لا يأتى بتشريع جديد . وإنما هو مرسل على منهج الرسول الذى سبقه . . وإقرأ قوله سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

(من الآية ٥٢ سورة النجم)

إذن فالنبى مرسل أيضاً . ولكنه أسوة سلوكية لتطبيق منهج الرسول الذى سبقه .

وهل الله سبحانه وتعالى قصر علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟
إقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ
اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦)

(سورة النساء)

إذن هناك رسل وأنبيا أرسلوا إلى بني إسرائيل لم نعرفهم . . لأن الله لم يقصص
عليك نبأهم . ولكن الآية الكريمة التي نحن بصددتها لم تذكر إلا عيسى عليه
السلام . . باعتباره من أكثر الرسل أتباعا . . والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى
أيده بالآيات والبيانات التي تثبت صدق بلاغه عن الله . . ولذلك قال جل جلاله :
« وَأَنبَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الْيَسَّى وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » . . وعيسى ابن مريم عليه
السلام جاء ليبره على المادية التي سيطرت على بني إسرائيل . . وجعلتهم لا يعترفون
إلا بالشئ المادي المحسوس . . فمقروهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب . . حتى
إنهم قالوا لموسى : « أَرَأَى الْآلَةَ جَهْدَ » . . وحين جاءهم المن والسلوى رزقا من
الله . . خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزق غيب فطلبوا نبات الأرض لذلك كان
لا بد أن يأتي رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية . . مولده أمر غيبى ، وموته أمر
غيبى ورفعه أمر غيبى ومعجراته أمور غيبية حتى ينظلمهم من طغيان مادية إلى صفاء
لروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتي عن غير طريق التكاثر المادي . . أى الذى يتم بين
الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منوى . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يخلق من
الذهاب بنى إسرائيل أن الأسباب المادية تحكمه . . وإنما هو الذى يحكم السبب . هو
الذى يخلق الأسباب ومتى قال : « كن » كان . . بهزف النظر عن المادية المألوفة في
الكون . . وفي قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيئته هي
السبب وهي الفاعلة . . وقرأ قوله سبحانه :

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَهَّابٌ
لِّمَنْ يَشَاءُ الْدُّكُورَ ۝ أَوِزَّوْحَهُمْ ذُرَّآئًا وَإِنَّا وَهَّابٌ غَفِيمٌ
إِنَّمَا عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

(سورة النورى)

فكان الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هي اسباب في الإحباب . ونكه جعل طلاقة القدرة مهمة على الأسباب . هناك رجل وامرأة ويروجا ولكنهما لا يجان . فكان الأسباب بعضها محنة عن أن تفعل شيئا إلا بإرادة الرب .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وأنينا عيسى ابن مريم البتة وأيدناه بروح القدس » . لماذا قال الحق تبارك وتعالى : « وأيدناه بروح القدس » . ألم يكن باقي الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

يقول : لقد ذكرنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح مستريح في كل أمر له . مهلاً ومهلاً وموتاً . والروح القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبداً . لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف لاسم وطيعة الشرع مما جعله معرضاً دائماً للتحريم . ولذلك لابد أن يكون الوحي في صحته لا يفارقه ليحصل من مهمات على اقنوم ما يرد الناس عنه . وعندما يتحدث القرآن أنه رفع إلى السماء احتلف لعلهم من رفع إلى السماء حياً ؟ أو مات ثم رفع إلى السماء ؟ نقرر . لو أننا عرفنا أنه رفع حياً أو مات الذي يتغير في منهاج ؟ لا شيء . وعندما يقال إنه شيء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت . يقول إن عيسى ابن مريم لم يترأ من الوفاة . إنه سيؤتى كما يؤتى سائر البشر . ولكن هل كان ميلاده طبعياً ؟ الاجابة لا . إذن فلماذا تنحبت إذا كانت وفاته غير طبعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب . لماذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسيرل إلى الأرض فما العجب في ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حياً ؟ ثم مرل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام . . إذن فاللداً موجود . لماذا تستعبد صعود عيسى ثم نزوله في أسر الرمان ؟ والفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً في السماء . بينما عيسى نرى . والخلاف على الفترة لا يفتقر المدأ .

عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لو شئتم أن يزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكمها مفسطاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفرض المال حتى لا يقبله أحد) (١) .

(١) رواه البخاري في الصلوة وسلم في الإيمان وأبو داود في اللباس والترمذي في الفتى وابن ماجه في المسودوه أحد في المسود

وهذا الحديث موجود في صحيح البخارى .. فقد جعله الله مثلا لبنى اسرائيل .. واتقوا قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ مَوْلَا عِبَدَ اللَّهِ أَنَا عَلَيْهِ وَجَّهْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾

(سورة الزمر)

قوله تعالى : « وأتينا عيسى ابن مريم البينات » .. البينات هي المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات .. وهي الأمور الالهية الواضحة على صدق رسالته .

لكننا إذا تأمك في هذه المعجزات .. نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله كإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله .. وبعضها نسبتها إلى معجزته كرسول .. ومعروف أنه كرسول يؤيده الله بمعجزات تحرق قوانين الكون .. ولكن هناك فرق بين معجزة تعطى كشفاً للرسول .. وبين معجزة لا بد أن تتم كل مرة من الله مباشرة .. واتقوا الآية الكريمة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ طَيْرًا فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ مَكِيدًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتِلِّكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَكْفُرُونَ فِي يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ مُؤْمِنٍ ۝۱۱ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا مرى في الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدعرون في يومهم كشفاً من الله .. كان إحياء الموتى في كل مرة بإذن الله .. وليس كشفاً ولا معجزة ذاتية لعيسى عليه السلام .. إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام .. ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائماً معه .. وهذا معنى قوله تعالى : « وأيدناه بروح القدس » .. وأيدناه مشقة من القوة ومبناها قوته

بروح القدس في كل أمر من الأمور . . وكلمة روح تأتي على معنيين . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . وهناك روح أخرى هي روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة . ولذلك سمي الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح . . وإقرأ قوله تعالى

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

والقرآن روح . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم . إذن كل ما يتصل بالنتيج فهو روح . والقدس هذه الكلمة تأتي مرة بضم الفاء وتسكين الدال . ومرة بضم الفاء وضم الدال . . وكلا المفظين صحيح وهي تفيد العز والتميز عن كل ما يعيب ويشين . . والقدس يعني المطهر عن كل شائبة

قوله تبارك وتعالى : أفكلي جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . قوله تعالى : « أفكليا » هناك عطف وهناك استصهام ، وهي تعني أنكروتم ، وكلمي جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . أي إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . وهم يريدون أن يشرعوا لرسولهم . . فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : « بما لا تهوى أنفسكم » هالك هوى بالفتحة على الواو وهوى بالكسرة على الواو . . هوى بالفتحة عن الواو بمعنى سقط إلى أسفل . . وهوى بالكسرة على الواو معناه أحب وأشهى . للمضارع مفتحتان . الأول معناه اهبط ، والثاني حب الشهوة والهوى يؤدي إلى اهبط . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما بشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها إرتفعوا من موقعكم الهابط . إذن فللتبج جاء لبعضنا من السقوط . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعطين هذا المعنى ، وكيف إن الذين يعصمنا من أن نهوى وسقط في جهنم يقول :

(إنما مثل ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والقراش يقعن فيه فان أخذ بحجزكم وأنتم موحون فيه)^(١) .

(١) رواه مسلم في الزهد ، وابن ماجه في الزهد . ورواه أحمد

ومعنى أخذ بحبلزكم أى أخذ بكم .. وكأنا نقبل على النار ونحن نشتهيها
باتباعنا شهوتنا .. ورسول الله يفتح الله يمول أن يتقدا منها .. ولكن رب نفس
عشتت مصرعها .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذِبْتُمْ وَفَرِقْنَا تَقْتُلُونَ ﴾

(س الآية ٨٢ سورة البقرة)

معنى استكبرتم أى أعطيتكم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له .. إدعيتكم أنكم كبار
ولستم كبارا .. ولكن هل المشرع مساو لك حتى تكبر على منهجه ؟ طبعاً لا ..
قوله تعالى : « ففرقنا كذبتكم » .. والكذب كلام يخالف الواقع . أى أنكم أهمتم
الرسول بأنهم يقولون كلاماً يخالف الواقع . لأنه يخالف ما تشتهي أنفسكم . وقوله
تعالى : « وفريقنا تقتلون » .. التكذيب مسألة منكراً .. ولكن القتل أمر بشع ..
وحين ترى إنساناً يتخلص من خصمه بالمثل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام
خصمه .. وإن طاقته وحياته لا تطبق وجود الخصم .. ولو أنه رجل مكمل
الرجولة لما تأثر بوجود خصمه .. ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله ..

قوله تعالى : « وفريقنا تقتلون » .. مثل نبي الله يحيى ونبي الله زكريا .. وهناك
قصص وروايات تناولت قصة سالومي .. وهي قصة راقصة جميلة أرادت إغواء
يحيى عليه السلام فرقص أن يحصع لإغرائها .. فجعلت مهرها أن يأبواها برأسه ..
وقملاً قتلوه وجاءوه برأسه على صينية من العضة .



﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برد بؤس إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث معهم . فإذا قالوا ؟ لقد قالوا « قلوبنا غلف » والغلف مأخوذ من الغلاف والتعليف . . . وهناك غلف يسكون اللام ، وغلف بصم اللام . . . مثل كتاب وكتب « قلوبنا غلف » أى مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكانهم يقولون إننا لستنا في حاجة إلى كلام الرسل . . . أر « قلوبنا غلف » أى مغلفة ومطبوخ عليها . أى إن الله طبخ على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهدى . ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا . . . ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا مَّا يُؤْمِنُونَ » . نفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم عبر صحيح . . . فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل . . . ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله . فلا تنفذ إشعاعات التور ولا الهداية إلى قلوبهم . ولكن ذلك ليس لأن الله ختم عليها بلا سبب . ولكنه جراء على أنهم جعلهم النور وأهدى . فصدوه بالكفر أولا . . . ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله . لأن من يصد الإيمان بالكفر يصد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهما يجب أن تنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر . عليها تنجيهم من العذاب يوم القيامة . يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُصَلِّ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

(من الآية ٨ سورة فاطر)

تلك هي حجة الكافرين الذين يظنون انها ستجيبهم من العذاب يوم القيامة . .
انهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل عن يشاء . . ومادام الله قد شاء أن يضلني فما
دعني أنا ؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له . إن الله إذا قيد أمرا من
الأمور المطلقة فيجب أن تلجأ إلى التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

ويقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانت الهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . .
الكافرين ولظالمين والفاسين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية
أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟
إنسان واجه الله بالكفر . كفر بالله . . رفض أن يستمع لأيت الله ورسوله . .
ورفض أن يتعامل في كونه الله . . ورفض أن يتأمل في خلقه هو نفسه ومن الذي
خلقه . . ورفض أن يتأمل في خلق السموات والأرض . . كل هذا رفضه عندما
رفض يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . لأنه فعل ذلك أولا .
ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وصح له في الكفر وفي نفسه آيات تجعله
يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذي بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله .. يذكرو به بقدره الله ولوه الله فلا يلمت .. يختم الله على قلبه .. كذلك الإنسان العاقل الذي لا يترك مسكراً إلا فعله .. ولا إثم إلا ارتكبه .. ولا معصية إلا أسرع إليها .. لا يهديه الله .. أكنت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم نهراً أو قسراً ، والله سبحانه وتعالى حقيقاً مختاريس ؟ طبعاً لا .. ذلك يضيع لاختيار الشرى في أن بطبع الإنسان أو يعصى .

والحق مبارك وتعالى أنت طلاقة قدرته فيما نحن معهودون فيه .. في أحسادنا التي تعمل أعضواها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة ما كالقلب والتنفس والدورة الدموية .. وللمعدة والأمعاء والكبد .. كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله .. لا نستطيع أن نلمره ليفعل فيعمل .. وأن نلمره ألا يفعل فلا يفعل .. وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث في الكون .. فهذا يمرض ، وهذا تدممه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر .. وهذا يسقط ، وهذا يعتدى عليه إنسان .. كل الأشياء التي تقع عليك لا دخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها .. بقى ذلك الذي يقع منك وأمره تطبيق منهج الله في العمل ولا تفعل .. هذا لك اختيار فيه .

إن الله سبحانه وتعالى لوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلاً .. فإذا اخترت الكفر لا يجرئك الله على الإيمان .. وإذا اخترت الظلم لا يجرئك الله على العدل .. وإذا اخترت الفسوق لا يجرئك الله على الطاعة .. إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدي القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم العاصين فمن يرد أن يخرج من هداية الله عليه كفر أو ظلم أو فسق .. ويكون في هذه الحالة هو الذي اختار فحق عليه عقاب الله .. لذلك فقد قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يفتنون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .. فاختاروا عدم الهداية ..

لقد أثارت هذه القضية جدلاً كبيراً بين العلماء ولكنها في الحقيقة لا تستحق هذا

المجدل .. فالح سبحانه وتعالى قال : « بل لعنهم الله بكفرهم » .. واللحن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .. ويتم ذلك بقوة الله سبحانه وتعالى .. لأن الطرد يتناسب مع قوة الطرد .

فمثلا .. إنك الصغير تطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع مته وقوته .. والأكبر أشد فأشد .. فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدار لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشري .

قوله تعالى : « بل لعنهم الله بكفرهم » .. أي طردهم الله بسبب كفرهم .. والله تبارك وتعالى لا يتوحد للناس لكي يؤمنوا .. ولا يريد للرسول أن يتبعوا أنفسهم في حل الناس عن الإيمان .. إنما وظيفة الرسول هي البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَمِغْ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَاءُ نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أي أنهم لا يستطيعون إلا يؤمنوا إذا أرادناهم مؤمنين قهرا .. ولكننا نريدهم مؤمنين اختاروا .. وإيمان العبد هو الذي يتبع به .. فالح لا يتبع بإيمان البشر .. وقلنا لا إله إلا الله لا يسد عرش الله .. قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله .. ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة .. نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله ..

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطيا قضية مهمة هي : أنه تبارك وتعالى ألغى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك . لذلك يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي :

(أنا ألغى أشركوا عن الشرك من غير عمل أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) (١) .

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالالوهية .. هي شهادة الذات لذات ..
وذلك في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله .. شهد لنفسه
بالالوهية .. ولقروا الآية الكريمة :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات لذات . والملائكة شهدوا
بالمشاهدة .. وأولو العلم بالدليل .. والحق تبارك وتعالى يقول : « فقليلًا
ما يؤمنون » .. عندما تقول قليلًا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا عبادة
الإحتيال ، لأنه من الممكن أن يثوب واحد منهم إن رشده ويؤمن . فبقى الله
الباب مفتوحًا لمؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم في شبابهم قد يأتون في
آخر عمرهم ويتوبون .. في ظاهر الأمر أنهم أسرفوا عن أنفسهم .. ولكنهم عندما
تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق قبل الله إيمانهم .. لذلك يقول الله
جل جلاله : « فقليلًا ما يؤمنون » أي أن الأغلبية تظل حل كفرها .. والقلّة هي
التي تعود إلى الإيمان .



﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨١

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى . أن بني إسرائيل قالوا إن قلوبهم خلف لا يخلها شعاع من الهدى أو الإيمان . . أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة أخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به . . ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذي معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف . . ولكنهم كانوا قبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذي ذكر عندهم في التوراة . . وكانوا يقولون لأهل المدينة . . أفل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم قتل عاد وادم .

ولقد كان اليهود يعيشون في المدينة . . وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهدونهم بالرسول القادم . . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .

واليهود في كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبي الذي يهدنا به اليهود وأسروا يابعونه . . فكان اليهود مسخوهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس في الطائف ويتنظر القبائل عند قدومها إلى مكة في موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيهدونه ويضبطونهم . . وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهبوا إليهم ،

وأعلنوا مبادئه وإيمان برسائله ونشر دعوته . دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك . ثم دعوه ليجيش بينهم في دار الإيمان . كل هدايتهم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصروا بمن إتبعوه .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » . أى أنهم قبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أطل من رسول مستؤمن به وتنسعه . فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسائله .

وقوله تعالى : « على الذين كفروا » . أى كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد . لأن الرسول لم يأت الحق سبحانه وتعالى يعطيا تمام الصورة في قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وهكذا نرى أن بني إسرائيل فيهم محمود مركب جاءهم الرسول الذي انتظروه وبشروا به . ولكن أنخدعهم الكبر رغم أنهم موقنون بحجىء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم في التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله . . واللعة كما قلنا هي الطرد من رحمة الله



﴿بَشِّرْهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُ وَبَغَضِبَ عَلَى غَضَبٍ وَلِكُفْرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١﴾﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمة .. بين لنا أنهم .. بشئوا اشتروا به أنفسهم .. وكلمة إشتري سبق الحديث عنها قلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التي نريدها .. ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة .. على أننا لا بد أن نتحدث لولا عن الفرق بين شري واشتري .. شري بمعنى باع .. وأقرأ قوله عز وجل :

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَأَوْفَاهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢﴾﴾

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة أنهم باعوه بثمن قليل .. واشتري بمعنى ابتاع .. ولكن اشتري قد تأل بمعنى شري .. لأنك في بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة ومعك مال .. وتذهب وتشتري السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم .. ولكن لتفحص أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا .. وليس عندك المال ولكن عندك سعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم طاهر .. فتذهب إلى الصيدلية وتعطى الرجل سلعة مقابل سلعة .. أصبح الثمن في هذه الحالة مشتري .. إذن فمرة يكون البيع مشتري ومرة يكون مبيعا ..

والحق تبارك وتعالى يقول : «بشئوا اشتروا به أنفسهم» .. وكأنما يعبرهم بأنهم يدعون الذكاء والبطنة .. ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء .. لو كانوا حقيقين يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أنموا صفقة خاسرة .. الصفقة الرباهنة

كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم .. ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخرروا الصفقة لأنهم أخذوا الآخرة في الدنيا والعذاب في الآخرة . والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب في الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة .. فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذاباً دنيوياً يقع على ظالم . يخاف من الظلم ويتعدى حده حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن في الذنب مقاييس في الثواب والعقاب . وحتى لا ينتشر في الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة .. وصيح الحق تبارك وتعالى قصاصاً في الدنيا .. واقروا قوله جل جلاله

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ يَتَأُولَى الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٦)

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى في قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عفة الحياة الدنيا .. فيأبى للمراي الذي يمتص دماء الناس ويصيه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفعه . ولذلك نحن نقول يارب إن القوم غرهم حيلهم واستبطلوا آحرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعبدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمنجبرين في الدنيا .. جعلها الله عبرة لمن لا يعتبر بمنهج الله فتجد إنساناً ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده في آخر أيامه يمشي على صدقات المحسين .. وتجد امرأة غرها المال فانطلقت نجمته من كل مكان حلالاً أو حراماً وأعطتها الدنيا بسخاء .. وفي آخر أيامها نزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء .. وتموت مبهجم ها الناس مصاريق جنازتها .. كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس .. ولذلك فهي تحدث على رؤوس الأشهاد .. يعرفها عدد كبير من الناس . إما لأنها تنشر في الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحي فيتأقلمونها . المهم أنها تكون مشهورة .

وتجد مثلاً أن اليهود الذين كانوا رعياء المدينة تجار الحرب والسلاح .. ينتهي بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم . أليس هذا غريباً ؟

قوله تعالى : « أن يكفروا بما أنزل الله بها » .. البغى تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حداً من تحارزه بغي .. والحدود التي وضعها الله سبحانه هي أحكام .. ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهي . ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُواهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهي :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ولكن ما سبب بغيهم ؟ .. بغيهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتي إليه الرسالة . وعلى العرب أن يكون الرسول منهم .. واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ودثوا رسالات الله إلى الأرض . وعندما جاءت التوراة والإنجيل يشران برسول خاتم قالوا إنه منا .. الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فتحن شعب الله المختار .. ولذلك كانوا يعانون أنهم سيتبعون النبي القادم ويصرونه .. ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم .. حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا ما دام ليس ما قلنا نتبعه بل سنحاربه .. لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلها .. وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومحببتهم ويجعل الرسالة في أمة غيرهم . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنْ يَسْأَلْكَ الْكُفَّارُ بَعْدَ إِيمَانِكَ عَنْ عَذَابٍ يُدْعَوْنَ بِهِمْ أَنْ يَرْتَدَّوْا عَنْ إِيمَانِهِمْ أَوْ يَقُولَ إِنَّ اللَّهَ بَرَأَ إِلَهُهٖ فَقُلْ لَا يَمْلِكُ الْكُفَّارُ شَيْئًا ۚ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَهُمْ ۚ سَوَاءٌ لَّهُمْ دَعَاكُمْ أَمْ لَا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ الْمُضْطَرِّينَ إِلَّا الضَّلَّالِينَ ۚ وَمَا ذَلِكُ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

لقد اختبرهم الله في رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا في الآيات السابقة .. كذبوا لربما من الأنبياء .. ومن لم يكذبوه قتلوه .. لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها في أمة غيرهم .. لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض .. ولذلك بغوا

وقوله تعالى : « بغيا أن يورث الله من فضله على من يشاء من عباده » .. ومن هنا يعرف أن الرسالات واختيار الرسل . فضل من الله يختص به من يشاء .. والله سبحانه حين يطلق أيدينا وملكنا الأسباب .. فإننا لا نخرج عن مشيئة بل نخضع لها . ونعرف أنه لا ذاتية في هذا الكون .. وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه . فإن بطل لعالم ل لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية في هذه اللعبة . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه ولأنه قد يصيبه أي عائق يجعله لا يصلح للبطولة . وعلى كل حال فإن بطولته لا قدوم .. لأنها ليست ذاتية فيه ومن وهبها له وهو الله سببها لغيره متى شاء . ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أن لكان البشري متعبر لا يسوم لأحد . وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأن في عالم أحياء . ولا بد لكل من علا أن ينزل . فالكان لله وحده . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذ اليهود حسدوا رسول الله . حسدوا مزول لقرآن على العرب . والحق سبحانه يقول : « فبءوا بغضب على غضب وللكاافرين عذاب مهين » والله جل جلاله يخبرنا أنه غضب عليهم مرتين .

الغضب الأول أنهم لم يتفوا ما جاء في التوراة فغضب الله عليهم .. والغضب الثاني حين جامعهم رسول مذكور عندهم في التوراة ومطلوب منهم أن يؤمو به فكفروا به .. وكان المعروف أن يؤمو حتى يرضى الله عنهم . ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صل الله عليه وسلم

وقوله تعالى : « وللكاافرين عذاب مهين » . العذاب في القرآن الكريم وُصف بأنه أليم . وُوصف بأنه عظيم وُوصف بأنه مهين . أليم أي شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد . ولكن نعرض أن الذي يعذب يتجلد . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس .. يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل .. فإذا كان الإنسان من الذين ترعوا الكفر في الدنيا .. ووقفوا أمام دين الله يحاربونه وترعوا قومهم . يأتيهم الله نيلك وتعالى بعذاب مهين . ويكون هذا أكثر إيلا للفس من الألم . تماما كما تأتي لرحل هو أقوى من في المنطقة يحافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض تكون في هذه الحالة قد أهنت أمام

الناس . . فلا يستطيع بعد ذلك أن يتكبر أو يتكبر على واحد منهم . . ويكون هذا أشد إيلاماً للنفس من ألم لعذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَسَرِعْنَا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ آيَهُمْ أَنَّهَا عَلَى الرَّحْمَنِ حَيًّا ۖ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ بِهَا حَيًّا ۖ ﴾

(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

﴿ دُقْ دُقْ إِنَّكَ أَتَى الْقَرْيَةَ الْكَرِيمَ ۖ ﴾

(سورة الضحى)

ذلك هو العذاب المهيئ .



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ قَالُوا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ ۚ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا إِلَّا وَكُفْرُوتٌ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾

بين لما الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أومروا بذلك في التوراة . فيقول جل جلاله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ قَالُوا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ ۚ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا إِلَّا وَكُفْرُوتٌ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ » وقالوا يؤمن بما أنزل علينا ، أى يؤمن بالتوراة ونكفروا بما وراءه ، أى بما أنزل بعده

ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ما عندهم ربي قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفرو به . . ولكنه جاء بخلق مصدقا لما معهم

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة لأن القرآن يصدق ما جاء في التوراة .

وهو يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . إن كفركم هذا وسبوكم ضد كل نبي جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدق رجب . فقولوا لربكم قتلتم أنبياء الله ؟ . ولذلك يقول الحق : « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ۚ هَلْ هُنَا كِتَابُكُمْ التَّوْرَةُ أَنْ تَقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ۚ كَذَلِكَ يَكْفُرُونَ ۚ » هل هناك في كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . كأن الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قلوبهم : « يَوْمَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا لِنَكْفُرَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ ۝ » إذا كان هذا صحيحا وانكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاهنا لنا ما أنزل إليكم وهي التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . وطبعاً لم يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . فهم كاذبون في قلوبهم تؤمن بما أنزل

عليها .. لأن ما يرسل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء .. فكأنهم كفروا بما أنزل عليهم .. وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التي تحرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة . وهنا لابد أن نشبه أي قوله تعالى : « فليمنعهم الله بأسه من قبل » قوله تعالى : « من قبل » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأسياء انتهى ، وفي الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود في أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام .. والله يريد شرع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى لرسول السابقين من بني إسرائيل لن يجرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك نعلم القرآن عهد الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن ذلك كان عهدا وانتهى . وأنهم لو تأمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يملحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد رسول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تأمرهم ولن يكفوا عن نعيمهم في قتل الرسل والأنبياء . فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة .. مرة وهو في حبيهم ألغوا عوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر . ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .

إذن فقوله تعالى « من قبل » معناه .. إن كنتم تفكرون في التدخل من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم في أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .

ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس في نفوسهم حتى يكفوا عن أساليبهم في قتل الأسياء ولكنهم ظلوا في محاولاتهم ، وفي الوقت نفسه كانت الآية تثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تأمروا فلن يمكنهم الله من شيء .. وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » .. أي بما أنزل إليكم .

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

بعد أن يرى لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط . أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنها في طبيعتهم الكفر والإلحاد . فقال سبحانه . ولقد جاءكم موسى بالبينات . أي أن موسى عليه السلام أيده الله ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفي لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعدون إلا الله . فلقد شق لكم البحر ومروا فيه وأنتم تظنون وترون . أي أن المعجزة لم تكن عينا عنكم بل حدث أمامكم ورأيتموها . ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله . بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلهًا من دون الله وعبدتموه . فكيف تدهون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم . لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهًا .

والحق تارك ونعملي يريد أن ينقص حجبتهم في أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم . ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم . وجاء بعكابة قتل الأنبياء . ولو أنهم كانوا مؤمنين حقًا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاضنون . . أما الحجة الثانية فهي إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم . فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التي تحولت إلى حية واليد البيضاء من عبر سوء والبحر الذي شققناه لكم لتخرجوا من قرم فرعون . والقنيل الذي أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ليفرة التي دبستموها . . آيات كثيرة ولكن بمجرد أن ترككم موسى وذهب للقاء ربه عهدتم العجل

إذن فقولكم يؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح . . فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم وكل هذه حجج المهدف منها هدم الإيمان أصلاً .



وقوله تعالى : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . . واتحاد العجل في ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرب أو المذبح لتأكل لحمه . ولكن المعصية هي اتحاد العجل معبودا . . وقوله تعالى : « اتخذتم العجل » . . أي أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل صدفوه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتججا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم . . وذكر حكاية العجل هذه ليشعروا بذنبهم في حق الله . . كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم يبرأه وقت . وكلما أردن أن تؤبه ذنوبه يذكركم بما فعل . . وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » . . أي ظالمون في إيمانكم . . ظالمون في حق الله بكمركم به



﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءَ اتِّبَاقِكُمْ بَقْوَةً وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمَاجِلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
يَسْمَاءُ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

بعد أن دكرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل وكان هذا نوعاً من التائب الشديد والتذكير بالكفر . أورد أن يؤسفهم مرة أخرى وأن يدكرهم أنهم أموا خوفاً من وقوع جبل الطور عليهم . ولم يكن الحبل سيفع عليهم لأن الله لا يفهر أحداً على الإيمان . ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم أموا . مثلهم كالطفل الذي وصف له الطبيب دواء مر البشوى . ولذلك فإن رفع الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمسح . لا يقال إنه فعل ذلك إرغاماً لكي يؤموا . إنه إرغام المحب . يريد الله من حلفه ألا يمشوا بلا منيح سيوى مربع فوقهم حين الطور إظهاراً لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه لقوه الهائلة وما يمكن أن يصعله هم وبهم أموا . فكأنهم حين أحسوا بقدره الله أموا غاماً كالطفل الصغير يتفح منه لساول لدواء المر وهو كاره . . ولكن هل أعطيه الدواء كرها فيه أو أعطيه له قمة ن الحب والاشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يلتقى بنو إسرائيل منيح الله الصحيح . يقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها . لكن عزيمة لاستنكار والعباد معتهم أن يستمروا على الإيمان . ثم ما كيا يعد للآب إن لدواء مر لم يحقق الشعاء وطعلك مريض . فيقول ومادا أفعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » هل الميثاق معهم أو هو ميثاق الله ؟ طبعاً هو ميثاق الله . . ولكن الله حل جلاله حاضهم بقوله : « ميثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفاً لى المقد . وماداموا قد أصبحوا طرفاً أصبح ميثاقهم ولا بد أن يؤمن أن رفع

جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال أنهم أجبروا على ذلك . . هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور . . فلا بد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعا فوق رؤوسهم أيما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا . . قلوبهم أجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم . . فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج . . ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى . . حينها يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم . . وقد يأخذهم بالعذاب الأصفر عليهم يعرودون إلى إيمانهم . . وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريد لهم مؤمنين . .

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله . . وليس في هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يمددوا إلى العصية . . ولكنها آية تدفع إلى الإيمان . . وقوله تعالى : (خطوا ما آتيناكم بقوة) لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة والأخذ بقوة يدل على عشق الأخذ للمأخوذ . . وما دام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدى مطلوباته بقوة . . فالإنسان دائما عندما يأخذ شيئا لا يحب فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : « واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » . . القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان هناك قول وفعل وعمل القول أن تتنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ . . والعمل أن يطابق القول الفعل . . هم : « قالوا سمعنا وعصينا » هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه . . ولكن (عصينا) على أى شيء معطوفة ؟ . . إنها ليست معطوفة على « سمعنا » . . ولكنها معطوفة على (قالوا) . . قالوا سمعنا في القول وفي الفعل عصينا . . وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا في الفعل . . فليشكك جاءت من عطف عصينا على سمعنا . . فتحسب أنهم قالوا الكلمتين لا . . هم قالوا سمعنا ولكنهم لم يفعلوا فلم يفعلوا والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أى مجرد سماع . . ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكان عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : « وأشربوا في قلوبهم العجل » . . الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم . . فالحب أمر معوى وليس أمرا ماديا لأنه غير محسوس . . وكان التعبير

يقصص أن يقال واشربوا حب المجمل .. ولكن الذي يتكلم هو الله .. يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة في أنهم أشربوا العجل ذاته أى دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل في هذا الخيز الصبي وهو القلب .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يلقا إلى الشروع في كل شيء بكلمة أشربوا .. لأن وصف لشرب الماء والماء يتغلغل في كل الجسم .. والصورة تعرب عن تغلغل المادية في قلوب بني إسرائيل حتى كأن المجمل دخل في قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء في الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

ويقول الحق جل جلاله : « وأشربوا في قلوبهم العجل يكفرهم » . كأن الكفر هو الذي أسقاهم المجمل .. هم كفروا أولا .. ويكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وفتح عليهم .. وقوله تعالى : « قل بشيا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » . هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء به الله . قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ . وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم . مثل قوله تعالى :

﴿ أَتَرْجُوا أَن لَّوْطَ مِن قَرْنِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ۖ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ طبعاً لا ولكنه أسلوب تهكم واستنكار .. والحق أن إيمانهم لا يأمرهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإقرأ قوله تبارك وتعالى

﴿ وَاسْتَكْبَرْنَا فِي هَذِهِ الدِّينِ حَسَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَهٌ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِمُ

مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَكُتِبَ لِلَّذِينَ نَفَقُوا وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ

هُمْ يَعْبُدُونَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُ الرَّسُولُ أَنِّي إِلَهِئُ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ

فِي الْتَوَارِيثِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ الْحَسْبُ وَيَصْحُ عَنْهُمْ إِحْرَاهُمْ وَلَا عَمَلٌ أُنْفِيَ عَنْهُمْ فَعَالٍ يَتْلُونَ
آمَنُوا بِهِ مَرَّرُوهُ وَعَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ بَأْوَازِكُمْ هُمْ الْمُنْقَلِبُونَ ﴿٤٦٩﴾

(سورة الأعراف)

هذا هو ما يأمرهم به إيمانهم .. أن يؤمنوا بالنبي الأمام محمد عليه الصلاة والسلام .. والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جبل حلاله .. ولذلك عندما يقولون حذاع الله .. ينهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم : « بشيا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » دليل على أنهم ليسوا مؤمنين .. ولكن لا زال في قلوبهم الشرك والكفر أو المعجل الذي عبده .



﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٤

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لليهود . وبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمتا قليلا . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف إن هؤلاء اليهود لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا . ويعرفون أنهم جاءوا بكلام وسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضحهم أمام الناس وبين كذبهم بالدليل القاطع . . فيقول : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة » . « قل » موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى قل لهم يا محمد . . ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قد قالوا إن لهم . « لدار الآخرة عند الله خالصة » .

الشيء الخالص هو الصافي بلا معكر أو شريك أى الشيء الذى لك بمردك لا يشاركك فيه أحد ولا يازعك فيه أحد . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: إن كانت الآخرة هم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلىعيم خالد . فإدامت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم . فما الذى يجعلهم ييقنون فى الدنيا . ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون انشهادة ليدخلوا الجنة . . وليست هذه هى الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى . . وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَقُلُوا لَّنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى﴾

(من الآية ١١ سورة البقرة)

من الذى قال ؟ اليهود قالو عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ،

والنصارى قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا .. كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل فوهم هذا لنا لغزا في العقائد .. من الذى سيدخل الجنة وحده .. اليهود أم النصارى ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ الْنَصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ الْنَصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وهذا أصح قول قاله اليهود وقاله النصارى بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. وكلاهما صادق في مقولته عن الآخر .. في الآية الكريمة التى نحن بصدد ما .. اليهود قالوا إن لدار الآخرة خالصة لهم . منصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتمجلون ويمتثلون الموت .. فالفروض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة هم .. ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « فتمنوا للموت إن كنتم صادقين » . ولكنها أمان كاذبة عند اليهود وعند النصارى .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَعْزِيلُ مَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٥٨ ﴾

(سورة البقرة)

إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة .. ولكن عدل الله بأى ذلك . كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب . بل يدخلهم الجنة في الآخرة . وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة في الآخرة لليهود وحدهم . وهو قد كتب رحمة لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام . وأبلغ اليهود والنصارى بذلك في كتبهم .. وإقرأ قوله سبحانه وتعالى .

﴿وَأَكْتُمِبَ لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَيْكَ قَالِ صَبْرًا أُصِيبُ بِهِ
مِنْ أُنْثَاءٍ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَأَكْتُمِبَ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ۖ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ
مِمَّ بَعَايَتُنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّسُولَ الَّتِي الْآخِرَةُ لِلَّذِي بِحُجُوتِهِ مَكْتُوبَاتُهُمْ
فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾

(الآية ١٥٦ ومن الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

إذا كانت هذه هي الحقيقة الموجودة في كتبهم .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٨﴾﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يدعى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة ؟ ولكن الحق جل
جلاله بفضح كذبهم ويؤكد لنا أن ما يقولونه هم أول من يعرف إن كذب .



﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (١٥)

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه . والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية . . وضع قضية الإيمان كله في يد اليهود . . بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين . . كيف ؟ ألم يكن من الممكن حينما نزلت هذه الآية أن يأتي عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت . . نحن نتمنى الموت يا محمد - فادع لنا ربك يموتنا . . ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا ؟ ولو نقا . . قولوا ربنا ليهدموا هذا الدين . . ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخاطر على بالهم . . أنظر إلى الإعجاز القرآني في قوله سبحانه : « ولن يتمنوه » .

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا في أمر إختياري لعدو يعادي الإسلام . . وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت . . وكان من الممكن أن يعطونا هذا التحدي . . ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله . . ولكن حتى هذه لم تخاطر على بالهم ؛ لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم في أمر إختياري لعدو يطلب من أعدائه الذين تلك الخواطر التي يمكن أن يستخدموها في عدم الدين . . فلا تخاطر على بالهم أبدا مثلما تحداهم الله سبحانه من قبل في قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَوْلَاهُمْ مَنْ يَتَّبِعُهُمُ الْيَهُودُ قَالُوا عَدُوٌّ لَنَا وَلَهُمْ أَعَدُّوا لَهُمْ جَذَابَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة البقرة)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا . . بدليل استخدام حرف السين في قوله : « سيقول » . . ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء . . ومع ذلك فقد قالوا . . ولو أن عقولهم تنبّهت لسكتوا ولم يقولوا شيئا . . وكان في ذلك تحدي للقرآن

الكريم . كانوا يقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى : **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ** . . . ولكن أحدا لم يقل شيئا فأي هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا ؟ وكان هذا يعتبر تحديا للقرآن الكريم في أمر بملكون فيه حرية الاختيار . ولكن لأن الله هو القائل والله هو العاقل . . لم يحطر ذلك على بالهم أبدا ، وقللوا بالفعل

في الآية الكريمة التي نحن بصددها . . تحذاهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه . . وكان الكلام المنطقي مادامت الدار الآخرة حائلة لهم . والله تحذاهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمنوه . . ليذهبوا إلى نعيم أبدي ولكن الحق حكم مسبقا أن ذلك لن يحدث منهم . . لماذا ؟ لأنهم كاذبون ويميلون أنهم كاذبون . . لذلك هم يهربون من الموت ولا يتمنونه

إنظرو مثلا إلى عشرة المشرين بالجنة عمار بن ياسر في الحرب في حنين . كان يشد وهو يستشهد الآن ألقى الأحية محمدا وصحبه . . كان سعيدا لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد به داهب إلى أخيه عبد محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته هكذا تكون الثقة في الخراء والبشرى بالجنة . وعدا الله بن روجه كان بخاربه وهو يشد ويقول .

يا حبيذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والإمام علي رضي الله عنه يدخل معركة حين ويرتدى علالة ليس لها ذروع . . لا ترد سهما ولا طعنة رمح حتى إن ابنه الحسن يقول له . يا أبي ليست هذه لباس حرب فيرد على كرم الله وجهه : يا بني إن أباك لا يبالي أسقط على الموت أم سقط الموت عليه . . وسيبدا حديفة بن أبيان يشد وهو يجتصر . حبيب جاء على مائة لاربح من ندم . إذن الذين يثقون باخترتهم يجبرون الموت .

وفي عزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . يا رسول الله أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلوني . فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم وكان في يد الصحابي نمرات تمصها . فيسقط على أن يبقى بعيدا عن الحنن حتى يأكل النمرات فليتها من يده ويدخل المعركة ويستشهد

هؤلاء هم الذين يثمنون بما عند الله في الآخرة ولكن اليهود عندما تحذاهم

المرآن الكريم بقوله لهم : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .. سبكتوا ولم يجيبوا . ولو تموا الموت لانقطع نفس الواحد منهم وهو يبلع ريقه يماتوا جميعا .. قد يقول قائل وهل النعى باللسان ؟ ربما تموا بالقلب .. نقول : هو النعى ؟ نقول إن النعى هو أن تقول لشيء محبوب عندك ليتته يحدث . فهو نون . وهب انه عمل قلبي فلو أنهم تموا فلوهم لأطلع الله عليها وأماهم في الحال .. ولكن مدام الحق تبارك وتعالى قال : « ولن يتمنوه أبدا » .. مهم لن يتمنوه سوء . كان باللسان أو بالقلب .. لأن الادعاء منهم بأن لهم الجنة عند الله خلصة أشبه بقولهم الذي يرويه لنا القرآن في قوله سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَصْنَعُونَ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى : « بما قدمت أيديهم » .. أى ان أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت .. أم صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت . ولذلك نسمع ان فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح . ساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا انه ميت .. فالإنسان إذا مرض يأسى في الشفاء ويستبعد الموت .. ولكن ساعة الفراغرة يتأكد الإنسان انه ميت ويستمرس حياته في شريط عاجل .. فإن كان عمله صالحا تبسط أساريه ويفرح لأنه سيعم في الآخرة نعيمًا خالدًا .. لانه في هذه ساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار . وتتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب . فالذى أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة .. والذى عصى وفعل ما يهضب الله يستمرس شريط أعماله فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله . ولست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله .. عندما يرى مصيره إلى النار تتقبض أساريه وتقص روحه على هذه الهيئة . فيقال فلان مات وهو أسود الوجه متقبض الأساريه .

إذن فالذى أساء في دنياه لا يتمي الموت أبدا . أم صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بنقاء الله .

وسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي عن نفي الموت فقال :

(لَا يَتَمَيَّنُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُو بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ وَثِقَ بِعَمَلِهِ)^(١)

نقول إن نفي الموت المنهي عنه هو نفي اليأس ونفي الاحتجاج على المصائب .
يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله في مصيبة حدثت له . . أو يتعصاه
حتجاجاً على أقدار الله في حياته . . هذا هو نفي الموت المنهي عنه . . أما صاحب
العمل الصالح فمستحب به أن يتمنى لقاء الله . . وإقرأ قوله تعالى في آخر سورة
يوسف :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَظَمْتَ لِي تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

(سورة يوسف)

ونقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لى لا تتعصو الموت حزها بما يصيبكم من
قدر الله . . ولكن إصبروا على قدر الله . . وقوله تعالى : « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » . .
لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يحافون
الموت ولا يتمنونه





﴿وَلَجَدْتَهُمُ آخِصًا النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَّزَحٍ بِهِ
مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَسْمَلُونَ﴾ ١٦

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فُضح كذبهم .. في أنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت
لأنهم ظالمون .. ولما داموا ظالمين فموت أمر عفيف بالنسبة لهم . وهم آخِص
الناس على الحياة .. حتى إن حرصهم يتوق حرص الذين أشركوا . فالمشرك
حرص على الحياة لأنه يعتقد أن الدنيا هي العاية .. واليهود أشد حرصاً على
الحياة من المشركين لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة .. لذلك كلها طالت
حياتهم ظنوا أنهم بعيدون عن عذاب الآخرة .. الحياة لا تجعلهم يواجهون
العذاب ولذلك فهم يفرحون بها

إن اليهود لا يبالون أن يعيشوا في قلة أو في مسكنة . أو أي نوع من أنواع
الحياة .. اللهم أنهم يعيشون أي حياة .. ولكن لما دام حرصون على الحياة أكثر
من المشركين ؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هي كل شيء وكل حياته .. لذلك
يتسنى أن تطول حياته بأي ثمن وبأي شكل .. لأنه يعتقد أن بعد ذلك
لا شيء . ولا يعرف أن بعد ذلك العذاب .. واليهود آخِص من المشركين على
حياتهم .

وقوله تعالى : « يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » .. الود هو الحب .. أي
أنهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر .. ولكن هب أنه عاش ألف سنة أو حتى
أكثر من ذلك .. أين حزنه هذا من العذاب ؟ لا .. طول العمر لا يغير
النهاية .

فإن دامت النهاية هي الموت، يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف

السن . قوله تعالى : « يعمر » مفتوح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مسية للمجهول ذاتها . ولا ينبغي أن يقال يعمر بكسر الميم . فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله . . فالفه هو الذي يعطي العمر وهو الذي يهبه . . وبما أن العمر ليس ملكا لإنسان فهو مبق للمجهول . .

والعمر هو السن الذي يقطعه الإنسان بين ميلاده ووفاته . ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمره الحياة . وعندما تنتهي يصبح الجسد أشلاء وخربا . قوله تعالى : « ألف سنة » لماذا ذكرت الألف ؟ لأن ألف هي نهاية ما كان العرب يعربونه من الحساب ولذلك فمن الرجل الذي أسر في الحرب أحت كسرى فقالت كم فأجد وتركي ؟ قال ألف درهم . قالوا له بكم قديتها ؟ قال بألف . قالوا بوطيت أكثر من ألف لكانوا أعطوك . . قال والله لو عرفت شيئا فوق الألف لفكته . . فالألف كانت نهاية العدد عند العرب . ولذلك كانوا يقولون ألف ألف وم يقولوا مليونا

وقوله تعالى . : وما هو بمزحرجه من العذاب أن يعمر . . معاها انه لو عاش ألف سنة أو أكثر فمن يهرب من العذاب . وقوله تعالى . : والله بصير بما يعملون . أي يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سوء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل .



﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّمَنْزَلْنَاهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢٧

الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن اليهود لم يقتلوا الأنبياء ويعرفوا التوراة
ويشتروا بآيات الله جاه الدنيا فقط . . ولكنهم عادوا الملائكة أيضا . . بل إنهم
أصمروا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله الذي نزل بوحى القرآن وهو جبريل عليه
السلام . . وانهم قالوا جبريل عدو لنا .

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد جلس ابن جوريا أحد
أخبار اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له من الذى ينزل عليك
بالوحى ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل . . فقال اليهودى لو كان
غيره لامنا بك . . جبريل عدونا لأنه ينزل ذاتها بالخسف والعذاب . . ولكن
ميكائيل يرل بالرحمة والقيث والخصب . . وأيضا هو عدوهم لأنهم اعتقدوا أن بيت
المقدس سيخرجه رجل اسمه بختنصر ، فأرسل اليهود إليه من يقتله . . فلقى
اليهودى غلاما صغيرا وسأله الغلام ماذا تريد ؟ قال إني لويد أن أقتل بختنصر لأنه
عندنا فى التوراة هو الذى سيحرب بيت المقدس . . فقال الغلام إن يكن مقلدا
أن يخرب هذا الرجل بيت المقدس فلن نقدر عليه . . لأن المقدس نافذ سواء رخصها
أم لم نرخص . . وإن لم يكن مقدرا فلماذا تقتله ؟ أى ان الطفل قال له إذا كان الله
قد قضى فى الكتاب أن بختنصر سيحرب بيت المقدس . . فلا أحد يستطيع أن
يمنع قضاء الله . . ولن نقدر عليه بقتله ونجح تخريب بيت المقدس على يديه . .
وإن كان هذا غير صحيح فلماذا تقتل نفسا بغير ذنب . . فعاد اليهودى دون أن
يقتل بختنصر . . وصعدا رجع إلى قومه قالوا له إن جبريل هو الذى تمثل لك فى
صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل .

ويروى أن سيده عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . وطس اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم فقالوا له إنما نحك وبحترمك ونطمع فيك فعهم عمر مرادهم فضل والله ما جالسكنم حبا فيكم ولكن أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عه ما في كتابكم فقالوا له ومن نخب محمدنا بأخبارنا وأمرارنا ؟ فقال عمر إنه خير من يرث عنه من لسماء بأخباركم قلوا هو عدونا فقال عمر كيف مربه من الله ؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله وميكائيل يجلس عن يسار الله . فقال عمر مدام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدو للآخر لأجاء عبد الله في منزلة واحدة فمن كان عدوا لأحدهما فهو عدو الله فلن تشفع لكم عداوتكم لخيرين ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتها عند الله عليه

إن عداوتهم لخيرين عيب السلام تؤكد ما دينهم . فهم يقيسون الأمر على الشر . إن الذي يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتناهسان على المردة عده . ولكن هذا في دنيا البشر . ولكن عند الملائكة لا شيء من هذا . الله عنده ما يجعله يعطى لمن يريد المردة العالية دون أن ينقص من الآخر . ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . وما يرث به جبريل حق وما يرث به ميكائيل حق وأحق لا يخصم الحق وقال هم عمر أنتم أشد كفرا من الخمير . ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكذ الرسول يراه حق قال له وافقت ربك يا عمر . وترى قول الله تبارك وتعالى . « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » فقال عمر يا رسول الله . إلى بعد ذلك في إيماني لأصيب من الحين .

إذن فقوله ميكائيل حبيبا وجبريل عدونا من المذنبات ، والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم إنيهم يعادون جبريل لأنه يرث على قلبك بإذن الله . ومادام يرث من عبد الله على قلبك . فلا شأن لهم بهذا . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . وهو هدى وبشرى للمؤمنين . فأى عصر من هذه المتأخر تنكروا على جبريل . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحكم . فقال إن العداوة للرسل . . مثل
العداوة للملائكة . مثل العداوة لجبريل وميكائيل . مثل اعداؤه لله ولقد جاء
الحق سبحانه وتعالى بملائكة ككل . ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم .

إن المسألة ليست مجردة ولكنها قضية واحدة . فمن كان عدواً للملائكة
وجبريل وميكائيل ورسل الله . . فهو أولاً وأخيراً عدو لله . لأنه لا انقسام بينهم
فكنهم دائرون حول الحق . . والحق الواحد لا عدوان فيه . وإنما العدوان يشأ
من تصادم الأهواء والشهوات وهذا يحدث في أمور الدنيا

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسله وجبريل
وميكائيل . ومن يعادى واحداً من هؤلاء يعادى جميعاً وهو عدو لله سبحانه . .
واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به . وأعداء الرسل لأنهم كذبوه وقتلوا
بعضهم .

وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى وحدة الحق في الدين .
مصدره هو الله جل جلاله . . ورسوله من الملائكة هو جبريل . . ورسله من
البشر هم الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله . . وميكائيل ينزل بالخير والحسب
لأن الإيمان أصل وجود الحياة . فمن كان عدواً للملائكة والرسل وجبريل
وميكائيل فهو كافر . لأن الآية لم تقل إن العداوة هؤلاء هي مجرد عداوة . وإنما
حكم الله عليهم بأنهم كافرون . الله سبحانه وتعالى لم يجبر محمداً صلى الله عليه
وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعاً ويعرفوا
أن اليهود كافرون .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾

ونتقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى تأكيد صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. وأن الآيات فيها واضحة بحيث إذا كل إنسان يعقل ويريد الإيمان يؤمن بها . ولكن الذين يريدون الفسق والمعجور . هم هؤلاء الذين لا يؤمنون .. ما معنى الآيات البينات ؟ إن الآية هي الأمر العجيب . وهو عجيب لأنه معجز .. والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله . وهي كذلك الآيات في القرآن الكريم .. وبيئات معناها أنها أمور واضحة لا يختلف عليها ولا تحتاج إلى بيان : « وما يكفر بها إلا الفاسقون » . والفسق هو الخروج عن الطاعة وهي مأخوذة من الرطبة البسح قبل أن يصبح رطباً لا تستطيع أن تنزع قشره ولكن عندما يصبح رطباً نجد أن القشرة تتعد عن القشرة فيقل هفت الرطبة . ولذلك من يخرج عن منهج الله يقال له فاسق .

ولمعي أن الآيات التي أهداها الله سبحانه وتعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام ظاهرة أمام الكفار ليست محتجة إلى دليل . فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ كلمة في حياته . يأتي بهد القرآن المعجز لفظاً ومعنى .. هذه معجزة ظاهره لا تحتاج إلى دليل . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا تغريه الدنيا كلها . ليزك هذا الدين مهما أعطوه .. دليل على أنه صاحب سداً ورسالة من السماء . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينجز بقرآن موحي من السماء عن نتيجة حرب مستقيم بعد تسع سنوات .. ويخبر الكفار والمنافقين بما في قلوبهم ويصحهم . وشأ بأحداث قادمة وقوانين الكون وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كل أنواع الإعجاز علمياً وفلكياً وكوياً .. كل هذه آيات بيئات يتحدى القرآن بها الكفار . كلها آيات واضحة لا يمكن أن

يكفر بها إلا الذي يريد أن يخرج عن مبيع الله ، ويعمل ما تهواه نفسه .

إن الإعجاز في الكون وفي القرآن وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد . . لتعرف أن هذا القرآن هو من عند الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات لمة وعلماء . . وأنه سيظل معجزة لكل جيل له عطاء جديد .



﴿أَوْ كَلَّمَا عَنْهَا وَأَعَاهَدَ ابْنُ دَاوُدَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ نَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الإسلامي ، وكتبه لقرآن فيه من آيات
الواضحة ما يجعل الإيمان به لا يحتاج إلا إلى وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذي
يقفه اليهود من الإسلام منافي لكل المعهود التي أحدثت عندهم ، منافي للإيمان العطري ،
ومنافيا لأنهم عاهدوا الله ألا يكتفوا من جاء في نبوة عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ومنافيا لعهدهم أن يؤمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب
منهم موسى أن يؤمروا بالإسلام عند يأس الرسول ، مصداق لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مِّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

(سورة القصص - محمداً)

وهكذا يعرف أن موسى عليه السلام الذي أخذ عليه الميثاق قد أبعد إلى بني
إسرائيل ، وأن بني إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق حينئذ عند بعث رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وكانت عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام
ولكنهم بقصوه كما بقصوه كثيرا من الوثائق . منها عهدهم بعدم العمل في السبت ،
وكيف تحابلو على أمر الله بأن صنعوا مصيدا للأسماك بدخل فيها ولا تستطيع الخروج
وهذا تحابيل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم في الإيمان بالله إلهًا واحدًا ، ثم عبدوا

العجل.. وكان قولهم لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه
زرع لأنهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التي كانت
تأتيهم من السماء.. قالوا لموسى: «ماذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا
قاعدون».. وغير ذلك الكثير من المواقف بالنسبة للحرب والأسرى والعاقبة، حتى
عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل في قلوبهم الرعب وظنوا أنه
واقع عليهم، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة.. لأن الله تبارك وتعالى يقول: «وظنوا أنه واقع بهم»،.. ومجرد إصباحهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق.

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هجر إلى
المدينة وذلك في غرة الخندق.. وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا
جيوش المؤمنين من الخلف

قوله تعالى «نهذه فريق منهم» قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتمال.. لأن
منهم من صان المواقف.. ومنهم من صدق ما عهد الله عليه.. ومنهم مثلا من كان
يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام.

إذن فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود.. لأن فيهم أناسا لم ينقضوا
العهد.. ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان،
حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على
العهد، ولكن هؤلاء الذين حافظوا عن العهد كانوا قلة.. ولذلك قال الحق
سبحانه وتعالى: «بل أكثرهم لا يؤمنون».. أي أن الفريق الناقض للعهد
انناض للإيمان هم الأكثرية من بني إسرائيل.



﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ
اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن اليهود الذين يقصود المواتيق الخاصة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقصودها وهم يعلمون . قال الله سبحانه : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » . أي أن ما جاء في القرآن مصدق لما جاء في التوراة . لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله . ولكن التوراة حرفوها وكتبوا بعضها وغيروا وبدلوا فيها فأحرفوا ما يريدون إقصاءه . لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه ويؤكد ما لم يحفوه ولم يتلاعبوا فيه .

وقوله تعالى : « مذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » . قل إن هناك كتاباً بدوه أولاً وهو التوراة . ولما جاءهم الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم بدوه هو الآخر وراء ظهورهم . . ما معنى تذه ؟ . المعنى طرحه بعيداً عنه . إذن ما في كتابهم من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم بدوه بعيداً . . ومن التبشير بمجيء رسول الله عليه الصلاة والسلام نبذوه هو الآخر . لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون أفر من نبي مؤمن به يقتلكم فتل عباد ولام .

وقوله تعالى : « نبذ فريق » . يعني نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب . بدليل أن ابن سلام وهو أحد أئمة أخبار اليهود صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمن به . وكعب الأحمري وغيره أسلم . فلو أن القرآن عمم ولم يقل فريق لقليل . نه غير منصف هؤلاء الذين آمنوا .

وقوله تعالى : « وراء ظهورهم » . البذ قد يكون أمامك . . وكونه أمامك

فأنت تراه دائما ، وري يغريك بالإقبال عليه ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم أي جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماما ولا يلتفتوا إليه .

وقوله تعالى : « كأنهم لا يعلمون » . . أي يتظاهرون بأنهم لا يعلمون بإشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه . . . وقوله تعالى : « كأنهم » . . دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين . . لأنهم لو كانوا لا يعلمون . . لفان الحق سبحانه : « بيد فريق من الذين أوتوا الكتاب كتب الله وراء ظهورهم » وهم لا يعلمون . . إذن هم يعلمون يقينا ولكنهم تظاهروا بعدم العلم . . ولابد أن ننتبه إلى أن هذا يمكن أن يأتي مقابلها فتقول نبيد كذا واتع كذا . . وهم نبذوا كتاب الله ولكن ماذا اتبعوا ؟



وقوله سبحانه عن الجن :

﴿ وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الجن)

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر .. والمؤمن من الجن فيهم الطائع والعاصي ..
والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله . وكل متمرد على منهج الله
نسميه شيطاناً سواء كان من الجن أو من الإنس .. ولذلك يفوق الحق سبحانه
وتعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجْوٍ حَدًّا شَيْطَانٍ أَلَيْسَ بِالْجِنِّ يُوحِي نَقَصَهُمْ إِنَّا بَعْضُ
زُكُوفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله . قوله تعالى : « واتبعوا ما تنطق
الشياطين على ملك سليمان » .. يعنى ما كانت تنطق للشياطين أيام ملك سليمان ..

ولكن ما هى قصة ملك سليمان والشياطين ؟ . الشياطين كانوا قبل مجيء رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد مكثهم من فترة الاستيعاب إلى أوامر السماء وهى
نازلة إلى الأرض . وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلى أئمة
الكفر ويؤيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات .. بعضها يكون على حق والأكثر
على باطل .. ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُفْسِدُوا كَلِمَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم امتنع ذلك كله ، حتى لا يصح الشياطين حرافاتهم في منهج

رسول الله صلى الله عليه وسلم أول القرآن ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَن تَقْعُدَ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّمُتَّعٍ قَن يَسْمَعُ إِلَّا نَ يَحْدُ لَهُ رِشَابًا رَّصَدًا ۝﴾

(سورة النور)

أى أن الشياطين كانت لها مقاعد في السماء تقعد فيها لتستمع إلى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذ . . ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب - وهي النجوم المحترقة - بعدما تمحاور الشياطين الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم . وبذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابا يحترق في السماء بسرعة يقولون : سهم الله في عدو الدين . . كأن المسألة في أذهان الناس وجعلتهم يقولون : سهم الله في عدو الدين الذي هو الشيطان .

وانظروا قوله تبارك وتعالى :

﴿وَأَنَا لَمَنَّا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً مِن مَّاءٍ شَدِيدًا وَشُهَابًا ۝﴾

﴿وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشْرُؤُهَا يَمْنٌ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝﴾

(سورة النور)

أى أن الأمر اختلط على الشياطين لأنهم لم يعمدوا يستطيعون استراق السمع ولذلك لم يعرفوا هل الذي ينزل من السماء خير أو شر ؟ . أنظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : «وَأَنَا لَمَّا السَّمَاءَ» . . كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء للدرجة أنها أصبحت قرية لهم حتى كانوا يلعبونها . . فإله تبارك وتعالى في هذه الحالة - وهي اتساع اليهود لما تنزل الشياطين على ملك سليمان من السحر واتصافوا به والانباء التي تضر ولا تفيد - أراد أن يرى سليمان من هذا كد . فقال حل جلاله : «وما كفر سليمان» . .

وكان المتعلق يقتضى أن يخص الله سبحانه وتعالى بحكاية انشياطين قبل أن يرى سليمان من الكفر الذي أرادوا أن ينشروه . ولكن الله أراد أن ينهى تهمة الكفر عن

سليمان ويشتها لكل من اتبع الشياطين فكان جل جلاله . « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر . وكيف كفر الشياطين وبماذا أصروا أتباعهم بالكفر ؟ يقول الله سبحانه وتعالى . « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وروجه وما هم بصالحين به من أحد إلا يادن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » .

ما قصة كل هذا ؟ اليهود ندوا عهد الله واتبعوا ما تتلو الشياطين أيام سليمان ، وأرادوا أن يسبوا كل شيء في عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهبوا الناس أن منيح سليمان هو من السحر ومن الشياطين . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرىء سليمان من هذه الكذبة . . سليمان عليه السلام حين جاءته النوبة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه مذكبا لا يعطيه لأحد من بعده . . وإقرأ قوله تعالى

﴿ قَالَ رَبِّ آفِزْنِي وَهَبْ لِي مُسْكًا لَا يَنْسِي لِأَحَدٍ مِّنْ عِذِّي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ٤٩١ ﴾
فَسَحَرْنَاهُ الرِّيحَ فَجَرَى بِعُزْرِهِ رُحَةً حَيْثُ أَصَابَ ٤٩٢ ﴿ وَلَشَيْطَانٍ كُلِّبْنَا وَوَعَدْنَا ٤٩٣ ﴾
﴿ وَأَحْرَيْنَ مُقِرَّنَيْنِ فِي الْأَسْمَادِ ٤٩٤ ﴾

(سورة ص)

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك . . حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفرا بالسحر وكتبه فأخذ سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه . . وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على مجبا كتب السحر أخرجتها وأداعتها بين الناس . . وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هي التي كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن ، وأنها كانت مبهجة ، وأشاعوها بين الناس . . فأراد الله سبحانه

وتعالى أن يبرئ سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر وبشر الكفر .. قال
جل جلاله : وما كمر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ،

ما هو السحر ؟ الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع
النهار . حيث يختلط الظلام بالقصوة ويصبح كل شيء غير واضح . هكذا السحر
شيء يحيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع .. إنه قائم على شيئين . سحر لعين
لترى ما ليس واقعاً على أنه حقيقة . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . ولذلك قال
الله تبارك وتعالى في سحرة فرعون .

﴿صَحْرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوْهُمْ وَجَاءُواْ بِسِحْرٍ عَظِيْمٍ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعاً وما ليس حقيقة ..
وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة الساحر .. ولذلك فالسحر تحيل وليس
حقيقة وإقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿قَالَ نَلْقَأُ فِىْهَا جَبَلًا مِّنْ حَبْلٍ مَّوَدَّىٰ وَعَصِيْمٌ يُحْيِىْ اِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ اَنۡهَآئِى ۙ﴾

(سورة طه)

إذن ما دام الله سبحانه وتعالى قال « يحيل إليه » فهي لا تسمى إذن
فالسحر تحيل . وما الدليل على أن السحر تحيل ؟ . الدليل هو المواجهة التي
حدثت بين موسى وسحرة فرعون . ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عيونه
لا يسحرهم أحد . حينما جاء السحرة وموسى . إقرأ قوله سبحانه .

﴿قَالُوْا يَمُوْسَىٰ اِنَّا اَنۡ تَلَقٰٓى وَاِنۡ اَنْ تَكُوْنُ اَوَّلَ مَنْ اَلَقٰٓى ۙ ۝١٥ قَالۡ بَنۡ اَلۡفُوۡا۟ اَعۡمَآدًا
جَبَلًا مِّنۡ حَبَلٍ مَّوَدٰٓىۙ ۝١٦ اِنۡهَآئِىۙ مِنْ سِحْرِهِمْ اَنۡهَآئِى ۙ﴾

(سورة طه)

عندما ألقى السحرة حباهم وعصيتهم خيل للموجودين إنها حيات تسعى .
ولكن هل خيل للسحرة إنها حية ؟ طبعاً لا . . لأن أحدا لم يسحر أعين
السحرة . . ولذلك طل ما ألقوه في أعينهم حبلاً وعصياً . . حين ألقى موسى عصاه
وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ مَلْفَافًا مَّصْعُورًا ۖ إِنَّمَا صَعُورًا كَيِّدٌ سَاحِرٌ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
حَيْثُ أَتَى ۝١٩ فَالْقَى السَّحَرَةُ نَجْدًا ۖ فَالْوَأْءَ أَمَّا رَبٌّ هُنَّ رُوحٌ وَمُوسَى ۝٢٠﴾

(سورة طه)

ها تظهر حقيقة السحر . لماذا سجد السحرة ؟ لأن حباهم وعصيتهم ظلت كما
هي حبلاً وعصياً . ذلك أن أحداً لم يسحر أعينهم . . ولكن عندما ألقى موسى
عصاه تحولت إلى حية حقيقية . . فصرخوا أن هذا ليس سحراً ولكنها معجزة من الله
سبحانه وتعالى . لماذا ؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا
موسى قد تحولت إلى حية . ولكن حباهم وعصيتهم ظلت كما هي وإن كان قد خيل
إلى الناس أنها تحولت إلى حبات .

إذن فالسحر تخيل والساحر يرى الشيء على حقيقته لذلك فإن لا يحاف . . بينما
الاسحورون الذين هم الناس يتخيلون أن الشيء قد تغيرت طبيعته . . ولذلك سجد
السحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحراً . . ولكنها شيء فوق طاقة
البشر .

السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأي صورة من الصور ، ونحن
لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه
في صورة مادية . . فإذا تشكل في صورة إنسان رأيناه إنساناً ، وإذا تشكل في صورة
حيوان رأيناه حيواناً ، وفي هذه الحالة تحكمه الصورة . . فإذا تشكل كإنسان وأطلقت
عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل في صورة حيوان ودهمته بسيارتك مات ، ذلك لأن
الصورة تحكمه بقانونها . . وهذا هو السر في أنه لا يبقى في شكله إلا لحظة ثم يختفي
في ثوان . . لماذا ؟ لأنه يختفي عن يره في هذه الصورة أن يفنله خصوصاً أن قانون
التشكل يحكمه . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له
الشيطان في صورة إنسان قال :

(ولقد هممت أن أربطه في سارية المسجد ليتفجج عليه صبيان المدينة ولكني تذكرت قول أخى سليمان : « رب هب لي ملكاً لا ينهى لأحد من بعدي » . فتركته) الحديث لم يُفْرَج .

ومن رحمة الله ما أنه إذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه . وإلا لكانوا فزعونا وجعلوا حياتنا جحيماً . فإله سبحانه وتعالى جعل الكون بقرم على التوازن حتى لا يطغى أحد على أحد . . . بمعنى أننا لو كنا في قرية وكنا لا نملك سلاحاً وجدنا اشراراً . فإذا ملك أحدنا سلاحاً وادعى أنه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استعمل السلاح ليطغى على أهل القرية ويعرض عليهم إناوات وعير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وهذا ما لا يقبله الله .

السحر يؤدي لاحتلال التوازن في الكون . لأن الساحر يستعين بقوة أعز في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخبوء من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك . . . الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الحس . . . يدعى أنه يفعل ذلك ليشر الخير في الكون ، ولكنها ليست حفيظة . . . لأن هذا يخزيه هل الطغيان . . . ولدى بخل ناس العالم هو عدم التكافؤ بين أساس . . . إنسان يستطيع أن يطغى وإذا لم يقف أمامه المحتمم كله إحتس التوازن في المجتمع . والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ انمرص ليحفظ أمن وسلامة الكون . ولذلك يقول لنا لا نطغوا وتستعبوا بالشهابيون في الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون

ولكن الله جل جلاله ضاهت حكمه أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يفتز بذاتيته . . . ولا يحسب أنه هو الذي حقق لنفسه العلوق في الأرض . . . وقد كانت معصية إبليس في أنه رفض أن يسجد لآدم . إنه قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

إذن فقد أخذ عنصر الخلق لينحل الكبر إلى نفسه فيعصى ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا لأهل في العصر . وهو الشيطان . يجمع للأذى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميرهم الله في عصر من العاصر ، فإن هذا ليس يزدادهم ولا ميرة لهم . . . ولكنه بمثابة الله

سبحانه وتعالى . . فلرسل الملكين يابل هاروت وماروت ليعلميا الناس السحر .
الذي يصنع الأعلى عنصراً للأرض .

واقراً قوله سبحانه . : وما كهر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس
السحر وما أنزل على الملكين يابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما
نحن فتنة فلا تكفروا . . فإله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلميا
الناس السحر . ولقد رويت عن هذين الملكين قصص كثيرة . ولكن مادام الله
سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلميا الناس السحر . . فسنرى ذلك أن أسحر علم
يستعين به الإنسان بالشياطين . وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروي لنا
القرآن الكريم :

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة : أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض
لينظروا ماذا يفعلان ؟ فاختاروا هاروت وماروت . . وعلمنا نرلا إلى الأرض فتتها
امرأة فارنكبا الكبار . هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست
صحيحة . لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله . ولأنه من تمام الإيمان أن
يؤدى المخلوق كل ما كُلف به من الله جل جلاله . وهذان الملكان كلم بأن يعلميا
الناس السحر . . وأن يحذرا بأن السحر فتنة تؤدى إلى لكهر وقد فعلا ذلك
والفتنة هي الإمتحان . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى . : وما يعلمان من أحد
حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرعون به بين المرء وزوجه
وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله . . إذن هذان الملكان حذرا الناس من أن
ما بعيناه من السحر فتنة تؤدى إلى الكفر . وإنها لا تنفع إلا في الشر وفي التفريق
بين الزوج وزوجه . . وإن صررها لا يقع إلا بإذن الله . فليس هناك أى قوى في
هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

ثم يأتى قول الحق تبارك وتعالى : : ويعلّمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا
لكن اشتراه الله في الآخرة من بخلاق ولئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا

يعلمون . . ان الله سبحانه وتعالى يحبرنا ان تعدم السحر بصر ولا ينفع فهو
لا يجلب نفعاً أبداً حتى لمن يشتغل به فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد في رزقه عن
غيره من الشر فهم أفصل منه . وهو يظن طوال اليوم يبحث عن إسداد يفره بأنه
يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالا ، وتجد شكله غير طبيعي وحياته غير
مستقرة وأولاده محرومين وكل من يعمل بالسحر يموت فقيراً لا يملك شيئاً ونصيبه
الأمراض المستعصية ، ويصبح عبدة في آخر حياته .

إذن فالسحر لا يأتي إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بعبدة الله في آخر حياة الساحر . .
والذي يشتغل بالسحر يموت كافراً ولا يكون له في الآخرة إلا النار . . ولذلك قد
اشترى أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك . . لا هم يأتوا بشيء
إلا الضرر ولم يفعلوا شيئاً إلا التعريق بين الناس . . وهم لا يستطيعون أن يضرروا
أحد إلا بإذن الله .

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا
وابتلاء أهلها فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر . ولذلك
لا يجب أن يتعدى الإنسان السحر أو يقرأ عنه . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل
الخير ثم يستعلمه في الشر . كما ان الشياطين التي يستعين بها الساحر عالماً
ما تقلب عليه لتدبفه وبال أمره وتكون شرار عليه وعلى أولاده . . راقوا قوله سبحانه
وتعالى

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾

(سورة الجن)

أي أن لدى يستعين بالجن يقلب عليه ويذيقه ألواناً من العذاب



﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ١٢ ﴿

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة . فقد بين لهم أن السحر كفر ، وإن من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد في النار . . . وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم إمتيازاً في الضرر والإيذاء . . . لكان ذلك خيراً لهم عند الله تبارك وتعالى لأن الملكين الذين نرلا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنها : « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفروا » .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو أنهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون في الكفر ، واتفقوا الله لكان ذلك ثواباً لهم عند الله وخيراً في الدنيا والآخرة . . . ولكن ما هي المثوبة ؟ هي الثواب على العمل الصالح . . . بقابلها العقوبة وهي العقاب على العمل السيئ . . . وهي مشتقة من ثاب أي رجع . . . ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام في الصلاة التوب . لأن الإمام يقول الله أكبر فيردها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصنون لذين لا يصلحهم صوت الإمام . . . وهذا اسمه التوب . . . أي إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام . . . وكما أنك فهي مأخوذة من ثاب أي رجع . . . لأن الإنسان عندما يعمل صالحاً يرجع عليه عمله الصالح بالخير . . . فلا تمتد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود . ولكنه لا بد أن يعود عليك بالخير .

وإذا نظرنا إلى دقة التعبير القرآني : « مثوبة من عند الله خير » . نجد أن كلمة مثوبة مأخوذة من نفس معنى كلمة ثوب وجمعه ثياب . . . وكان الناس قد بدأوا يخلطون أصواف الأغنام ليصنعوا منها ملابسهم . . . فكان الرجل بما عنده من غنم ويخز صوفها

ثم يعطيه لآخر ليعمله وينسجه ثوبا ويعبده إلى صحبه فكان ما أرسله من
الصوف رد إليه كتوب . ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك يستمع به بعض
عالميا . وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالسمع العالى

إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علما أن لثوب لستر
العورة . ولعمل الصالح يستر الأمراض المعوية والنفسية في الإنسان . وفي ذلك
يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ قَدْ أَرْسَلْنَا يُزَيِّرُ سَوْءَ نِكَاحٍ وَإِنَّا لَنَاسُ الثَّقَوِيَّ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فكان هناك لباسين أحدهما لستر العورة . ولثاب لستر الإنسان من اعداء .
ولباس الثقوى خير من لباس ستر العورة . . قوله تعالى . « لثوبة من عند الله
خير » . انظر إلى المثوبة التي تأتي من عند الله . . إذا كان الثوب يأتيك من عند من
صنعه جيلا مزركشا وله أنوار منهجة . إذا كان هذا ما يصنعك لك شر من بالك
بالثواب الذي يأتيك من عند الله . إنه قمة الخصال . فإنه هو العائد عن أن يرد الثواب
بقدراته سبحانه فيكون الرد عاليا وعاليا جدا ، بحيث يصاعف الثواب مرات ومرات
على أننا لا نريد أن ننسبه إلى قول الله تعالى « ولو أنهم آمنوا واتقوا »
قلنا معنى اتقوا أنهم جعلوا بيهم وبين صفات الجلال في الله وقاية . وبذلك قلنا إن
بعض الناس يتساءل . كيف يقول الله تبارك وتعالى : « اتقوا الله » . ويقولون حل
جلاله « اتقوا النار » . تقول إن معنى اتقوا الله أى اجعلوا بيكم وبين صفات
الجلال في الله وقاية . « واتقوا النار » أى اجعلوا بيكم وبين عذاب النار
وقاية . . لأن النار من متعلقات صفات الجلال . لذلك فإن قوله : « اتقوا
الله » . . تساوى : « اتقوا النار » . . والحق تبارك وتعالى حينما قال : « اتقوا »
أطلقها عامة . والخلف هنا افراد به التعميم . . والله سبحانه وتعالى يريد أن ينصنا
إلى أن السحرة لو آمنوا بأن تعلم السحر فتنة تؤدي إلى الكفر . واتقوا الله وخافوا
عذابه في الآخرة لكان ذلك خيرا هم . لذلك قال جل جلاله : « لثوبة من عند الله
خير » .

وساعة تسمع كلمة خير تأتي إلى الذهن كلمة شر . لأن الخير يقابله الشر . .
ولكن في بعض الأحيان كلمة خير لا يقابلها شر . ولكن يقابلها خير أقل وكلمة



لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه .. واقرأ قول الشاعر :

رَزِقُوا وَمَا رَزِقُوا سَكَاخٌ يَدُ
فَكَانَهُمْ رَزِقُوا وَمَا رَزِقُوا
تُبَلِّغُوا وَمَا تُبَلِّغُوا لِكُفْرَانِهِ
فَكَانَهُمْ حَلَقُوا وَمَا حَلَقُوا

تكان العلم لم يثبت لك لأنك لم تنفع به .. والله سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ..) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقي .. وأثبت لهم العلم الدنيوي الظاهر .. وقوله جل جلاله

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ رَبَّحُوا بِهَا كَتَلِ الْجَمَلِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة الجمعة)

أي أنهم هموا الثوراة علما ولكنهم لم يحملوها منها وهملا .. وهؤلاء السحرة علموا أن من يمارس السحر يكفر .. ومع ذلك لم يعملوا بما علموا .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
أَنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٤)

هذا نداء للمؤمنين . . لأن الآية الكريمة تبدأ : « يا أيها الذين آمنوا » . . وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله . « يا أيها الذين آمنوا » . . نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف . . فإله لا يكلف كافراً لو غير مؤمن . . ولا يلزم بتكليف إلا لمن آمنوا .
فيأدام العهد قد آمن فقد أصبحت مسئولية حركته في الحياة عند ربه . . ولملك يوصي إليه بمنهج الحياة . أما الكافر فلا يكلفه الله بشيء .

إذن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » . . أمر لمن آمن بالله ورضي به إلهاً ومشرعاً . . قوله : « يا أيها الذين آمنوا » . . نداء للمؤمنين وقوله : « لا تقولوا راعينا » . . هي . . وكأن راعينا كانت مقولة عندهم يريد الله أن ينهاهم عنها . . والإيمان يلزمهم أن يسمعوا إلى نهي الله .

ما معنى راعينا ؟ نحن نقول في لغتنا الدارجة (راعينا) . . يعني احفظنا وراقبنا واخذ بيدنا وكفها مأخوذة من مادة الرعاية والراعي . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (١)

وأصل المادة مأخوذة من راعي العنم . . لأن راعي العنم لا يد أن يتجه بها إلى الأماكن التي فيها العشب والماء . . أي إلى أماكن الرعى . . وأن يكون حارساً عليها حتى لا تشرد واحدة أو تفضل فتفتك بها ذئاب الصحارى . . وأن يوفر لها الراحة حتى

(١) روى أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عمر .

لا تتعب وتنمق في الطريق .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كنت أرى
الغنم على قراريط لأهل مكة) (١)

ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا ؟ إن عند اليهود
في العبرانية والسريانية كلمة راعنا ومعناها الرعونة . ولذلك كانوا إذا سمعوا من
صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة راعا .. اتخذوها وسيلة للسبب
بالسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون لا يدرون شيئا . لذلك أمر
الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يركبوا هذه الكلمة .. حتى لا يجد اليهود وسيلة لـ
سبهم ، وأمرهم بأن يقولوا انظرنا .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : واسمعوا .. والله هنا يشير إلى الفرق بين
اليهود والمؤمنين . فاليهود قاتلوا سمعنا وعصينا ، ولكن الله يقول للمؤمنين اسمعوا
سمع طاعة وسمع تنبيه

سعد بن معاذ سمع واحدا من اليهود يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم
- راعنا - وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم - فلما سمع ما قاله لهم مراده .
فذهب إلى اليهودي وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عنقك .. وقال
اليهودي أو لستم تقولونها لنبيكم ؟ أمي حرام علينا وحلال لكم ؟ فنزلت الآية
الكريمة تقول : لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا . ولرأينا كلمة (راعنا) وكلمة
(انظرنا) لوحدنا المعنى واحدا .. ولكن (انظرنا) تؤدي المعنى وليس لها نظير في لغة
اليهود التي تعني الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى :
« وللكافرين عذاب أليم » . أي من يقولون راعنا إساءة لرسول الله صلى الله عليه
وسلم لهم عذاب أليم .



﴿ مَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥)

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين العداوة التي يكنها لهم أهل الكتاب من اليهود والمشركين الذين كفروا لأنهم رفضوا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . فبلغتهم إلى أن اليهود والمشركين يكرهون الخير للمؤمنين . . فتشككوا في كل أمر يأتي منهم ، واعلموا أنهم لا يريدون لكم خيرا . . قوله تعالى : « ما يود » . . أي ما يحب ، والود معناه ميل القلب إلى من يحبه . . والود يختلف عن المعروف . . أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب . . ولكنك لا تود إلا من تحب . . لذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ثم بعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليقول عن الوالدين :

﴿ وَإِنْ حَبَدَّكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الناز)

يقول بعض المستشرقين إن هناك تناقضا بين الآيتين . كيف أن الله سبحانه وتعالى يقول : لا تواد من يحارب الله ورسوله . ثم يأتي ويقول إذا حاول أبوك أن

بجعلك تشرك بالله فصاحبها في الدنيا معروف . . وطعا الوالدان اللذان يحاولان دفع ابهما إلى الكفر إنما يجاربان الله ورسوله . كيف يتم هذا التناقض ؟

نقول إنكم لم تفهموا المعنى . إن الإنسان يصنع المعروف فيصحب محب ومن لا يحب كما قضا . . فقد تجد إنسانا في ضيق وتمطيه مبلغا من ادال كمعروف . . دون أن يكون يسك وبينه أى صلة . أما الود فلا يكون إلا مع من تحب .

إذن : « ما بود » معناه حب القلب . أى أن فلوب اليهود والصارى والمشرى لا تحب لكم الخير . إسمهم يكرهون أن ينزل عليكم خير من ربكم . . بل هم في الحقيقة لا يريدون أن ينزل عليكم من ربكم أى شيء مما يسمى خيرا . . والخير هو وحى الله ومنهجه ونبوة رسول الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : « من خير » . أى من أى شيء مما يسمى خيرا . قالت حين تذهب إلى إسان وتطلب منه مالا يقول لك ما عندى مال . . أى لا أملك مالا ، ولكنه قد يملك جيبها أو جيبين . . ولا يعتبر هذا مالا يمكن أن يوقى بما تريده . . وتذهب إلى رجل آخر لنفس الغرض تقول أريد مالا . . يقول لك ما عندى من مال . . أى ليس عندى ولا قرش واحد ، ما عندى أى مبلغ مما يقال له مال حتى ولو كان عدة قروش . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكمار والمشرى . . مشركون في كراهيتهم للمؤمنين . . حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أى شيء من ربكم مما يطلق عليه خير .

وقوله تعالى : « من ربكم » . . تدل على المصدر الذى يأتى منه الخير من الله . . فكانهم لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خيرا من الله . . وهو المنهج والرسالة . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله يمتص رحمة من يشاء » . أى أن الخير لا يمتص لرحمة الكافرين وأمانتهم . . والله ينزل الخير لمن يشاء . . والله قد قسم بين الناس أمور حياتهم الدنيوية . فكيف يطلب الكافرون أن يصنع الله صبحه لإرادتهم ؟ وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا تَرَىٰ هَذَا الشَّرْعَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۚ أَلَمْ يَفْسِدُوا رَحْمَتَ رَبِّكَ إِذْ أَخْرَجَهُم مِّنْ مَّكَّةَ بَيْنَهُمْ مَّيِّتَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَدَّهَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ



بَعْضُ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَ بِهَا وَرَحِمْتُ رِيبَكَ خَبِيرًا يُجْمَعُونَ ﴿٣٣﴾

(سورة الزخرف)

اعترض الكفار على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لو نزل على رجل من القريتين عظيم .. فيرد عليهم الله سبحانه وتعالى .. أنتم لا تقسمون رحمة الله ولكن الله يقسم بينكم حياتكم في الدنيا .

الحق تبارك وتعالى في الآية التي نحن بصددنا يقول : « والله يختص برحمته من يشاء » .. ساحة تقرأ كلمة يختص تفهم أن شيئا يخص لشيء دون غيره .. يعنى أننى خصصت فلانا بهذا الشيء : « والله يختص برحمته من يشاء » .. أى يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدى مهته أو ينزل رحمته على من يشاء ، فليس لؤلاء الكفار أن يتحكموا في مشيئة الله ، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا يعطيهما حق التحكم في رحمة الله . ولذلك أراد الله أن يرد عليهم بأن هذا الدين سينتشر ويزداد المؤمنون به .. وسيفتح الله به أقطارا ودولا .. وسيدخل الناس فيه أوجاجا وسيظهره على الدين كله .

ولو تأملنا أسباب انتصار أى حى على من يعاديه لوجدنا أنها إما أسباب ظاهرة واضحة وإما مكر وخداع .. بحيث يظهر العدو لعدوه أنه يحبه ويكيد له في الخفاء حتى يتمكن منه فيقتله . ولقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سرا . لماذا ؟ لأن الله أراد أن يقول لقريش لن تقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا المكر والخداع والتبصير .. هم بيتوا الفتنه ليقتلوه . وجاءوا من كل قبيلة بفق ليضيق دمه بين القبائل .. وخرج صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رموس الفتنه .. الله أرادهم أن يعرفوا أنهم لن يقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالمكر والتبصير والخداع ولا بالعداء الظاهر .

قوله تعالى : « والله ذو الفضل العظيم » .. الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . (من كان معه فضل ظهر فليَنُذِرْ به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليجد به على من لا زاد له)^(١) .

(١) رواه مسلم في النسخة وأبو داود في الزكاة . واحد في السند .

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ
مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦)

ولكن ما هو السبب ؟ السبب أن أهل الكتاب والمشركيين لا يريدون خيراً للمؤمنين في دينهم ، لأنهم أحسوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في دينه خير مما جاء به موسى ويحيى إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وخير مما جاء به عيسى في زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن ننقص ما جاء به الرسل السابقون . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا في أزمانهم بخير مما وجد في هذه الأزمان . فكل رسالة من الرسالات التي سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جاءت لقوم محددين ولزمن محدد . . ثم جاء نبي جديد ينسخ ما في الرسالة السابقة لقوم محددين وزمن محدد . وقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بني إسرائيل كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَحِثُّكُمْ
بِقِيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَطِيعُونَ ﴾ (١٦)

(سورة آل عمران)

فكان عيسى عليه السلام جاء ليسخ بعض أحكام التوراة . ويحل لبني إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله ؛ لأن دينه ليعالين وياق إلى يوم القيامة

وهكذا يرى أن المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول جديد كانوا ينتقلون من خير إلى خير . وبما تنصق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلى مثل هذا الخير . . وذلك فيما

يتعلق بالعقائد ، وإلى ريادة في الخير فيما يتعلق بمنهج الحياة . هناك في رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول وهي قضية الإيمان بالله وبحد أحد له الكمال المطلق . سبحانه في ذاته ، وسبحانه في صفاته ، وسبحانه في أفعاله . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . ولكن الحياة في تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجعة في العصر الذي سبق . فإذا قلنا إن رساله بقيمتها العقائدية تبقى . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التي ستأتي بها العصور التي بعدها فيما عند الإسلام . لأنه جاء في حاتم لا يتخير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٢)

(سورة النور)

نقول إن هذا يأتي في شيء واحد . يتعلق بالأمر الثالث في رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد . أما فيما يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاما في هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أمية يعالج بها قضايا لم تكن موجودة في عهد الرسل السابقين

بقول الله تبارك وتعالى : « ما نسخ من آية أو نسخها » . . كلمة نسخ معناها يريل آية كانت موجودة ونأن بأية أخرى بدلا منها . كما يقال سحبت الشمس الظل . . أي أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحوته وحلت في مكانه ويقال سحبت الكتاب أي نقلته إلى صور متعددة ، وسخ الشيب الشباب أي أصبح الشاب شيخا .

وقوله تعالى « نسخها » لها معان متعددة . قد يعني ذلك أن الله يحمل الإنسان سهو ويغفل عنها . . فتصبح من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها . والعلماء يختلفوا في

هذه المسألة .. وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق ..

فإن للنسخ في القرآن الكريم .. قوم قالوا لا نسخ في القرآن أبدا .. لماذا ؟ لأن النسخ بدهاء على الله .. ما معنى البدهاء ؟ هو أن تلقى بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم .. وهذا عمل بالنسبة لله سبحانه وتعالى .. نقول لهم طبعاً هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى .. ولكننا نقول إن النسخ ليس بدهاء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجرء بحكم آخر .. ونقول لهم ساعة حكم الله الحكم أولاً فهو سبحانه يعلم أن هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه ثم يحل مكانه حكم جديد .. ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج .. وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعديل الله من الحكم .. إن هذا غير صحيح .

لماذا .. لأنه ساعة حكم الله أولاً كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة .. ثم بعد ذلك ينسخ أو يعدل بحكم آخر إذن فالمشرع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس أنه سينتهي وسيحل محله حكم جديد ..

وليس هذا كواقع ابشر .. فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع .. لأنه ساعة وضع الناس الحكم عدلوا أشياء ونظمت عنهم أشياء .. فجاء الواقع ليظهر ما خفى وأصبح الحكم لا بد أن ينسخ أو يعدل .. ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك .. أمر الله جعل الحكم موقوتاً ساعة جاء الحكم الأول .

مثلاً حين وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس .. أكانت القضية عند الله أن القبلة تبقى إلى بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة ؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلى الكعبة ؟ لا .. لم تكن هذه هي الصورة .. ولكن كان في شرع الله أن يتوجه المسلمون أولاً إلى بيت المقدس فترة ثم يعدل ذلك ليتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ..

وإنما كان في عبده وفي شرعه أنه سيعبر القنطرة بعد فترة إلى الكعبة . . ولعل لذلك هدفاً إيمانياً في أن السجدة في الأمور هي أنها من الله . فالانحياز إلى بيت المقدس أو الانحياز إلى الكعبة لا يكلف المؤمنين جهداً إيمانياً إضافياً ولا يصح عليهم تكاليف جديدة . فالجهد نفسه الذي أبدله للانحياز إلى الشرق أبدله للانحياز إلى الغرب ولكن الاحتراز الإيماني أن يكون علة الأمر أنه صادر من الله . فإذا قال الله انحياز إلى بيت المقدس إنحيازاً . فإن قال انحياز إلى الكعبة انحيازاً . ولا قدسية لشئ في ذاته . . ولكن القدسية لأمر الله فيه

والله سارك ونعالي حين أمر الملائكة أن يسجدوا لأدم لم يسجدوا لذات أدم ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لأدم . والله سبحانه ونعالي احتذر الكعبة المشرفة بعبادته ومجدداته في الأرض . واتحدت الكعبة مقامها العالي عند المسلمين ليس لأنها بقعة في مكان ما جاءها إبراهيم والأبياء وجمع إليها الناس ، ولكن مقامها جاء من أنها هي بيت الله باختيار الله لها . وكل مساجد الأرض هي بيوت الله باختيار خلق الله . ولكن المسجد الوحيد الذي هو بيت الله باختيار الله هو الكعبة . ولذلك كان لابد لكل المساجد التي هي باختيار خلق الله . أن تتجه إلى المسجد الذي هو باختيار الله . . ونكسر العلة الإيمانية الكبرى هي أن يزعم أن صدور الأمر من الله هو الحجة لاتتبع هذا الأمر دون أن تبحث عن أسسه النبوية

فإذا قال الله سبحانه ونعالي الصلاة خمس مرات في اليوم . فدون أن تبحث عن السبب أو تقول لماذا خمسة ؟ فلسفص منها . . دون أن تعمل ذلك يصل خمس مرات في اليوم وليس أن الله قال ، وهكذا الركعة ، وهكذا الصلوة وهكذا الحج كلها تتم طاعة لله . وهكذا تغيير العلة تتم خضوعاً للطاعة الإيمانية لله . . فلو كان موجود في كل مكان . فلا يأن أحد ليقول لماذا الكعبة ؟ وهل الله ليس موجوداً إلا في الكعبة ؟ نقول لا إنه موجود في كل مكان . ولكنه أمراً أن نتجه إلى الكعبة ونحس لا نتجه إليها لأنها معتقد أن الله تبارك ونعالي موجود في هذا المكان فقط ولكن طاعة لأمر الله الذي أمراً أن نكون قلوبنا إلى الكعبة

ولعل تعبير القنطرة يعطينا فلسفة سحر الآيات . لماذا ؟ لأنه لم توجد أية ظروف أو تهدد ومائع ، أو تظهر أشياء كانت حجة تجعل الانحياز إلى بيت المقدس صعباً أو محوطاً بالمشاكل أو غير ذلك ، ولكن تعبير القنطرة جاء هنا لأن الله سبحانه ونعالي شاء أن يتوجه المسلمون إلى بيت المقدس فردد ثم يتوجهوا إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فكل آية نسخت كان في علم الله سبحانه وتعالى أنها ستطبق لفترة معينة ثم بعد ذلك ستعدل . وكان كل من الحكم الذي سيسخ ، والوقت الذي سيستغرقه ، واحكم الذي سيأتي بعده معلوما عند الله تبارك وتعالى ومقررا منه الأزل وقبل بداية الكون . . وأيضاً فإن الله أراد أن يلفتنا بالتوجه إلى بيت المقدس أولاً . لأن الاسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الاسلام . وأنه لا يمكن لأحد أن يدعى أن المسلمين لن يكون لهم شأن في بيت المقدس ، لذلك أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله صل الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . . ليثبت أن لبيت المقدس قداسة في الإسلام وأنه من المقدسات عند الله . . ومن هنا كان التوجه إلى بيت المقدس كقبلة أولى ، ثم نسخ الله القبلة إلى الكعبة . . فالحق جل جلاله يقول : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . . أي أن النسخ يكون إما أن يأتي الله سبحانه وتعالى بخير من هذه الآية أو يأتي بمثلها . وهل الآية المنسوخة كان هناك خير منها ولم ينزله الله ؟ نقول لا . المعنى أن الآية المنسوخة كانت خيراً في زمانها . . واحكم الثاني كان زيادة في الخير بعد فترة من الزمن . كلاهما خير في زمه وفي أحكامه . . والله تبارك وتعالى أول الآية الكريمة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاتُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُوتُوا ءِلَآ وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ١٧٧﴾

(سورة آل عمران)

ولكن من يستطيع أن يتق الله حق تقاته . . ذلك صعب على المسلمين . . ولذلك عندما نزلت الآية قالوا ليس منا من يستطيع أن يتق الله حق تقاته . . فنزلت الآية الكريمة :

﴿فَإِنَّمَا أَفَعَاءَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَتَمِعُوا وَأَلْبِعُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ ؕ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٨٠﴾

(سورة التفاضل)

الذي يتق الله حق تقاته خير ، أم الذي يتق الله ما استطاع ؟ طبعاً حق تقاته خير من قدر الاستطاعة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « نأت بخير منها » . .

نقول إنك لم تفهم عن الله . . « اتقوا الله حق تقاته » في الآية الأولى أو « فاتقوا الله ما استطعتم » في الآية الثانية . . أي الحاليتين أحسن ؟ يقول إن العبرة بالنتيجة . . عندما تريد أن تقيم شيئا لأبد أن تبحث عن نتيجة أولا

ولتقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلا والله المثل الأعلى . . نفرض إن هناك تاجرا يبيع السلع بربح خمسين في المائة . ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر في المائة . . ماذا يحدث ؟ سيقبل الناس طبعاً عن ذلك الذي سيعتبر بربح خمسة عشر في المائة ويشتررون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذي يبيع السلع بربح خمسين في المائة يحقق ربحاً أكبر . ولكن الذي يبيع بربح خمسة عشر في المائة يحقق ربحاً أقل ولكن بزيادة الكمية المباعة . . يكون الربح في النهاية أكبر .

والذي يطبق الآية الكريمة « اتقوا الله حق تقاته » يحقق حيراً أكبر في عمله . ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حق تقاته إلا في أعمال محدودة جداً .

إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذي تنطبق عليه الآية محدود .

أما قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة . . ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان لأجر عليها أقل .

عندما نأتي إلى النتيجة العامة أعمال أحرها أهل ولكنها قليلة ومحدودة جداً . وأعمال أحرها أقل ولكنها كثيرة . . أيها فيه الخير ؟ طبعاً الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل في مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

إذن فقد سبخت هذه الآية في هو خير منها . رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة . . ولكن في المحصلة العامة الخير في الآية التي نصت على الاستطاعة .

نأتي بعد ذلك إلى قوله تعالى : « أو بفيلها » هنا توقف بعض العلماء : قد يكون مفهوماً أن يسبح الله آية بحير منها ، ولكن ما هي الحكمة في أن يسبحها بمنزلها ؟ إذا كانت الآية التي نسخت مثل الآية التي جاءت . . فلماذا تم السح ؟

يقول إتنا إذا صر بنا مثلا لذلك فهو مثل تغير القبلة . . إن الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس نسخ آية بمثلها . . لأن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن آية مشقة أو زيادة في التكليف . . فالإنسان يتوجه ناحية اليمن أو إلى اليسار أو إلى الأمام أو إلى الخلف وهو نفس الجهد . . والله سبحانه وتعالى كما قلنا موجود . . وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التي تحدثنا عنها وأن هناك أعمالا تقوم بها لأن الله قال . . وعلمه تأتي في العبادات لأن لعبادة هي طاعة عابد لأمر محبوب . والله تبارك وتعالى يريد أن تثبت العبودية له عن حب واختيار . . فإن قال اعملوا كذا فعننا . . وإن قال لا تفعلوا لا تفعل . . ولعلنا في هذا أننا نريد لاختياراً أن نجعل مرادنا في الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى . . إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت لحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول . « أو أنسيها » ما معنى نسيها ؟ قال بعض العلماء إن النسخ والسيان شيء واحد . ولكن سادة قال الله الحكيم الأول كان في إرادته ومشيئته وحلمه أن يأتي حكم آخر بعد مدة . . ساعة جاء الحكيم الأول ترك الحكيم الثاني في مشيئته قدرا من الزمن حتى يأتي مرعد نزوله .

إذن فساد ما يأتي الحكيم الأول . . يكون الحكيم مرجا ولكنه في علم الله . يتظر انقضاء وقت الحكيم الأول : « ما نسخ من آية » هي الآية المنسوخة أو التي سيتم عدم العمل بها : « أو نسيها » . أي لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحي مع انها موجودة في علمه سبحانه . . ويجب أن ننتبه إلى أن النسخ لا يحدث في شيتين :

الأول: أمور العقائد فلا تسخ آية آية أخرى في أمر العقيدة . . فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . فإله سبحانه واحد أحد لا تغير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قائمة والملائكة يقومون بهمهم . . ولكن ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبدا . .

والثاني: الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة . . لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع . . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . . فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تسخ

بعد ذلك وتروى بضايفل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت . . إذن لا نسخ في العقائد والإخبار عن الله . ولكن النسخ يكون في التكليف . . مثل قول الحق تبارك وتعالى

﴿ بَنَاتِيَا الَّذِي حَرَّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ حِشْرٌ فَهُمْ عَلَى مَا هُمْ بِمَعْلُومٍ ﴾
 ﴿ مَا تَشَاءُ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْعَمَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾
 (سورة الأنفال)

كأن المفيس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقبل عشرة من الكفار ويغلبهم . ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين وبذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا . . فترلت الآية الكريمة :

﴿ أَلْعَنَ حُفَّ اللَّهِ عَنْكَ وَعَلِمَ أَنْ فَيْكُرَ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَارُوا يَغْلِبُوا ﴾
 ﴿ مَا تَشَاءُ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾
 (سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف . لذلك لم يستطع الواحد منهم أن يقاتل عشرة ويغلبهم . فتملأها إلى خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يغلب المؤمن الواحد اثنين من الكفار . وهذا حكم لا يدخل في العقيدة ولا في الإخبار . . وفي أول برول القرآن كانت المرأة إذا رت وشهد عليها أربعة يسكنونها في البيت لا تخرج منه حتى تموت . . وقرأ قوله تعالى .

﴿ وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَامْسَحُودًا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةُ مَنَكُرٍ فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسَحُودًا فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾
 (سورة النساء)

وبعد أن شاع الإسلام وامتلات النفوس بالإيمان .. نزل تشريع جديد هو الرجم
أو الجلد .. ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثاني في علم الله .. وهذا
ما نفهمه من قوله تعالى : «أو يحمل الله لمن سيلا» .. وقوله سبحانه :

﴿فَاعْتَبِرُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى حتى يأتي الله بأمره .. كلن هناك حكما أو أمرا في علم الله سيأتى
ليعدل احكام الموجود .. إذن الله حين أهلكنا بالحكم الأول أعطانا فكرة .. ان هذا
الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل .. بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله
من الحكم الأول .. ومن عظمة الله أن مشيئته اقتضت في المبراث أن يعطى الوالدين
الذين بلغا أزدل العمر فقال جل جلاله :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرَ الْوَرِثَةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا جعلها في أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا .. لماذا ؟ لأن الإنسان إن مات
فهو الحلقة الموصولة بآبيه .. أم أبنته فحقة أخرى .. ولما استقرت الأحكام في
الموس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله .. جعل سبحانه المسألة مرصا .. ليستوفى
الحكم .. ويقول جل جلاله ..

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي تَوَلَّيْتُمْ لِلْكَرْمِ مِثْلُ حَبِّ الْأُنثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ الْاِثْنَيْنِ
فَهُنَّ نِصْفُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
الْأُشْدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ
فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ

«أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾»

(سورة النازعات)

وهكذا بعد أن كان نصيب الوالدين في تركة الابن وصية . إن شاء أوصى بها وإن شاء لم يوصَ أصبحت فرسا . . وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » . . أى كل شيء يدخل في إرادة الله وقدرته سبحانه . إذا قلنا إذا جاء الله بحكم لعصر فهذا هو قمة الخير . لأنه إذا عدل الحكم بعد أن أدى مهمته في عصره ، فإن الحكم الجليل الذي يأتي هو قمة الخير أيضا . لأن الله على كل شيء قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه . ولذلك فمن عظمة الله انه لم يأت بالحكم خيرا من عنده ولكنه أشرك فيه المحاطب . . فلم يقل سبحانه « إن الله على كل شيء قدير » . . ولكنه قال : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » . . لأن واثق أن كل من يسمع سيقول نعم . وهذا ما يعرف بالاستغمام الإنكارى أو التفريدى .



﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧)

ويعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات سمعت في القرآن . . أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في كونه يفعل ما يشاء . . ولذلك بدأ الآية الكريمة : « ألم تعلم » . . وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكاري أو التقريري . . لأن السامع لا يجد إلا جواباً واحداً بأنه يقر بما قاله الله تبارك وتعالى . ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق

قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » . . الملك يقتضي مالكا ويقتضي مملوكا . . ويقتضي قدرة على استعمار هذا الملك وهدم زواله . . فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدر . . والإنسان ليست له قدرة التملك ولا القدرة على استبقاء ما يملكه . . والإنسان لا يملك الفعل في الكون . . إن أراد مثلا أن يبنى عمارة قد لا يجد الأرض . . فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذي يبنى . . فإن وجدته قد لا يجد مواد البناء . . فإن وجد هذا كله قد تأن الحكومة أو القرفة وتمنع البناء على هذه الأرض . . لو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام المضايح ولا يتم البناء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » . . أي أن كل شيء في الوجود هو ملك لله وهو يصرف بقدرته فيما يملك . . ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . كان اليهود يملكون المال وطعم معرفة بعض العلم النبوي لذلك سادوا المدينة . . ويدلوا بمكروهم برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . والله تبارك وتعالى طمأن رسوله بأن طلاقة القدرة في الكون هي لله وحده . . وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يلوم لأن الله يتزع الملك عن

يشاء ويعطيه لمن يشاء . ولدنك حينها بأن يوم القيمة وتلك الله الأرض ومن عليها . يقول سبحانه :

﴿ لِمَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول :

﴿ هَـ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ومادام الله هو المالك وحده . . فإن يستطيع أن يتزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها مملكونه . . ويحدثنا العلماء أن العسس وهم الجنود الذين يسيرون ليلاً لتعقد أحوال الناس وجدوا شخصاً يسير ليلاً . فلما تقدموا منه جرى فحروا وراءه إلى أن وصل إلى مكان خرب ليستريحه . تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة قتيل في المكان . . فقالوا له أنت انقائل لأنك جريت حين رأيتنا ولأنك موجود الآن في المكان الذي فيه جثة القتيل . فأخبروه ليحاكموه فصل لهم أهلوا لأصل ركعتين لله . . فأمرهم فصل ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على برأئي إلا أنت . . وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك في نفسك . . فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل فقال . . أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بعجرتي . فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بعجرتك ولم يرك أحد ولم يتهمك أحد . . فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لساق بما قلت . . فلما أقر القاتل بما فعل وقام إلى القاتل وهو أبوه فقال . اللهم إني أشهدك إني قد أعصيت قاتل ابني من ديه وقصاصه .

انظر إلى صلاحية قدرة الحق سبحانه وتعالى القاتل أراد أن يخنفي ولكن أنظر إلى دقة السؤال من السائل أو المتهم البريء . وقد صل ركعتين لله . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حاربنا أمر قمنا إلى الصلاة فليس أمامنا إلا هذا الباب . . وبعد أن صلى سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد برأئي أحد إلا أنت فأسألك ذلك في نفسك وبعد ذلك كان ما كان .

وهذه القصة تدلنا على أننا في قضية الله . أردنا أو لم نرد . بأسباب أو بغير أسباب . لماذا ؟ . لأن الله له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير . وقوله تعالى : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » . الولي هو من يواليك ويحبك . والنصير هو الذي عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولي . . الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم وليٌ ونصير أي محب وأنصركم على من يعاديكم



﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ
مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ الْإِيمَانِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ١٨

ثم ينقل الحق جل جلاله اسلمين بعد أن بين مع أنه وليهم ومصبرهم .. ينقلهم
إلى سلوك أهل الكتاب من اليهود مع رسلهم حتى يتعاملوا مثل هذا السلوك فيقول
حل حلال « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » الحق
يقول للمؤمنين أم تريدون أن تسألوا رسول الله كما سأل اليهود موسى . ولم يشأ
الحق أن يشبه المسلمين باليهود فقال . « كما سئل موسى من قبل » . وكان من
الممكن أن يقول أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى .. ولكن الله لم
يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهذا تكريم من الله
للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود .. وقد سأل اليهود موسى عليه السلام
وقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم

﴿ بِسْأَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ
مِنْ ذَلِكَ قَالُوا أَرِنَا آيَةَ جَهَنَّمَ فَخُذْهُمْ أَصْحَابُهُمْ ثُمَّ أَخَذُوا آلِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَيْتِهِ
مَلِجَاءَهُمْ أَبْهَتْ فَقَوَّاهُ عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مِيقَاتٍ ﴾

(سورة هود)

وقد سأل أهل الكتاب والكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروى لنا
القرآن الكريم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ مِيقَاتٍ ﴾ (سورة الإسراء)

﴿ أَوْ نَسْفِطُ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّيْلِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ١٤ ﴾
 أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُنُوفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ بِرُفُوكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ
 عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ١٥ ﴾

(سورة الإسراء)

الله تبارك وتعالى يهيب بالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . كي
 سألَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْكَافِرُ ويقول لهم ان اليهود قد سألوا موسى أكبر من ذلك . .
 فبعد أن رَأَوْا الْمَعْجَزَاتِ وَشَقَّ اللَّهُ الْبَحْرَ لَهُمْ . . وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة
 فلم تكن خافية صهم . بل كانت ظاهرة لهم واضحة . . دالة دلالة دامغة على
 وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظم قدراته . . ورضم هذا فإن اليهود قالوا لموسى لن
 نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً . . أى لم تكفهم هذه المعجزات . . وكأنما كانوا
 يماشيهم يريدون أن يروا في حياتهم الدنيوية من لا تدركه الأبصار . . وبمجرد أن
 عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنما يعبدونه وعبدوا العجل رغم كل الآيات
 التي شاهدوها .

وقوله تعالى : « ومن يتبدل لكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » . . قلنا ان
 الباء في قوله تعالى : « بالإيمان » تدخل دائما على المتروك . . كأن تقول اشترت هذا
 بكذا درهم . . يعنى تركت الدراهم واتخذت البضاعة . . ومعناها أن الكفر مأخوذ
 والإيمان متروك . . فقد أخذ اليهود الكفر وتركوا الإيمان حين قالوا لموسى : « أرنا الله
 جهرة » . . ونوله سبحانه : « فقد ضل سواء السبيل » .

ما هو الضلال ؟ . . هو أن تسلك سبيلا لا يؤدي بك إلى خاتمك . . « وسواء
 السبيل » . . سواء هو الوسط . . « سواء السبيل » . . هو وسط الطريق . . والله
 تبارك وتعالى يقول :

﴿ فَاطْلَعْ فَلَوْ أَنِّي سَوَّاءُ الْجَحِيمِ ١٦ ﴾

(سورة الصافات)

أى فى وسط الجحيم . . أى أنه يكون بعيدا عن الحافتين بعدا متساويا . وسواء الطريق هو وسطه . . والسبيل أو الطريق كان قبل استخدام التكنولوجيا الحديثة تكون أطرافه وعرة من جس الأرض قبل أن تهد . . أى لا تصحح للسير . ولذلك فإن السير فى وسط الطريق يبعدك عن المتاعب والصعوبات ويريد الله من المؤمنين به أن يسيروا فى الطريق المهد أو فى وسط الطريق لأنه أكثر أمانا لهم . . فهم فيه لن يضلوا، يمينا ولا يسارا بل يسيروا على منهج الله والإيمان . . وطريق الإيمان دائما مهد لا يقودهم إلى الكفر



﴿هُدًى كَثِيرًا مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِيْلَ الَّذِي يُؤْتِيهِمْ مِّنْ بَعْدِ
إِيمَانِهِمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ
لَهُمُ الْحَقَّ فَأَعْرِضُوا وَأَصْغَوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨)

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثا وقعت بعد غزوة أحد .. ول غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من الرماة ألا يغادروا مواقعهم عند سفح الجبل سواء انتصر المسلمون أو انهزموا .. فلما بدأت بوادر النصر طمع الرماة في الغنائم .. فحالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهزمهم الله .. ولكن الكفار لم يحفظوا نصرا لأن النصر هو أن تحتل أرضا وتبقى .

هؤلاء الكفار بعد المعركة نطلقوا عائدين إلى مكة . حتى أن المسلمين عندما خرجوا للغنائم في اليوم التالي لم يجدوا أحدا . يهود المدينة استغلوا هذا الحدث .. وعندما التقوا بحليفة بن البيان وطارق وغيرهما .. قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقا لماذا إنهزتم فارجعوا إلى ديننا واتركوا دين محمد .. فقال لهم حليفة ماذا يقول دينكم في نقض العهد ؟ .. يقصد ما نقوله التوراة في نقض اليهود ويعهودهم مع الله ومع موسى .. ثم قال أنا لن أنقض عهدي مع محمد ما حييت .. أما عمار فقال .. لقد آمنت بالله ربا وآمنت بمحمد رسولا وآمنت بالكتاب إماما وآمنت بالكعبة قبلة وآمنت بالمؤمنين إسخرة وسأظل على هذا ما حييت

ويبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حليفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث في أحد ليهزوا العقيدة الإيمانية في قلوب المسلمين كي استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليهزوا الإيمان في القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا انهزمت إليها ، وإذا كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فتزل قول الله تعالى : ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم .

انظر إلى دقة التعبير القرآني في قوله تعالى : « من أهل الكتاب » .. فكان بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم .. ولكن كانت هناك قلة تفكر في الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب بسد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا .. أي أن أهل الكتاب من اليهود يحسون أن يردكم عن دينكم هؤلاء هم الكثرة .. لأن الله تعالى قال : « ود كثير من أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : « من بعد إيمانكم كفاراً » . كفاراً لماذا ؟ .. بما آمنتم به أو بما يطلبه منكم دينكم .. وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : « حسداً من عند أنفسهم » . لديهم يأمرهم بعكس ذلك . يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك فهم لا يتقبلون ما تأمرهم به التوراة جميعاً يرفضون الإيمان بالإسلام .. والذي يدعوهم إلى أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد . والحسد هو تمنى زوال النعمة عن تكرر .. وقوله تعالى : « حسداً من عند أنفسهم » . أي هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان .. ويتصورون زوال هذه النعمة .. التي جعلت من أسلمين إخواناً متحابين متكاتفين مترابطين .. يسى هم شيع وأحزاب .. وهناك حسد يكون من منطق الدين وهذا مباح .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسلط على ماله في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس »^(١)

فكان الحسد حرام في غير هاتين الحالتين .. فكان هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم . وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تفره التوراة ولا كتبهم .. وقوله سبحانه : « من بعد ما تبين لهم أنه الحق » .. أي بعد ما تأكدوا من السورة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الحاتم .

وقوله تعالى . « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » .. ما هو العفو وما هو الصفح ؟ . يقال عفت الريح الأمر أي مسحته وأزالته .. فالإنسان حين

(١) رواه البخاري في العلم ومسلم في قصر الصلاة وبين ما في الركعة واحد في مسنده .

تمشي على الرمال ترك قدمه أثرا فتأني الريح وتغفو الأثر أي تزيله . . ولذلك فإن
العمو أن نحو من نكسث أثر أي إصاعة وكأنه لم يحدث شيء . . والصغح يعني طوى
صفحات هذا الموضوع لا تمعه في بالك ولا تجعله يشعلك . . وقوله تعالى : « حتى
يأتي الله بأمره » . . أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين لن يستمر
لأن الله سبحانه قد أهد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه . . وعندما
يأتي سيتغير كل شيء . . لذلك يقول الله للمؤمنين لن تعلوا هكذا . . بل يوم
تأخذوهم فيه بجرائدهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا . . عندما يقول الله سبحانه :
« حتى يأتي الله بأمره » . . فلا بد أن أمر الله آت . . لأن هذه قضية تتعلق بجوهر
الإيمان كله . . فلا يقال أبدا حتى يأتي الله بأمره ثم لا يجيء هذا الأمر . . بل أمر الله
بلاشك نافذ ومينصركم عليهم . . وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » . .
أن الله له طلاقة القدرة في ملكه . . ولذلك إذا قال أنه سيأتي بأمر فيستحق هذا
الأمر حتما وسيتم . . ولا توجد قدرة في هذا لكون إلا قدرة الله سبحانه . . ولا قوة
إلا قوته جل جلاله . . ولا عمل إلا ما أراة .



﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أمانى أهل الكتاب أن يردوا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما السى يكرهه أهل الكتاب . . وقال إن الذى يتعبهم ميزان العدل والحق الذى تشبهه . . منهج الله سبحانه وتعالى . . ولسلت يأمر الله المؤمنين أن يثبتوا وتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم . . والتكليف الذى جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتا من الزمن وقليل من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإتياء الركعة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إن شهادة لا إله إلا الله تعالى مرة في العمر . . والركعة والصوم مرة كل عام . . والحج للمستطيع مرة في العمر . . ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطي المؤمن شعرة اليقين والإيمان ويأجله من دنياه بالله أكبر خمس مرات في اليوم . . وهذه هي العبادة التى لا تسقط أبدا . . والإنسان سليم والإنسان مريض . . فالمؤمن يستطيع أن يصل واقفا وأن يصل جالسا وأن يصل راقدًا . . وأن يجري مراسم الصلاة على قلبه . . لذلك كانت هذه أوصىة تذكر في قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى والفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة . . وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله . إقبال في ساعة معلومة لتضمر أمانة سبحانه وتعالى وتكونوا في حضرته يعطيكم الله المجد . . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى)^(١) .

ومعنى حزبه أمر أى ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجا ولا طريقا إلا أن يلجأ

(١) رواه أحمد وأبو داود من سلسلة من رواية . كان إذا حزبه أمر فرج إلى الصلاة .

إلى الله .. إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصل ركعتين غير الفريضة .. ثم يلحظ ما يشاء فيفرج الله كربه .. إذن : « فأتبعوا الصلاة » هي الرد المناسب على كل محاولاتهم ليسلبوكم دينكم .. ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الرلاء الإيمان لله كل يوم خمس مرات .. نترك كل ما في الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة .. إنها عباد الدين وأساسه .

وقوله تعالى : « وآتوا الزكاة » .. ابتداء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك .. فكأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نصرب في الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد .. وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الاقتصادية التي يستغلون بها المسلمين .

فالؤمن حين يأخذ الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره .. ولذلك حتى الفقير يجد في الزائد في أموال المسلمين ما يكفي حاجته .. فلا يذهب إلى اليهودي ليفترض بالربا .. ولذلك فله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون .. بحيث تكفى أمواهم عنيتهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما نقصت صلقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)^(١) .

وقد سميت « الزكاة » لأنها في ظاهرها نقص وفي حقيقتها زيادة .. والربا ظاهره زيادة وحقيقته نقص .. وفي ذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَزِيدُ الصَّدَقَاتِ ﴾

(من الآية ٢٧٦ سورة البقرة)

ثم يقول الحق سبحانه : وما تقدموا لأنفسكم من خير نجعله عند الله .. إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هي ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى .. فإذا

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة .

صلى فله أجر وإذا ركن فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منهج الله له أجر . وليس أجرا بقدر العمل ، بل أضعاف العمل .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْنِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف أن كل حركة في منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى . ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة .. وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه .. ولذلك فهو ليس مضاعف فقط في عدد المرات ولكنه مضاعف في القدرة أيضا .. فكان كل إنسان غير مؤمن لا أجر له في الآخرة .. وإذا أعطى في الدنيا يُعطى المثل ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باقٍ وع خالد .

والخير الذي تفعله من تدبره عندك أو عند من قد يكره . ويقول لا شيء لك عسى ولكن الله سيدجره لك . فانظر إلى الإطمئنان والعمل في يد الله الأمانة ، وفي مشيئة التي لا يغل عليها شيء ، وفي قدرته التي تضاعف أضعافا مضاعفة .. ونجد في الموت الذي تكون في أحوج اللحظات إليه وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِصِيرَةٍ » أي لا تعتقد أن هناك شيئا يحسم على الله ، لو أن أحدا يستطيع أن يجحد الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شيء .. ليس بالظاهر منك فقط .. ولكن بما تخفيه في نفسك ولا تطيع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شيء واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ رَبِّمَا يَكُنْ تَعْلَمُ مَا تَخَيَّرَ وَمَا تَخَيَّرَ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾

(سورة إبراهيم)

وهكذا نطمئن إلى أن الله بصير بكل شيء ، وانظر إلى قوله جل جلاله : « يَعْمَلُونَ » لتعلم أهمية العمل .

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل في مسيح الله له أجر ، وأجر باق وثابت ومصاعف عند الله ومحفوظ بقدرة الله سبحانه أراد أن يرد عن ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثبروا اليأس في قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط عليهم ينصرفون عن الإسلام . . لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما افتروه .

وإقرأ قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » . وفي هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى . ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا » وقالت النصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان نصري » . . والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض في آية ستان في قوله تبارك وتعالى :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبِستِ النَّصْرِيَّ عَنْ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيَّ لَبِستِ الْيَهُودَ عَنْ شَيْءٍ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ومعنى ذلك أنهم تناقضوا في أقوالهم ، فقالت النصارى : إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه ثم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . . ثم قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

ويقول النس إذا كنت كذوباً فكن ذكورا ، ذلك أن الذي يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تهمد أن المحقق أو القاضي يظل يسأل

التهمة أمثلة مختلفة .. حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب .. ثابته إذا رويت الواقعة كما حدثت فإنك تروينا مرة دون أي خلاف في التفاصيل. ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك .. والله سبحانه وتعالى يقول : « تلك أمانتهم » .. ما هي الأمان ؟ هي أن تعلق نفسك بأمنية وليس هذه الأمانة سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمانة .. ولكن إذا كان التمني قائما على عمل يوصلك إلى تحقيق الأمانة فهذا شيء آخر .

بعض الناس يقول التمني وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس .. فقد نرتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب ونعيش أينا في نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية .. نقول إن الصدقة التي مستحقها بالإنسان بعد ذلك ستدمره .. ولذلك لا يكون في الكذب أبدا راحة . فأحلام اللفظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهي لا تعطي الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة . ولذلك يقول الشاعر :

مَنْ إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ لِلَّيِّ وَلَا تَقْضُ عِشْمًا بِهَا زَمَنَ رَغْدًا

يعني الأمان لو كانت حقيقة أو تستند إلى حقيقة فإنها أحسن الأمان لأنها تعيش معك .. فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا

أمان من ليل حسان كأنما سقتنا بها ليل على طبا بردا

وقوله تعالى : « تلك أمانتهم » تبيّن لنا أن الأمان هي مطمع الحمقى لأنها لا تتحقق .. والحق سبحانه يقول : « قل هاتوا برهانكم » .. ما هو البرهان ؟ البرهان هو الدليل .. ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه في جدال وانتقلت وجهات النظر بينك وبينه .. ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكدا أن محدثك كاذب .. وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه .

هـب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له .. وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا .. في هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل .. (فالكميالة) التي

كتبها له أو الشيك أو إيصال الأمانة . وأضحى الإيمان أن تطلب منه شهيدا على أنك أحدثت منه الدال . ولكن قبل أن تعالجه بالدليل يجب أن تكون ونفا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنت لم تأخذ منه شيئا .

إذن فقول الحق سبحانه : « هاتوا برهانكم » . . كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون . . وأهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل . . فمن يجنوا في كتب الله ولا في كلام رساله ما يؤكد ما يدعون . وإن أضافوه يمكن هذا افتراء عن الله ويمكن هناك الدليل الدامع على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من افتراءاتهم

إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه . . ولو كان هناك برهان ولو كان في هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة . ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل

إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون ، لأنك رددت الأمر إليه فيها يدهيه . وهو يجب أن يشته ويفعل كل شيء في سبيل الحصول على برهان . ولا يمكن أن يقول الله : « هاتوا برهانكم » إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون . ولذلك قال : « إن كنتم صادقين » . أي إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح ، لأن الله يعرف يقينا انكم تكذبون .



﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦)

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود ومطالبهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذي سيدخل الجنة . فقال : « بل » . . . وعلمنا قراء « بل » أعلم أنها حرف جواب ولا يد أن يسبقها كلام ونفى . . ساعة يقول لك إنسان ليس لي عليت دين . . إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين . . ولكن إذا قلت بل فذلك يعني أن عليه دين وأنه كاذب مما قاله . إذن بل تأتي جواباً لتثبت نفى ما تقدم .

هم قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » . . عندما يقول الله لهم بل فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح . وأنه سيدخلها غير هؤلاء . . وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى . أن كل يهودي وكل نصاري سيدخل الجنة . . لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينها جاء الإسلام بأن الذي لا يسل لا يدخل الجنة . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٠)

(سورة آل عمران)

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى . . أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى . . لأن القرآن أزل . . ما معنى أزل ؟ . . أي أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة . . فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى . . فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من أس بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان في هذا تجاوز . . لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وحاصره وانبعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمداً عليه الصلاة

والسلام .. فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله .. وهناك من النصارى من آمن بجميع وقت حياته .. وعاصره ونفذ تعاليمه ومنتججه ثم مات قبل أن يثبت محمد عليه الصلاة والسلام .. أهذا لن يدخل الجنة ؟ .. لا .. يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء .. ولكن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة .. بل ولن يراها .. ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

إذن فقوله تعالى : « بل من أسلم وجهه لله وهو محسن » .. أى لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن .. فقد أسلم واحد وجهه لله ويكون منافقا يظهر غير ما يظن .. يقول إن المنافقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين .. لأن هم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة في الحقيقة أوفى قلوبهم .

قوله تعالى : « من أسلم وجهه لله » تدلنا على أن كل شيء أسلم لله لأن الرجه هو أشرف شيء في الإنسان .. فيه التمييز وفيه السمة وفيه التشخص وهو أهل ما في الجسم .. وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أى حيوان مفكر .. وقال بعضهم حيوان مستوى الفأمة يعنى قامته مرفوعة .. والفأمة المرفوعة على بقية الجسم هي الوجه .. والإنسان مرفوع على بقية أجسام الأرض .. إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه .. فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شيء فيه لله .. ولذلك قيل .. أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد .. لماذا ؟ .. لأنه جاء بالوجه الذى رفعه الله به وكرمه .. وجعله مساويا لقلبه لىسوى أكمل شيء فيه بأدنى شيء .. فلم يبق عنده شيء يختال به على الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « فله أجره عند ربه » .. كلمة «أجره عند ربه » .. حلت محل أن الله لم يجعلنا مقهورين .. ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين لن نفعل أو لا نفعل .. فإن فعلنا فلنا أجر .. ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فالمتلقى أن يكون الأجر عند الله .. وألا يوجد خوف أو حزن .. لأن الخوف يكون من شيء سيئ .. والحزن بأن على شيء قد وقع .. ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرتنا عند ■ .

ان لإنسان حين يكون له حق عند مسويه . . فربما يخاف أن يكر المساوي هذا الحق أو يطمع فيه ، أو يحتاج إليه فيدعى عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . ولذلك فهو لا يطمع فيما في أيديهم من خير لأنه من عبده . . ولا يطمع فيما معاً من مال لأن عنده حرائر السموات والأرض .

الله سبحانه لا يكر حقاً من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا . . ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعف ويزداد . وما عند الله لا خوف عليه . لأن الإنسان يحزن إذا فاتته خير . ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تقوته . . فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات . ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . أتق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين في الآخرة . هم يكذبون فربما يجد عند الله لا خوف عندهم ولا خوف .



﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ۖ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ۖ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ١١٢

نقول إن أصح ما قاله اليهود والنصارى .. هو أن كل طائفة منهم اتهمت
الأخرى بأنها ليست على شيء .. فبالله اليهود ليست النصارى على شيء وقالت
النصارى ليست اليهود على شيء .. والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب .. اليهود
أهل كتاب والنصارى أهل كتاب .. ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان
له وبذلك تساوى مع المشركين .

الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء .. أي أن المشركين يقولون
اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. واليهود يقولون المشركون
ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :
« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. وبذلك أصبح لدينا ثلاث طوائف
يراجعون الدعوة الإسلامية .. طائفة لا تؤمن بمنهج مساوى ولا برسالة نبيه
وهؤلاء هم المشركون .. وطائفتان لهم إيمان ورسل وكتب هم اليهود
والنصارى .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون
مثل قولهم » .. أي الذين لا يعلمون ديننا ولا يعلمون إلها ولا يعلمون أى شيء
من منهج السماء .. اتحدوا فى القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحدا .

وكان المقروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من
الله ورسل جاءتهم لهداية .. كان من المقروض أن يتميزوا على المشركين ..
ولكن تسوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. وهذا معنى قوله تعالى :
« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. وسادست الطوائف الثلاث قالوا
على بعضهم نفس القول .. يكون حجم الخلاف بينهم كبيرا وليس صغيرا ..
لأن كل واحد منهم يتهم الآخر أنه لا دين له

هذا الخلاف الكبير من الذي يحكم فيه ؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذي يعلم كل شيء . وهو سبحانه القادر على أن يوصل بينهم بالحق . متى يكون موعد هذا الفصل أم الحكم ؟ أهول الدنيا ؟ لا . . فالديار دار اختبار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل في قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يوم القيامة وعلى مشهود من خلق الله جميعا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فالحق يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطيء من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة والطوائف الثلاث في إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . ويأتي الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه أصحابه بالعذاب .



﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى
فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام ، وكيف أن هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء ويواجه بعضها البعض باتهامات .. لكل طائفة منها تهم الأخرى أنها على باطل .. أراد أن يحلهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال : « ومن أظلم ممن منع مسجدا لله أن يذكر فيها اسمه » .. مسجدا لله هي الأماكن التي يتم فيها السجود لله .. والسجود علامة الخضوع وعلامة العبودية كما بنا .. لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعا لله وخشوعا له .

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصل أتباع أي دين إلا في مكان خاص بدينهم .. مكان محصن لا تجوز الصلاة إلا فيه .. ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجدا وجعلها طهورا .. ومعنى أن تكون الأرض كلها مسجدا هو توسيع على عباد الله في مكان التقائهم بربهم وفي أماكن عبادتهم له حتى يمكن أن تلتقي بالله في أي مكان وفي أي زمان .. لأنه لا يحدد لك مكانا معيناً لا تصح الصلاة إلا فيه .. وأنت إذا أردت أن تصل ركعتين لله بخلاف الفرض .. مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف .. أو أي صلاة من السنن التي علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإنك تستطيع أن تؤديها في أي وقت .. فكأنك تلتقي بالله سبحانه أين ومتى تحب .

وعاد الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بأن جعل لهم الأرض مسجدا طهورا قائما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(أُعْطِيتُ حِمَاً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصْرَتٌ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةٌ شَهْرٌ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجُداً وَطَهْرًا فَأَمَّا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فْلَيْصَلْ وَأَجَلْتُ لِي الْعَائِمَ وَلَمْ يَحْمِلْ لِأَحَدٍ قَبْلَ وَأُعْطِيتُ الشَّعَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَرِ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَرِ إِلَى النَّاسِ عَامَةً)^(١) .

ولكن لماذا حرص الله أمة محمد بهذه البعثة ؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا . كلما ارتقى العقل في علوم الدين كشف قوانين وتغلب على عفيات . . وجاه بمشكرات ومحترعات تقى عقول الناس . ونجدهم بعيدا عن الدين فيعدون الأسباب بدلا من حالي الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يحمل عبادتهم له مهيرة ذاتها حتى يحصمهم من هذه الفتنة . . وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض في نفس لحظة حدوثها . أن نسجد لله على نعمه التي كشف لنا عنها في أي مكان نكون فيه . فحاصلها العلاف الخوى موجودة في الكون منذ خلق الله السموات والأرض . لم يصمها أحد من خلق الله في كون الله هذه الأيام . . ولكنها خلقت مع خلق الكون . . وشاء الله ألا تترك وحدها ونستعملها إلا هذه الأيام . . فلماذا أن نسجد لله شكرا على نعمه التي كشفت لنا أسرارها في الكون لم تكن نعرفها . . وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقديرنا إلى قضائها الغيب .

فإذا قيل لنا أن يوم القيامة سبق خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب . . وإن كل واحد منهم سبى الحساب لحظة حدوثه . . لا نتعجب ونقول هذا مستحيل . لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن في منتهى الراحة . . ونحن جالسون في منازلنا أمام التليفزيون . . أي أننا نراها جميعا في وقت واحد دون جهد . فإذا كانت هذه هي قدرات البشر للبشر . فكيف بقدرات خالق البشر للبشر ؟ .

صنعنا بى أسرار هوابى الله فى كونه لا بد أن تسجد لتعظمه احلق سبحانه
 ومعالى ، الذى وضع كل هذا العدم والإعجاز فى الكون وهذا السجود يقتضى
 أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يكثر وأنت فى مكائك أن تسجد لله
 شكرا ولا تصطر للذهاب إلى مكرب آخر قد يكون بعيدا أو الطريق إليه شاق
 فيسببك هذا شكر الله وتسجد لله فإله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على
 المؤمنين بمرسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء برحمة ، لأن هناك أشبه
 بناتى الرسل المحمدية فى موعد كشفها لخلق الله وكلما تكشف سر من أسرار
 الوجود ، عثر الإنسان بنفسه وما دام العرور قد دخل إلى النفس لبشرية
 فلا بد أن يجعل الله فى الكون ما يعدل هذا العرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك فمن بعثه محمد صلى الله عليه وسلم كانت
الأمور فطرية عادية، استعنت الأمطار وبصت الميرون والآبار لم يكن أمامهم
ولا أن يتوجهوا إلى السماء بحالة الاستقاء وكذلك في كل أمر يصعب عليهم
مواجهته ولكن لأن بعد أن كشف الله لخلقه عن بعض أسره في كونه
أصبحت هناك أكثر من وسيلة يوجه بها الإنسان عدداً من أزمات الكون هذه
لوسائل قد جعلت الشر يقتضون أهم قادرون على حل مشكلاتهم . بعداً عن
الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة قد اعتمدوا على إخلال مدلاً من
لإعتماد على الحق . . . وبذلك يرون قول الحق سبحانه وتعالى

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ، كَتَبْنَا فِيهَا مِصْحَابَ الْمَصْحَاحِ فِي رُجَاةِ
 الرُّجَاةِ كَانَتْهَا كَوَكَّ قَدْرِي بُوْقْدُنْ مِنْ شَجَرَةٍ مُسَرَّكَهٖ رَيْشُونَةٍ لَّاشَرَفِيَّةٍ وَلَا عَرَبِيَّةٍ
 يَكَادِرُ بِهَا يَصِيٌّ وَتَرَاكَ تَمْسَهُ نُوْرٌ عَلَى مَوْجٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ، مَنْ يَسَاءُ
 وَيَصْرِفُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلْبَاسِ وَاللَّهُ يَكْلِي شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ فِي يَوْمٍ إِذْ قَالَ اللَّهُ أَلْأَنْ تَرْقِعَ
 وَيَذْكُرُ فِيهِ أَسْمُهُ ﴿٢١﴾

ما هي هذه البيوت التي يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى ؟ هي المساجد . فَمُحَمَّدٌ الْمَسْجِدُ وَرَوَّلَهَا الدَّائِمُونَ عَلَى الصَّلَاةِ فِيهَا هُمُ الَّذِينَ يَرُونَ نُورَ اللَّهِ . . فإذا أتى قومٌ يهتفون عليها ويهتفون أن يذكر اسم الله فيها . . معنى ذلك أن المؤمنين القائلين حل هذه المساجد ضعماء الإيمان ضعفاء الدين فخرأ عليهم أهدأزهم . . لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم من أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله . . أو أن يسمى إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة . ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتا من بيوت الله . . ييب الناس لمنعه والضرب من يده يكون الإيمان قويا . . فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم . . لماذا ؟ لأن الكافر الذي يريد أن يطمس مكان إشعاع نور الله خلفه . . يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يهتفوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخرّبوه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . . أي أن هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه . فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين فمعنى ذلك أن وازع الإيمان في نفوس المؤمنين قد ضعف .

قوله تعالى : « ومن أظلم » . . معناه أنه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . . أي أن هذا هو الظلم العظيم . . ظلم الأمة . . وقوله تعالى : « وسمى في خرابها » . . أي في لمزاتها أو بقائتها غير صالحة لأداء العبادة . . والسمى في خراب المسجد هو هدمه .

ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : « لهم في الدنيا خرى ولهم في الآخرة عذاب عظيم » . أي لن يتركهم الله في الدنيا ولا في الآخرة بل يصيبهم في الدنيا خرى . . والخرى هو الشيء القبيح الذي تكره أن يراك عليه الناس . . قوله تعالى : « لهم في الدنيا خرى » . هذا مطهر غيرة الله على بيوته . . وانظر إلى ما أودعهم الله في الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون في حراب مساجد الله . . لقد أحلت أموالهم وطردوا من ديارهم . هذا حدث . وهذا معنى قوله تعالى الخرى في الدنيا . . أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون

حسابها عسيراً لتطاولهم على مساجد الله سبحانه، ولكن في الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتحاملوا عن بصيرة دين الله ولدفاع عن بيوت الله .. سيكون لهم أيضاً عذاب أليم .

انني أحذر كل مؤمن أن يتحاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله في مساجده . لأنه في هذه الحالة يكون مرتكباً لديهم ظم وريماً أكثر .. ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار



﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَانْتُمْ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جراء الدين يخربون مساجد الله ويهلمون . .
ويصرون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذي ينتظرهم في الآخرة أريد أن يذكرنا بأن
تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد
وتحريها معناه أن تخرب الأرض كلها . ولأن الله تبارك وتعالى موجود في كل
مكان فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتحليات

وقوله تعالى : « فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ » أي هناك وجه الله . . وقوله تعالى : « وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . . أي لا تضيقوا بكان الغناء اتكم بربكم ، لأن الله واسع
موجود في كل مكان في هذا الكون وفي كل مكان خارج هذا الكون . . ولكن إذا
قال الله سبحانه وتعالى : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » لا يعني تحديد جهة ، لشرق أو
جهة الغرب فقط . ولكنه يمتدداها إلى كل الجهات شرقها وغربها
وجنوبها والشمال الشرقي والجنوب الغربي وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية لشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات محمد
بشرق الشمس وغروبها . . فهناك شمال شرقي وجنوب شرقي وشمال غربي
وجنوب غربي . . كما إن الشرق والغرب معروفان بمطرقة عند الناس فلا أحد
يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب . فأنتم كل يوم ترون شروقها وتري غروبها .

الله سبحانه وتعالى حين يقول : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » ليس معناه حصر
الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاحتصاص بالتقديم . . كما تقول بالقلم

كتبت وبالسيرة أتيت .. أي أن الكتابة هي حصص القلم والانيان خصوص
السيارة .. وهذا ما يعرف بالاختصاص .. فهذا مختص بكذ، وليس لغيره شيء.
فيه .. ولذلك فإن معنى « والله المشرق والمغرب » .. أن الملكية لله سبحانه
وتعالى لا يشركه فيها أحد .. وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس
معناه أن الله تبارك وتعالى في بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه
أن الله جل جلاله في الكعبة .

إن ترجيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد في
الصلاة .. وذلك دليل على وحدة الهدف .. فيجب أن تفرق بين اتجاه في الصلاة
واتجاه في غير الصلاة .. اتجاه في الصلاة نكون جميعا متجهين إلى مكان محدد
إختاره الله لنا لنسجد إليه في الصلاة .. والناس تفصل في جميع أنحاء لعالم متجهة
إلى الكعبة .. الكعبة مكانها واحد لا يتغير .. ولكن اتجاهنا إليها من بقاع
الأرض هو الذي يتغير .. فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه
شرقا وواحد يتجه غربا .. كل منا يتجه اتجاهها مختلفا حسب البقعة التي يوجد
عليها من الأرض .. ولكننا جميعا نسجد إلى الكعبة رغم اختلاف وجهائنا إلا أننا
نلتقي في اتجاهنا إلى مكان واحد .

الله حل جلاله يريدنا أن نعرف أننا إذا قلنا : « دولته المشرق » فلا نعلم أن
المشرق اتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان .. فكل مكان في
الأرض له مشرق وله مغرب .. فإذا أشرقت الشمس في مكان فلها في نفس
الوقت تغرب في مكان آخر .. تشرق عندى وتغرب عند غيرى .. وبعد دقيقة
تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين .. فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة
لشروق الشمس العاهري وغروبها .. نجد أن المشرق والمغرب لا ينتهيان من على
سطح الأرض .. في كل دقيقة شروق وغروب .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » .. أي يتسع لكل ملكه لا يشغله شيء عن
شيء .. ولذلك عندما سئل الإمام علي كرم الله وجهه .. كيف يحاسب الله
الناس جميعا في وقت واحد ؟ قال كما يرزقهم جميعا في وقت واحد .

إذن فالله لا يشغله شيء عن شيء .. ولا يحتاج في عمله إلى شيء .. إنما
عمله « كن فيكون » .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلِيلٌ ۚ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن له كل شيء في الكون لا يشغله شيء من شيء .. أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يحملوا الله معياني ملكه .. الذين قالوا اتخذ الله ولداً .. الله تبارك وتعالى رد عليهم أنه لماذا يتخذ ولداً وله ما في السموات والأرض كل له قانتون وجهه الرد مركزاً في ثلاث نقاط : قوله تعالى : « سبحانه » أي تتره وتعالى أن يكون له ولد .. وقوله تعالى : « له ما في السموات والأرض » .. فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاصه له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : « كل له قانتون » .. أي كل من في السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بالوحيته .

قضية إن الله سبحانه وتعالى ولد جاءت في القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها .. لأنها قضية في قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى .. وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد أن هناك أقوالاً متممة .. هناك قول قاله المشركون .. وقرأ القرآن الكريم :

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ آبَائِهِمْ لَيَقُولُونَ ۚ﴾ ﴿وَلَهُ آفَ وَبِئْسَ لَكُلْدِيُونَ ۚ﴾ ﴿أَمْطَلَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۚ﴾

وقول اليهود كما يروى لنا القرآن :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرَ بْنُ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

وقول النصارى :

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

ثم في قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَقُلُوا الْحَمْدَ لِلرَّحْمَنِ وَلَنَا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعًا إِذَا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝ أَنْ دَعَوْنَا لِلرَّحْمَنِ وَلَنَا ۖ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَخْذَ وَلَنَا ۖ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝﴾

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف إن هذا إدعاء خطير مستطع مستنكر ومحقوق . . لقد حلت سورة مريم المسألة علاجاً واسعاً . علاجاً اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون خير الإنسان . . انفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التي تلص كل من قال ذلك . . بل وتكاد شمورا منها يفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أي تسقط قطعاً صغيرة . . وتنشق الأرض أي تتمزق . . وتخمر الجبال أي تسقط كتراب . . كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل . . لأن هذا الادعاء إفتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات في سورة مريم التي أعطتنا معجزة خلق عيسى . . كما وردت القضية في عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هي الشبهة التي حملتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذي جعلهم يلجأون إلى هذا الاقتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم .. كلمة الله ألقاها إلى مريم . نقول لهم كلما كلمة « كن »

لماذا فتنتم في عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى بشرح المسألة فيقول :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن رُّبِّهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ تَارِكُنْ فَيَكُونُ ۚ ﴾

(سورة آل عمران)

قوله كمثل آدم مجرد مجازاة الخضم ولكن المعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام .. أنتم فتنتم في عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع .. وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة .. إذن فالمعجزة أقوى .. وكان الأولى أن نعشوا بآدم بدل أن تعشوا بعيسى .. ومن العجيب أنكم لم تذكروا الفتنة في آدم وذكرتم لفتنة فيها فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين في آدم .. وكان من الواجب أن تنسوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم . قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كادبة . وأمرأ بوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۚ ﴾

(سورة الزمر)

أي لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد .. ولكنه جل جلاله لم يتخذ ولدا . فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله .. وإنما يتدعوه واختلقوه ..

الله جل جلاله يقول « وهابوا الحمد لله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض » .. قوله تعالى : « بل له ما في السموات والأرض » تعطي الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما في الكون .. والملكية تنافي الولدية .. لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما في الكون من خلق الله .. كل شيء هو خالقه بدون معارض ..

وما دام هو خالقه وموجده . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءاً منه . . لأن الذي يخلق شيئاً يكون فاعلاً . والفاعل له مفعول . والمفعول لا يكون منه أبداً . . هل رأيت واحداً صنع صنعة منه ؟ الذي يصنع سيارة مثلاً . . هل صنعها من لحمه أو من لحم لبشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسي والساعة والتليفزيون . . هل هذه المصنوعات من جنس الذي صنعها ؟ طبعاً لا .

إذن مادام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبداً . . كل فاعل يوجد شيئاً أقل منه . . فقول الله سبحانه . . أي تزيه له تبارك وتعالى . . لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستقباله حياة والده التي لا يضمها له واقع انكون . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذي يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلاً إن له ولداً واحداً فلفرض أن هذا الولد يكون له . . ولكننا لم نر أولاداً لمي زهموا أنه ابن الله . . وعندما وقبلها يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو يكون ولد ؟ وماذا استجد على الله وهل كونه بعد أن اتخذ ولداً كما يزعمون . . لم يتغير شيء في الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهراً من مظاهر القوة . . لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته . . ضياع للحياة ؟ الله حياته أزلية . . هو الذي خلق الحياة وهو الذي يحييها وهو من لا يموت . . فما هي حاجته لأي ضياع للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تفعل له الأشياء . . أي أنه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلاً وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس في حاجة إلى أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخلق وهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقاً قبل أن يخلق أحداً من خلقه . . وكان رزاقاً قبل أن يوجد من يرزقه . . وكان قهاراً قبل أن يوجد من يقهره . . وكان ثواباً قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وثاب على خلقه

إذن كل هذا الكون لم يهبط صفة من صفات الكمال إلى الله . بل إن الله بكمال صفاته هو الذي أوجد . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في حديث قلمي :

(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نفص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غمره)^(١)

ثم إذا كان الله سبحانه وتعالى زوجة وولد . فمن الذي وجد أولا ؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان كل منهما قد أوجد نفسه هم ثلاثة آلهة ويسمى إلهًا واحدًا .
إذن فالولد إما أن يكون مخلوقًا أو يكون إلهًا . والكمال الأول لله لم يرده الولد شيئًا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . . ونحن نعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية بعرضها عريضًا واسعًا في كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة عريم في قوله تعالى .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾

(مسودة رقم)

إنه سبحانه منزّه عن التماثل مع خلقه .. لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال .. كل شيء تراه في لوجود .. الله منزّه عنه .. وكل شيء يخاطر على بالك فانه غير ذلك . قوله تعالى : « ما في السموات والأرض » .. فذلك قضية ناقض اتحاد الولد لأن كل ما في السموات والأرض خاصص لله .

قوله تعالى : « كل له فانتون » . . أي خاصمون ، وهذا يؤكد لنا أن كون الله في قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله

(١) رواه مسلم في البرق ورواه أحمد

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى .. أن قومه اتخذ الله وبدا هو اقتراء على الله .. أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته .. فقال جل جلاله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .. أي خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق .. أي لم يكن هناك سواه أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان .. ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابهها لهم في شكل أو حجم أو قدرة .. أي أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نفعه نحن بالقلب .

إن الذي يصنع كوب الماء يصنع أولاً قلباً يصب فيه خام الزجاج المنصهر .. فتخرج في النهاية أكواب مشابهة .. وكل ساعة لغير الله تتم على أساس صنع القلب أولاً ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج .. وبذلك فإن الكلمة الحقيقية هي في إعداد القلب الجيد الذي يعطينا صورة لما نريد .. والذي يميز رغبنا مثلاً قد لا يستخدم قالب ولكنه يقلد شيئاً سبق .. فشكل الرغيف ونخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدها في كل مرة .. ولكنه لا يستطيع أن يعطي التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة .. بل هناك اختلاف في التقليد ولا يوجد كمال في الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة .. جعل الخلق متشابهين في كل شيء .. في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والميئين .. وغير ذلك من أعضاء الجسم .. تماثلاً دقيقاً في الشكل وفي الوظائف . بحيث يؤدي كل عضو مهمته في الحياة .. ولكن هذا التماثل لم يتم عن قالب وإنما تم بكلمة كن .. ورغم التشابه في الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافاً يجعلنا قادراً على تمييزه بالعلم والعين .. فبالعلم كل ما له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن

أن يميزه خبراء التحليل وبصمة رائحة قد لا غيضا نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة . . فتشم الشيء ثم تسرع فتدرك على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر . . وبصمة شمرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا . . فإن جثت بخلية من جسد آخر لفظها . وإن جثت بحلية من الجسد نفسه اتخذ معها وعالج جراحها

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم . . فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه يؤكد لنا أنه رغم تشبه بلايين الأشخاص . . فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم . . وهذا هو الإعجاز في الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله في كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا لمعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادمة ولم يأت بطريق غير غلط بل هو معد بقدرة الله سبحانه . . فيقول جل جلاله

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَانْخِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَسَائِكُمْ فِي ذَلِكَ لَا تَحْسِبُ لِلْعَالَمِينَ﴾

(سورة الروم)

هذا الاختلاف بمش لنا طلاقة قدرة الله سبحانه في خلق على غير مثال . . فكل مخلوق يختلف عن غيره وعن بعضه وعن حوله . . مع أنهم في الشكل العام متماثلون . . ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة . . وكل واحد منهم يختلف عن الآخر . . فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر . . هذه دقة الصنع وهذا ما يفهمه من قوله تعالى « بديع » . . والدقة تعطى الحكمة . . والإبرار في صور متعددة يعطى القدرة . . ولذلك بعد أن غوت وتشتت عناصرها في التراب يجمعها الله يوم القيامة . . والإعجاز في هذا الجمع هو أن كل سائر سمعت من عناصره نفسها وصورتها نفسها ومهيتها نفسها التي كان عليها في الدنيا . . ولذلك قال الحق سبحانه

﴿فَإِذَا تَلَمَّسَا مَتَّقُصُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾

(سورة ق)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته في لإيجاد قد خلقنا . وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق مجيئاً بعد الموت . . بشكنا ولحمنا وصعنا وكل مرة فينا . هل هناك دقة بعد ذلك ؟

لو أننا أتينا بأحق الصاع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئاً نجيد . فلي صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لا يمكن أن يصنع نموذجاً مثله بالموصفات نفسها ، لأنه يعتمد المفاتيح الدقيقة التي تحده بالموصفات نفسها التي صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجاً متشابهاً ولكن ليس مثل ما صنع تماماً . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لا يخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشيء : كن فيكون

نقول الآية الكريمة : تدبر السموات والأرض إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون

« ولكن » وردت كثيراً في القرآن الكريم . . وفي اللغة شيء يسمى المشترك اللفظي يكون واحداً ومعانيه تختلف حسب السياق . فمثلاً كلمة قضى لها معانٍ متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها . . مرة يأمر بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى . . في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَدِكُرْكُمْ ؕ إِنَّمَا أَمْهَلَكُم مَّا أَفْتَدْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَذِكْرًا ﴾

(من الآية ٣١٠ سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيت من مناسك الحج . . ومرة يقول سبحانه

﴿ مَا قُضِيَ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة طه)

والمعنى إعمل ما تريد . . وفي آية أخرى يقول الله تعالى .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ إِلَيْهِمْ أَمْرٌ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا مِنْكُمْ أَنْ خُذُوا مِنْكُمْ أَمْرًا﴾

(من الآية ٣٦ سورة الاحزاب)

والمعنى هنا انه إذا قال الله شيئاً لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . ومرة يصور الله جل جلاله الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقرا قوله سبحانه :

﴿وَنَادُوا بِمَنِّكَ لِيَقْضَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالِ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ﴾

(سورة الفرقان)

لِيَقْضَ عليا هنا معناها يميتا .. ومعنى آخر في قوله تعالى :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

(من الآية ٢٢ سورة ابراهيم)

أى لما انتهى الأمر ووقع الجزاء .. وفي موقع آخر قوله سبحانه :

﴿قَلْبًا قُضِيَ مَوْسى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة القصص)

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفي قوله تعالى :

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالنِّسْبَةِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يونس)

أى حكم وفصل بينهم . وقوله جل جلاله :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾

(من الآية ٤ سورة الإسراء)

بمعنى أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم . . . إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق . . . ولكن هناك معنى تلتقى فيه كل المعاني . . . وهو قضى أى حكم وهذا هو المعنى الأم .

إذن معنى قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » . . . أى إذا حكم بحكم فإنه يكون . . . على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق . « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن » . . . معنى يقول له أن الأمر موجود عنده . . . موجود في علمه . . . ولكنه لم يصل إلى علما . . . أى أنه ليس أمرا جديدا . . . لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : « يقول له » . . . كأنه جل جلاله يحاطب موجودا . . . ولكن هذا الموجود ليس في علما ولا نعلم عنه شيئا . . . وإنما هو موجود في علم الله سبحانه وتعالى . . . ولذلك قيل أن الله أمورا يبدئها ولا ينتهيها . إله موجود عند لان الكلام رُبعت ، والصحف جفت . . . ولكنه ينبغي لنا نحن الذين لا نعلمها فتعلمها .



﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
 آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ
 تَشَبِهَتْ قُتُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾



الحق سبحانه وتعالى حين قال : «الذين لا يعلمون» . أى لا يعلمون عن
 كتب الله شيئا لأنهم كفار . وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
 يكلمهم الله . ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمروا كلاما من الله سبحانه . كما
 سمع موسى كلام الله

ومادا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى . أكانوا يريدون أن يقول لهم الله
 إنه أرسل محمدا رسولا ليبلغهم بفتح السماء . وكأن كل المعجزات التي أبد الله بها
 رسوله صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسها القرآن الكريم - لم تكن كافية لاقناعهم
 مع أن لقرآن كلام معجز وقد أن به رسول أمي . . سألوه عن أشياء حدثت فأوحى
 الله بها إليه بالتفصيل . . جاء القرآن ليتحدى في أحداث المستقبل وفي أسرار النفس
 البشرية . وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استحلوا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما
 جاءتهم آية كذبوا بها وظلوا . آية أخرى : والله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أنه لا يمكن
 لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة . . واقرأ قوله سبحانه

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
 بِلَاذُنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

إذن بالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقى عن الله .. لا يكلمه الله
إلا وحيا أو إلهاماً خاطراً أو من وراء حجاب كما كلم موسى .. أو يرسل رسولا مبعا
للناس منهج الله .. أما الاتصال المباشر فهو أمر نعمة بشرية الخلق

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « لو تأتينا آية » .. والآيات التي يطلبها الكفار
ويأتى بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم .. لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرا
وعنادا .. والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا مَنَعْنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كُتِبَ بِهَا الْاُولُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا مُّحْصِرَةً
فَقُلُّوا بِهَا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فالآيات التي يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون .. ولكن يزدادون كفرا
حتى ولو علموا بقينا أن هذه آيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث
لأهل فرعون .. واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ قَائِنَتُنَا مُّصِرَةً قَالُوا هَذَا مِرْيَئِينَ ۖ وَهَدُوا بِهَا وَأَسْتَفِصَّ
أَنفُسُهُمْ فَخَطَبَا فَاظْفَرَا عِصْيَانَهُنَّ أَتَمِّينَ ۚ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيتهم آية كان من باب العناد والكفر ..
والحق سبحانه يقول : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » .. فبنو إسرائيل
قالوا لموسى أرنا الله جهرة .. الذين لا يعلمون قالوا لو لا يكلمك الله .. ولكن الذين
قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالثبوت .. فتساوى الذين
يعلمون والذين لا يعلمون .. لذلك قال الله تبارك وتعالى : « تشابهت قلوبهم » ..
أى قلوب أولئك الذين كانوا حاصعين للمنهج والذيق لا يحصعون للمنهج قد تشابهت
بمطلق واحد .

ولو أن الدين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لأن الأمر . . . وقلنا جهلهم هو الذي أوحى إليهم بما قالوا . . . ولكن ما عذر الذين علموا وعدهم كتاب أن يقولوا أربا الله جهرة . . . إذ فهاك شيء مشترك بينهم تشابهت قلوبهم في الهوى . إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذي تصدر عنه دواعي الحركة . ومادام القلب غير خالص لله يستوى الذي يعلم والذي لا يعلم

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » . ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية في القلب استقرارا لا يحتمل شكاً ولا زلزلة . ولا يمكن أن تخرج لفظة مرة أخرى إلى العقل . لتناقش من جديد لأنه أصبح يقيناً . واليقين يأتي من إخبار من تثق به ونصح أخباره يقيناً . فإذا قال الله قال اليقين . . . وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق . ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه . . . عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه ضعد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس في ليلة واحدة . قال إن كان قد قال فقد صدق .

إن اليقين عنده نشأ من إحصاء من يتق فيه وهذا نسميه علم يقين . . . وقد يرتقى الأمر ليصير حين يقين . . . عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حدثت عن رؤية غيرك له . . . ثم تدخل في حقيقة الشيء فيصبح حق يقين . . . إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به . . . وعين نفس إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين . . . وحق يقين هو أن تدخل في حقيقة الشيء . . . والله سبحانه وتعالى بشرح هذا في قوله تعالى :

﴿ الْمُنْكَرُ أَكْثَرُ ۚ ۝ حَقٌّ دَرَجَاتٍ أَمَّا غَيْرُ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ نَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ﴾

(سورة النكاث)

هذه هي المرحلة الأولى أن يأتيك علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . ثم تأتي المرحلة الثانية في قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ تَرَوُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة النكاث)

أى أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة . هذا علم يقين وعين يقين . .
يأتى بعد ذلك حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۖ فَنُزِّلَ مِنْ سُحُوبٍ ۖ وَأَصْلَابُهُمْ جِجَمٌ ۖ ۝١١
إِنْ هَذَا إِلَّا حُوحٌ ۖ أَلَيْسَ ۖ ۝١٢﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين . . إنه سيراها وهو يمر على
الصراط . . ولكن الكافر هو الذى سيصلها حقيقة يقين . . ولقد قال أهل الكتاب
لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين . فاليهود قالوا لموسى : « لن نؤمن بك حتى
نرى الله جهرة » . والمسيحيون قالوا لعيسى : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا
مائدة من السماء » قال : « أنقروا الله إن كنتم مؤمنين » . وهكذا شجع المؤمنون
بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله وطلبوا المعجزات المادية .



﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يحبرنا عن قضية من عمله يأتي دائما بنود العظمة التي نسميها نون التكلم . وبلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرا بما هو آت . . فكان العظمة في الإنسان سخرت المواهب المخلقة لتنفيذ القرار الذي يصدره رئيس الدولة . . فيشارك في تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب . تشارك مواهب متعددة من جماعات مختلفة لتكاتف لتنفيذ القرار . . والله تبارك وتعالى عبده الكمال المطلق . كل ما هو لازم للتنفيذ من صمدات الله سبحانه وتعالى . إذا تحدث الله جل جلاله عن عمل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى وتعالى يقول « إنا »

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

(سورة الحج)

ولكن حين يتكلم الله عن الوهية وحده وعن عبادته وحده يستخدم خمير المرد مثل قوله سبحانه .

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

(سورة طه)

ولا يقول فاعبدنا .. إذن ففى كل فعل يأتى الله سبحانه بآية العظمة .. وفى كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتى بالمفرد .. وذلك حتى نفهم أن العمل من الله ليس وليد قدرته وحدها .. ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها .. وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتي لتعلمنا إلى هذه الحقيقة لئلا نلحق تكامل الصفات في الله . . لأنك قد تفكر ولا تعلم . . وقد تعلم ولا تفكر ، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق » يعنى بعثناك بالحق رسولا . . والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض . فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكى ما رأيت رويت ما حدث . فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فأنك ترويه بنفس الصحاحيل . . أما إذا كنت تكذب فستناقض فى أقوالك . . ولذلك قيل إن كنت كذوباً فكى ذكورا .

إن الحق لا يتناقض ولا يتغير . . . ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسى بالحق . . . فإن عليه أن يبلغه للناس وسيفي الحق حقاً إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : « بشيرا ونذيرا » .. البشارة هي إخبار بشيء بركة ومنه فادم ..
والإنذار هو الإخبار بشيء بسوءك ومنه فادم ربما استطعت أن تتلافاه .. بشر بماذا ؟
ونذير بماذا ؟ يشر من آمن سعيهم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار .. والبشرى
والإنذار يقتضيان متبعا يبلغ .. من آمن به كان بشارة له . ومن لا يؤمن كان إنذارا
له .

ثم يقول الحق جل جلاله : « ولا تُسأل عن أصحاب الحميم » أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولاً عن الذين سيلقون بأنفسهم فى النار والعذاب . إنه ليس مسئولاً عن هدايتهم وإنما عليه البلاغ .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿فَمَعْلَكٌ بِسَخِّ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَتْرَمِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝﴾

ويقول جل جلاله .

﴿لَعَلَّكَ بِبَيْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ إِنْ تَأْتِيكُم مِّنَ السَّلَٰةِ رِجَّةٌ
مَّطَّلَتْ أَتَعْتُهُمْ لَا تَخِصِّمْهُمْ ﴿٥٧﴾﴾

(سورة الشعراء)

فالله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسرا وقهرا . ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر . ولكنه تبارك وتعالى يريد أن تأتيه بقلوب تحبه وليس بقلوب مقهورة على الإيمان . . إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر . لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار . والجحيم مأخوذة من الجموح . . ومحت النار يعنى اضطربت ، وعندما ترى لنار متأججة يقال محت النار . . أى أصبح لحبها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تحمد أبدا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعظم رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يجب أن يشعل فيه مالمذين كفروا لأنه قد أبلههم . وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التى كلفه الله بها



﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِهِ أُولِيَّانَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِيَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ ﴾
 هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ
 مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكبد فيقولون هادنا ، أى قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع عن اليهود سبيل التكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم . . أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطعمون أن تكون معهم . . فقال الله سبحانه : «ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» . .

نلاحظ هنا تكرار النفي وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى . . ولوقال الحق تبارك وتعالى ، ولن ترضىٰ عنك اليهود والنصارى بسون لا . . لكان معنى ذلك انهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون . ولكنهم يختلفون بدليل أن الله تعالى قال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضىٰ عنك اليهود والنصارى . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضىٰ عنك اليهود ولن ترضىٰ عنك النصارى . . وإنك لو صادقت رضا اليهود فلن ترضىٰ عنك النصارى . . وإن صادقت رضا النصارى فلن ترضىٰ عنك اليهود . .

ثم يقول الحق سبحانه : « حق تتع ملتهم » . والملة هي الدين وسميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ لِمَا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝١﴾

(سورة الكافرون)

فجعل لهم دين وهم كفرون ومشركون . ولكن ما الذي يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى . الحق جل جلاله يقول :

﴿ قُلْ إِنْ أَهْدَى اللَّهُ أُمَّةَ ۖ

(من الآية ٧٢ سورة آل عمران)

فاليهود حرقوا في ملتهم والنصارى حرقوا فيها .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله .. والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق .. أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية .. وهدى الله طريق واحد ، أما هدى الشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال . ولكن الهدى الذي يوصل للحق هو هدى واحد .. هدى الله عز وجل .

وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم » إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية والأهواء جمع هوى . والهوى هو ما تريد النفس باطلا بعيدا عن الحق .. لذلك يقول الله جل جلاله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ماله من الله من ور ولا نصير » ..

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج الملىء بالشهوات بغير حق .. سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعدما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولى يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك .

وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقف معه وقفة لتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه . قاله حين يوجه هذا الخطاب لحمد صيه الصلاة والسلام . . قالراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده . وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى . أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم

والله سبحانه وتعالى يريد أن تعلم بقيا أن ما لم يشله من رسوله عليه الصلاة والسلام . . لا يمكن أن يقنه من أحد من أمته مهما علا شأنه . . وذلك حتى لا يأتي بعد رسول الله من يدعى المعلم . . ويقول تتبع ملة اليهود أو النصارى لسجلهم إلينا . نقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد .

إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن اتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أى ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المخرضين أى طريق للعبث بهذا الدين بحجة التناوب مع اليهود والنصارى .



﴿الَّذِينَ اتَّخَذْتَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَةٍ أُولَئِكَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١١)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن
يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا في كتبهم وأن هؤلاء يؤمنون
بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته . لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل

ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية يقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على
حقيقتيها . . ويفكرون في الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقالوا
كيف تكون هذه الحصة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نمتزم الإيمان
بالإسلام وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال . أي أن هناك عددا مهما قل من
اليهود أو النصارى يفكرون في اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق وقد كان هناك
جماعة من اليهود عندهم أربعون قادمون من سيئ مع جعفر بن أبي طالب ليشهدوا
أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قرأوا التوراة غير المحرفة وأصاها برسالته .
وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب . . فقال جل جلاله .

﴿الَّذِينَ اتَّخَذْتَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَةٍ﴾

(من الآية (١٢) سورة البقرة)

أي يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل . . يعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة
بهي البشر ولا بالتحريف الذي هو نقل شيء من حق إلى باطل .

يقول الله تبارك وتعالى : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم
الخاسرون » . وتلاحظ أن القرآن الكريم يأتي دائما بالمقارنة . . ليكرم المؤمنين
ويلقي الخسرة في نفوس المكذبين . . لأن المقارنة ذاتي تظهر الفارق بين الشقيين .

إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يعرفوه وآمنوا به . .
ليصلوا إلى النعمة التي منقودهم إلى النعيم الأبدي . . وهي نعمة الإسلام
والإيمان . . مقابل الذين يحرقون التوراة والإنجيل فمصيرهم الخسران المين والخلود
في النار .



﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾

نورجعنا إلى ما قلناه عندما تعرضنا للآية (٤٠) من سورة البقرة . وقوله تعالى : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوقوا معهدي أو ب معهدكم وياي فارهبون » . . . فالحق سبحانه وتعالى لم يمه الجولة مع بني إسرائيل قبل أن يذكرهم بما بدأهم به . إنه سبحانه لا ينهي الكلام معهم في هذه الجولة . . . إلا بعد أن يذكرهم تذكير نهائيا بنعمه عليهم وتفضيله لهم على كثير من خلقه . . . ومن أكبر مظاهر هذا التفضيل . . . الآية الموجودة في التوراة تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام وذلك تفصيل كبير

التذكير بالنعمه هنا ، بالفضل هو تقرير لبني إسرائيل أنهم م يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه مذكور عندهم في التوراة . . . وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة ويسارعوا للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه تفضيل كبير من الله سبحانه وتعالى لهم . . . والله جل جلاله قال حين أخذت اليهود الرجفة وطلب موسى عليه السلام من ربه الرحمة قال كما يروي لنا القرآن الكريم

﴿وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الْكِتَابِ مَا يُخَوِّفُ الْفَاسِقِينَ إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
﴿وَمَنْ أَسَاءَ وَرَحِمْنِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فَأَتَيْنَا الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِكَ مِنَ الْمَالِ وَالَّذِينَ
هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا بِصَلَمٍ

فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ الْفَاحِشَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا
بِهِ وَعَزَّزُوا وَخَصَّصُوا لِمَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾

(سورة الاحزاب)



﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٥٦٧﴾

هذه الآية الكريمة تشابهت مع الآية ٤٨ من سورة البقرة . . التي يقول فيها الله تبارك وتعالى :

« واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

يقول في هذا التشابه طاهري . . ولكن كل آية تؤدي معنى مستقلا . . ففي الآية ٤٨ قال الحق سبحانه . « لا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل » . . وفي الآية التي نحن بصددھا قال : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة » . . لماذا ؟ لأن قوله تعالى « لا تجزي نفس عن نفس شيئا » . . لو أردنا النفس الأولى فالسياق يناسبها في الآية الأولى . . ولو أردنا النفس الثانية فالسياق يناسبها في الآية الثانية التي نحن بصددھا . فكان معنا نفسين إحداهما جازية والثانية مجزى عنها . . الحارثية هي التي نشمع . فأول شيء يقبل منها هو الشفاعاة . . فإن لم تقبل شفاعتها تقول أنا أنحصل لعدلي . . أي أخذ القدية أو ما يقابل الذنب . . ولكن النفس المجزى عنها أول ما تقدم هو العدل أو الفداء . . فإذا لم يقبل منها تبحث عن شفع . . ولقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا للآية ٤٨ من سورة البقرة .

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

بأن الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام .. ليصفى الجدل والتشكيك الذي أحدثه اليهود عند تغيير القبلة .. واتجاه المسلمين إلى الكعبة المشرقة بدلا من بيت المقدس .. كذلك الجدل الذي أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتى نبي إلا منهم .

يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلاتهم بالبيت .. فيقول الحق جل جلاله : « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ » . ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم . وإذا هنا ظرف وهناك ظرف بينهما وبين إذا الشرطية في قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ صَرُّ اللَّهِ وَآلَمَحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ ﴾ (١٢٥)

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط .. أما إذ فهي ظرف فقط .. وقوله تعالى : « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » . معناها اذكر وقت أن ابتلى الله إبراهيم بكلمات .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه في الحقيقة ليس كذلك .. لأن الابتلاء هو امتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر .. فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاعتبار الخير والشر . الذى ابتلى هو الله سبحانه .. هو

الرب . . والرب معناه المربي الذي يأخذ من يربيه بأسياب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه . . ومن أساس التربية أن يختص المربي من يربيه ليعلم هل صحيح في التربية أم لا ؟ والابتلاء هما تكميلات والكلمات جمع كلمة . . والكلمة قد تنطبق على الجملة مثل قوله تعالى :

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَلَأْمٌ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبْرَاهِيمَ كِبَرٌ مَلَكًا
خَرَجُ مِنْ أَقْوَاسِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد نطقت على الجملة وقد تعلقت على المفرد . . . كأن تقول مثلاً محمد
وتسكت وفي هذه الحالة لا تكون جملة موصلة والكلمة المرادة في هذه الآية هي
التكليف من الله .

قوله سبحانه إفعل ولا تفعل . فكان التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدي المطلوبها أو لا تؤديه . . وقد اختلف العلماء حول الكلمات التي تلقاها إبراهيم من ربه . تقول لهم ان هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أي الأنبياء . . إنها ابتلاء يصحله أهلاً لحمل الرسالة . أي لابد أن يكون الابتلاء كبيراً . ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة في سورة التوبة وهي قوله تعالى

﴿ أَتَنْهَوْنَ الْعَبِيدَ وَالْحَمِيدُونَ أَتَنْهَوْنَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ
بِالسَّعْرِ وَالْعَمَلِ عَنِ الْحَنَكِ وَالْحَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة التوبة)

وهذه رواية عبد الله بن عباس .. وعشرة ثانية في سورة المؤمن في قوله سبحانه :

(سورة المؤمن)

وفي سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

(مسودة الأجواب)

وفي سورة الماعارج يقول .

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأَءُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٨﴾
﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَغْرُومِ﴾ (٢٩) وَالَّذِينَ يُبْتَغُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ

رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ
حَسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُنَّ هَبَرُ مَلُومِينَ ﴿٤٠﴾
فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يَحْضُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿

(سورة المارج)

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليمية فعل كذا
ولا تفعل كذا ، وابتلاء بآد ألقى في النار وهو حي فلم يحترق ولم يذرع ولم ينهجه
إلا الله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جسها .. وكونه
يلقى في النار ولا يبدى يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فبرد إبراهيم أما إليك فلا ..
وأما إلى الله فعلمه بحالي بنفسه من سؤالي .. وكونه وهو شيخ كبير يتلى بذيبح ابنه
الوحيد فطبع بنفس مطمئنة وربما بقدر الله .. يقول الحق :

﴿ أَمْ رَبَّنَا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٤٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النجم)

أي وفى كل ما طلب منه ولدا ، بعشق للمنهج ولا ابتلاءات الله ، لقد نجح
إبراهيم عليه السلام في كل ما ابتلى به أو اختبر به .. والله كان أهز عليه من أهله
ومن نفسه ومن ولده .. ماذا كافله الله به ؟ قال :

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن الحق تبارك وتعالى أئتمنه أن يكون إماما للبشر . . والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لمعرفة نحن البشر كيف يصطفى الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور . . استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ما هى الذرية ؟ هى السسل الذى يأق والولد الذى يحىء . لأنه يجب استطراق الأخير عن أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم فى الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون . . ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده . حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرم حياتهم وتزدي بهم إلى نعيم لا يروى . . ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضيه إيمانه أيضا هو تفريع لليهود . . الذين تركوا القيم وصلوا المادة فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الْفٰلٰقِيْنَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فكان إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية . ولكن هذا لا ينتقل إلا للمصالحين من عباده العابدين المسيحين .

ونقول الحق سبحانه : لا يتال عهدي الفالقيين ، مقصود به اليهود الذين باعوا نفوسهم الإيمانية بالمادة ، وهم استقراء للغيب أنه سيأتى من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن المجانب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين . . الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشهد أزوه لأنه نصيب اللسان . . وشاهدت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة فى ذرية هارون وليس فى ذرية موسى . . والرسالة ليست ميراثا . .

وقوله تعالى « لا ينال عهدى الظالمين » . فكان عهد الله هو الذى يجذب صاحبه
أى هو الفاعل . نأتى بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون . شوة الأنبياء غير
بنوة الناس كبهم بالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء نبيهم وأبائهم هم الذين يأخذون منهم
هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون . ولورجعا إلى قصة نوح
عليه السلام حين غرق ابنه . . رفع يديه إلى السماء وقال .

﴿ رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

مرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء . ولولا أن استحق سبحانه قال
لن « إنه عمل غير صالح » . . لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك . .
ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم سببة ابن نوح إلى أبيه سبب « إنه عمل غير
صالح »



﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن
طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ﴾ ١٦٥

وضَّحت لنا الآية التي سبقت أن اليهود قد انتفتحت صلتهم بإبراهيم عليه السلام . بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلى ماديّات الحياة . . . أنتم تدعون انكم أنتم شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم . . . إذن فأنتم عبر مفضلين عليهم . . . فإذا انتقلنا إلى قصة بيت المقدس ونحوها القيلة إلى الكعبة . . . نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من بعد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً » . . . قلنا كلمة البيت وكلمة مثابة بيت مأخوذ من البيتوتة وهو المأوى الذي تلجأ إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك . . . ولذلك سميت الكعبة بيتاً لأنها هي المكان الذي يستريح إليه كل خلق الله . . . ومثابة يعني مرجعاً تذهب إليه وتعود . . . ولذلك فإن الذي يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يجب أن يرجع مرات ومرات . . . إذن فهو مثابة له لأنه ذاق حلاوة وجوده في بيت ربه . . . واتحدى أن يوجد شخص في بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته . . . تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما في صدرك من ضيق وهم وحزن ولا تتذكر أولادك ولا شئون دنياك ولو ظننت حادثة بيت الله في قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شئون دنياهم ليقيموا بجوار البيت . . . ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصاً على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة . . .

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفى من عقل الحاج وقلبه . . . لأن الجميع في

بيت ربهم وكلما كرههم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب . . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ فَأَجْعَلْ أَفَعِدَّةً مِّنَ النَّاسِ تَهَيِّئُوا لِيَوْمِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

أفعدة وليس أجسام وتهوى أى يلقون أنفسهم إلى البيت والجمع هو الركن الوحيد الذى يجتال الناس ليؤدوه . حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدى الفريضة والذى يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات

إن من الخير أن نترك الناس يشربون إلى بيت الله . . ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من صيق وهموم ومشكلات الحياة

وقوله تعالى « مثابة للناس وأمانا » . . أما يعنى يؤمن للناس فيه . . العرب حتى بعد أن تحملوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون بحجج بيت الله الحرام يلقى أحدهم قاتل أبيه في بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كرمياهم فبأنى إلى مكان ويجعله آمنا . ويأتى إلى شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه عنهم حين يذوقون السلام والصماء يسعون عن القتال .

ولكلام عن هذه الآية سوفنا إلى توضيح الفرق بين أن يخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب من جعله آمنا . إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب من أن يؤمن من فيه . الذى يطبع ربه يؤمن من في البيت والذى لا يطبعه لا يؤمنه . . عندما يتحدث هياج من جماعة في الحرم اتحدته ستارا لتحقق أهدافها . . هل يتعرض هذا مع قوله تعالى . « مثابة للناس وأمانا » . . نقول لا . .

إن الله لم يعط لنا هذا كحبر ولكن كتشريع . . إن أطمنا الله نفطنا هذا التشريع وإن لم نطعمه لا نتمذه

وقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصل » .. وهنا نقف قليلا فهناك مقام يفتح الميم ومقام يضم الميم .. قوله تعالى :

﴿ يَتَأَمَّلَ يَتَرَّبَ لَا مُقَامَ لَكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأحزاب)

مقام يفتح الميم إسم المكان من قام .. ومقام يضم الميم إسم المكان من أقام .. فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مقام يضم الميم .. وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام يفتح الميم .. إذن فقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصل » يفتح الميم اسم المكان الذي قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذي وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصل ؟ لأنهم كانوا يتخرجون عن الصلاة فيه . فالذي يصل خلف المقام يكون الحصر بينه وبين الكعبة . وكان المسلمون يتخرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذي فيه مقام إبراهيم . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصل ؟ وسؤل عمر بن الخطاب عن المحرم على هدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك . ولما رأى عمر مكافأ في البيت ليس فيه صلاة يصح فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت .. فنزلت الآية الكريمة . « واتخذوا من مقام إبراهيم مصل »

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصل .. فكأنه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم في مكانه فاصلا بين المصلين خلقه وبين الكعبة .. وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعادة وإتمامها على الوجه الأكمل ، والمقام سبطينا حينئذ الإنعام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

إذن هلاك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونفهمها . . فمقام إبراهيم هو مكان قبله عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . والترتيب الزمني للأحداث هو أن لييت وجد أولا . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود في موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة . فقصه بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . متى بنى البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بذي البية أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرآن قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والاعلاء ، فكل بناء له حول وله عرص وله ارتفاع . ومادامت مهمة إبراهيم هي رفع القواعد فكان هالك طولا وعرضا للبيت وأن إبراهيم سيحلب البعد الثالث وهو الارتفاع . . إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم . . ثم جاء الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح فانحس محله . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هي البيت ولكنها هي المكين الذي يدك على مكان البيت . إذن هالدين فبعوا من قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » . . بمعنى أن إبراهيم هو الذي بنى البيت . يقول هم إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم انحصرت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . وديلتنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . من يصلى على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لحجر الكعبة . . ومن يصلى في الدور الأسفل يصلى أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها

إسماعيل وبركهما في بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة في ذلك الوقت . ذكر
البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى في دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطعمها
لرضيع :

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لِذِي بَيْنٍ عَصَاِّيَ رَبِّ عَنِ الْبَيْتِ الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقْبَلْ مِنَّا الصَّلَاةُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

يعني أن البيت كان موجود وإسماعيل طفل رضيع . ولكن القواعد من البيت
قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافع يستطيع أن يعاون أباه في بناء الكعبة
وكان مكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبنى إبراهيم عليه السلام الكعبة .
ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم
مكان البيت حتى يضع له العلامة التي تدل الناس عليه . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

إن كثيرا من المفسرين يحسم عليهم حقيقة ما جاء في القرآن . والمفروض أننا حين
نعرض لفصله بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التي وردت في القرآن
الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى .

﴿ إِنْ أُولَٰئِكَ يَرِجُوا رِيحَ الْفَيْسِ الْمُدَيَّرِ بِسُكَّةٍ مُّبَارَكَةٍ وَهُمْ فَلَا لَبَّاسَ وَلَا تَعْلِينَ ٥٥ ﴾

(سورة آل عمران)

والكلام هنا عن البيت وانقول إنه وضع للناس والناس هم آدم وحوته حتى تقوم
الساعة . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس والناس لم
يصنعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضعه وحلله ، وعدل الله بأي إلا أنه
يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله
وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع رسول آدم إلى الأرض شرع اتوبه وأهد
هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا لصلاة ويتعدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفى أن يقيمها على قدر طول قام ولكنه أتى بالحجر ليريد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر . . ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخذه معصي أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكليف . . فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب وصحايل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه

إن الحجر الموحى في مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكليف ربه وعملته أن يريد عليها . وإن الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم به حفر على شكل قدميه . . وهما بين قائل أن الحجر لأن تحث قدمي إبراهيم من خشية الله . . وبين قائل إن إبراهيم هو الذي قام بحفر مكان في الحجر على هيئة قدميه . . حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ، يمكن ليعلى لقواعد من البيت كان توازنه محوطا

وقوله تعالى : « طهرا بيتي » دليل على أن البيت رالت معاله غام وأصبح مثل سائر الأرض مذبحت فيه الذبائح وألغيت المحرمات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا النجس ويحمله مكانا ثلاث طواف : « الطائفين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشيء . . ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالدليل طواف لأنهم يطوفون في الشوارع ن أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَكَاةٍ صَرِيحٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهذه هي قصة الخديفة التي منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حتى المقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها . . أي عشى في كل جزء منها فأحرق أشجارها . . فالطائف هو الذي يطوف . . « والعاكفين » هم المتقيون « والركع السجود » هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه . وهو مصهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ
الشَّجَرَاتِ مِنْ أَمْنٍ مِنْهُمْ يَا اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمِتُمْ
فَلَيْلًا ثُمَّ أَصْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً » . . . وما دام
الله قد جعله أمناً فما هي جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلداً آمناً . . . نقول إذا
رأيت طلباً لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . . فكأن إبراهيم
يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن في البيت . . . ذلك لأنك عندما
تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ بَنِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ
الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ
الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(سورة المائدة)

هو حاصلهم بلطف الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . . كيف ؟ نقول إن الله
سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويدوموا هل الإيمان . . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود
هو طلب الاستمرار هذا الموجود

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلداً آمناً » . . . أي يارب إذا كنت قد جعلت
هذا البيت آمناً من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . . ليكون كل من يدخل إليه آمناً لأنه

موجود في واد غير ذي زرع . . وكانت النسلي في الماضي تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان في الطريق . أو أما أي أن يديم الله على كل من يدخره نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : « اجعل هذا بلدا آمنا » تكررت في آية أخرى يقول : « اجعل هذا البلد آمنا » . فمره جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة . . يقول إن إبراهيم حين قال « رب اجعل هذا البلد آمنا » . . طلب من الله شيئين . أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحصات . . فكلمة غصب بمعنى سلخ الجلد عن الشاة وكان من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلمحه منه شيء هو متمسك به

كلمة بند حين تسميها تنصرف إلى المدينة . والبلد هو البقعة تشا في الجلد فتميزه عن باقي الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء في لوجه أو اللراحين فتكون البقعة التي ظهرت مميزة ببيض النون . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومباني فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . وإذا أقمت فيه مباني جعلت فيه علامة تميزه عن باقي الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى . « وارزق أهله من الثمرات » . هذه من مستزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس في هذا البلد . ولكن إبراهيم قال « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . لماذا ؟ لأنه حينما قال به الله :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال إبراهيم .

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

(من الآية ١١٤ سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

﴿لَا يَنْتَلِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فحشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقمونه في مكة أن تكون استجابة لله سبحانه كاستجابة السابقة . كان يقال له لا يزال ورق الله الظالمون . فاستدرك إبراهيم وقال « وورق أهله من الثمرات من آمن منهم » . ولكن الله سبحانه أراد أن يلمت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية . فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يزال إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية ياله المؤمن والكافر لأن الله هو الذي استدعاه جميعا إلى الحياة وكمل لنا جميعا برزقا . وكان الحق سبحانه حين قال : « لا يزال عهدي الظالمين » . كان يتحدث عن قيم أصبح التي لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر . لذلك قال الله سبحانه . « ومن كفر » . . وفي هذا تصحيح معاهيم بالسنة لإبراهيم ليُعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة به رزقه مؤمنا كان أو كافرا . والخير في الدنيا على الشيوخ . فإدام الله قد استدعاه فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرفي على أرضهم المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك ضام وإنما أعطى نعمه استفاء وخبرة واستمرارها بكل من خلق آمن أو كفر . ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وعالي . « ومن كفر فأمته قليلا » . . التمتع هو شيء يحبه الإنسان وينتهي دوامه وتكويره .

وقوله تعالى - « فأمته » دليل على حرام متعة ، أي له المتعة في الدنيا ولكن بعمدة متعة ، فالصيام له متعة والشراب له متعة والحسن له متعة . إذن لستمع في الدنيا بأشياء متعددة ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه حسن لأن المتعة في الدنيا مهما بلغت وتعددت ألوانها فهي قبيحة

واقرا قوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار » . . ومعنى اضطره أنه لا اختيار له في الآخرة ، فكان الإنسان له اعتبار في الحياة الدنيا يأخذ به ويترك هذا ولكن في الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلاً أن يخرج الجنة بل إن أعضاء المسخرة لحسنه في الحياة الدنيا والتي يأمرها بالمعصية تفعل ، لا ولاية له عليها في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٦)

(سورة النور)

أي أن الجوارح التي كانت تطيع الكافر في المعاصي في الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ؛ فاللسان الذي كان ينطق بكلمة الكفر والعياد بالله يأتي يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التي كانت تمشي إلى أماكن الخمر والنهر والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التي كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها. وقوله : « اضطره » معناه إن الإنسان يفقد اختياره في الآخرة ثم ينتهي إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقاً لقوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار ویشس المصير » . . أي أن الله سبحانه وتعالى يحل الكافرين بأن لهم النار والعذاب في الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مفعولون .



﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت . . وجاءت « يرفع » هنا عملاً مصارعاً لتصوير الحدث الآن وفي المستقبل

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم انه رفع وانتهى ؟ طبعاً هو رفع واسمى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت . . والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية ارفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلماً حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » . . ولكن عياب هذه انعم لم يمنع إبراهيم من أن يتعايل ويأتى بالحجر .

إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء . . ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يحاول الأحجار الأخرى التي سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورعم المشقة التي يتحملها الإثنين هما سعيدان . . وكل ما بطلانه من الله هو أن يتقل منها . والقبول والمقاومة والاستئصال كلها من مائة مواجهة . . أى أنها يسألان الله في موقف المعرض عن عمله ، إنها لا يريدان إلا الثواب : « تقبل منا » أى اعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتقيداً لأمرك .

وقوله تعالى : « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . . أى أنت بلرب السميع الذي تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . « والعليم » . . اعلم بنيتنا ومدى إخلاصنا

لك . وإنما نعمل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نفصد غيرك . . ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملاً واحداً ، أحدهما يثاب لأنه يعمل إرضاء لله وتقرباً منه والأخر لا يثاب لأنه يفعله من أجل الدنيا

واقفه سبحانه وتعالى عليهم بالنية إن كان العمل خالصا لله تقيده ، وإذا لم يكن خالصا لوجهه لا يتقبله .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا خَوَى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) إذن فالعمل إن لم يكن حالاً لله فلا ثواب عليه



(١٦) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأبو يعنى في أحاديثه والذريعطى بالفاظ

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ
وَأَرْسِلْنَا مَنَّا بَرَكَاتٍ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

هناك فرق بين أن تُكَلِّف بشيء فتعده نجس ، وأن تجعل شكية التكليف وتخرج من عملك خروج الذي ألقى عن كاهله عبء التكليف . . في هذه الآية الكرنية دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل وكانا يقولان يارب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد جعلنا ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتسبنا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نمدح حلاوة التكليف منك مرات ومرات . . ربنا واجعلنا مسلمين لك . . نسلم كل أمورنا إليك .

إذ الإنسان لا يمكن أن ينتهي من تكليف ليطلب تكليف غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان استمتاعا في التكليف إلا إذا استحضر الحزاء عليه . . كل عمل شئت ، مستحضر العيم الذي ينتظره على هذا العمل لطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرعا من دمع لقواعد من البيت قالوا « ربنا واجعلنا مسلمين لك » ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما . . فيقولان « ومن ذريتنا أمة مسلمة » . . ليتصل أمد منيح الله في لأرض ويستمر لتكليف من ذرية إلى ذرية ، في يوم القيامة . . لم يقولان « وأرسلنا مَنَّا بَرَكَاتٍ عَلَيْنا » أي بيننا يارب ما نريده من . . بين لنا كيف نعبثك وكيف نتقرب إليك . . وأما ما سكت « فربنا » أن إبراهيم يرحب في فتح أبواب التكليف على

وقوله « وأرسلنا مَنَّا بَرَكَاتٍ عَلَيْنا » فربنا أن إبراهيم يرحب في فتح أبواب التكليف على

نفسه ، لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهير للنفس وغيرها للدرجة وبعبارة في الآخرة . ولذلك يقول كما يروى لك الحق : « وتب علينا إنك أنت التوب الرحيم » . وتب علينا ليس ضرورياً أن نفهمها على أنها توبة من المعصية . وأن إبراهيم وإسماعيل وقفا في المعصية فيريدان إثباتاً إلى الله . وإنما لأيهما علم أن من سيأتي بعدهما سيقع في الذنب قطعاً التوبة لتوبتهما . ومن أين علينا ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم . « ومن كفر فأنتمعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » .

لقد طلبنا من الله نبارك وتعالى التوبة والرحمة لتوبتهما . والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أقبح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع عن بغيره وقد أضله في هلاكة . . لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من مهبج الله لتعطيه بها عاجلاً فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمناً - مستجده مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصي . ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وبدمت عن ما فعلت فإن الله لا يعفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات . . وقلنا ن تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشرك كبير . لأنه لو كان الذنب الواحد يمحطك خالداً في النار ولا توبة بعده لتجر العصابة وازدادوا شراً . ولاصيب المجتمع كله بشرورهم ولئیس الناس من أحرمتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) (١) .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .



﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٣﴾

دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويريد رحمته على عبده . بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منج السوء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد لناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة « رسولا منهم » ترد على اليهود الذين أحرمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم . . ونحن نقول لهم ان جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق . ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأح لإسحاق . ولا حاجة لما تدعونه من أن الله فضلكم واحتراكم على سائر الشعوب . . إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم في الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم ان هذا السبي من سبل إبراهيم وانه ينتمى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : « يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ » . . أى آيات القرآن الكريم

وقوله تعالى : « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » . . يجب أن يعرف أن هناك فرقاً بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هي أن نقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به تطبيقه وتعرف من أين جاءت . . وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم

فإن الحكمة هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قال الحق سبحانه وتعالى فيها في سخطيه لزوجات النبي .

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُدِّلَ فِي بَيْتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الاحزاب)

وقوله تعالى « وذكركم » أي وعظهم ويقودهم إلى طريق الخير ونظام الإيمان

وقوله جل جلاله : « إئتت أنت العزيز الحكيم » . . أي العزيز الذي لا يغلب بهرونه ولا يسأله أحد . . « والحكيم » الذي لا يصدر منه شيء إلا بحكمة بالغة .



﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى آثَارِهِمْ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَفِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَكَايِلُ الْمُتَكَلِّفِينَ ١٣٠﴾

سائلة إبراهيم ؟ إنها عبادة الله وحده لا شريك له ومشق التكليف ؛ فإبراهيم رأى كل ما كلفه به الله وزاد عليه . وقبيل الابتلاء بالطاعة والصبر . . فعلموا ابتلاء الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدي التكليف بعشق ومحاول أن يستبقي المنهج السليم في ذريته .

قوله تعالى : « ومن يرغب » يعني يعرض ويرفض . ويقال يرغب في كذا أي أحبه وأرادته . ورغب عن كذا أي صد عنه وأعرض . . والذين يصعدون عن ملة إبراهيم ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء الجاهلة ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى : « إلا من سعه نفسه » دليل على ضعف الرأي وعدم التفرقة بين النافع والضار . . فعندما يكون هناك من ورتوا مالا وهم غير باضحين العقل لا يتفق عملهم مع منهم سميهم السفهاء . . والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته عن ماله إلى دلي أو رعي ؛ لأنه يستفهم غير قادر على أن ينفق المال فيما ينفع . .

والقرآن الكريم يعالج هذه اسألة علاجاً دقيقاً فيقول :

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ مِنْهَا وَأَسْكُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ١٣١﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمى أموال السفهاء بأموال الولي ولم يعتبرها مال
اسفيه لأنه ليس أهلاً للقيام عليها . وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر
أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون لولي أو وصي حريصا عليها كماله أو أكثر
ولكن هو قيم فقط . فإذا بلغ الإنسان من الرشد أو شغل السفيه من سفاخته يرد
إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قصايا على آباؤهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها
بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف في أموالهم . ثم يأخذون هذه الأموال ويعترونها
هم . والذي يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له في إلقاء المال
وتقديره لحسابه الخاص ، ولكن هناك حكيم . إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن
يأكل بالمعروف . . وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله في الولاية لله لا يتقاضى عنه
شيئا . أما أن يأخذ المال ويبحثه على نفسه وشهوته وعلى زوجته وأولاده فهذا
مرفوض ويناسب عليه . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَبَسْطَ يَدَيْهِ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا غَلِيًّا كُلٌّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

إذن الذي يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضرر
والنفع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن
الصالحين » . . اصطفاة في الدنيا بالمعج وبأن جعله إماما وبالإبتلاء . وكثير من
الناس يظن أن ارتفاع مقامات بعضهم في أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن
أعطاهم رخص الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية في
الآخرة . . نقول لا ، فمنازب الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . ولذلك قال الله تبارك
وتعالى : « ولقد اصطفيناه في الدنيا » . . وأصاب : « وإنه في الآخرة لمن
الصالحين » . . نعم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية في الدنيا ونعيم في
الآخرة أي الاثنين معا .

وإذا كلف شيء يفعله لأن التكليف في صالحها ولا يستعبد الله منه شيئاً . . وإذا قال
الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أخيراً مصاعفة في الآخرة وبقدرة
الله .

وهكذا يرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته في الحياة الدنيا طبق لما
أراد الله . . وفي هذه الحالة يكون قد أسحى مع الكون كله ونجد أن الكون يخدمه
ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوى يمكن أن يصعب ، وعلى عني
يمكن أن يفقر وعلى موجود يمكن أن يموت ويصح لا وجود له ولذلك فهو في
هذه الحالة يتصف بالسعادة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع



وَرَمَىٰ بِهَا إِتْرَهُمْ بَيْنَهُ وَيَتَقَوَّبُ يَنبِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ
لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٢﴾

عندما نقرأ كلمة وهي فاعلم أن الوصية تأتي لحمل الإنسان على شيء يافع في آخر وقت لك في الدنيا ، لأن آخر ساعات الإنسان في الدنيا إن كان قد عيش فيها يغش الناس جميعا ساعة يحتضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يمس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية من عظة تحب أن يستمك بها من تنصحه وتقولها له مخلصاً في آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتي الله سبحانه وتعالى ليبي لنا ذلك في قوله :

﴿أَمْ كُنْتُمْ تُهْمَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة)

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائماً تكون لمن تحب . . وأن حبة الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤثراً أم كاثراً . . ونحن لا نتمنى أن يكون في الدنيا من هو أحسن منا إلا أبناؤنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصى إبراهيم بنيه، ويعقوب وصى بنيه . وكانت الوصية « يا بني إن الله اصطفى لكم الدين » إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب، ولكن كانت أمرا يختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا

أولادهما إلا بما اختاره الله .. فكان إبراهيم ائتمس الله على نفسه فنهض اسكائيف
والتفتنه على أولاده فأراد منهم أن يتسكروا بما اختاره لهم الله .

قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » إبراهيم هو الأب الكبير
وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب .. ويعقوب هو الأب المباشر لليهود ويعقوب
وصاهم كما يروى لنا القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا دينكم باليهودية
إلا وأنتم مسلمون » .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان في امكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا
كان في امكانه أن يتفقه . فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت
لا يملكه أحد . إنه يأتي في أي وقت فجأة . ولكن مادام يعقوب قد وصى بيه
« لا تأخذوا دينكم باليهودية » فالله لا يفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يندجثكم
الموت إلا وأنتم مسلمون

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسه .. ليكون هذا إعلاما به
ويتوقعه الناس في أي من وفي أي مكان وفي أي زمان .. ولذلك قد يلتبس الحافيه
في أشياء يكون الموت فيها . والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أسبابه

أي إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء . أما
إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا في الموت ، كأن تلعب لإجراء عملية جراحية
فتكون سبب موتك . فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يففل عنه
أدنا .. حتى لا يأتيه الموت في غفلة فيموت غير مسلم .. ولعياذ بالله .



﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ
لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ
وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا
وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣)

هذا خطاب من يعقوب بنطوى وعس اليهود المعاصرين لرسول القرآن الكريم . .
يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم
 وإسحاق وإسماعيل وإلهنا واحدا ونحن له مسلمون » . .

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون . .
وتأمل دقة الألفاظ القرآنية في قوله تعالى : « نعبد إلهك وإله آبائك » . . فكان لم يحدث
بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه
وتعالى الواحد . . ولذلك قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : « إلهنا واحدا » . .
وستأخذ من هذه الآية لفظة تفيدنا في أشياء كثيرة لأن القرآن سيجرئ في قصة
إبراهيم أنه تحدث مع أبيه في شئون العقيدة . . فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَوْرَثِيكَ إِنَّمَا أَسْأَلُكَ الْهَدْيَ لِي وَنَحْنُ مِنَ الْخَائِلِينَ﴾
مُحَمَّدٌ (٧١)

(سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل
ابن إبراهيم . . والرسول عليه الصلاة والسلام قال :

(أنا سيد ولد آدم) (١)

فإذا كان آزر أبو إبراهيم كاهناً وعابداً للأصنام . فكيف تصبح سلسلة النسب الشريف ؟ يقول إنه لو أن القرآن قال : وإد قال إبراهيم لأبيه : وسكت لكأن المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم . . ولكن قول الله : « لأبيه آزر » . جاءت لحكمة لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس هو الأب ولكن العم . فأتت إذا دخلت مرلاً وقابلت أحد الأطفال تقول له هل أبرك موحود ولا تقول أبوك علان لأنه معروف بحيث لن يحصل العنفل فيه . ولكن إذا كنت تفقد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك علان موحود ؟ فأتت في هذه الحالة تفقد العم ولا تفقد الأب لأن العم في منزلة الأب خصوصاً إذا كان الأب متولياً .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « لأبيه آزر » يذكر الاسم صحاه لعمه آزر . . فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبني ما يصنعون من يعبدن قالوا نعبد إلهك وإله آبائك » . والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الخلد يطلق عليه أب . وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب وإسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل إسحق .

إذن ففي هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحق . . ويعقوب الذي حضره الموت هو ابن إسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا آباهم قالوا آبائك ثم جاءوا بأسئلتهم بالتحديد . وهم إبراهيم الخلد وإسماعيل العم وإسحق بر يعقوب وأطلقوا عليهم جميعاً لقب الأب . فكان إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو إسمحق أطلق عليه الأب وهو الأب . فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(أنا أشرف الناس حباً ولا فخر) (٢) .

(١) أخرجه الإمام مسلم

(٢) أخرجه البخاري في مسند القرون

يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أنا سيد ولد آدم)^(١) .

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبى إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام نقول له لم يكن آزر أبى لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم : « لآيه آزر » وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة إسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسحاق كان مقبلا في مكة بعيدا عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمني لأن إسحاق أكبر من إسحق بأربعة عشر عاما .

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آبه . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لعظم الأب يطلق على العم . .

والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يهتد أيها إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا ينفى تعدد الألوهة . لذلك قال سبحانه : « إنها واحدة »



﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ
مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْشَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٤)

وقوله تعالى : « خلت » أى انقضت . وحلا فلان بفلان أى نفوذ به . . . وخلا المكان من نزيله أى أصبح المكان منفردا ، والنزول منفردا ولا علاقة لأحدهما بالآخر . . . الله تبارك وتعالى يقول .

﴿وَإِذَا سَأَلُوا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُمْ قَالُوا إِنَّا نَعْرِفُهُ إِنَّمَا نحنُ مُتَّبِعُونَ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة البقرة)

أى منفردوا هم وشياطينهم ولم يعد فى المكان غيرهم ، ولقد قلنا إن كل حدث لا بد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بداته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان ويحتاج إلى مكان . . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « تلك أمة قد خلت » فمعناه إنه إنقضى زمانها وانفرد من زمانكم

والمقصود بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت » أى انتهى زمانها . . . وتلك إسم إشارة لمؤنث غاصب وأمة هى المسار إليه والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وبهامة المسلمين . والله سبحانه وتعالى حين يقول : « تلك أمة » فكأنها عمرة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا . . . ولذلك لا بد أن يخاطبها بالوحدة . . . وإقرأ قوله تعالى .

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مِنْكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَسُودٌ فَاعْبُدُونِ﴾ (١٦٥)

(سورة الأنبياء)

وتلك هنا إشارة لامة إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب .. هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ .. لى تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلت كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وابراهيم فرد وليس جماعة ؟ نقول نعم إن ابراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع الا في امة

وقوله تعالى . « قد خلت » يراد بها إتهام اليهود ألا يشبوا أنفسهم إلى ابراهيم نسبا كادبا لأن نسب الانبياء ليس سباعويا أو جسيا أو انتهاء . وإنما نسب منجى واتباع .. فكان الحق يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة ابراهيم ولا اسحق ولا يعقوب . لأن نسب النبوة هو نسب إسمائيل فيه اتباع للمنجى والعقيدة . ولا يشمع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله

قوله تعالى : ﴿فَا مَا كَسَبْتُمْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ .. الكسب يؤخذ على الخير والاكتساب يؤخذ على الشر لأن الشر فيه افعال .

اننا لابد ان نلتفت وننتبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الصنع في القرآن . فلا يوجد معنى لآية تهلها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم .

يأتى بعض المستشرقين ليقول هناك آية في القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطى بالأنساب وذلك في قوله جل جلاله :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ

عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿٢١﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : « ألحقنا بهم ذريتهم » كلمة ألحقا تأتي عندما تلحق ناقصا بكامل .. فإذا كنن الاثنان مؤمنين فكانتك تريد درجة الأبناء إكراما لأبائهم المؤمنين .. نقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر .. الأب والذرية مؤمنون ولكن الأباء تغافوا في العمل والأبناء ربما قصرُوا قليلا . ولكن هنا وضع درجة بالنسبة للمؤمنين أى لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين . ولكن غير المؤمنين يفعلون ليس هم علاقة بأبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر . فالأباء لهم أعمال حنة كثيرة .. والأبناء هم أعمال حسنة أقل . يرسل الله الأبناء في الجنة مع أبائهم لأن الإيمان واحد .

وقوله تعالى : « وما ألناهم » أى أنقصناهم من عملهم من شيء . إذن فالأباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله يفضلهم يلحق الأبناء بالأباء .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. هذه عمله الإيمان و العقيدة .. قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول .

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَنْ يَتَسَوَّى لِلْإِنْسِيِّ إِلَّا مَا سَعَى ﴾

(سورة النجم)

فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون معنى ؟ يقول افهموا لتصوص جيدا . قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذى يعطيه الله سبحانه لم من شاء من عباده ، وهذا يعطى بلا حساب . ثم من الذى قال

إن هذا ليس من سعيهم ؟ إن إلخاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لأبائهم تكريم لعمل الأباء وليس زيادة لعمل الأبناء .

ولقد روى لنا العشاء أن ولداً كان مؤمناً طائعاً هادئاً وأبوه كان مسرفاً على نفسه . . فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنس . . فتعجب الابن كيف يذلل أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفاً على نفسه فسأله : كيف وصلت لهذه المنزلة ؟ فقال الأب أي منزلة . . قال الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين . . فقال الأب وهل فهمت أنها نعيم لي . . قال الابن نعم . . فقال الأب : لاء أنا عقوبة لها . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ غَضِبَ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فَإِنَّكَ فَالِقَ لَحْمِ الْحَمِيرِ تَمَّ يَجْمَعُونَ ﴾ (١)

(سورة يونس)

إذن أنت في الآخرة ستفرح بغضب الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح . . مصداقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(سددوا وقلوبوا وأبشروا فإنه لن يُنْخِلَ الجنةَ أحداً عمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتخمدن الله منه برحمته) (١) .

ربما يأتي أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو المقصد الشرعي منها . . إن كانت نفعاً فستكون الفائدة زيادة على عمله . . وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها ؟

نقول مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة . وهل تظن أن الصلاة هي التي ليست من عمله ؟ هي داخلية في عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذي دفعك للصلاة عليه . . والذي تدعونه بالخير والرحمة وبالمنفرة وتقبلها الله . . أيقال أنه أخذ خير عمله ؟ لا، إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه . . ولكنك لا تدعو مثلاً

لإِصْطِحَ بِيدِكَ إِلَى خِيارَةٍ أَوْ إِلَى فَاحِشَةٍ أَوْ إِلَى مَنكَرٍ . . بل تَدْعُونَ لِمَن أَعْطَاكَ خَيْرًا
فَإِنِ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَكَ فَهُوَ مِنْ عَمَلِهِ .

اللَّهُ مَبْجُودٌ رَتَعَالَى يَقُولُ إِنِ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنْ سَبْقِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ لَا نَسْأَلُونَ
عَنهُ . . وَإِنِ كُنتُمْ تَدْعُونَ أَنِ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَقُلْ لَكُمْ أَنْتُمْ لِمَن تَسْأَلُونَ
عَمَّا كَانَ يَعْمَلُ إِبْرَاهِيمَ وَلَكِنِ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ . السَّؤَالُ يَكُونُ عَنْ عَمَلِكُمْ .



﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥)

عندما تأتي - قالوا - فمعناها إن الدين قالوا جماعة .. الدين قالوا هم اليهود والنصارى. ولكن كلا منهم قال قولاً فمعناها عن الآخر .. قالت اليهود كونوا هوداً. وقالت النصارى كونوا نصارى ..

ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون. ويقابل كل هؤلاء المؤمنين « وقالوا كونوا » من المقصود بملخصنا ؟ المؤمنين .. أرق قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركون والنصارى كونوا هوداً .. وقالت النصارى لليهود والمشركون والمؤمنين كونوا نصارى .. لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا في نفسه .. ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى ونوراته الصحيحة، وأخذ من المسيحية عيسى وأنجيله الصحيح . وكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك أن الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن . ولذلك نجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾

(من الآية ٢٨٥ سورة البقرة)

وبلاحظ أن المشركين لم يدخلوا في القول لأنهم ليسوا أهل كتاب .

قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفا » . . أى رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأننى سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفية . . وهم لا يمكن أن يخالفوا فى إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم . . وانتصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم يتفرو عنه النبوة ولكن كلا منهم أراد أن يسبه لنفسه

بما معنى حنيف ؟ إن الاشتقاقات اللغوية لا بد أن يكون لها علاقة بالمعنى الثعوى . . الحنف ميل فى القدمين أن ثيل قدم إلى أخرى . . هو تقوس فى القدمين فتبين القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف . ولكن كيف يؤتى بلفظ يدل على العرج ويجعله رمزا للصراط المستقيم ؟

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عند ما تعم العلة مبعج الله . . لأنه نادى واحد من أتباع الرسول من يدعو إلى مبعجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون هناك خير .

النفوس الشريفة لها ألوان فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فبأنى من داخل النفس ما يستتكر هذا انشر فتعود إلى الخير . . ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهى التى لا تعيش إلا فى الشر تأمر به وتجرى الآخرين بفعله . إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أماراة بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لَا يَفْهَمُونَ عَنْ مَكْرِعِهِمْ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الثالثة)

تدخل النساء برسول يعالج عوجاج المجتمع ولكن الله تارك وتعالى وضع عصر الخيرية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة قال تعالى .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالْقَدَرِ وَلَوْ عَلِمَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد ائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج .. ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلن يأذن رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

نعود إلى قوله تعالى حنيفا .. قلنا إن الحنف هو الاعوجاج .. ونقول إن الاعوجاج عن المروج اعتدال .. والرسول لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع . ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال .. لأن محالة الاعوجاج اعتدال .

وقوله تعالى : « حنيفا » تذكروا بنعمة الله على الوجود كله لأنه بصحح خلة البشر عن منح الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال .. والهداية عند اليهود والنصارى مفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشرا يهوى بشر .. والله سبحانه وتعالى قال :

﴿وَرَبِّ رَضَوْنَا عَنْكَ آيَهُدُ وَلَا النَّصْرَيْنِ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ولقد تعابش رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه . وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا حقا ولم يكن مشركا ..



﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى
وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٣٦)

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيراً لقوله تعالى : « ملة إبراهيم » إيمان بالله وحده لا شريك له . إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ولأسباط وما أوتي موسى أى التوراة وما أوتي عيسى أى الإنجيل وما أوتي السيوف بالإجمال فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدير وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد . . وأن كل شيء يخرج من ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا نقبه

قوله تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » وهو القرآن الكريم . ولا يمكن أن يعطى عليه ما يعطى مع . ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ولأسباط هذه ملة إبراهيم . . وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحى الله إليه . . والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعادة الله الواحد الأحد الذى لا شريك له .

وقوله تعالى : « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » . أى ان إبراهيم كان مسلماً وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر . . ومعنى الإسلام أن هناك مسلماً ومسلماً إليه وهو الله عز وجل . ونحن نسلم له فى العبودية - سبحانه وفى اتباع

منهجه . . والإنسان لا يسلم وجهه إلا لن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولن لا هوى له . فإن تشككت في أحد العاصر وإسلامك ليس حقيقته وإني لنخس . . وأنت لا تسلم رمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه هني عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلى ما في يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له .



﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا
وَلَوْ نَوَّلُوا فَأَنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ
اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يقول إن السؤال الذي يطرح نفسه بالسبب هذه الآية . . هل لما آمننا به مثل حتى يؤمنوا به ؟ إنك لكي تؤمن لابد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل إذا قلنا أحد بعلمك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته ؟ يكون قال مثل ما قلت أي إنني حين أعلن إيماني وأخذ الشهادة التي قلناها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقنا به لا يفارقك أنت . . ولكن إذا صحت شيئا وقلت لغيري أصنع مثله هو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعت أنا .

الشيء نفسه حين تقول لي : تصدق بمثل ما تصدق به فلان . لن تكون الصدقة هي المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان ضميرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أي أن يصنعوا إيمانهم مثنا بالله ورسوله . . فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه في الإيمان . فالمثلية هنا في العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ أي اهتدوا إلى الحق . . ﴿ وَإِنْ نَوَّلُوا فَأَنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ وتولوا يعني أعرضوا . وشقاق يعني خلافا معكم وخلافا مع بعضهم البعض ؛ فلكل منهم وجهة نظر يدعيها وهداية اخترعها . . حتى إذا اتفروا في الكفر فلن يلتقوا في أسباب الكفر كل واحد اتخذ سبيبا ولذلك اختلفوا . . والشقاق من التشقة والتزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين .

وقوله تعالى : « فسيكفيكم الله » أي لا تلجأت إلى معاركم ولا إلى حوارهم فالحق يكفيكم بكل الوسائل ممن سواه وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّتُكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ ضَالٌّ

مِنْ هَادٍ ﴾

(سورة الزمر)

الله سبحانه وتعالى يقول لمبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فالحق سبحانه وتعالى يكفيكم لأنه عليم بجميع بصير لا يخفى عليه شيء . . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذائه بالسحر فأطاع الله كيدهم وأظهر ما خفى منه وأطلع رسوله عليه . . . فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيكفيكم الله شرها ولذلك قال تعالى : « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » . . . أي جميع ما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما في صدورهم قبل أن ينطقوا به . . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه ، وكل كيد قبل أن يتم هو محبط . فإذا كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يحصل إليك ؟ وأنت معك خالق هذا الكون ومدبره الذي لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض . . . عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . . ومدام معك الغنى الذي لا يضعف أبدا والخي الذي لا يهرت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخش أحدا لأنك في أمان الله سبحانه .



﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُّ لَهُمْ عِبَادُونَ﴾

ما هي الصبغة ؟ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يغيره لونه آخر . .
تصبغ الشيء أحمر أو أزرق أو أى لون تختاره . والصبغ ينفذ في المصوغ خاصة إذا
كان المصوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . ولذلك فإن الألياف الصناعية
لا يمكن أن تصبغ لماذا ؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة في تركيبها

وإذا جئنا بقديل من الزيت ووضعنا فيه فتيلة من القطن بحيث يكون رأس
الفتيل في الزيت ثم تشعله من أعلاه نجد أن الزيت يسرى في الألياف، ويشعل
الفتيل . فإذا جربنا هذا في الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسرى فيها الزيت وإذا
لنا تآكل للألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . ولذلك نجد
لألياف الصناعية سهوة في الغسيل لأن العرق لا يدخل في مسامها بينما الملابس
لפטية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والزيوت

إذن الصبغة لا بد أن تتدخل معها في مسام الفياش . أما الصلابة فهو مختلف .
إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيناها . . ولذلك فإن الذين يفتنون في طلاء الأظافر
بالسببة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . احسن صبغة تتحلل المادة
الحية وتبقى حتى يذهب الحبل بها أى لا نستطيع أن نزيهاها عندما تريد . ولكن
الصلابة يمكن أن نزيهاها في أى وقت ولربعد إنشامه بلحظات . إذن صلابة الأظافر
ليس صبغة .

قوله سبحانه : « صبغة الله » فكان الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على

رسوله هي الصبغة الإلهية التي تتخلل في الجسد البشري . ولذا كلمة صبغة ؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله . إنه ليس صبغة من خارج جسدك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق . . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب حتى يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(١) .

فكان الإيمان صبغة موجودة بالفطرة . إنها صبغة الله . . . فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أى بأحدانه ووضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية . . . هذا هو معنى صبغة الله

ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا . . . هذا الاختلاف في اللون من صبغة الله . . . اختلاف ألوان البشر ليس طلاء وإنما في ذات التكوين . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر . هذه هي صبغة الله . . . وما يفعلونه من تعمد للطفل لا يعطى صبغة . لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان وإنما يأتي من داخله . . . ولذلك فإن الإيمان يبرز كل أعضاء الجسد لشري . وافرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ تَزَكَّى أَحْسَنَ الْخَبِيثِ كَتَبْنَا أَتَشَبِهَانِي نَقَّشْتُ فِي جُلُودِ الَّذِينَ يَمْشُونَ رِيسَمٌ ثُمَّ نَبِّئُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ذِكْرٌ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِرَّهْمَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

(سورة الزمر)

هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب . . . أمر داخل وليس خارجيا . أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة لاسم تركوا صبغة الله . ونقول لهم : لا هذا الطلاء من عندكم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله . . .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه .

وقوله تعالى : « ومن أحسن من الله صبغة » . . استفهام لا يمكن أن يكذبه
ولكن الجواب يأتي على وفق ما يريد السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن
من الله صبغة .

وقوله تعالى : « ونحن له عابدون » أي مطيعون لأوامره والعايد هو من يطيع أوامر
الله ويحسب ما بهي عنه .

والأوامر دائما تأتي بأمر به مشقة بطلب منك أن تفعله والنهي يأتي عن أمر محبب
إلى نفسك هناك مشقة أن تتركه . ذلك أن الإنسان يريد النعم العاجل . النعم
السطحي ، والله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى النعم الحقيقي . النعم العاجل يعطيك
لذة عاجلة ويمسك نعيمنا دائما في الآخرة ونمتعا بقدرات الله سبحانه وتعالى

وأنت حين تسمع المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك
لذة عاجلة كأن تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو يلعب الطاولة أو غير ذلك .
وتترك ذلك النعم الحقيقي الذي يقودك إلى الجنة . ولذلك قال الله سبحانه .

﴿ إِنَّمَا لَكُم مِّنَ النَّاسِ عَلَى الْحَنَنِ ۖ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَنَّهُمْ مَلَكُوا رَبَّهُمْ ﴾

(من الأين : ٤٥ - ٤٦ سورة البقرة)

إذن العبادة أمر وهي . . أمر يشق على نفسك فتستقله ، وهي عن شيء محبب
إلى نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله .

إذن فقوله تعالى : « ونحن له عابدون » . أي مطيعون لأوامره لأننا آمننا بالأمر
لها ورينا يعبد . . فإذا آمنت بحب الله إليك فعل الأشياء التي كنت تستقلها وسهل
عليك الامتناع عن الأشياء التي تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة . . هذه هي صبغة الله
التي تعطيت العبادة . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَعْلَمُوا أَن فَيْكُم رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكُم مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ

إِلَّا الْإِيمَانُ وَزَيْنًا فِي ثُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانُ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الحجرات)

وهكذا فإن الله سبحانه ومعاني بصيغة الإيمان بحسب إلها الخير ويجعلنا بغير
الشر لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التي تتحلل الشيء
وتصبح هي وهو شيئاً واحداً لا ينفقان ..



﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا
أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾

تحديد الأمر بـ « قل » إيقاظ لهمة التكليف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .
والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام - قل - كان يكفي أن
يقول ما يريد سبحانه . فاستدأ ، قلت لا ينك اذهب إلى أخيك وقل له أبوك بأمرك
بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل . . ولكن خطب الله
لرسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتنا إلى أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه
من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هي البلاغ .

إن تكرار كلمة « قل » في الآيات هي نسبة الكلام المقول إلى عظمة قائله الأول
وهو الله تبارك وتعالى . . فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن قائله هو الله جل
جلاله .

قوله تعالى « قل أتُحَاجُّونَنَا في الله وهو ربنا وربكم » . . المساجعة معها حوار
بالحجة ، كل من المتحاورين يأخذ بالحجة التي تؤيد رأيه أو وجهة نظره . . وإذا قرأت
قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجُّوا بَرِيذِينَ فِي رِيَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة الفرقة)

أي قال كل منها حجة . . ولا بد أن يكونا حصصين كل منهما يعاند رأيه الرأي

الأحر وكل يحاول أن يأتى بالحجة التى تثبت صدق كلامه فيرد عليه بخصمه بالحجة
التي تهدم هذا الكلام وهكذا .

قوله تعالى : « المتحاجون في الله وهو ربكم وربكم » . ومندام الله رب الجميع كان
من المعلن أن ينقضى لأنه ربى وربكم حطنا منه سواء . . ولكن مادامت قد قامت
الحجة بيننا فأخذنا على باطل . . واقرا قوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُمُوعٌ ذَاتِ حِمْلٍ مُنْذِرٌ وَعَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
عَصَبٌ وَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

(سورة التوبة)

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل
وباطل لأن هناك حق واحد ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل . . فمادامت
المحاجة قد قامت بينا وبينكم ونحن على حق فلا بد أنكم على باطل . . وليحسم
الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ونصح الجدل والجدال قال سبحانه : « ولكم أعمالنا
ولكنكم أعمالكم ونحن له مخلصون » . أى لا نريد جدلا لأن الجدال لن يعيد شيئا . .
نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيحارى صاحبه عليه يندى إخلاصه
للله . ونحن أخلصنا العبادة لله وحده وأنتم التجهنم بعبادتكم إلى ما تحبه
أهواؤكم

إن الله سبحانه وتعالى الذى هو ربنا وربكم لا يفضل أحدا من أحد إلا بالعمل
الصالح المخلص لوجه الله . ولذلك فنحن نصنع الإخلاص أولا وقد يكون العمل
واحد، كعلم الناس . . هذا يأخذ به ثوابا وذلك يأخذ به وزرا وعدبا فالله هو أن
يكون العمل خالصا لله .

قد يقول إنسان إن الإخلاص فى العمل والعمل مكانه القلب . ومندام الإنسان
لا يؤدى أحدا ولا يفعل منكرا فليس من الضروري أن يصل بمادامت النية
خالصة . نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات . . ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول :

(إثنا الأعمال بالنيات) (١).

فلا بد من عمل بعد النية . لأن النية تنفع بها وحدك والعمل يعود على الناس . . فإذا كان في نيتك أن تصدق وتصدقك انتفع الفقراء بمالك . . ولكن إذا لم يكن في نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو يرضى بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنفع أنت بثواب هذا المال . والله سبحانه وتعالى يريد أن يفتن عملك نية الإحسان لله . والعمل حركة في الحياة. والنية هي التي تعطي الثواب لصاحبه أو تجمع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله .

﴿ إِن تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٦١ ﴾

(سورة البقرة)

فإنه سبحانه وتعالى يريد أن تصدق . والمخير سينفع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق . أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفي صدقتك . فاعمل بفعل فينتفع به الناس سواء أردت أم لم ترد أنت إذا قررت أن نبي عبارة ، لنية هنا هي التمسك . ولكن تنفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذي باع لك قطعة الأرض والذي أعد لك الرسم الهندسي وعمال الحفر والذي وضع الأساس ومن قام بالناء وغيرهم وغيرهم . . هؤلاء انتفعوا من عملك بمرورهم . سواء أكل في مالك الله أم لم يكن في مالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد . . ولكن الله لا يجزي على الأعمال باطلاقها وإنما يجزي على النيات بإحسانها . . فإن كان عملك خالصاً لله حراك الله عليه . وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

إن الذين يتعجبون من أن إسماعيل كافر أقدم كشعاً هاماً لبشرية ولكنه لم يكن مؤمناً بالله . . يتعجبون أيعذب في النار؟ تقول نعم لأنه عمل وليس في فيه الله ولذلك يجزي في الحياة الدنيا ، فتقام له انتباهات ويطلق اسمه على الميادين ويحلى اسمه في الدنيا التي عمل من أجلها . ولكن مادام ليس في نيته الله فلا جزاء به عند الله .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والسنائي والترمذي وابن ماجه وأبو يعقوب في الخلية والدارقطني بإسناد

﴿ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
قُلْ أَنْتُمْ أَهْلُ أُمِّ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴾

اليهود والنصارى ادعوا أن الأنبياء السابقين لوسى وعيسى كانوا يهودا أو
نصارى . فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا . والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى ،
الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله : « قُلْ أَنْتُمْ أَهْلُ أُمِّ اللَّهِ » .

والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أهل من
الله . . . وقلنا إنه إذا طرح سؤال في القرآن الكريم فلا بد أن يكون جوابه مؤيدا بما
يريد الحق سبحانه وتعالى ولا يوجد له إلا جواب واحد . . . ولذلك فإن قوله تعالى :
« أَنْتُمْ أَهْلُ أُمِّ اللَّهِ » . . . والله لا شك أعلم وهذا واقع .

إذن نكان الله بالسؤال قد أخبر عن القضية . ولكن يلاحظ في هذه الآية الكريمة
ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . . . وفي ذكر إسماعيل دائما مع
إسحاق ويعقوب يدل هل وحدة البلاغ الإيماني عن الله : لأن إسماعيل كان في أمة
العرب وإسحاق ويعقوب كانا في بني إسرائيل .

والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيماني لخلقهم ، لأنه لا علاقة
أن يكون إسماعيل للعرب وإسحاق لغير العرب بوحدة المنهج الإلهي . ولذلك نقرأ قول
الحق تعالى :

﴿قَالُوا تَعْبُدُوا إِلَهَكُمْ وَإِلَهَ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّهَا وَاحِدَةٌ وَنَحْنُ قَوْمٌ مُّسْلِمُونَ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الفرقان)

والله الذي بعث إسماعيل هو الله الذي بعث إسحق إلى واحد أحد . . . وما دام الإله واحداً فالمنهج الإيماني لا بد أن يكون واحداً . . . فإذا حدث خلاف فالخلاف من البشر الذين يجرهون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم . . . وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يعصيكم إليكم شيئا في الآخرة . . . إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننسب إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق . . . وإن كانوا غير ذلك فلا يضرهم شيئا



﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول .

﴿أَمْ كُمْ شُهَدَاءُ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ النَّوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قُلُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ رَبَّنَا وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّهَا وَاحِدَةٌ وَنَحْنُ لَهٗ مُسْلِمُونَ﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

(سورة البقرة)

بعض السطحيين يقولون إن في هاتين الآيتين تكراراً . نقول إنك لم تفهم
المعنى . الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق لن يشفع لكم عند
الله بما حرفةتموه وغيرتموه في التوراة . . . ولما فعلوه من غير ما شرع الله ، فاعلموا أن
عملكم هو الذي ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

أما في الآية التي نحن بصددنا فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هودا
أو نصارى . . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض . وهذا فرض غير

صحيح - إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم . . لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة ولا تقولوا إنما كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أي كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة . وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين .

إياك أن تقول إن هناك تكراراً . . فإن السياق في الآية الأولى يقول لا شعاعة لكم يوم القيامة في سبكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . والسياق في الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة في قولكم بهم كانوا هودا أو نصارى . فليس بنفسكم سبكم إليهم ولن يقبل الله حجبتكم وهكذا فإن المعنى مختلف تماماً بحسب موقفين مختلفين يوم القيامة



﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَيْهِمُ الَّذِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

هذه الآية نزلت لتصفى مسألة توجّه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى
الكعبة بدلاً من بيت المقدس . . وهذا أول نسخ في القرآن الكريم . . يريد الله
سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية الالفة . . لأنه سيكون منار تشكيك وجدل عنيف
من كل من يعادى الإسلام . فكما قرئش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك
المنافقون واليهود .

الله يبارك وتعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات . . فيقول جل
جلاله : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » . .
حرف السين هنا يؤكد إنيهم لم يقولوا بعد . . ولذلك قال سبحانه : « سيقول
السفهاء » فحين أن يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى: إن هذه العملية ستحدث هزة
عيفة يستغلها المشككون .

ورغم أن الله سبحانه وتعالى قال : « سيقول السفهاء » . . أي أنهم لم يقولوها
إلا بعد أن نزلت هذه الآية . . مما يدل على أنهم سمعوا حقا . . لأن الله جل جلاله
أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم في قرآن يتلى ويصل به ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم
القيامة . . قال : « سيقول السفهاء من الناس » . . فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم
يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكا في القرآن الكريم . . لأنهم في هذه الحالة
كانوا يعلمون أن يقولوا: إن قرآننا أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتغير
ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن
قبلتهم » . . ولم يقل أحد شيئا . .

ولكن لأنهم سفهاء فعلا .. والسفه جهل وحق وطيش قالوها .. فكأنوا وهم الكافرون بانقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المشين للإيمان الذين تشهد أممهم بصديق القرآن. لأن الله سبحانه قال : « يقول السفهاء » وهم قالوا فعلا .. ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آباؤنا وليست بيت الله .. مصرف الله رسوله في أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس .. وعندئذ قال اليهود: يسفه ديننا ويتع قبلتنا .. والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوي الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة لكل .. ولذلك أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. حتى يدخل بيت المقدس في مقدسات الإسلام لأنه أصبح يحتوي في الإسلام

ولم يشأ الله أن يجعل العلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكسوا يضحون فيها أحصانهم .. ووضح الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها .. فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحرموا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة .. لماذا لم يضحروها في مكان آخر ؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام .

والله سبحانه وتعالى حين قال : « يقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » .. ولأنه يعني حرمة وربه .. والقلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس .. وهذا يأتي لخلق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة .. إنما علة التنفيذ فيما يأمرنا الله سبحانه به جبل جلاله أن الله هو الأمر .. وبأن الحق تبارك وتعالى يهون لك السبب أو العلة في تغيير القيلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان في القلوب .. لأن الإيمان والعبادة هي طاعة معبود فيما يأمر وما ينهى .. يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود في الكعبة وتعظمه بالاستلام والتقبيل .. ويقول لك : ارجع هذا الحجر الذي يرمي إلى إبليس فترجمه بأحصى ، ولا يقول الله سبحانه لماذا ؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الإيمان هنا وأصبح الأمر مسألة لقناع واقتناع .

فأما حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحاً .. ولكن الله يترك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا .. فإن أكدت مما حرمة تكون أنها وإن امتنعت تكون طاعة وثواب .

إذن العلة الإيمانية هي أن الأمر صادر من الله سبحانه .. ولو أنك امتنعت عن

شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . ولكيك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمها . . فهذه هي العبادة وهذا هو الثواب

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال . « قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . . أي أنك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أي مكان في هذا الكون فالله موجود فيه . . فبيت المقدس ليس له خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذي يعطيها هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فتحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله .

قوله تعالى . « يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . فالأمر لله .



﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا
الْقِصَّةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ١٦٣

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه . . الحق سبحانه وتعالى يريدنا ان نتنه الى نعمته
في انه جعلنا أمة وسطا . فكل ما يشرعه الله يدخل في باب المعام على المؤمنين . .
وإذا كان لا تمه إلى الكعبة هو اخبار لليقين الإيمان في نفوس المسلمين . . فإنه
سبحانه جعلنا أمة وسطا معمة منه ، ومادمتنا وسطا فلا بد أن هناك أطرافا حتى يتحدد
الوسط . . هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . . وسط الشيء متصفه او ما بين
الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا ؟ وسط في الإيمان والعقيدة فهناك من تكروا وجود الإله
الحق . وهناك من اسرفوا بعدوا الألة هذا الطرف عطلى ، وهذا الطرف
عطلى . . أما نحن لمسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد
وهذه تليبية من مدييات هذا الكون لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل
ما فيه وقال سبحانه إنه خلق ولم يأت ولم يأت من يدعى الخلق إذن بالدعوى
خالصة لله تبارك وتعالى ولو كان في هذا الكون آله متعددة لادعى كل واحد منهم
الخلق . . ولذلك فإن الله جل جلاله يقول .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَنشَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ

نَعْبُذُهُمْ عَلَى نَعَصٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة المومنون)

أى لتنازع الخلق ولاضطرب الكون . . فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة . . هل أن هناك أناساً يرفقون في مادية ويحملون القيم الروحية . . وأما ساً يحملون المادية ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها

واقع الحياة أن الماديين يفسون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة . . الإسلام جاء وسطاً فيه المادية والروح . . وإياك أن تقول إن الروح أحسن من المادية أو المادية أحسن من الروح . فالمادة وحدها والروح وحدها مسخرة وعابسة ومسحكة لله تعالى . . لكن حين تختلط المادية بالروح فإنه توجد النفس ، والنفس هي التي لها اختيار تطيع أو تعصى . . نعبد أو تكفر والعبد بالله

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء . . وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادية وحدها . . وإنما أوجد مادية الحياة محرومة بقيم السماء . فحين يحررنا الله سبحانه أنه سيجمعنا أمة وسطاً تجمع غير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليخلص البشر من أهواء البشر .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث في ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية . فما هو مادي مصل لا يختلف البشر فيه . . لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه . . فإذا عشتم بالأهواء ستشقون . . وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التي جاءت منذ أكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا ؟ يقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتفاعات هل الكذب والزيف . . ثم تراجعتم ثم انهزمت تماماً . وكما انهزت الشيوعية ستنهز الرأسمالية لأنها طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطاً . ولذلك أعطانا الله سبحانه خيرى الدنيا والآخرة .

الحق سبحانه يقول : « لتكونوا شهداء على الناس » . أى أن الحجة ستكون لكم في المستفس . وسيضطّر العالم إلى الرجوع إلى ما يقنه دينكم . . والله تبارك وتعالى قال . « أمة وسطاً » ولم يقل الوسط يكسر الواو أى المنتصف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماماً . . ولكن بعضهم سيميل

قليلاً إلى هذه الناحية أو تلك بحيث يتم النقص . . ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونورعها على الفقراء . يقول هم وعندما يأتي فقر في المستقبل . . من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء ؟

وقد سمعت من شخص له تجربة في السياسة والحكم . . قال إن الذي كان يعمل معي وأضاع ماله كله عن الخمر والفجار والنساء كان أحسن مني لأنني احتفظت بأموالي ونميتها فقالوا إنك إقطاعي وصادروها . . بهذا لك اندي أسرف لم يفعلوا به شيئاً . . قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تبيع مالك . . لأنك إن لم تنمه ودفعت عنه زكاة $\frac{2\frac{1}{2}}{100}$ فالمال يبقى خلال أربعين سنة . . ولكن إذا نجيت مالك وجاءو إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعي فلهم يقصون عن العمل في المجتمع . . لأنه إذ كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل ؟ إن الإسلام جاء ليُرِيدَ مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك . ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا يفقد عن المجتمع . . هذا وسط .

وقوله تعالى « لذكروا شهداء عن الناس » فكان الله سبحانه وتعالى أخبر أن سنحدث في الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة فاليمين أو الرأسمالية على خطأ ، والشيوخية على خطأ . أما مذهب الله الذي وضع الموارد الفسط للكون ولحياة الإنسان فهو الصواب . ثم بجرنا الحق تترك وتعالى إذ الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا . هل كان عملاً ونحركاً مطبقاً ما أمره عن رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عنه الصلاة والسلام لنا ؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المذهب .

الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا في هذه النقطة . تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيهود إلى حكمها، فذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا سادت شهادة الحق والعدل فيها

وقوله تعالى « وما جعلنا القلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » . . هذه حودة إلى تحويل القلة من بيت المقدس إلى الكعبة . الله تترك وتعالى لا يفصل انجها عن انجها . ولذلك فإن الذين يتجهون إلى الكعبة مستحلفين انجها عنهم حسب موقع بلادهم من الكعبة . هذا يتجه إلى الشرق وهذا يتجه إلى الشمال لشرقي . وهذا يتجه إلى الجنوب الغربي .

إنه ليس هناك عند الله الحجة مفضل على الحجة . ولكن تغيير القبلة جمعته الله سبحانه احتشارا إيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم شهد . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم . . ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . ولكنه اختار إيماني ليعلم الله مدى إيمانكم ومن سيطع الرسول فيما جاءه من الله ومن سيقبل هل عتيه . . فكان أمر تحويل القبلة سيحدث مرة إيمانية عنيفة في المسلمين أنفسهم . . فيعلم الله من يستمر في إيمانه واتباعه لرسول الله . . ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

وقوله تعالى : « وإن كانت لكيرة إلا على الذين هدى الله » . والله يريد هنا العلم الذي سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة . . وعملية الابتلاء أو الاختبار في تغيير القبلة عملية شاقة . . إلا على المؤمنين الذين يرحون بكل تكليف . . لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلى حلة الأشياء .

ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عمدة تحويل القبلة ثم هكذا قالوا . إن كانت القبلة هي الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام اتجهتم إلى بيت المقدس . . وإن كانت القبلة هي بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلى الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمت . . قبلة بيت المقدس كانت في زمنها والكعبة تأتي في زمنها . لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه . . ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة . ورد الله سبحانه بقوله : « وما كان الله يضيع إيمانكم » . . لأن الذين هادوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم

وقوله تعالى : « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » . . أي تذكروا انكم تؤمنون برب رؤوف لا يريد بكم مشقة . . رحيم يمنع البلاء عنكم .



﴿قَدْ زَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسَكَ قِبْلَةٌ
تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ
بِعَظِيمٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

نحن نعلم أن « قد » للتحقيق . . و « يرى » . فعل مضارع مما يدل على أن
لحدث في زمن التكلم . . الحق سبحانه وتعالى يعطيا صورة لرسول الله صلى الله
عليه وسلم . . أنه يحب ويشاق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس . . وكان
عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الرحي من نحو . فكانه صلى الله عليه وسلم
كان يتجه ببصره إلى السماء مكان إتياء الرحي . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن
يأتيه الرحي بتغيير القبلة . . فكان هذا أمر شغله

إن الله سبحانه يحيط برسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقبب وجهه برسوله
الكريم في السماء وأحبه لينحه إلى القبلة التي يرضاها . فهل معنى ذلك أن القبلة
التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها ؟
نقول لا . وإنما الرضا دائر يتعق بالعاطفة . وهالك فرق بين حب عاطفة وحب
العقل . ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن
قبلة بيت المقدس . وإنما كان ينحه إلى بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تنحبه إلى
الكعبة . . هذا يدل على الطاعة والالتزام

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : « فلوليك قبلة ترضاها » أي تحبها
بمطقتك . ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلى هذا التعبير فكان
عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع ملامح التحويل .

قال الله تعالى : « قول وجهك شطر المسجد الحرام » . . والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف . . وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان في مكان يصبح مركزاً للدائرة ينتهي بشيء اسمه الأفق وهو مدى البصر . . وما يجبل إليك عندهم أن السماء انطبقت على الأرض .

إن كل إنسان ما له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان اتسع الدائرة . وإذا كان بصره ضعيفاً يكون أمفه أقل ، ويكون هو في وسط دائرة تصفها أمامه وتصعبها خلفه .

إذن الذي يفرد الشطر هو النصف صحيح والذي يقول إن الشطر هو الجهة صحيح .

وقوله تعالى : « قول وجهك شطر المسجد الحرام » . . أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو اجعل المسجد الحرام في بصف الدائرة التي أمامك . . وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة . . إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجداً

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمى المكان الذي نصلي فيه مسجداً . . ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ويمكن تحمله مقصوراً على الصلاة ولا تزاول فيه شيئاً آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة . . أما المكان الذي تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه . . والكعبة بيت الله . باختيار الله . وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله . . ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

وقوله تعالى : « وحيثما كنتم » يعني أينما كنتم . « قولوا ووجهكم شطره » . . لأن الآية نزلت وهم في مسجد بني سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام . . وحق لا يعتمد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط وفي الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط قال تعالى : « وحيثما كنتم قولوا ووجهكم شطره » .

وقوله جل جلاله . « وإن الذين أربوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله

بمقابل عما يعملون ، . . أى أن الدين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . يعمدون أن رسول الله هو لرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل ويعلمون أنه صاحب القبطين . ولولم يتج الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن لرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصل إلى قبطين فليدا لم تتحقق ؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعمدون أنه الحق من ربهم . لأنه في التوراة أن الرسول الذي سيحيى وسيتجه إلى بيت المقدس ثم يتجه إلى بيت الحرام . فكان هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا في رهضة اليقين .

وقوله تعالى . « وما الله بمعامل عما يعملون » . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . فموقفهم ليس بطلب الحجة ولكن للمكابرة . فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إماميا . ولكنهم يريدون المكابرة



﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا
قِبَلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبَلَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ
قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْحِمٍ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْ أَتَابِعِينَ ﴾



اتباع القبلة مطهر إيمان في الدين ، فما كنت آتيت بدينك فاتبع قبلك . لا تؤمن
بدينك لا أتبع قبلك .

وقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَتَيْتَ » ساعده تسمع « وَلَئِنْ » واو ولام وإن . هذا قسم
فكان الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب
بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته . . لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل
ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد . . ولو كانوا يريدون دليلاً أو اقتناعاً
لوجهوا في كتبهم التي أبانتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم
وأعطتهم أوصافه . فكان لدليل عندهم ولكم يأخذون الأمر منها وعندنا
ومكايمة .

وقوله تعالى : « وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبَلَهُمْ » . . فكانه حين جاءت الآية بتغيير القبلة
أعلمنا الله أن المسلمين لن يعمدوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس ولن يحولهم
الله إلى جهة ثالثة . . ولكن يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون
في جانب ونحن سيكون في جانب آخر . وأنه ليس هناك لثقل بيننا وبينهم . قال
سبحانه : « وَمَا يَعْصُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ » . . فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم
القيامة .

وقول اخي . « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن
الظالمين » .. حين يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه
وسلم بهذه الآية .. وهو يعلم أن محمداً الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع
أهواءهم .. نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم

إن الله يخاطب أمة في شخصه قائلاً : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك
من العلم إنك إذا لمن الظالمين » .. ما هي أهواء أهل الكتاب ؟ هي أن يهادنهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه في كتبهم أمره الله .. وهكذا
يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعاً . فكان الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد
عليه الصلاة والسلام .. إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون
من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان . وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا
من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن الخطأ هنا ليس قيمة من قبح الإيمان التي تفسد العقيدة كلها . والله
سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من
رسوله ولو أنها لن تحدث . ولكن لتعرف أنها مرفوضة تماماً من الله على أي مستوى
من مستويات الإيمان حتى في مستوى القبة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا العمل
تماماً



﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦٦)

الله تبارك وتعالى يقول إن الدين بجامعهم الكتاب فبلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ورسالته التي يحولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يشرح لنا ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَأَوَّلَ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِن جَاءَهُمْ مَا عَرَّمُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١٦٦)

(سورة البقرة)

فكان اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطوب منهم أن يؤمنوا به . إن كتب لأخبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كتب ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه ؟ فقال كتب وهو من أخبار اليهود : أعره كمعرقى لابسى ، ومعرقى لمحمد أشد . فلما سأله لماذا ؟ قال لأن أبى أخاف أن تكون امرأتى خانتى فيه أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه المذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا يحطك .

إذن عاقل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمانه ورسالته . وانذين أسموا منهم وأمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا

وكفرو بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه .
ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم
يعلمون » . . . وساعة نقول كتم الشيء فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز
ويتشر . . . والحق بطبيعته لا بد أن يبرز ويتشر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى
مجهود .

إن الدين يحقق في القضايا الدقيقة محاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . .
فيحاولون من يجمعون معه لا ينام حتى نهار قواه فينطق بالحقيقة . . لأن الحق بالحق
لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذي يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم الطق
بالحق عملية شاقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « ليكتمون الحق وهم
يعلمون » . أي أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة والحق من الله
فهل يستطيع هؤلاء كتمانهم ؟ طبعاً لا ، لا بد أن يظهر . . فإذا انتشر الكذب والباطل
فهو كالآل الذي يحدث في الحسد . . اناس نكرو الألم ولكن الألم من جنود الشقاء
لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئاً أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هي التي لا يصابها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات
وقت العلاج . . والحق دائماً غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حجتين . أما
الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل . وبين حق وباطل . لأنه لا يوجد إلا حق واحد
أما الباطل فكثير . .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهي بهزيمة الباطل بسرعة . . ولكن الذي يطول هو
معركة بين باطلين . . ولذلك فإن معارك لعصر الحديث تطول وتعب الدنيا
فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلاً لارالت أثرها ممتدة حتى الآن في الحرب الباردة
وغير ذلك من الحروب الصغيرة . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)^(١)

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾

الحق من الله سبحانه وتعالى . وما دام من الله فلا تكون من الذين يشكون في
أن الحق سيتصر . ولكن الحق لابد من قوة تحميه . وكما يقول الشاعر

السيف إن يزعم بجبره

ليس يملك إلا أن يذل

هي فائقة أن يكون معك سيف نثار . . دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب
به . وبحر غالباً تكون مصير للحق لأنها لا توفر له القوة التي يتصر بها

وقوله تعالى « فلا تكون من المستكبرين » المسمى هو الذي يشك في حدوث
الشيء . والشك معناه أنه ليست هناك قوة تتعل على قوة . أي أن الاحتمالين
متساويين . . ولكن الحق من الله ولا توجد قوة تقابله . ولذلك لا يجب أن نشك
ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق .



﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيًّا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً . ومن هنا فإن له الاختيار أن يؤمن أو لا يؤمن . . أن ينصر الحق أو ينصر الباطل . . أن يفعل الخير أو يفعل الشر . . كل هذه اختبارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد إن هذا الاختيار موحود في الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهي ساعة الاختصار بعد مواجهة الموت وهابة العمر يصبح الإنسان مقهوراً وليس مختاراً . فهو لا يملك شيئاً لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت لأن . . انتهت بشرته وسيهرته عن نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه . ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان . . هذا يختار لطاعة وهذا يختار المعصية ، فهذا للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر . . والذي يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها . . لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حصة أصابها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيهلك من الله . لأنه كما يقول عز وجل : « أياها تكونوا يأت بكم الله جميعاً » . أي أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى بل هو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً وسيأت بكم جميعاً مصداقاً لقوله تعالى .

﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ تُرَى الْأَرْضُ بَارِزَةً وَحَشَرَتْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أُخْداً﴾ (١٥٠)

(سورة الكهف)

وقوله سبحانه :

﴿ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٥ ﴾

(سورة النذيرت)

أى أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أن لا نستطيع أن نفكر من علمه .
ولا من قدره ولا من علمه . وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى
الله . . . وأنه لا منجاة من الله إلا إليه . ولذلك لا يقن كافر أو عاص أنه سيخلص
من الله . . . ولا يقن أنه لن يكون موحوداً يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع
أن يحصى .

إن مرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله وأنهم لن
يلاقوه . . . تفنون لهم إنكم ستفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق واللجنة
حق والنار حق . ستعاجلون بما سيحدث لكم . . . ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير
سيلقى العذاب الأليم . إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن يسارع في الخيرات
لنسجوا من عذابه ، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من ذرات جسده من
الوقوف بين يدي الله للحساب . ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : « إن
الله على كل شيء قدير » . أى أن الله سبحانه وتعالى لا يمحوه شيء ولا يخرج عن
طاعته شيء . . . إنه سبحانه على كل شيء قدير .



﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوِّلْ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١١٩

لا بد أن تتأمل كم مره أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة . . أكدها ثلاث مرات متتالية . لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في عوالم المؤمنين . . ولحق سبحانه وتعالى يريد أن يذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيداً إيمانياً .

نقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع . واحدة للمتمجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد . والثانية للمتمجه وهو خارج المسجد . . والثالثة للمتمجه من الجهات جميعاً .

قوله تعالى . « ومن حيث خرجت قول وجهك شطر المسجد الحرام » . . هو رد على المفاقيس واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام . . بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة . . على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها ريادة في التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن . . فالجهد الذي يبذله المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذي يبذله في الاتجاه إلى البيت الحرام . . فأنت إذا اتجهت في صلاتك فيما لو شمالاً أو شرقاً أو غرباً فإن ذلك لا يصيب إليك مشقة، فما هو سبب التغيير؟ .

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك في تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلياً أن بطيع طاعة إيمانية . . يقول المولى جل جلاله : « وإنه للحق من ربي وما الله بعاقل عما تعملون » . . أي آل ما فعلتموه من لتحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى . والله عروجن ليس غافلاً عن عملكم بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام . بل الله يعلم ما تبصرون وما تكتمون . . فاطمئنوا انكم على الحق وولوا وجودكم تجاه المسجد الحرام . . واعلموا أن الله سبحانه يحيط بكم في كل ما تعملون

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوِّلْ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِنَتْلَا بِكَ
لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا
تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام . سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة أو في أي مكان على الأرض . وتلك هي قبتهم في كل صلاة بصرف لطر عن المكان الذي يصون في

وقوله تعالى . « لئلا يكون للناس عليكم حجة » . الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى . . حجة في ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فأنجبوا إلى المسجد الحرام . . وليس لبيت المقدس قدسية في ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية في ذاته كما قلنا . . ولكن نحن نطيع الأمر من الأمر الأعلى وهو الله . إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا . فمن هو الظالم ؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهه . أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق . والظلم هو تجاوز الحد وكأنه . سبحانه وصممهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه : « ولا تحشروهم » أي لا تحشوا الذين ظلموا : « والخشونى ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » . أي أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يحشى بشراً . لأنه يعلم أن القوة لله جميعاً . ولذلك فإنه يقدم كل عمل بقلب لا يحاب أحداً إلا الحق .

وقوله سبحانه : « ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » . تمام النعمة هو

الإيمان وتام النعمة هو تسيّد مطلوبات الإيمان . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمة علينا . ولكن يكون الإيمان صحيحاً ومقبولاً فلا بد أن أؤدي مطالبه والمداومة على تسيّد تكليفات الله لنا ، فلا يجعل لتكليف ينقطع . لأن التكليف نعمة بحريها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على مسجع الله نعتق . . وأنت حينما تأتي إلى المهج قد يكون شاقاً ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة وإنك ستخشع وتعتق التكليف . . لأنك تعرف الحسن الصالح مثابه والعمل في المعصية بعقابه . ولذلك قال الله تبارك وتعالى

﴿وَأَسْبِغُوا بِالْصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّمَا كَثِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاسِقِينَ ۖ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَهُمْ مَلْفُوفًا رِيًّا وَأَمَّهُمْ إِلَهُ رَجُومٌ ۝﴾

(سورة البقرة)

إذن الخبشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشتقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذي يذهب إلى المعصية عزّل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . فمن نعم النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نَفْسِي وَرَضْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(سورة المائدة ٣ الآية ٣)

وكان ذلك إخباراً بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . ولكن الذين يستغلون التكليف تجهدهم يقولون لك لقد عم الصناد والله لا يكف نفساً إلا وسعها . كأنه يحكم بأن هداي وسعته وهذا ليس في وسعه وعن صوره يأخذ التكليف . . نقول له أكف الله أم لم يكف ، إن كان قد كلف فيكون التكليف في وسعته . . لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر بالتخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإطراف في رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حلد ما في وسعك .

قوله تعالى « ولعلكم تهتدون » .. اهداية هي الطريق للمستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة . الله أعمدك في الدنيا الأسباب لتحكم حركة حيائك ولكن هذه ليست غاية الحياة . بل الغاية أن يذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هي عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى . . والله جل جلاله بأن يعلمنا في الآخرة أنه حققنا لنعيش في الدنيا بالأسباب وفي الآخرة لنعيش في كنهه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى . « ولعلكم تهتدون » . أي لعلكم تسهون وتعرفون الغاية المصلوبة منكم . ولا يظن أحدكم أن الحياة لدنيا هي الغاية أو هي النهاية أو هي الهدف . . فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . نقول لا ، إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة ولعرف أن نعيم الآخرة اندي لا نفوته ولا يموتك . يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب في الحياة .



﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ
آيَاتِنَا وَزُرِّيَّاتِكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٥١

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه وإلى طريقه حدثنا عن
نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو
الذي ستأتي عن يديه قمة العلم وهو القرآن والدين الخاتم

قوله تعالى : « رسولاً منكم » أي ليس من جنس آخر ولكنه من الله عليه وسلم
رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتي بالحجة . . لماذا ؟ لأنه
معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يريد الإنسان راحة وعلاوا
واحتراما . إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين
يعرفونه أكثر من غيرهم . كابي بكر الصديق وروجه صلى الله عليه وسلم السينة
خطيئة واس عمه علي بن أبي طالب . هؤلاء أمواتون أن يطلبوا ذليلاً لأهم أئمة
الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قل أن يكلف بالرسالة . . هم
لم يعرفوا عنه كذبا قط فقالوا إن الذي لا يكذب عن الناس لا يمكن أن يكذب عن
الله فآمنوا . والله سبحانه وتعالى من رحمه أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه
ربه . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا يَفْتَحُونَ غُرُوبَكُمْ يَأْتِيكُمْ فِي زُفَى
رَحِيمٌ ﴾ ١٥٢

الحق سبحانه يقول : « يتلو عليكم آياتنا ويريكم » .. الآيات هي القرآن الكريم والتركبة هي التظهر ولا بد أن يكون هناك نفس ليظهرهم منه . فظهرهم من عبادة الأصنام ومن واد لبنات والخمر والميسر والربا .. ومعنى التركبة أيضا سلب الضار فكأنه جاءهم بالجمع وسلب عنهم الضرر .

وقوله تعالى : « ويعلمكم الكتاب والحكمة » الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم والحكمة هي وضع الشيء في موضعه .. والكتاب يعطيك التكليف إما أن يأمرك بشيء وإما أن ينهاك عن شيء .

إذن فهي دائرة بين الفعل والترك .. والحكمة أن تفعل الفعل الذي يحقق لك حيرا ويمنع عنك الشر . وهي مأخوذة من الحكمة أو الحديسة التي توضع في قم الحواد لتحكم حركته في السير والوقوف ، وتصيح كل حركة تؤدي العرض منها والحكمة أيضا هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَذِّنْ مَا بَيْنَ يَدَيْ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الاحزاب)

وقوله سبحانه : « ويعلمكم » لم تكونوا تعلمون ، لأنكم أمة أمية . فإن بهرتكم الدنيا بمحاضرتها مستبهرتهم بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم . فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض لذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما عمر لولا الإسلام .



﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [١٨٢]

قوله تعالى . « فادكروني » أى كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . .
أن تعيشوا دائماً في ذكر من أنعم عليكم . . والله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر
وهم كلها ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وراحمهم . . والله سبحانه وتعالى يقول في
حديث قديمي .

[أنا عند حسن ظن عبيدي بى وأنا معه إذا ذكرني ، وإن ذكرني في نفسي ذكرته في
معي ، وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه ، وأن تقرب إلى بشير تقربت إليه
بدرعا وإن تقرب إلى دراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني بغي أتته هرولة] (١)

هذه هي رعة الكريم في أن يعطى بشرط أن نكون أهلاً للمعطاء لأنه يريد أن يعطيك
أكثر وأكثر . . فقوله تعالى : « اذكروني » أى اذكروا الله في كل شيء . في نعمه . في
عطائه . في ستره . في رحمته . في توفيقه . يقول بعض الصالحين : سمعت فيس سمع عن
حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء قسمه ثلاثاً .
أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وأبدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله
ويعد الانتهاء منه قل الحمد لله . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختتمها بقولك
الحمد لله . فعادم هذا الماء في جوفك فلن تحدثك درة من حسنك بمصية الله . جربها يوماً
في نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمد لله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد
استقبلت النعمة بذكر النعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأنهت النعمة بحمد
الله . ولكن لماذا الماء ؟ لأن الماء في الجوف أوسع من أى شيء آخر .

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه واحد في مسند ألفاظ مختلفة

قوله تعالى : « واشكروا لي ولا تكفرون » لشكر عن النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يريدك منها واقراً قوله تبارك وتعالى :

﴿لَنْ شَكْرُكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة الزمر)

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تعتكك الأسباب وتقول لموتينه على علم مني . « ولا تكفرون » أي لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائماً على أنفسكم . . فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت يقولك « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » لا ترى في النعمة مكروها أبداً لأنك حصنت النعمة بسياج الميم . أعطيت الله حقه في نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدتها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله . على تكليفاته ومبججه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الخرج من أى شىء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامى الناس فى العلة .

فمثلا سئل الإمام على رضى الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه ؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكانه ليس مطلوباً منك فقط ألا تؤذى جارك بل تصبر على أذاه . والصبر هو لذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله مبعك من أشياء هى من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه بحاجة إلى الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبداً ستأخذ به بعد حاجة يقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إني أسألك ألا تكلني إلى نفسي فإنى أحتشى يارب ألا تثيبني على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . أنظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محبة إلى النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الأذان :

(أرحنا بها يا بلال) .

. ولم يقل كما يقول بعض الناس والعياذ بالله أرحنا منها ؛ ذلك أن هناك من يقول

لك: أن الصلاة تكون على كنفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها . لأنك وقفت بين يدي الله المكعب ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكأن أمر شاق يصبح سهلا .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتي ولكن أواجهه بربوبية فلارتاح لأنه رب ورب العالمين . . الذي له أب يعينه لا يحملهما فإنا لله الذي له رب يعينه وينصره

قول الحق سبحانه . « إن الله مع الصابرين » أى أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية الله ، فأنت لو واجهت المشكلات في معية من تتق في قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت في معية الله وكل شيء في الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن لأحداث لا تملأ الخلق بالفرح والطمع إلا ساعة الانتقالات من حضارة ربهم . . وإنما من يعيش في حضارة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خاس . . ما معنى خاس ؟ إذا سهوت عن الله اجتراً عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف فهو لا قوة له . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى في معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

﴿ قَالَ قَبِرْتُكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٧ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٨﴾

(سورة ص)

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلا بد أن نعشق الصبر . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟ يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي :

[يا ابن آدم مرضت فلم تعلف قال : يارب وكيف أعوزك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبيدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده] (١) ؟ يقول بعض الصالحين : اللهم إني أستحي أن أسألك الشفاء والعافية

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

حتى لا يكون ذلك زهدا في معيى لك . . إذن لابد أن نعتشق الصبر لأنه يجعلنا دائما
في معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله مع الصابرين » . . ونحن نريد أن يكون الله
سبحانه معنا دائما . . إن هذه الآية لا تجعل الإنسان يئس مهما لقي في حركة حياته
من المشقة .



﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة . . لا تهددهم في أموالهم فقط ولكن تهددهم في نفوسهم ، فلما أراد الله عز وجل أن يعطي المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث . . وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزمهم بعنف . . قال لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل . . إلى الاستشهاد في سبيل الله. وأراد أن يعلمهم بأن الشهادة هي أعلى مرتبة لإيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها في الدنيا فقال سبحانه : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات » .

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان . . فأنت تصاب في مالك أو في وللك أو في رزقك أو في صحتك ، أما أن تصاب في نفسك فتقتل فهذه هي المصيبة الكبرى . . والله سبحانه وتعالى سَمَّى الموت مصيبة واقرا قوله تعالى :

﴿إِنْ أَنْتُمْ حَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة البقرة)

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يقتل في سبيل الله لا يموت . . وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى يقول جل جلاله : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

ما هو مظهر الحياة التي يعيشونها ؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذي قتل في سبيل الله ما هي حركته ؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة .. لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى خير مما هو فيه .. فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئاً وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها .. أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمي لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة .

إن كل الممارك التي يستشهد فيها المؤمنون إنما هي سلسلة متصلة للحياة حركة الإيمان في الوجود .. وعظمة الحياة ليست في أن التحرك أما ولكن أن أجعل من بعدى يتحرك .. والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره في الوجود لكل حركة من متحرك بعده .. فكل حركة للحياة الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمان دافعا لتقاتل وتستشهد فكان الحركة متصلة والعملية متصلة .. أما الكافر فإن الحياة تنتهي عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينها يبعث الله الناس جميعا ثم يأتي بالموت فيموت .. وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما في الجنة وإما في النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل في سبيل الله هو حي عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة .. ولا يكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا .. ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة .. وهي غيب عنا قال تبارك وتعالى : « ولكن لا تشعرون » .. وما دعونا لا نشعر بها فلا بد أن نكون حياة أعمل من حياتنا الدنيوية .

الذي استشهد في عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه في عرف الله أخذ حياة جديدة .. ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمامنا .. لا بد أن تشبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال : « أحياء عند ربهم » ولم يقل أحياء في عالم الشهادة .. فهو حي مادام في عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تحده جسدا في قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .. أما كيف ؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف .. لذلك لن نعرف وليس مطلوبنا منك أن نعرف .

إننا حين نجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكي يفقد الوعي والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجري العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم .

فالمادة لا تحس لأنها هي التي أجريت عليها العملية والجسد لا زال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس .. ولكن النفس الواعية التي غابت هي التي تحس بالألم .

أنت عندما يكون هناك ألم في جسدك وتنام يتقطع الإحساس بالألم فكان الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعي .. فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قواهته مختلفة .. والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات .. فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « إنهم أحياء عند ربهم » .. فلا بد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده .. والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فَبَرِّئُكَ أَلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فكان الحق جل جلاله يعطي الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا في سبيله .. وما دام تعالى قال : « لا تشعرون » فلا تحاول أن تتركها بشعورك وحسك لأنك لن تتركها على أن الشهيد لا بد أن يقتل في سبيل الله وليس لأي غرض دنيوي .. وإنما لتكون كلمة الله هي العليا .

